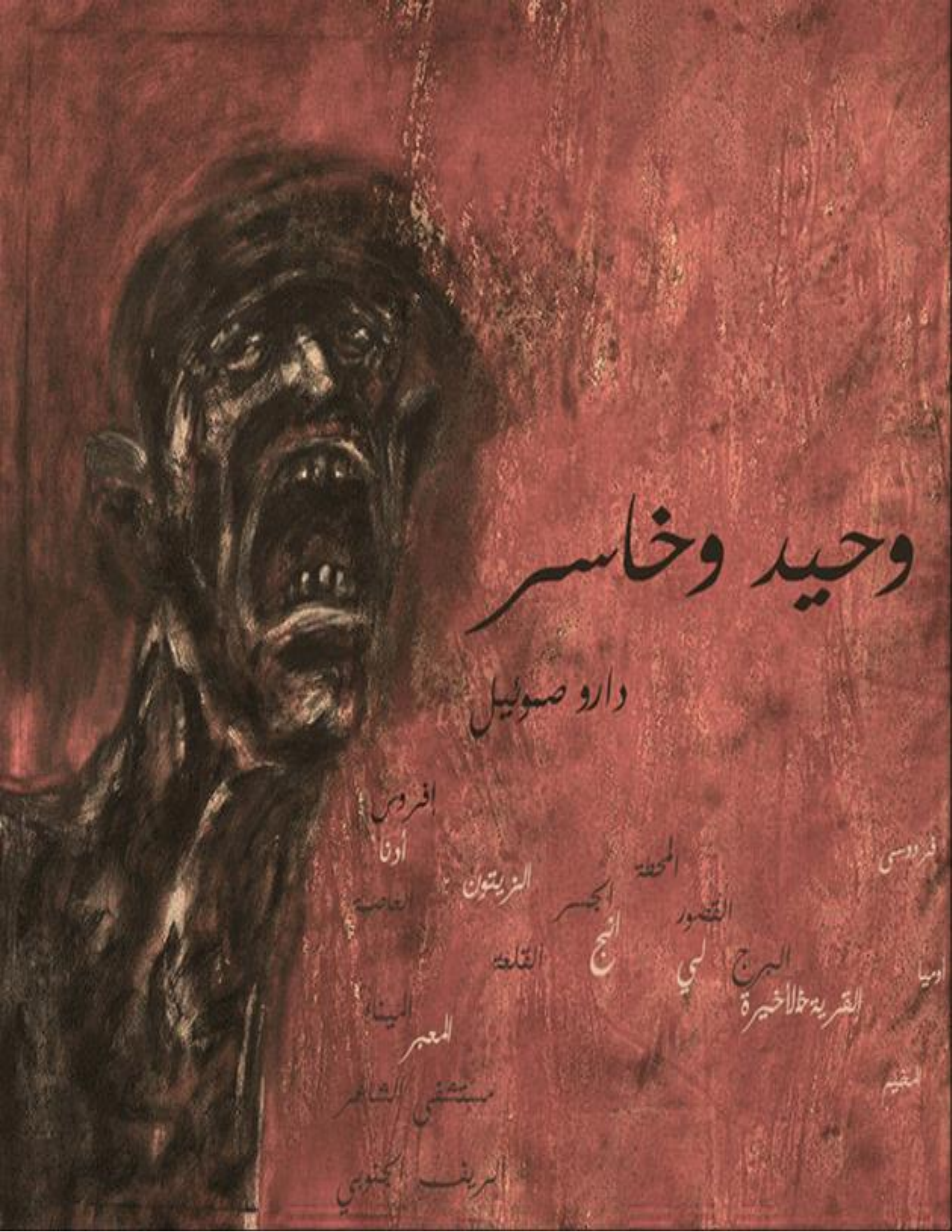

وحيد وخاسر
دارو صويليل
أونا
الزيتون
فردوسي
الجسر
لي
البرج
القلعة
المعبر
الريف الجنوبي

وحيد وخاسر
(رواية)

دارو صموئيل

دار نور الكتب للطباعة والنشر
الطبعة الأولى 2024
الغلاف لوحة الفنان عرفان حمدي
رقم الإيداع 24/11935
الرقم الدولي ردمك 0-04-8869-977-978

إلى رفيقة الوحدة والألم والشقاء والبؤس
إلى قطتي سالي أهدي هذا الكتاب

عشتُ
رأيتُ
كتبتُ

الفهرس

بين البنادق والخرائب

أحكمت قبضاتهم الخشنة على أخمصها الخشبي العتيق أما الفوهات فقد كانت مثبتة وبقوة على أرضية الحافلة، لم يكن في هذه البقعة النائية سوى خمسة وعشرين مقاتلاً وحافلة متهالكة، فالطريق المعبد والذي من المفترض أن يكون عريضاً، أصبح أضيق من ذي قبل، زحفت الرمال إليه وابتلعت جانبيه، لتملأ تلك التشققات والحفر التي تنتشر عليها، ارتفع هدير الحافلة العجوز، فأطلقت دخاناً أسوداً كثيفاً، انتبه له بعضاً ممن يجلس إلى جانب الشباك الأيمن للحظات ومن ثم عادت عيونهم لتراقب بكسل ذلك الطريق الذي بدا لا نهاية له، ليس من السهل وصف هذه الكتلة المتحركة من الخردة، لعل أول ما يلاحظ فيها تلك اللوحة المعدنية الفضية الصغيرة المثبتة أعلى الزجاج الأمامي، وقد خط عليها بخط يد غير متقن: " يمنع التكلم مع السائق " ! لم يكن هناك منطقي لوضع تلك اللوحة، عموماً كان من النادر أن تجد من يجيد القراءة حتى يقرأها ومن ثم يخبر السائق عن سبب وجودها!

على يمين السائق صندوق أسود كبير بشكل غريب! مغطى بجلدٍ اسودٍ، يتوسطه ذراع فضية طويلة عليها كرة سوداء مخصصة لتغيير السرعات، لعل أول استخدام لهذه الأداة كانت بعد انطلاقنا من معسكر التجنيد بربع ساعة تقريباً، فحينما خرجنا من المدينة وأصبحنا على الطريق " السريع " حرك السائق تلك الذراع في اتجاهات عديدة، فخرج على إثرها صوت قرقعة من الصندوق الأسود تبعه القليل من دخان له رائحة زيت محروق سرعان ما انتشر في الداخل. كان صوت القرقعة مرتفعاً ولا يدعو للاطمئنان، حتى أن الجميع تقريباً قد مالوا بنظرهم نحو مصدر الصوت، بل أن المقاتل صاحب الأسمال البالية الذي يجلس في المقعد الذي يقع خلف السائق مباشرة قد أفزعه الصوت، ألقى نظرة إلى الخلف بعيون مذعورة ليرى ردة فعل البقية، ليجد نفسه الخائف الوحيد، عاد وعدل في هيئة جلوسه بينما علامات عدم الاطمئنان كانت ظاهرة عليه، لقد أصبح أكثر انتباهاً من ذي قبل وجاهز لأي طارئ، تفحص باب الحافلة الأمامي ومن ثم الخلفي المخصص للنزول ليتأكد من جاهزيتهم والسبيل في الوصول إلى أي واحدة في الوقت المناسب، أما المقاتل الذي يجلس إلى جانبي فهو شاب قد تجاوز الثلاثين من العمر، اسمر زاده العرق لمعاناً، له شارب رفيع للغاية وشعر أسود مجعد، كانت عيونه تشع حيوية، ينقل نظره ما بين الشباك الذي على يميني والزجاج الأمامي للحافلة بصمت مطبق تماماً كبقية المقاتلين لكن الملفت أنه بملابس نظيفة وبندقية مختلفة عن تلك التي بين أيدينا .

حرك السائق ذراع السرعة فتغير معها ذلك الصوت الرتيب إلى أخر أقل حدة أخذت معها الحافلة بالتباطؤ لنصبح داخل إحدى القرى المهجورة، سوَت المعركة الأخيرة بيوتها بالأرض تماماً، أصبحت سقوفها بمستوى الأرض، ومن حولها ركامٌ من حجارة وخردة كانت في السابق أبواب ونوافذ، لم نجد أي إنسان أو معلم للحياة أثناء مرورنا في شوارعها، كانت بيوت وسط القرية أفضل حالاً، فالعديد منها سليمة تقريباً سوى من ثقوب تملأ جدرانها الخارجية وهي تختلف في الكمية من بيت إلى أخر، أما مدرسة القرية وإذا ما افترضنا أن نسمي ثلاث غرف من الطين وساحة صغيرة بالمدرسة . فقد غطت الأصباغ السوداء والزرقاء جدرانها المثقوبة بكثافة، لتمحو كتابات ورسومات لم تعد تظهر أياً من تفاصيلها. هدر ذلك الصندوق الأسود مجدداً، بدت الحافلة وكأنها

تلتهم الطريق والشمس على وشك المغيب، وفيما يحرك السائق المقود يميناً ويساراً، لفت انتباهه شيء ما فأخذ ينظر من خلال المرآة المثبتة أعلى الزجاج الأمامي يراقب شيء ما في الداخل باهتمام، وبعد متابعة قصيرة قال السائق بصوت أجش:

- أنت الذي تجلس في المقعد الثالث، صاحب الشعر الطويل هل تسمعني؟، بهذه الكلمات كسر السائق ذلك الصمت الطويل، موجهاً كلامه إلى ذلك المقاتل، رافعاً من صوته ليتغلب على صخب المحرك، أشاح المقاتل نظره عن الشباك ونظر إلى عين السائق من خلال تلك المرآة، وقال بصوت لا يقل خشونة عن صوت السائق:

- ماذا هناك؟ ماذا تريد؟

- كيف تمسك البندقية! انظر إلى من حولك وافعل مثلهم.

تجاهل كلام السائق وكأنه لم يسمع شيئاً، هز السائق رأسه متأسفاً، غير أنه أبقى ذلك المقاتل تحت المراقبة والذي بدوره أصبح أكثر حركة من قبل، ارتفع صوت السائق مجدداً لكنه كان ممزوجاً بالغضب هذه المرة:

- يا إلهي إنه يعبث بسيخ التنظيف! ... هل هذا تحدي يا ولد!

خرج المقاتل عن طوره وقال بصوت أعلى وأقوى من ذي قبل:

- لا تقل يا ولد فأنا أمسك البندقية وأحرك – لم يقل أعبث – السيخ بالشكل الذي أراه "، ليسكت بعدها، اكتفى بتصعيد اللهجة دون أن يقحم كلمات قاسية أو مستفزة في كلامه، فقد أبقاها للجولة التالية في حال حدوثها.

- اسمعني أيها الزميل الجديد، قد أضطر في أي لحظة أن أضغط على المكابح إذا ما اعترضني كلب أو أي حيوان أخر خلال الليل، أتعلم ماذا سيحصل حينها؟ لا أعتقد أنك تعرف، لهذا سأخبرك، ستدخل فوهة البندقية في بطنك وتستقر فيها. ثم هز السائق رأسه وهو يرسم على وجهه ابتسامة ساخرة، قال وهو يحرك المقود بعنف متجنباً حفرة كبيرة في الطريق:

- سيأتي ذلك اليوم ... كل درس بقطعة من جسدك.

سرعان ما حل الليل، لف الظلام الحافلة حتى غابت عنا مشاهد الدمار والصحراء، نظرت إلى المقاتل صاحب الشعر الطويل، ذلك القروي شرس الطباع، فوجدته ما يزال يحمل البندقية بالطريقة التي يراها مناسبة، أما زميله الذي بجانبه فقد غطَ في نوم عميق، كذلك الحال مع أغلب المقاتلين، يبدو أن أكثرهم لم يسافر لمسافات طويلة كهذه من قبل، جُل هذه الوجوه البائسة تم إلقاء القبض عليها بعد كمائن شاقة وطويلة في أماكن نائية وقصية من الريف، أخرج المقاتل الذي يجلس بجانبي صوت أقرب للهمهمة، نقلت نظري إليه بعدما كنت أمعن النظر في مقاتل أخر بدا مهموماً للغاية، فأشار بسبابة يده اليمنى إلى الشباك يدعوني إلى النظر لشيء ما، فاتجهت إلى

حيث أشار، وإذ بأضواء بيضاء قوية وكثيفة مجتمعة في مكان واحد غير أن تفاصيل ذلك المكان لم يكن يظهر من تلك المسافة , لم يكن علينا سوى الانتظار قليلاً حتى نمر بمحاذاته، وفيما أحملق في ذلك الشيء قلت في نفسي قد يكون المكان قرية أو بلدة ما صغيرة، لكن لماذا هم وسط هذه الصحراء! ناهيك أن هذا المكان مهدد بأي لحظة بأن يصبح مسرحاً للجولة المقبلة من المعارك!

بدأ تفاصيل المكان في الظهور، قباب مثلثة بيضاء تنتشر حولها أعمدة إنارة بأضواء بيضاء قوية، سياج من الشبك يلف حول المكان وثلاثة أبراج حراسة ترتفع على أطرافه، اتجهت أنظار المستيقظين من المقاتلين إليه وهي تعاينه، دون أن تترك أي انطباع على وجوههم، ظلوا صامتين لا مبالين. تنحنح الذي بجانبي، أسند أخمص بندقيته على فخذه الأيمن وصلب ذرعاه وقال:

- يا لنا من طيبين ومساكين.

بدأ يتكلم بصوت منخفض وهو ينظر إلى مخيم للاجئين، فلفح طرف وجهي الأيسر هواء فمه الساخن، رائحة كريهة للغاية، كيف لا وهذا الفم مغلق منذ عدة ساعات، اختلطت تلك الرائحة مع رائحة مقاعد الحافلة الجلدية، وحرارة المكان بدا مزيجاً لا يحتمل، انتابني شعور بالتقيؤ، قلت في نفسي لابد أني سأملأ حولي في أي لحظة، عاينت زوايا الشباك فوجدته محكم الإغلاق ولا مجال لفتحه، أيضاً لم أكن أحمل معي أي كيس، لهذا ضبطت نفسي قدر المستطاع حتى لا ألوث نفسي وحولي وأملأ المكان رائحة غير مستحبة إطلاقاً، جاءت الموجة الثانية من الرائحة:

- لا أعلم سبب احتواء هؤلاء في المخيم، بل هناك من يكرس وقته لخدمتهم في الليل والنهار ... توفير علف وماء لأهالي المجرمين!

استنشقت الهواء من فمي واستخرجته من انفي، متجنباً بذلك رائحة فمه، فقد وصلت إلى حدٍ لم أستطع معه تحمل ذلك، أصبحت أشعر بغليانٍ في معدتي، ثم أضاف:

- أفضل خدمة يمكن أن تقدم لهم ... هي أن نمرر السكاكين على رقابهم، من الوريد إلى الوريد. ثم صمت.

أفضى ما في جعبته من كلام، يبدو أنه شعر بنوع من الراحة بعد كلامه هذا، فعاد إلى سابق وضعه وأمسك أخمص البندقية بيديه.

لم يضف أياً من بقية المقاتلين شيئاً على كلامه بقوا صامتين لا مبالين، شعرت بحاجة ماسة إلى استنشاف هواء بارد، فالوضع في الداخل بات لا يطاق، سألت السائق:

- أيها الزميل السائق، هل لنا باستراحة قصيرة؟

- ليتك لم تسأل. أجاب السائق بعد عدة دقائق من سؤالي وأكمل:

- هل أنت على عجلة من أمرك؟
- أريد أن أتبول.
- لقد اقتربنا من المعسكر، أيضاً يمنع التوقف ليلاً.. لسنا في رحلة مدرسية.

لم يكن السائق يكذب، بعد أقل من ساعة لاحت ثلاثة أضواء بيضاء ساطعة من بعيد، لابد أن يكون المعسكر، فمن يمكنه العيش في مكان قصي كهذا غير اللاجئ أو الجندي؟ وعندما أصبحت أضواء المعسكر أقوى، قال المقاتل الأسمر الذي بجانبي:

- وصلنا يا زميل، هناك ستتبول كما تشاء.. أربعة مراحيض، ثلاثة منها قديمة وواحدة من الطراز الحديث مصنفة من فئة خمسة نجوم، فهي حديثة البناء وبلا سقف وما الحاجة إلى السقف أصلاً!

أومأت برأسي موافقاً على كلامه لكن دون أن أحرك وجهي من النافذة، فلا أريد مزيد من الروائح، قد وصلت إلى مرحلة ربما أفقد فيها السيطرة على نفسي وأملأ المكان قيئاً أصفراً كوني لم أكل شيئاً منذ البارحة، خففت الحافلة من سرعتها إلى أن توقفت إلى جانب غرفة حراسة قديمة وصغيرة الحجم وإلى جانبها تحصين مبني من أكياس الرمل، ضغط السائق على إحدى الأزرار فَفُتح معه جزء من الباب الأمامي، أخذ مقاتل بدين في العقد الخامس من العمر في تحريك الباب بعنف مصدراً بذلك صوتاً قوياً ليصعد بعدها إلى الداخل وهو يتفوه بغضب كلمات غير مفهومة، تناول ورقة أعطاه إياها السائق، أضاءها بمصباح يدوي ملقياً نظرة سريعة عليها ثم أعادها ونزل ببطء من الحافلة، وعندما تأكد السائق من نزوله أغلق الباب .

أكملت الحافلة طريقها إلى داخل المعسكر مروراً بساحة ترابية واسعة أخذت تهتز معها وهي تثير الغبار من خلفها إلى أن توقفت أمام برج يتوسط المعسكر. ارتعشت الحافلة عدة رعشات قبل أن يعم الهدوء المكان، نظر البعض حوله مستكشفاً المكان والأخر انشغل بإيقاظ النيام، رفع المقاتل الذي يجلس بجانبي بندقيته نحو الأعلى ونهض متجهاً نحو الباب الأمامي ليفتحه، غير أن باب هذه الحافلة العجوز بدا عنيداً، فاستعصى عليه أول الأمر، نظر حوله بنوع من الحيرة، اسند البندقية إلى جانب الصندوق الكبير ثم عاد وسحب الباب بحركة عنيفة نحو الداخل، فأصدر صوتاً قوياً، وفيما يحمل البندقية من مكانها نادى بصوتٍ آمر:

- بانتظام أيها الزملاء وبدون أي فوضى ... واحد واحد وبدون صوت ... هيا انزلوا.

نزل الجميع بتثاقل، منهكين من تعب الطريق، تولى المقاتل المرافق لنا صاحب نظرية السكاكين، صفنا في رتل أحادي أمام برج يتوسط المعسكر، عكس ضوءٌ أصفر مثبتٌ أسفل البرج خمس وعشرين ظلاً متفاوت الطول، أضفى ذلك الضوء الشاحب المزيد من البؤس إلى تلك الأجسام

بأسمالها البالية، انتشرت فوهات البنادق على جانبي الرتل دون أي انتظام، فيما ظلَ القائد صامتاً وهو ينقل بصره بيننا، بدت تلك النظرات الممعنة تحمل علامات عدم الرضا عن تلك الأجسام المصطفة أمامه، غادرت الحافلة المعسكر، ارتفع خلفها الغبار عالياً حاجباً عنا القائد، الذي انتظر قليلاً إلى أن وضحت الرؤية واختفى صوت الحافلة، حينها اقترب منا وقال بصوت حازم:

- أهلاً وسهلاً بكم أيها الزملاء، المعسكر هو بمثابة بيتٍ ثانٍ لكم، كلكم إخوة فيه، الآن بإمكانكم أن تستريحوا ... اجلسوا في أماكنكم.

عاد لمكانه السابق وبصوت أقرب للهمس، تكلم مع المقاتل المرافق الذي كان يقف إلى جانبه، لينطلق بدوره مسرعاً نحو إحدى الغرف القريبة منا وبعد عدة دقائق عاد وهو يحمل صندوقاً صغير الحجم أبيض اللون، عليه صور قطع من الصابون بألوان مختلفة، قام بوضعه على الأرض إلى جانب القائد الذي أشار له بحركة من يده أن يفتحها، وفيما شرع بفتحه قال القائد:

- أدوات حادة – مسابح – أطواق – أو أي شيء معدني ... ضعوه هنا في الصندوق.

نهض أربعة شبان واتجهوا إلى الصندوق، تبعهم خامس كان يجلس أمامي مباشرة، لقد وضعوا بداخلها أشياء باتت ممنوعة، ومن ثم عادوا وجلسوا في أماكنهم، عندما عاد الخامس إلى مكانه السابق، قال بصوت منخفض متذمراً:

- بإمكاني أن أتفهم سبب مصادرة الأدوات الحادة، لكن ماذا عن المسابح! لا أستطيع أن أعيش بدون مسبحتي، يا إلهي كيف سأتحمل ذلك؟

ظل القائد ينتظر توافد المزيد من الأشياء الممنوعة إلى الصندوق، لكن أحداً لم ينهض، حينها قال محذراً:

- لا أحبذ التفتيش، ثقتي بكم كبيرة، لهذا لا تخفوا شيئاً هنا أوهناك، لإني إذا ما رأيت شيئاً ممنوعاً معكم ... حينها " سأغضب " من صاحبه كثيراً ومنكم أيضاً. وبعد صمت قصير راقب خلالها تأثير كلامه فينا عاد ليضيف:

- معكم نصف ساعة حتى تتصلوا بعائلاتكم، بعدها ستدخل الهواتف إلى هذا الصندوق ويغلق عليها حتى نهاية الدورة.

على الفور ُأخرجت الهواتف من الجيوب وبدأت الاتصالات، تداخلات الأصوات، مما حدا لعدد منهم بالقيام من أماكنهم والمشي بعيداً ليتمكن من سماع الطرف الأخر، أما القائد فقد اكتفى بالمشي على مقربة منا وكلتا يديه معقدتان خلف ظهره، بانتظار انتهاء مهلة الاتصال. لم أكن أحمل هاتفاً،

لقد نسيته في البيت لحظة إلقاء القبض علي، لهذا جلست أتصيد فرصة أن ينهي أحدهم اتصاله حتى أتمكن من الاتصال بأبي والذي لابد أن يكون قلقاً من غيابي الفجائي عن البيت، وهو خلال اليوم الأول سيشعر بغضب كبير وسيرتب أفكار المحاضرات التأديبية التي سيلقيها علي بل سينهض ويرتدي ثيابه ليبحث عني في الأماكن التي أتردد إليها، لكن حينما يمتد الغياب لأكثر من يوم، حينها سيدرك أن شيئاً ما خطير قد حصل فعلاً حينها سيجلس منتظراً اتصالا مني، وذلك قبل أن ينتقل للمرحلة ب حيث السؤال في الأماكن التي لا يحبذ أي أبٍ أن يجد ابنه فيه، لقد طالت مدة مكالماتهم وهذا متوقع، كونها المكالمة الأخيرة، تداخلت الأصوات من حولي:

- لا تنسِ أن تسقي البستان وإطعام العجل ... أيضاً أخبرٍ أخاك أن يصلح لنا سقف المطبخ قبل أن يحل الشتاء ...

- لا أعلم متى تنتهي هذه الدورة، سأشتاق لكم كثيراً ولأخي الصغير أكثر. هنا أصبح صوته ضعيفاً مع تلك الكلمات الأخيرة.

- سآتي لا تخافي، فالمسألة لن تتعدى الشهر.

هناك من ابتعد عن مكان الاجتماع ليتكلم بعيداً، وهم عادة من الفئة العاشقة أو ربما يتكلمون مع زوجاتهم في موضوع عائلي، ففي كلتا الحالتين يستوجب الأمر الابتعاد، فمن المعيب أن يسمع رجل غريب تلك الأحاديث، تناهى إلى سمعي عبارات توديع، وقفت لأحدد مكان الصوت، فلم أستطع إلى أن مشيت إلى الأمام قليلاً حيث عثرت عليه، لكن الشاب الذي يجلس أمامه أيضاً كان بدون هاتف وهو يكثر الالتفات إلى الخلف، كان مثلي ينتظر أن ينهي أحدهم مكالمته حتى يجري اتصالا من هاتفه، لهذا عاجلت صاحب الهاتف وأنا أشير إلى هاتفه بيدي ليعلم أني التالي .

- مع السلامة.. قريباً سنلتقي.. نعم .... نعم، إن شاء الله.

ما إن انقطع صوته، حتى قلت له:

- دقيقة واحدة لا أكثر ... قلت له ذلك دون أن أضيف المزيد من الكلام، فمهلة الاتصالات قد شارفت على الانتهاء تقريباً حتى أن القائد قد توقف عن المشي ووقف في مكانه السابق، أعطاني هاتفه الأبيض الصغير، وعلى الفور أخرجت " ورقة الطوارئ " من المحفظة وهي ورقة بيضاء صغيرة لها مكان دائم في المحفظة، تحتوي على رقم أبي، اتصلت به مباشرة:

- مرحباً، كيف حالك يا أبي.

- هذا أنت!!! أين أنت إلى الآن يا ... يا ولد؟

- في معسكر التدريب ... لقد ألقوا القبض عليَ وأنا في طريقي إلى السوق.

- هذه نتيجة من لا يسمع نصيحة والده، لقد أخبرتك ألا تخرج من البيت حتى نسافر إلى مدينة القلعة.

- نعم لقد أخطأت، لكن الندم لا ينفع الآن، على كلٍ سنسافر حينما أعود إلى البيت مع أول إجازة، كذلك سأتصل بك كلما سمحت لي الفرصة ... أما الآن إلى اللقاء.

- بانتظارك، كن حذراً ... مع السلامة.

سحب الشاب هاتفه من يدي وعلى الفور اتصل برقم أخر، يبدو أنه تذكر شيئاً ما! عدت إلى مكاني وأنا مرتاح البال، وبنوع من كرم الضيافة تغاضى القائد عن عشرة دقائق أخرى، حيث جعل نفسه يتكلم مع الزميل الذي بجانبه في كلام ضروري، إلى أن قطع ذلك بتصفيق معلناً انتهاء المهلة، اقترب من الصندوق وهو يقول:

- هيا أيها الزملاء، ضعوا الهواتف هنا.

توافد أصحابها بها إلى الصندوق، وما إن فرغوا من ذلك حتى بدأ القائد بإغلاقه، مستخدماً شريطاً لاصقاً أسوداً، وعندما تأكد أنه أغلقه بالشكل المطلوب حتى صاح بنا:

- قيام أيها الزملاء. فنهضنا مستعدين.

- اتبعوني حيث أذهب، إياكم وإصدار أي صوتٍ.

أضاء القائد بالمصباح الذي يحمله مدخل البرج، و دلف خلال تلك الفتحة التي من المفترض أن تكون مكاناً لباب المدخل، وبعد أقل من دقيقة طلب من الشاب الذي يقف في بداية الصف أن يتبعه، وبأقل من دقيقة خرج الشاب وهو يحمل في كلتا يديه كومة من الثياب العسكري المموه، تتابعت عمليات الدخول والخروج من ذلك المكان وفي كل مرة كنا نراقب تلك البذلات العسكرية والتي بدت أنها أسوء من بعضها، إلى أن حان دوري، عندما أصبحت في الداخل وجدت القائد يضيء بمصباحه اليدوي كومتين من الثياب العسكري ملقاة على الأرض، قال بغضب وهو يشير إليها:

- احمل بنطالاً وسترة ... بسرعة ... لا وقت للاختيار.

حملت على عجل بيدي اليسرى قطعة من كل كومة، أما اليمنى فكانت مشغولة بحمل البندقية.

في الخارج ألقيت نظرة سريعة على تلك الثياب، وقد بدت بقياس مناسب إلى حد ما، تعالت عدة أصوات مستاءة، مما حذا بالقائد الخروج من الداخل ناهراً من أخرج تلك الأصوات ومحذراً إياهم من الإخلال بالقوانين، ومذكراً إياهم بالكتمان منذ برهة.

انتظرنا إلى أن خرج الشاب الأخير، تبعه القائد معلناً انتهاء التوزيع، وبإشارة من يده اليمنى، تبعناه إلى حيث يمشي وإذا به يتجه إلى أول مهجع، والذي لم يكن يبعد عن البرج، سوى مئة متر تقريباً. وما أن أصبحنا أمام بابه حتى قسمنا إلى مجموعتين، الأولى من خمسة عشرة شخصاً وأنا واحد منهم، والثانية من عشرة، فإذا بالمهجع الأول من نصيبنا، أما الثاني الذي يقع بالقرب من الساتر الأخير للمعسكر فكان من نصيب المجموعة ذات العشرة، وقبل أن ندخل قال لنا:

- انزعوا مباشرة عنكم لباسكم المدني هذا، واستبدلوه بالبذلة العسكرية... لا يتأفف أحد منكم إذا ما كانت البذلة لا تناسب بدنه، فهذا المتوفر.

عاد القائد صوب البرج , فيما دخل كل واحد منا إلى المهجع الذي أشير له عليه، كنت أدرك مدى دقة هذه اللحظة فما أن دخلت حتى رميت البندقية على السرير السفلي الذي بجانب الباب، أي أن السرير بات تابعاً لي، وعلى الفور نزعت عني ما كنت أرتديه، عدا السروال الداخلي الفضي، بعدها ارتديت البنطال العسكري أولاً مستعيناً في تثبيته على الخاصرة حزاماً جلدياً ثم انتقلت إلى السترة، بدا الأمر معقولاً، دققت النظر في البنطال فوجدته خالياً من الثقوب أو الشقوق، وإن كان باهت اللون لطول خدمته تحت الشمس، حيث مال في معظمه للاصفرار، بعدما كانت ألوانه الأصلية موزعة بين الزيتوني والبني والأسود، أما السترة فلم تكن أفضل حالاً، وإن كانت واسعة للغاية، على العموم بدت البذلة لا بأس بها .

دخل القائد المهجع وهو يحمل بيده ثلاث بكرات خيوط، واحدة منها خضراء والبقية سوداء، بالإضافة إلى علبة سردين صفراء بداخلها مجموعة من إبر الحياكة، وضعها وسط المهجع على الأرض ثم قال وهو يخرج من المهجع:

- إليكم عدة التصليح، قد تكون ضرورية لبعضكم ... اهتموا بمظهركم الخارجي، فلا أريد أن أرى غداً في الاجتماع الصباحي شقوق و ثقوب.

وضعت البندقية أسفل الوسادة وأسندت ظهري إلى الحائط، فيما استمر الجميع في إصلاح بذلاتهم أو القيام بعمليات الاستبدال فيما بينهم.

- يا إلهي، البنطال واسع عليك! ما رأيك أن تستبدلها ببنطالي ... ها ؟ .

- دعني أجربه أولاً ومن ثم سأقرر.

نادى أحدهم مستاءاً " يا اخوان، أحدكم يساعدني في حياكة هذه الثقوب التي ملأت السترة ... ما هذا! واحد اثنان .... ثمانية !!! "

جلس رجل قد امتلأ شعره بالشيب على سرير يراقب بذلات الجميع، ثم قال معقباً:

- لابد للعدو أن يشفق أو يضحك لحظة المواجهة.

كان المهجع عبارة عن غرفة بطول عشرة أمتار، مبنية من الأحجار والإسمنت، لم تكن جدرانها البيضاء مستوية، إنما ذات تعرجات غير منتظمة، وقد اكتظت بكتابات وتواريخ بأحجام مختلفة، معظمها قد كتب باستخدام أقلام زرقاء أو رصاص، أما الأسرَة العسكرية ذات الطابقين فهي من بقايا الجيش السابق، لاحقاً أخبرني أحد المتطوعين أن هذا المعسكر كان في السابق عبارة نقطة استراحة لضباط الجيش السابق حيث رحلات الصيد!

أبعدت ظهري عن الحائط لأرى ما الذي قد كتب على تلك البقعة المطلة على سريري، لم يكن هناك سوى سبعة تواريخ وقصيدة حب، وهذه القصيدة مليئة بمعاني الشوق للحبيبة، وهي معبرة وإن كتبت بلغة ركيكة، يبدو إن كاتبها كان يحترق شوقاً لحبيبته فترة خدمته في هذا المعسكر، وهنا مقولة مكتوبة بقلم رصاص لونها أصبح باهتاً، لكن ذلك لم يكن مانعاً من قراءتها " لنستمر في هذا الدرب، لسنا أفضل حالاً ممن استشهدوا في سبيله " فكاتب هذا الكلمات إما زميل متحمس أو مجند يائس، على العموم يعود تاريخ هذه المقولة لثلاث سنوات مضت، حسبما ذكر كاتبها أسفل المقولة، يا ترى ما كان مصيره؟ أيضاً هنا كتابة أخرى بخط ناعم ومائل للأسفل، فجأة دخل زميلان متطوعان إلى المهجع، يحمل كل واحد منهم مجموعة من الجعب العسكرية الفارغة وصندوق يحتوي على مخازن للرصاص، وضعوا تلك الأشياء وسط المهجع ومن ثم خرجوا دون أي كلام، وعلى الفور التقطت جعبة و ثلاثة مخازن من الصندوق، واحدة بنية واثنتان سوداء، فالسرعة هنا ضرورية، وإلا قد خسرت الجيد من الأشياء، قلبت تلك المخازن وتأكدت من نوابضها، فهي في حالة جيدة ظاهرياً، لم يكن أياً منا يملك أي رصاصة، لهذا لم أتمكن من معرفة مدى صلاحية هذه المخازن و جاهزيتها، أما الجعبة فهي مطابقة لحد ما للون السترة، على الرغم من احتوائها على القليل الخدوش و ثلاثة ثقوب صغيرة، لكن هذا لن يؤثر كثيراً على جمال المظهر الذي ينشده القائد .

وضعت المخازن الفارغة داخلها ومن ثم وضعتها أسفل السرير، عدت لأقرأ ما خطته أقلام الزملاء على الجدران، استلقيت على السرير، مما أتاح لي المزيد من الرؤية، لفت نظري أعلى السرير المرتفع الذي على جانبي، فكون هذا السرير يقع في الطابق الثاني فقد أتاح لقاطنيه مساحة واسعة من الجدار يمتد من السرير حتى السقف، مما حولها ساحة لإظهار مواهب الرسم عند بعض الزملاء، أكبر تلك الرسومات صورة عقرب كبير بعض الشيء، به بعض التفاصيل في الرأس والمخالب أما بقية الأجزاء من الوسط والمؤخرة فهي تفتقر للدقة لسبب أو أخر، تناثرت من حول

الرسمة جمل و تواريخ و كلمات لم أتمكن قرأتها لبعدها عني ولضعف بصري، لكن لا شيء مميز هناك مجرد ذكريات وأشواق.

نادى أحدهم غاضباً: - أين جعبتي؟

- كذلك أنا " نادى شخص أخر.

- علينا أن نذهب إلى القائد الآن ونخبره عن ذلك.

- إياكم والخروج من المهجع، خاصة في ساعات الليل. قالها زميل متطوع دخل لتوه وهو يحمل دفاتر سوداء صغيرة وأقلام حبر أزرق، رمى تلك الأشياء أرضاً وأضاف قبل أن يخرج:

- غداً قبل الاجتماع الصباحي أخبروا القائد بذلك، ربما قد وجد لكم بعضاً منها ... ربما.

كنت ما أزال أشعر بتعب السفر وبقايا دواره، تعالت بعض الأصوات تطلب المساعدة لحياكة ما أصاب بذلاتهم وجعبهم من عطب، نقاشات بأصوات منخفضة، هناك من استسلم للنوم وكذلك أنا.

ما إن فتحت عيني حتى شعرت بانقباض في قلبي، رافقه ألم حاد في الطرف الأيسر من رأسي، نقلت نظري في المكان، لم أجد سوى شبك السرير الذي فوقي، ومن خلاله برزت فرشة نوم فضية، إلى جانبي وعلى الأرض شاب بدين نائم، يظهر أنه استصعب النوم في السرير العلوي، وأخر ينام في السرير الذي يحاذيني، وقد غطى أنفه وفمه بقميصه الأحمر متجنباً الروائح التي ملأت المهجع.

اختلط الصداع بالتعب والعطش، لم تكن فيَ رغبة في التحرك ولو لشرب الماء، انتابني شعور باليأس، كنت أدرك تماماً أين أنا، في أي مستوى من قعر المستنقع أتواجد، لكني سألت نفسي ألم يكن بمقدوري تجنب ذلك!

حدث ذلك في الخريف الثالث أو الثامن من الحرب، لم أعد أتذكر متى جرى ذلك بالضبط، في صباح إحدى الأيام وفيما أقصد إحدى دكاكين بيع الحقائب في السوق استعداداً للسفر، وإذا بجندي تابع للشرطة العسكرية كان يقف أمام مدخل إحدى العيادات، حاولت ألا أنظر إليه ثانية، تظاهرت تجاهله مبقياً عيني صوب نهاية الشارع، ناظراً إلى سيارة مركونة هناك وإلى جانبها شخصان يتكلمان في موضوع ما باهتمام، كنت مدركاً جيداً أنه فات الأوان، وما أن مررت بجانبه، متخطياً إياه دون أن أبدي أي اهتمام لوجوده، حتى جاء ذلك النداء الذي توقعته: " قف" .

فوقفت، زادت ضربات قلبي، بدأ عقلي يطرح الأسئلة ويفكر في الاحتمالات، غير أن كلمة " توقف" لها معناها في زمن الحرب، لم يكن هناك الكثير من الوقت للتفكير، حاولت السيطرة على نفسي، وحتى ألا أبدو متوتراً، نظرت في عينيه مباشرة، كانت له عينان حادتان , زادهما شراسة

ذلك الحاجب الكثيف، ملامح اللامبالي، المعدم من كل شيء الممتهن للحرب، بل ذلك النوع الذي يجد لذة في إفساد ما تبقى من حياة الأخرين، ظننت أن الشيب الذي أتى على نصف شعري مبكراً، قد يخدعه و يوحي له أن تجاوزت مرحلة الشباب، لكن تلك العيون باتت خبيرة في هذه الأمور، بادرني سائلاً:

- هل أديت الخدمة العسكرية الإلزامية؟

- نعم.

- أعطيني دفتر الخدمة لأتأكد من ذلك؟

- لا أحمله الآن، وما حاجتي به في السوق!

- لا تحمله؟ طيب ما هو رقمك العسكري؟

- ثمانية وعشرون ألف وستمئة وواحد.

- في أي وحدة خدمت؟

- فوج حماية المطار الصحراوي.

- تعال معي، قالها دون أن يفكر كثيراً.

وفيما أرافقه تذكرت أن الخطأ الوحيد الذي ارتكبته حينها أني أعطيته رقماً خماسياً، بينما أرقام الخدمة الإلزامية عادة ما تكون سباعية، لكن ما العمل الآن؟ سار بي عدة شوارع إلى أن توقف في إحداها إلى جانب عربة دفع رباعية بيضاء تقف على الجانب الأيمن من الشارع، ما إن وصلنا إليها حتى قال وهو يفتح باب العربة:

- سنتأكد في شعبة التجنيد من كل شيء ... من كل شيء.

أعاد الجملة الأخيرة بعد أن أصبحت في الداخل وهو يغلق الباب، نظرت إلى جانبي وإذا بشاب بشعر طويل يجلس وحيداً في الخلف، لم يلقي أي اهتمام لما يجري إلى جانبه، ظل ينظر إلى المقعد الذي أمامه بعينين ثابتتين، يتنفس بصوت مسموع، حاسراً أشعث الشعر، يرتدي ملابس قديمة أقرب منها للبالية، فك ذلك الزميل قيداً لامعاً مصنوع من الحديد قد علقه على حزامه العسكري العريض، ومن ثم ناولني إياه:

- واحدة بيده اليمنى والثانية بيدك اليسرى.

ثم انتقل للجلوس إلى جانب السائق، أقفلت القيد على معصم يدي الأيسر، ومن ثم قربت القيد الثاني للشاب ليقوم بواجبه بيده، نظر إليَ و أعاد ظهره للخلف، شد على يده اليسرى المقيدة بالباب، فأصدرت تلك الحركة صوتاً، علمت حينها أنه لا يستطيع الحركة فساعدته وقيدت يده الحرة، وحينما تأكد الجندي إننا أصبحنا مقيدين بالشكل الذي أراده، أمر السائق المسن تشغيل العربة للانطلاق على الرغم أن المكان ما يزال يتسع لراكب ثالث، لكن يبدو أن الزميل قد ملَ الوقوف في هذا الشارع، انطلقت العربة نحو خارج المدينة، خلال تلك المدة راح الزميل يراقب مدققاً في المارة، لعله يجد الراكب الثالث، لكن دون فائدة .

في شعبة التجنيد جلس رجل أربعيني حليق الذقن، أشيب الشعر خلف طاولة فضية، ومن خلفه علم أصفر كبير بداخله صورة درع وبندقيتين حول الدرع، وفي داخله كتابات بثلاث لغات مختلفة، وأمام الطاولة وقف شاب لم يتجاوز العشرين من العمر، وقفت خلفه منتظراً، سأله ذلك الأربعيني:

- قلت لي أن بطاقتك الشخصية في البيت؟

- نعم بالضبط.

- وهل كانت ثقيلة لهذه الدرجة .... ها؟

لم يجيب الشاب بأي كلمة، ظل صامتاً مستسلماً أو مفكراً في إجابة، لكنه أطال زمن التفكير وهذا ما لم يستحمله موظف التجنيد، أشار بيده للحارس وهو ينظر إلى الشاب بغضب وقال:

- اذهبوا معه إلى بيته لجلب البطاقة الشخصية ومن ثم ضعه في غرفة الحجز.

حينما غادر الشاب، نظر إلى متفحصاً، فبادرته بالكلام وأنا أعلم أنه لا فائدة من النقاش:

- أنا متطوع سابق، معفي من الخدمة الإلزامية.. أليس كذلك**!** "

- لا.... تم إلغاء ذلك القرار من زمن بعيد. قالها بكل برود وهدوء، وأضاف:

- تلك أديتها مقابل أجر مادي على شكل راتب شهري قدره مئة وخمسن ألف ... ها ... أما الآن فستؤدي واجبك كما يقوم به أي شاب تجاوز الثامنة عشر ... بدون أجر مادي هذه المرة ... إلى غرفة الحجز.

استيقظت فجأة على صوت طرق مزعج للغاية وقوي على باب المهجع رافقه صوت مرتفع يحاول فيه صاحبه أن يجعله أجشاً ليزيد من هيبته:

- أيها الزملاء ... أيها الزملاء، لقد حان موعد الاجتماع الصباحي.

رافق كل كلمة يقولها طرقة مزعجة، يستخدم فيها حجر بحجم كف يده، يضرب بها أعلى ذلك الباب الأسود، فتحدث تلك الحجرة نقاط بيضاء صغيرة مكانها، فيما يهتز وبقوة أسفل الباب المتأكل بفعل الصدأ، تعالت الأصوات التي تدعوه للتوقف فوراً عن ذلك الإزعاج، فلم يأبه وأضاف:

- لن أرحل قبل أن أرى الجميع قد استيقظ.

فجأة سقط شيء من الأعلى، إنه الشاب الذي ينام على السرير الذي أعلى مني، فتوجه إليه وقد فقد صوابه، وما أن أصبح بينهما أقل من متر، حتى قال:

- ألا ترى يا إستاذ، ها قد استيقظنا.

- لن أذهب قبل أن أرى كل واحد منكم قد استيقظ فعلاً ونهض يرتدي جعبته.

- انظر، لم يعد هناك أحد نائم يا إستاذ.

أخذت الوجوه تنظر بقرف إلى ذلك المشهد بالقرب من الباب بأجفانها الرخوة، نهض نصفنا تقريباً وأخذ يستعد للاجتماع، وقبل أن يخرج ذلك الزميل المتطوع قال:

- النصف الثاني، هيا انهضوا يا أساتذة، ماذا عساكم تنتظرون!

انطلق صوبه شابان يقصدان ضربه، على الفور خرج الزميل المتطوع من المهجع، بعدها نهضنا استعداداً للاجتماع.

كانت الشمس حارقة وقوية رغم أننا في ساعات الصباح الأولى، أخذت تلسع الوجوه وتقرص أغلب أنحاء الجسم تحت تلك الكومة البالية من الثياب.

- انتباه، قال القائد حامل البندقية.

وقفنا باستعداد، بعض البنادق اسندت إلى الساق والأخرى تحملها الأيدي دون أي نظام.

- صباح الخير أيها الزملاء.

- صباح النور. أجاب الجميع بأصوات متفاوتة.

خمسة وعشرون بيدقاً في الساحة، بأحجام وهيئات مختلف، أحدهم ضعيف بشكل مخيف، بجمجمة عليها جلد رمادي بتفاصيل بارزة وعينين غائرتين وشعر أشيب، مجموعة من عشرة شبان من متوسطي إلى قصار القامة، هم تقريباً في سن المراهقة، أغلبهم لم ينبت بعد ذقنه، والقليل منهم له شارب خفيف، أيضاً ستة رجال قد تجاوزوا الأربعين بقليل، اصطف إلى جانبهم شابين بدينين

بالإضافة إلى مراهق دائم الحركة، لا يعرف الثبات في مكانه، إما أن ينقل البندقية من يد إلى أخرى أو يتفقد بذلته، أما ما تبقى فهم في سن مناسب للحرب، وإن تباينت صحتهم غير أنهم يستوفون شروط الجندية .

وأمام هذا الصف توقف القائدان، الأول يحمل البندقية بيده اليسرى من قبضتها المسدسية، أما اليمنى فقد أراحها إلى جانبه، وهو من جردنا البارحة من المعادن والمسابح، راح يراقبنا بعيونه الحادة، ومن حول تلك العيون توزعت تجاعيد على شكل أخاديد عميقة خاصة حول العين، وكذلك عدة خطوط على الجبين وحول الفم، هو في الأربعين من العمر أو أقل بقليل، الناظر إليه يلحظ وكأنه يرزح تحت حمل ثقيل، على عكس القائد الثاني الذي يقف بجانبه، فهو وسيم أو هكذا يبدو لي، مهندس البذلة، سرح شعره الأسود إلى الخلف بدقة وانتظام، قليل التجاعيد، يحمل بيده اليمنى كراساً أبيضاً وضعه في ظرف من البلاستيك الشفاف، أشار بيده اليسرى إلى صدره:

- أنا الزميل سارو، وهذا الزميل بانو، قائد المعسكر وأيضاً سيعطيكم الدروس العملية على الأسلحة، أما أنا فعلى عاتقي الدروس النظرية والتي ستكون هناك في القاعة، وقد أشار إلى غرفة جدرانها مطلية بالطين تقع بمفردها أقصى شرق المعسكر، يوجد على سطحها تحصين دفاعي مبني من أكياس بيضاء تحتوي بداخلها على الرمل، وإلى جانب باب القاعة الأسود هناك سلم من الحديد يصل إلى السطح، حينما فرغ القائد سارو من كلامه، بدأ القائد بانو بالسير نحو القاعة، أخذنا نتبعه في صف واحد خلف بعضنا، تماماً كما كنا نقف.

طوَق المعسكر من جميع الجهات ساتر ترابي مرتفع باستثناء البوابة، علاوة عن كون البوابة مدخلاً للمعسكر فهي أيضاً نقطة تفتيش رئيسية، وفيها تحصين دفاعي يقع على جانبها الأيسر، وإلى جانب التحصين هناك غرفة صغيرة تسع لمقاتل واحد، فعلى جدارها المطل على الطريق هناك شباك صغير للمراقبة ورسم لعلم الجيش السابق، وهو باهت للغاية جراء تعرضه لأشعة الشمس الحارقة، فأنت بحاجة أن تكون على مقربة منه حتى تلحظ وجوده.

تفصل باحة واسعة ما بين البوابة والبرج، وهي بأرضية ترابية متعرجة، على طرفها الجنوبي تم وضع إطارات سيارات وعربات نقل بأحجام مختلفة فوق بعضها، بالإضافة إلى كومة من الطوب الخرساني ذي الوزن الثقيل، وهذه الباحة والأدوات مخصصة للتمارين الرياضية وبعض الدروس العملية على الأسلحة، يقع البرج وسط المعسكر تماماً، وهو بناء متين مرتفع مربع الشكل، في أعلاه غرفة للحراسة لها نوافذ تطل على الجهات الأربعة، وعلى السطح تحصين دفاعي إلى جانبه علم المليشيا الأصفر وقد ثبت على سارية والتي لا تتعدا كونها سوى عمود صدأ، انتشرت ثقوب بأحجام مختلفة على جدران البرج الخارجية، أيضاً تم صبغ أجزاءها السفلى لأكثر من مرة بصباغ أبيض، لإزالة الشعارات المكتوبة عليها، لكن الكثير منها مازالت واضحة وهي شعارات تعود

لمليشيات ثورية و راديكالية دينية قد تعاقبت في سيطرتها على هذا المعسكر، على بُعد خمسين متراً من البرج، تقع ثلاث غرف مخصصة للقائدين، يليها المهجعين وهما بالقرب من الساتر الشمالي، الأول ملاصق للساتر وهو مخصص لمبيت الزملاء المتطوعين معهم عشر مقاتلين مجندين, أما الثاني والذي يقع أمامه فهو مخصص تماماً لمن تبقى من المجندين، خلف المهجعين يقع المطبخ والحمامات والمراحيض ومن بينهم ذي النجوم الخمسة.

في القاعة جلس القائدان على كرسيين خلف الطاولة، فيما جلسنا على الكراسي المقابلة لهم، وبدأ القائد بانو الكلام:

- أهلاً وسهلاً بكم مجدداً، من المؤكد أن جميعكم قد جهَز اسماً جديداً بديلاً عن الحقيقي، سينادى به خلال فترة الخدمة. ثم أخرج ورقة من الظرف، ومن جيب سترته قلماً أزرقاً، نظر إلى أول شاب يجلس من الجهة اليمنى وسأل:

- ماذا اخترت؟

نهض المراهق من مكانه مرتبكاً وبابتسامة خجولة قال:

- لا أعرف أيها الزميل، أنت اختر لي اسماً جميلاً.

- لا يجوز، يجب أن تختار أنت، وإذا كان الأمر بهذه الصعوبة، سأعود إليك حينما انتهي من بقية الزملاء، عليك حينها أن تكون قد جهزت اسماً.

جلس المراهق وهو يبتسم لينتقل القائد إلى الشخص التالي:

- وماذا عنك؟

- مِر، إني أختار هذا الاسم، وهو اسم صديقي الذي ضحى بحياته خلال إحدى المعارك، كان ذلك ... قاطعه القائد:

- أحسنت الاختيار يا مر، تفضل في الجلوس.

قام التالي من تلقاء وهو بدين رغم صغر سنه.

- اخترت اسم " دور" أيها الزميل القائد.

- تفضل بالجلوس الزميل دور.

أكمل القائد تسجيل اسماء البقية إلى أن حان دوري:

- ماذا عنك يا صاحب النظرات. سألني، فأجبته:
- بارتيزان.
- وماذا يعني هذا الاسم؟
- المقاوم.
- يبدو أنك متعلم؟
- صحيح.
- إذن يا زميل بارتيزان ستصبح قائداً للمجموعة الأولى.
- حاضر.

تبادل القائد والرجال الستة نظرات اللامبالاة، وبعد صمت سأل القائد أولهم:

- ماذا اخترت أيها الزميل؟
- لم اختر شيئاً، سجل اسمي الحقيقي.
- لا يجوز، عليك أن تختار اسماً مغايراً.
- لا اسم جديد لدي، ولا أريد أن أفكر في غيره.
- هذا لا يجوز، ألا تفهم.
- أنت الذي لا يفهم.

نظر القائد إليه بصمت وغضب، تمالك نفسه قدر المستطاع، فجأة خرج صوت من أحد أولئك الرجال يحمل نبرات التحدي أكثر من سابقه:

- دعه يا رجل، ثانياً ما فائدة هذه الشكليات!

عاد الأول وقال:

- قم بتسجيل أسماءنا الحقيقية نحن الستة.
- أنتم الستة! سأل القائد بهدوء.

- نعم نحن الستة.

- نعم كما قال لك، أضاف عدد منهم.

كتب القائد شيئاً ما على الورقة التي تحمل معلومات عنا ثم سلمها للقائد سارو، الذي وضعها في الظرف وأغلق عليها.

رمى القائد القلم رمية خفيفة على الظرف التي أمامه، ومن ثم أراح ظهره إلى المسند الخلفي للكرسي الذي يجلس عليه، بدأ الكلام بصوت حاول أن يرفع منه ويجعله مفعماً بالحماسة لكنه ظل ضعيفاً وكأنه هو أيضاً غير مقتنع به:

- ما أجملها من كلمة ... زميل ... كلمة واحدة وخفيفة وجميلة، مادامت البندقية في أيديكم عليكم أن تنسوا أسماؤكم الحقيقية وحياتكم السابقة، هنا كل شيء جديد ...

بدأ يصف لنا الحياة الجديدة تلك، وهو يتعمد النظر المباشر في عيون من أمامه، فنصيب كل زميل من ثلاث إلى خمس كلمات مع نظرة حاول أن يبدو فيها حازماً، يصاحبها أحياناً إماءات بسبابته اليمنى، ناهيك عن النظرات التأملية للساتر الترابي الظاهر من شباك القاعة المفتوح، وهو الشباك الوحيد للقاعة وقد أزيح ستاره الأحمر جانباً حتى يدخل الهواء.

خلف القائدان سبورة خضراء كبيرة مستطيلة الشكل، وقد كانت نظيفة، خالية من أي كتابة، أعلى السبورة صورة لمؤسس الميليشيا وهو متجهم الوجه ينظر إلى يمينه، الصورة مزودة بإطار خشبي مزخرف مائل للسواد، يغطيه من الأمام زجاج نظيف يعكس مصباح القاعة الأصفر، وإلى جانب الصورة ثبت العلم الأصفر باستخدام أربعة مسامير.

على يسار السبورة باب القاعة، وهو مطلي بالأسود وفي وسطه زخرفة باللون الذهبي، وإلى يمينه، يوجد تلفاز من الطراز القديم، وهو موضوع على طاولة مرتفعة، مزودة بأربعة إطارات صغيرة.

وبالقرب من الشباك رفان خشبيان مائلان للصفرة، الرف الأول يحتوي على كتب ومجلات عسكرية، أما الرف الثاني الأعلى عليه كتب من تأليف مؤسس الميليشيا، وهي مصفوفة بانتظام دقيق، وفي نهاية الرف صورة مربعة الشكل بحجم اليد، قد اسندت إلى الجدار، تقف فيها إحدى الزميلات باللباس العسكري وهي تبتسم وتحمل بندقية في يد وبالأخرى ترسم علامة النصر.

قبل انتهاء جلسة " التعارف " عاد وذكرنا:

- أصبحتم منذ الآن في مجموعتين، واحدة بقيادة الزميل بارتيزان وهي تضم الشبان الصغار ومن تجاوز الخامسة والثلاثين، وثانية بقيادة الزميل المتطوع شير وهي تضم من تبقى منكم.

ثم أمرنا بالتوجه إلى الحمامات، وعندما وصلنا وجدنا خمسة من الزملاء المتطوعين بانتظارنا معهم أدوات حلاقة شعر الرأس والذقن، تخللت حفلة النظافة تلك حمام جماعي خلف المراحيض في العراء باستخدام خرطوم ماء عريض، ففي كل وجبة يقف خمسة زملاء بسراويلهم الداخلية إلى جانب بعضهم، بعدها يبدأ الزميل المتطوع رش الماء بدءاً من الرأس نزولاً إلى الأسفل.

كان البرنامج اليومي للدورة بشكل واحد ومتكرر، يبتدأ بالاستيقاظ في الساعة الخامسة صباحاً حيث الاجتماع في الباحة لتأدية تحية الصباح، تليها الرياضة والفطور، ثم الدروس النظرية بشقيها السياسي والعسكري، فالغداء ثم الخروج للباحة حيث الدروس العملية على السلاح إلى غروب الشمس، نجتمع مجدداً لتحية المساء ومن ثم العشاء ومتابعة نشرة الأخبار، بعدها غالباً ما نتابع فيلماً أو برنامجاً وثائقياً عن حياة " الزملاء المناضلين " لتبدأ بعدها نوبات الحراسة حتى الصباح، لكل زميل ساعتين من الحراسة الليلية يقضيها مع زميل أخر في إحدى نقاط الحراسة الثمانية في المعسكر.

لم يكن مستغرباً منذ البداية أن تأخذ الدورة طابعاً سريعاً فيما يخص الدروس النظرية والتدريبات العملية، فالنوع الواحد من السلاح لم يكن يأخذ أكثر من ثلاثة أيام حتى يصبح الزميل جاهزاً لاستخدامه، أما هل تعلَم فعلاً الزميل استخدام الزميل هذا السلاح أم لا، لم يكن ذلك مهماً، طالما كان الزميل بانو يكرر على مسامعنا مقولة " الحرب خير معلم ".

في إحدى الأيام تأخر الزميل القائد سارو قليلاً عن الدرس النظري، على غير عادته، كنا نجلس بصمت في انتظاره، ففي القاعة ممنوع الكلام، سوى من سؤال القائد خلال الدرس، مع ذلك بالإمكان سماع بعض الكلمات من هنا أو هناك، وهي في الغالب تصدر من الزملاء الصغار، فمعظمهم لم يكن يعي بعد معنى الجندية عموماً والمرحلة التي نحن فيها خصوصاً , لعل مقولة " كونوا أكثر جدية يا زملاء " كانت من أكثر الجمل التي خاطب بها الزميل سارو الزملاء عموماً والمراهقين خصوصاً، ومن الحوادث التي جرت خلال الأيام الأولى، سألت الزميل المراهق " روه " عن سبب تأخيره في الذهاب إلى نقطة الحراسة ربع ساعة، أنزل البندقية من كتفه وأمسك المقبض بيده اليسرى وعنق الأخمص بالأخرى، أراد أن يوجه لي ضربة من خلال عقب الأخمص، وقال بأسلوب بذيء وكأنه مقبل على شجار مع صديق له في الشارع:

- ليتك تكلمت معي حينما كنا مدنيين، لحطمت نظاراتك وأسنانك هذه. ومن ثم أنزل البندقية وأكمل طريقه نحو نقطة الحراسة عند البوابة الرئيسية.

فُتح باب القاعة بعنف، وفيما ينظر الكل باستغراب نحو الباب، فجأة ظهرت يدٌ وهي تحمل قنبلة يدوية سوداء، رُميت القنبلة بقوة نحونا ومن ثم اختفت تلك اليد، تباعدت الكراسي وتطاير بعضها،

انبطحنا أرضاً، تصادمت الرؤوس والأرجل والأيادي ببعضها البعض، فكل واحد يبحث عن مساحة من الأرض يتمدد فيها ليستوي فيها جسده بالأرض، انقضت تلك الثواني القليلة ولم تنفجر القنبلة، في تلك الأثناء دخل القائد سارو وهو يضحك ضحكة متواصلة بصوت مرتفع، ومن ثم أخفض وتيرة الضحكة تلك وقال فيما ننهض من الأرض:

- أحسنتم أيها الزملاء، أحسنتم العمل، ردة الفعل كانت سريعة، لكن ثمة ملاحظة واحدة، لا تنسوا في المرة القادمة، ان تفتحوا فمكم قدر المستطاع لحظة إلقاء قنبلة حقيقية عليكم في مكان مغلق مثل هذه الغرفة، ثم افترضوا أنكم في حرب ما، فهذا الخطأ قد يكلفكم حاسة السمع .... أعيدوا لي القنبلة.

أعادها له أحد الزملاء، ومن ثم عاد الكل للجلوس في مكانه، أمسك القائد سارو قطعة طبشور بيضاء وبدأ برسم صورة لقنبلة يدوية، أخذ يرسمها بإتقان، فالحواف الدائرية متناسقة تماماً، وقد أجادها من المحاولة الأولى، وبعد أن انتهى من الرسم، بدأ برسم أسهم رفيعة من داخل جسم القنبلة إلى خارجها، وعلى رأس كل سهم تسمية ذلك الجزء، وعند الانتهاء، وضع الطبشورة في علبة معلقة أسفل السبورة، ثم نفض عن يده مما علق بها من الغبار الأبيض وقال:

- درس اليوم سهل وممتع جداً، درسنا عن القنبلة اليدوية بنوعيها الهجومية والدفاعية ...

استمرت الدروس النظرية مدة يومين، في اليوم الثالث صباحاً وفيما نحن في طريق العودة من ساحة التدريب إلى المطبخ من أجل تناول الفطور، وجدنا القائد بانو يقف أمام المطبخ وهو بكامل الجاهزية، قال:

- لا طعام الآن، ثم نظر إلى ساعة يده وأضاف: الآن الساعة هي السادسة وسبعة وثلاثين دقيقة، بأقل من عشرة دقائق أريد رؤيتكم مع الجعبة والبندقية مصطفين في الساحة ... هيا.

وصل الجميع للساحة قبل الموعد المحدد، وجدنا الزميل بانو منتصب في مكانه بانتظارنا، وهو يتحسس بندقيته المميزة، ذات الأخمص الأسود ورصاصة الرحمة المثبتة أعلى منتصف السبطانة، سار بنا صوب قاعة الدروس، ومن خلفه المجموعة الأولى بقيادة الزميل شير وهو نفسه المقاتل الأسمر الذي جلس إلى جانبي في الحافلة، والمجموعة الثانية كنت أنا قائدها، بين كل زميل وآخر مسافة فراغ تقدر بمترين، صعد القائد الساتر الشرقي للمعسكر خلف قاعة الدروس، صعدنا خلفه، كنا نقوم بعمل ما يقوم به القائد، حينما أصبحنا خارج المعسكر بدءنا في مسير طويل استمر حتى العصر وسط أرض صحراوية لا تحمل أي معالم، كل ذلك تحت شمس حارقة وبدون ماء، تخللتها عدة استراحات قصيرة، إلى أن وصلنا إلى أرض منخفضة لها شكل الوادي تقريباً، وهي مليئة بالأحجار والصخور، بالإضافة إلى أعشاب شوكية صفراء جافة تنتشر بكثرة، رفع القائد يده معطياً إشارة التوقف، وقال:

- على كل واحد منكم أن يأتي بثلاثة أحجار صغيرة، على أن تكون الحجرة بحجم الكف ... بسرعة.

انتشرنا في ذلك الوادي بحثاً عن الحجارة، وفي تلك الأثناء بدأ القائد بانو وشير بإطلاق الرصاص من بنادقهم على مقربة منا ونحن منشغلين بالبحث، خلال بحثي عن الحجارة، شاهدت العديد من أنواع الفوارغ ذات الأعيرة المختلفة، كذلك أجزاء معدنية صغيرة يبدو أنها شظايا لسلاح ما، كل هذه الأشياء مرمية هنا وهناك، بالإضافة إلى تحصينات تم هدمها و أكوام مرتفعة من الأحجار عادة ما كانت تستخدم كهدف أثناء الرماية، عدنا إلى مكان الاجتماع وكل واحد منا يحمل ثلاث حجرات بالمواصفات التي طلبها الزميل القائد، حينما تأكد من وصول الجميع وضع بندقيته أرضاً، حمل بدوره ثلاث حجرات قد جاء له بها أحد الزملاء، نادى على ثلاثة زملاء من المجموعة الأولى أن يتبعوه , اتجه نحو إحدى التحصينات المبنية من أكياس الرمل وهي على بعد عشرين متر من مكاننا، طلب من الزملاء الثلاثة وكذلك منا أن ننتبه إليه جيداً لما سيفعل، حمل حجرة بيده اليمنى وقال:

- هناك ثلاث وضعيات لرمي القنبلة (واقفاً – جاثياً – منبطحاً).

أدار ظهره إلينا وهو واقف داخل التحصين وأضاف:

" الوضعية الأولى "، رمى تلك الحجرة التي بيده بعيداً ومن ثم انبطح داخل التحصين ممثلاً شكل رمي القنبلة بالوضعية الأولى، كرر عملية الرمي لكن بالوضعيات المتبقية، وعندما انتهى من ذلك نفض التراب عن بذلته وابتعد عن التحصين، اتجه نحو أول الزميل طالباً منه الوقوف في التحصين وتكرار ما شاهد، وابتداءاً من ذلك بدأ تدريبنا بشكل عملي على رمي القنابل، وحينما يخطئ زميل ما في الرماية بالشكل الصحيح، يخرج بسرعة إلى حيث رمى الحجرة ليأتي بها ويعيد الرمية من جديد، إلى أن يتقنها.

عندما انتهينا من التدريب، وفي الكلمة الختامية للتدرب على القنبلة تكلم القائد عن أهمية القنبلة في الحرب وأثناء كلامه عن مدى استيعابنا لهذا الدرس قال:

- للأسف يا زملاء أن القنبلة الحقيقية مكلفة للغاية، مكانها الوحيد في المعركة لا ساحة التدريب، لهذا تدربتم على محاكاة الرمي بالحجارة، عموماً سترمون الكثير من القنابل الحقيقية خلال المعارك، والآن سأجرب لكم قنبلة حقيقية، وهي من الأسلحة المخصصة للدفاع عن المعسكر فقط، لكني جئت بها متجاوزاً القانون ".

فتح غطاء إحدى جيوب جعبته، وأخرج منها قنبلة دائرية خضراء اللون، ومن نفس الجيب أخرج أيضاً الصاعق، قام بشده على القنبلة، وطلب منا الانتباه جيداً هذه المرة، انطلق مجدداً صوب التحصين، و رمى هذه المرة قنبلة حقيقية وهو في وضعية الوقوف , وانبطح ، رغم وقوفنا بعيداً -

نوعاً ما - عن مكان القائد , مع ذلك قمنا بفعل ما يقوم به القائد، فلا بد من المحاكاة، فهذه المرة قنبلة حقيقية وليست حجراً، وهي فرصة لا تتكرر، مرت خمسة ثواني... عشرة... ولم تنفجر تلك القنبلة، نهض القائد من مكانه وهو ينظر إلى المكان الذي رمى إليه القنبلة، وبعد صمت قال:

- توقعت ذلك .... لا يرسلون سوى الأسلحة الفاسدة للدفاع عن معسكرات التدريب، هيا قفوا فقد حان موعد العودة.

نادى أحد الزملاء:

- وماذا عن القنبلة التي لم تنفجر يا زميل؟ هل ستبقى هناك مرمية!

فيما يحمل القائد بندقيته من الأرض استعداداً للعودة، أجاب:

- نعم ستبقى هناك ... انتهى درس القنبلة.

كان المتنفس الوحيد لنا، هي الفترة المسائية، أي التي تبدأ في الساعة السابعة ليلاً، ففي كل يوم وبعد العشاء نعود مجدداً إلى القاعة، نسند البنادق على الجدار الخارجي للقاعة ومن ثم ندخل، كلٌ نحو كرسيه، وفي كل مرة ندخل فيها القاعة نجد الزميل المتطوع " شيد " قد سبقنا إلى القاعة، وقد قام بتنظيف المكان وذلك بغسل الأرضية ومسح الطاولة والسبورة، أزال الغبار عن صورة مؤسس المليشيا وكتبه، وتأكد من جاهزية التلفاز.

الزميل شيد يبلغ الثلاثين من العمر وهو على قرابة من الزميل القائد سارو، كما أخبرني لاحقاً، متوسط الطول، هادئ لا يحب مخالطة أحد، لا حباً في العزلة إنما خوفاً من التفوه بكلام قد يحاسب عليه، نادراً ما يتكلم، وإذا ما تكلم فجمله محدودة ومكررة:

- لا تلمس الطاولة أيها الزميل حتى لا تترك بصماتك بقعاً دهنية عليها، الكلام ممنوع في القاعة يا زميل ....، والعديد من الجمل التحذيرية.

عادة ندخل القاعة في الساعة السابعة إلا عشرة دقائق، حينها يبدأ شيد جر طاولة التلفاز إلى أمام طاولة الدروس، مقابلنا تماماً، وذلك بكل حرص وهدوء، لدرجة أنه يتوقف وسط الطريق ليُسكت من يتكلم من الزملاء، كون حديثهم يفقده التركيز، ناهيك عن مخالفة ذلك للقوانين. ومن ثم يكمل الجر إلى أن تصبح في مكانها المحدد، ما أن يوصل التلفاز بالكهرباء، حتى يعمل من تلقاء نفسه وبإعدادات جاهزة مسبقاً.

لم يكن مسموحاً متابعة سوى قناة واحدة " الشمس " وهي دائماً تبث الأناشيد الحربية قبل نشرة أخبار السابعة، فيما ننتظر الأخبار يدخل القائد بانو إلى القاعة، يأتي بالكرسي من خلف الطاولة الفضية، ليجلس إلى جانب التلفاز، حيث يراقبنا ونحن نتابع الأخبار!

بعد انتهاء نشرة الأخبار، طلب منا القائد أن نبقى جالسين في أماكننا، نهض شيد وأوصل جهازاً أسوداً صغيراً خلف التلفاز وذلك بتوصيله عن طريق شريط كهربائي، ليبدأ معه عرض فيلم، هذه هي المرة الأولى التي نشاهد فيها أفلاماً هنا في المعسكر، تكرر عرض الأفلام لاحقاً حتى حفظناها وحفظنا أيضاً أيام عرضها، أما الأفلام فهي من النوع الحربي، أبطالها يقاتلون حتى النصر أو يضحون بحياتهم أثناء القتال، أما المشاهد الرومانسية فقد تم اقتطاعها. يبدأ العرض بخروج القائد من القاعة، ومن ثم يطفئ شيد ضوء القاعة ويرفع من صوت التلفاز، فتتحول القاعة لصالة سينما، سواد يتوسطه شاشة التلفاز، ترتفع فيه أصوات الرصاص واللكمات، تتطاير معها الدماء وتتقطع الأشلاء يتحمس لها الزملاء الأصغر سناً، تتعالى أصواتهم مشجعين إلى أن يخبوا حماسهم مع تقدم أحداث الفيلم.

وضعت الوسادة أسفل السرير الأخير من مهجعنا، حاولت أن أخذ قيلولة خلال استراحة الظهر، على الرغم أن النوم ممنوع، لكن لابد لي من النوم ولو قليلاً، بعد تعب الصباح، حيث سرنا بضع عشرات من الأميال ذهاباً وإياباً، ليس ذلك فحسب بل علق كل واحد فينا إطار سيارة حول رقبته، بالإضافة إلى الجعبة والبندقية، وذلك " لزيادة القدرة على التحمل ".

- أين هو الزميل بارتيزان؟ نادى أحدهم.

لم يكن ذلك الصوت مألوفاً! عرفت أنه أحد المتطوعين، أي هناك ثمة شيء ما، أخرجت نصفي العلوي من تحت السرير وسألته:

- ماذا هناك أيها الزميل؟

نظر إلي وقال:

- القائد بانو بانتظارك في غرفته.

لم أسأل عن التفاصيل، عندما خرجت من المهجع باتجاه الغرفة، رأيت ذلك الزميل المتطوع أيضاً يتجه إلى هناك، حينما وصلت وجدت الغرفة ممتلئة تماماً بالزملاء، فالقائد يجلس في صدر الغرفة ومن حوله الزملاء المتطوعين، وأنا الوحيد المجند بينهم، حييتهم لحظة الدخول:

- طاب يومك أيها الزميل القائد، طاب يومكم أيها الزملاء.

أشار القائد أن أجلس في أي مكان، فجلست إلى جانب الزميل شير والذي بدوره يجلس على مقربة من الباب، توجه القائد إلي وسألني:

- أيها الزميل، هل في مجموعتك من سبق وقاتل في حرب حقيقية، أو كان متطوعاً سابقاً؟
- نعم أيها الزميل، هناك أربعة من الرجال.
- أربعة فقط!
- هذا ما أنا متأكد منه.

اتجه نحو شير وسأله:

- وكم معك؟
- واحد فقط.

صمت القائد قليلاً بدا أنه يفكر في شيء ما، وقال بصوت مرتفع:

- أيها الزملاء منذ أن ازداد الوضع سوءاً، زاد نشاط القرويين حول معسكرات التدريب عموماً، وفي هذه المنطقة خصوصاً، من المقرر أن نبدأ العمل بنظام جديد والذي سيكون فيه واجب الحراسة الليلة عليكم أنتم، وفي ساعات النهار على الزملاء المجندين.
- إذا ما افترضنا أن أحدهم قد اقترب من المعسكر، كيف سنتعامل معه؟ سأل أحد الزملاء.
- إياكم أيها الزملاء والتعامل دون أمر مني، فإذا ما قابلتم موقفاً معيناً، عليكم إخباري بذلك عن طريق جهاز الاتصال اللاسلكي.

اغتنمت فرصة الاجتماع وقلت للقائد:

- كما تعلم أيها القائد أن الأمور باتت أكثر صعوبة وبنادقنا نحن المجندين لا تحمل بداخلها أي رصاصة، نحرس ببنادق فارغة، هل يعقل ذلك؟
- أه صحيح لقد تذكرت، سأطلب من الزميل المسؤول عن مستودع الأسلحة أن يوزع عليكم الرصاص.

بعد انتهاء الاجتماع طُلب منا نحن المجندين أن نصطف أمام مستودع الأسلحة من أجل " تزويدنا بالذخيرة "، حيث تم توزيع عشر رصاصات لكل زميل!

مساءاً أثناء إلقاء القائد سارو محاضرة عن نضال مؤسس الميليشيا، دق باب القاعة ثلاث دقات، نهض القائد من كرسيه واتجه نحو الباب، وهو ما يزال يتكلم، وحينما فرغ من الفكرة، فتح الباب، تكلم القائد مع أحدهم ثم نظر إلي وقال:

- تعال أيها الزميل، هناك من يريد أن يتكلم معك.

عاد القائد ليكمل المحاضرة، وعندما خرجت من القاعة وجدت الزميل شير بانتظاري وهو يحمل بيده ورقة بيضاء قد قطعت من دفتر الدروس وقد طواها إلى نصفين.

- ماذا هناك أيها الزميل؟

- هذه قائمة الحراسة الليلة، ستكون قائداً للحرس من الساعة التاسعة حتى الرابعة صباحاً.

ومن ثم فتح تلك الورقة التي بيده وأطلعني على محتواها وهو يشرح لي:

- انظر هذه قائمة تضم أسماء الزملاء ونقاط حراستهم ومواعيدها، لا تنسى أن توقظ أي زميل قبل ربع ساعة من موعد نوبة الحراسة، ليتمكن من الذهاب لقضاء حاجته أو أن يدخن لفافة تبغ قبل ذهابه لنقطة الحراسة، كذلك لا تنسى أن تخبر القائد بانو في حال حدوث أي طارئ ... تمام؟

- تمام.

- والأن خذ الورقة وهذا المصباح والسترة الشتوية، فالليل قد أصبح بارداً، وحينما تنتهي من نوبة الحراسة أعدها لغرفة القائد، فهذه السترة له.

بعدها غادر شير نحو المهجع الثاني، عدت للقاعة مجدداً حيث وجدت القائد يكمل محاضرته عن مسيرة النضال تلك فقاطعته:

- أيها الزميل حان موعد نوبة الحراسة.

- بإمكانك الذهاب.

ناديت الزميل " ران " وطلبت منه أن يرافقني، حينما أصبحنا خارج القاعة قلت له:

- لديك حراسة من الآن حتى الساعة الحادية عشر.

- عُلم.

- عليك بالتدخين الآن أو قضاء حاجتك إذا ما أردت.

- لست بحاجة لهم.

فتحت الورقة وتأكدت من مكان حراسته ومن ثم قلت:

- إذن احمل بندقيتك واتجه إلى البوابة الرئيسية.

حملنا بنادقنا والتي قد اسندناها إلى الجدار الخارجي للقاعة قبل دخولنا لها، فيما بقيت بنادق الزملاء مصطفة بانتظام إلى جانب بعضها، قضيت تلك النوبة وأنا أتنقل بين نقاط الحراسة والجلوس خلف التحصين الذي يقع أعلى البرج، وهي أعلى نقطة مراقبة في المعسكر، سمعت خلال الليل العديد من أصوات حيوانات، بلغت شدتها بعد منتصف الليل، عندما كنت أقصد البوابة الرئيسية، لاحظت أن الزميل الحارس لا يهدأ في مكانه، ينتقل بين التحصين وغرفة المراقبة الصغيرة، حينها كان أحد الزملاء الصغار من مجموعتي حارساً، سألته مازحاً:

- لقد أخافتك أصوات الحيوانات المفترسة، أليس كذلك؟

- لا، أنا لا أخشاها، انظر تلك واحدة. وقد أشار إلى مكب نفايات المعسكر، وهو لا يبعد كثيراً عن الساتر الجنوبي، حيث ظهر حيوان بحجم الكلب يبحث عن الطعام، أكمل الزميل كلامه:

- أنا أخشى شيئاً واحداً فقط. بدا جدياً للغاية وكأنه سيفضي بسر خطير.

- ما هو؟ سألتُ متصنعاً الاهتمام.

- الأشباح.

- هل هي موجودة فعلاً ... الأشباح؟

- لقد رأيت الكثير منها في القرية، حينما كنت أسقي الحقل ليلاً.

اتجهت بالنظر نحو مكب النفايات، وجدت أن الحيوان قد اختفى، نظرت إلى الزميل وقلت له:

- دع الأوهام جانباً، كن يقظاً وراقب المكان جيداً، سأذهب الآن إلى الساتر الغربي. حينما التفت إلى المكان قبل أن اذهب إليه وجدت أن الحارس قد أشعل أمامه ناراً صغيرة، فقصدته مسرعاً، وحينما وصلت إليه، قمت بدعس النار فأطفأته على الفور، سألته مندهشاً:

- ماذا تفعل!

- الجو بارد. قالها الزميل المراهق بكل برود.

- حينما شعرتَ ببعض البرد، قمت بالنزول من نقطة الحراسة أعلى الساتر أولاً وأشعلت ناراً من شأنه أن يساعد العدو في تحديد مكان الحراسة ثانياً؟

- غداً سأقدم تقريراً مكتوباً للقائد أنتقد فيه نفسي على أخطائي هذه وسأعتذر أيضاً من جميع الزملاء أثناء تحية المساء لما سببته من أخطاء قد تكون من شأنها سبباً في سقوط المعسكر.

- ارتدي هذه السترة ثم عد إلى مكانك أعلى الساتر.

وفي الساعة الرابعة قصدت غرفة القائد بانو، وجدته منشغلاً بالتفكير وأمامه التلفاز يعرض نشرة الأخبار، لم ينتبه لوجودي إلا حينما رجعت عدة خطوات للخلف وطرقت الباب، نظر إلى صامتاً، بادرته بتحية الصباح ثم قلت:

- هذه أدوات الحراسة. وضعت على الطاولة القريبة من الباب الورقة والمصباح والسترة، حينما انتهيت سألني بغير اهتمام:

- هل تريد أن تقدم تقريراً شفوياً، هل هناك شيء تريد أن تقوله؟

- فقط أود التنويه إلى الاستعجال في استلام الزملاء المتطوعين والمجندين المتدربين سابقاً للحراسة الليلية بدلاً من المجندين، أيضاً تزويد الزملاء بثياب دافئة وخاصة السترات.

- لا يوجد الآن في المعسكر ثياب شتوية أو غيرها، لو كان هناك شيء من هذا القبيل لما أعطيناكم ملابس عسكرية قديمة ... هل لديك شيء أخر تريد أن تقوله؟

- لا، فقط ما ذكرت.

- بإمكانك الانصراف الآن.

""""

- هي أربع رصاصات ... كن دقيقاً للغاية، ارم دراكاً.

استلقيت على بطني، وأفرجت بين ساقاي حتى أصبحت المسافة بينهما كشكل المثلث، نظرت من خلال شعيرة الرمي نحو الهدف، الذي كان عبارة عن كومة أحجار تبعد مئتي متر، يدي اليمنى على القبضة المسدسية للرشاش والسبابة على الزناد، واليد اليسرى تمسك بقوة الأخمص، حتى لا يتحرك الرشاش، وإلى جانب رأسي يجلس القائد بانو يراقبني بدقة.

- هل أنت جاهز؟

- نعم، أجبت وأنا أركز إبرة التسديد على كومة الأحجار.
- خذ نفساً عميقاً ... اكتمه ... إذا كنت مستعداً ارم طلقة واحدة فقط.

توقفت عن التنفس وما إن لمست الزناد حتى انطلقت الطلقات الأربعة في أقل من ثانية واحدة.

رفع صوته وقال: انهض لأرى.

نهضت وجلست، نظر إلى والشرر يتطاير من عينيه، قال بكل غضب:

- ألم أقل لك أن تطلق رصاصة واحدة فقط.
- أيها الزميل هذا رشاش متوسط وليست بندقية، حتى أرمي دراكاً!

اتجه نحو القائد سارو والذي رافقنا لأول مرة نحو حقل الرماية وقال له:

- استلمه. ثم نظر إلى بتجهم.

مشيت نحوه، وعندما وصلت قال:

- التمرين السادس، أربعين مرة.

قمت بما أمره، ومن ثم عدت وجلست أمام مجموعتي.

رمى الزميل ران، فارتفع صياح القائد بانو:

- أين رميت؟
- صوب الهدف. أجاب ران.
- وأين الهدف يا استاذ؟
- تلك الصخرة، وقد أشار إلى إحدى الصخور البعيدة.
- يا إلهي، لا يعرف أين الهدف بالإضافة أنه رمى الرصاصات الأربعة في رمية واحدة.
- هل بإمكاني إعادة الرماية أيها الزميل. سأل ران.
- لا... لا يمكنك، اذهب إلى سارو اذهب بسرعة.

بدأ ران القيام بالتمرين السادس، تعاقب معظمنا خلال تدريب هذا اليوم، سوى عدد من الزملاء الرجال، على أن الزملاء الصغار كانت عقوبتهم مضاعفة، لقد ظلوا طيلة مدة التدريب واقفين وهم يحملون بنادقهم نحو الأعلى، إلى أن انتهى الجميع من الرماية، حينها توجه القائد بانو بالكلام للجميع وقال مستسلماً:

- لقد توقعت أن تكونوا دون المستوى، هيا بنا إلى المعسكر.

وصلنا المعسكر مع ساعات الليل الأولى، تناولنا العشاء المكون من الأرز والبصل، أثناء الأكل جاء القائد بانو وقال بصوت مرتفع:

- منذ اليوم يُمنع منعاً باتاً النوم في المهاجع ... ما إن تنتهوا من طعامكم خذوا معكم لوازم النوم إلى نقاطكم الدائمة.

النقاط الدائمة! بدأ الزملاء يتهامسون فيما بينهم مستغربين حول هذا الشيء الجديد!

- بعد قليل سيعرف كل واحد منكم نقطته الدائمة، أضاف القائد.

أشار إلى أن أتبعه، فوضعت الملعقة جانباً وسرت خلفه، نظر إلى الخلف وقال:

- قلت بعد الطعام.

- لقد شبعت.

- تعال إذن.

حمل ورقة من فوق الطاولة، كان قد أعدها مسبقاً، ناولني إياها وقال:

- هذه الورقة تحتوي على كامل المعلومات، اقرأها جيداً ثم قم بتوزيع الزملاء على النقاط.

قرأت الورقة باهتمام خارج الغرفة، وقد قسم فيها القائد الزملاء المجندين إلى ثماني مجموعات، كل مجموعة من ثلاثة زملاء، باستثناء واحدة مؤلفة من أربعة زملاء.

ثلاث مجموعات على الساتر الشمالي خلف المهجعين وغرف القادة، وثلاثة على الساتر الغربي وأنا واحد منهم، مجموعة قرب البرج والمجموعة الرباعية في البوابة الرئيسية، أما الساتر الجنوبي والشرقي والبرج فهو من نصيب المتطوعين.

عندما عدت لم أجد أحداً على طاولات الطعام في المطبخ، فاتجهت نحو المهجع، انطفأت فجأة جميع مصابيح المعسكر، بات المكان مظلماً تماماً، حينما دخلت المهجع وجدت الزملاء يتهيؤون لنقل لوازم النوم، ناديت عليهم:

- انتباه أيها الزملاء.

توقفت الحركة وعم الهدوء المكان:

- الأن سأقرأ اسم كل زميل ونقطة انتشاره، عليكم الالتزام بالأماكن التي حددت لكم وإياكم تغييرها، فهذه أوامر القائد.

بدأت أولاً بذكر المكان ومن ثم اسماء الزملاء الذين عليهم أن يتواجدوا فيها، لم أتقيد بتلك الورقة فيما يخص أسماء الزملاء، إنما قمت أنا بتوزيعهم على النقاط المحددة، فوضعت من هم الأقرب من حيث العمر والتفكير في نقطة واحدة، خاصة أنهم سيبقون في تلك النقطة في الليل والنهار.

حملت لوازم النوم بيدي أما البندقية فقد علقتها على ظهري، وعندما اقتربت من نقطتي، نادى أحدهم باسمي، نظرت خلفي إذا بالزميل شير يمشي مسرعاً باتجاهي، أكملت إلى أن وصلت المكان، حينها وضعت ما في يدي أرضاً وانتظرته، حينما وصل قال بصوت منهك:

- أيها الزميل بعد ساعة من الآن تبدأ نوبتك، كالعادة التبديل في البرج، سأنتظرك في غرفتها لأسلمك معدات الحراسة من قائمة الأسماء والمصباح والسترة. ومن ثم غادر مسرعاً باتجاه بوابة المعسكر، استلقيت في فراشي دون أن أخلع حذائي محتضناً البندقية، ومن شدة التعب غطيت في نوم عميق إلى أن استيقظت على صوت الزميل شير:

- أين أنت يا رجل ... انتظرتك ولم تأتي!

فتحت عيني بصعوبة فوجدته يقف بالقرب من رأسي، أجبته بلسان ثقيل:

- أريد أن أنام قليلاً، أنا متعب للغاية.

رمى لوازم الحراسة فوق غطاء النوم وناولني الورقة قائلاً:

- بسرعة يا زميل اذهب وأيقظ الزملاء للنوبة التالية.

بعد منتصف الليل أضاء لي حارس البوابة من مصباحه اليدوي ثلاث ومضات، حينها كنت أعلى البرج أراقب حول المعسكر، على الفور نزلت من البرج وانطلقت صوبه، وعندما وصلت إلى

مكانه حيث يجلس خلف التحصين، وجدته يراقب بين الفينة والأخرى من فتحة المراقبة الصغيرة وسط التحصين.

- اجلس واسمع. قالها بصوت منخفض مبحوح الزميل ران.

جلست وكتمت صوت تنفسي كوني قطعت المسافة من البرج إلى البوابة هرولةً.

- هل تسمع؟ أشار إلى ناحية الجنوب بأصبعه وهو يحدق في عيني.

فعلاً كان هناك صوت عربة ما، لكن الصوت بعيد، فقلت:

- قد تكون العربة قادمة إلى معسكرنا لأمر طارئ ما.
- أي عربة تأتي بعد منتصف الليل! قالها وهو يرسم ابتسامة ساخرة.
- سأبقى هنا إلى أن أرى ماذا وراء هذا الصوت، فلتكن بندقيتك جاهزة لأي طارئ.

يبدو أنه كان بانتظار كلامي الأخير ذلك، وقال ساخراً:

- أتحسب نفسك تحمل بندقية؟
- ماذا تقصد؟

سكت الزميل، عدنا للنظر من خلال فتحة التحصين لعلنا نرى أي شيء، لكن الصوت سرعان ما اختفى تماماً، حينها اسند الزميل أخمص بندقيته على الأرض وقام بتلقيمها، وقد أصدرت تلك الحركة صوتاً مسموعاً، أثارت هذه الحماقة غضبي:

- ماذا تفعل أيها المتهور في هذا الليل!
- هات إصبع يدك.

أمسك رأس سبابتي اليسرى ومررها على الأجزاء الوسطى من البندقية، وأضاف:

- أرأيت، لقد علقت الرصاصة في الطريق إلى بيت النار، أي أن البندقية غير صالحة للاستخدام .... تأكد من بندقيتك لنرى.

صُدمت لذلك، حينما أجريت الفحص على بندقيتي فإذا بالنتيجة نفسها، لم يخطر ببالي قط أنهم أعطونا بنادق قديمة غير صالحة، حتى وإن كنا في دورة تدريبية، ثم أضاف ران:

- ألم تلاحظ أنهم جاؤوا لنا أثناء التدريب على الرماية بثلاث بنادق من الزملاء المتطوعين!

- نعم هذا صحيح.

- لقد أرسلونا ببنادق معطلة، وقادة هذا المعسكر لم يعذبوا أنفسهم بالسؤال عن مدى جاهزيتها!

بقيت صامتاً لم أتكلم، غير أن ران لم يتوقف، بدا أن بداخله الكثير من الكلام، فأضاف:

- مجرد كتلة حديد ليس لها أي فائدة، حتى أنها بدون حربة، لو أنهم أعطونا عصياً عوضاً عنها كان ذلك أفضل.

انتظرت أن ينتهي من كلامه وأنا أراقب من خلال فتحة التحصين، غير أنه لم يتوقف، فقاطعته:

- أيها الزميل يبدو أن صوت العربة قد اختفى!

سكت وأخذ يتأكد هو أيضاً، نهضت وراقبت المكان من أعلى التحصين، فلم ألحظ أي شيء، أخرجت مخزن الرصاص من البندقية ثم سحبت إبرة التلقيم للخلف عدة مرات حتى سقطت الرصاصة العالقة إلى الأرض، أعدتها للمخزن ومن ثم قمت بتركيب المخزن إلى البندقية، وقبل أن أغادر المكان قلت له:

- زميل ران عليَّ أن أتفقد بقية نقاط الحراسة الآن، كن متيقظا.

- عُلم أيها الزميل.

في الساعة الرابعة صباحاً قمت بتسليم أدوات الحراسة لأحد الزملاء المتطوعين، انطلقت مباشرة إلى نقطتي لأنام، ومن شدة التعب وقلة النوم أني تمددت مع الحذاء والجعبة والبندقية، ما أن تلحفت بالغطاء حتى نمت على الفور، شعرت أني لم أنم سوى لدقائق لحظة استيقاظي على صوت الزميل روه:

- انهضوا أيها الزملاء ... إلى الساحة من أجل الرياضة.

نظرت إليه، فوجدته يتكلم بكل نشاط بعد أن نام الليل بأكمله، وأنا لم أنم سوى أقل ساعة، أكمل الزميل روه:

- احملوا لوازم النوم إلى المهجع، وبسرعة إلى الساحة، القائد بانو بانتظاركم هناك.

أعدت كل شيء إلى المهجع، مشيت بتثاقل إلى الساحة، حينما تأكد الزميل القائد أن الجميع قد حضر، قال:

- الآن قفوا في صف واحد ... المسافة بين الزميل والأخر ثلاثة أمتار.

نفذنا ما أمر به، وقف الجميع باستعداد والبنادق مرفوعة إلى الصدر، مشى القائد إلى جانب الصف وتأكد من المسافة بين الزملاء، كان بكامل جاهزيته، المخازن الإضافية ممتلئة بالرصاص، القنابل معلقة على الجعبة، يحمل البندقية من قبضتها وإصبعه على الزناد، قوَم بيده وقوف عدد من الزملاء، فيما أبعد البعض الأخر نحو الوراء قليلاً، ثم انطلق أمامنا مهرولاً، سرنا خلفه في نفس السرعة، ومن البوابة باتجاه الجنوب، مسافة عدة أميال، ومن ثم عاد بنا إلى المعسكر، طلب منا أن نجلس في الساحة متباعدين عن بعضنا وأضاف:

- بعد قليل سيأتي الزميل سارو ليعطيكم الدرس هنا بدلاً من القاعة.

ثم اتجه عائداً إلى غرفته، جلسنا تحت الشمس بانتظار قدوم الزميل، كنت متعباً إلى حد الإنهاك، ناهيك عن قلة النوم، دخلت من البوابة عربة قد ثبت خلفها رشاش ثقيل وقد كانت مسرعة، بأقل من دقيقة توقفت في الساحة على مقربة منا وهي متجهة صوب الجنوب، نزل منها زميل شاب أصلع الرأس يرتدي بذلة نظيفة بتمويه صحراوي، مع جعبة بنية اللون، أمسك بيده اليمنى البندقية من منتصفها، مشى بسرعة متوجهاً نحو غرفة القائد، أثناء مروره بنا قال:

- طاب يومكم أيها الزملاء.

- طاب يومك أيها الزميل.

- كيف هي المعنويات .... مرتفعة؟

- نعم جيدة، مستعدين لكل شيء. قالها عدد من الزملاء المراهقين، بينما أشاح الزملاء الرجال النظر عنه.

- بالتوفيق، أتمنى لكم مزيداً من القوة والشجاعة.

كانت كل العيون متجهة نحو تلك العربة، وهي من الطراز ذي الدفع الرباعي، لها في الخلف فتحة مربعة الشكل، وقد ثبت في وسطها رشاش أسود كبير الحجم، تدلَ من وسط الرشاش حزام رصاص بطول نصف متر برصاصات نحاسية اللون، أما العربة كانت مطلية بالطين بما في ذلك النوافذ والزجاج الأمامي، باستثناء دائرة صغيرة أمام السائق. في تلك اللحظة وصل القائد سارو وقبل أن يتجه نحو العربة، طلب منا أن نجلس في شكل نصف دائرة حول العربة، ليس حولها تماماً، إنما على بعد عشرين متراً بالإضافة إلى مترين بين كل زميل. أصبح مجلسنا في شكل هلال وأمامنا العربة.

تفقد القائد سارو تلك العربة، بدءاً من فتح الأبواب وإغلاقها، إنتهاءاً بالصعود إلى الخلف وتحريك الرشاش الثقيل إلى اليمين واليسار ونحو الأعلى، وعندما انتهى من الفحص قفز من الخلف وقال:

- درس اليوم عن جاهزية المقاتل أثناء التنقل بالعربات العسكرية بمختلف أشكالها.

بعد مقدمة قصيرة بدأ الشرح، توقف أمام باب العربة وهو يحمل البندقية بيده اليمنى:

- عليك أن تمسك البندقية من قبضتها وإصبعك قرب الزناد، تسند البندقية على طول ساقك الأيمن ومن ثم تجلس على الكرسي والبندقية في حالة استعداد لأي طارئ ...أي فوهة البندقية متجهة نحو الأسفل. ثم بدأ بشرح وضعيات الجلوس خلف عربات الرشاش وعربات النقل، إلى أن انتهى من الشرح، ولم يستغرق ذلك سوى نصف ساعة، طلب من الزميل الأول وهو مِر أن يأتي إليه ليعيد ما تعلمه من الدرس. حينها كان عليَ أن أنتظر طويلاً حتى يحين دوري، أخذت أراقب الزملاء وأنا أشعر بالتعب، وفيما الزميل " كاند " يصعد خلف العربة وهو السابع في الترتيب، سمعنا صوت أشبه بطنين الدبور، نادى بنا القائد سارو بشكل جنوني غير معهود:

- انتشروا بسرعة في نقاطكم.

ركضنا بأقصى سرعة باتجاه النقاط، أما القائد سارو فقد ابتعد عن العربة و ارتمى على الساتر الجنوبي القريب من البوابة، حينما وصلت والزميلين إلى نقطتنا، طلبت منهم تسلق الساتر و مراقبة خارج المعسكر، بقينا نراقب الأرض والسماء، وأصابعنا على الزناد رغم أني أدرك أن البندقية ستخونني أو ربما ستطلق الرصاصة الأولى في أحسن الأحوال، استمر الأمر مدة من الزمن، فلم نشاهد أي طائرة، كانت السماء زرقاء تماماً، حينما أدقق النظر فيها بحثاً عن جسم أبيض صغير، لا أجد سوى خطوط ونقاط سوداء رفيعة تتحرك بتحرك اتجاه النظر لتنزل ببطء حينما أثبت نظري في مكان معين، أين هي هذه الطائرة؟ بحثت لكن دون جدوى طلبت من زملاء نقطتنا أن يبحثوا جيداً كونهم أفضل نظراً، لكنهم ظلوا صامتين إلى أن اختفى صوتها، استمر وجودنا على الساتر لعدة ساعات، لا يتحرك عنها أحد إلا لشرب الماء أو الذهاب لقضاء الحاجة، بشرط ألا يذهب أكثر من واحد في كل مرة، عندما حل المساء، جاء الزميل شير وطلب منا أن نذهب لتناول العشاء " كما أمر القائد ". اجتمعنا مجدداً على العشاء، ولأول مرة تناول القائدان الطعام معنا بصمت والظلام يلف المكان، عندما انتهى القائد بانو من الطعام، قال:

- هناك اجتماع في القاعة بعد الطعام.

بدأ الزملاء بالذهاب إلى القاعة بعد انتهاء العشاء والذي كان مكوناً من شوربة العدس والبصل بالإضافة إلى الخبز والماء، كنت من أواخر من فرغ من الأكل، اتجهت إلى القاعة وجلست في مكاني حينها كانت القاعة قد امتلأت تقريباً، دخل القائد بانو وقال:

- أيها الزميل – مشيراً إلى الذي يجلس إلى جانب النافذة – تأكد من إغلاق النافذة والستارة جيداً، حتى لا يخرج أي ضوء إلى الخارج.

أغلق باب القاعة، وعلى ضوء مصباح الحراسة اليدوي، قام بجر طاولة التلفاز وتشغيله، أما الزميل شيد الذي كان مسؤولاً عن القاعة، لم يكن موجوداً لانشغاله بالحراسة مع بقية المتطوعين.

أول ما شاهدناه لحظة تشغيل التلفاز هي مشاهد من معارك اليوم، إذن بدأت جولة جديدة من الحرب، أخذت قناة الشمس تنقل أخبار انتصارات الزملاء على جبهات القتال:

" تدمير مدرعة معادية على الجبهة الشمالية ومقتل طاقمها ".

" مقتل وإصابة العشرات من القوات المعادية خلال معارك المدينة الصناعية شرقي المدينة ".

" إصابة مروحية للعدو بأضرار بعد التصدي لها بالرشاشات الثقيلة غربي الصوامع ".

ناهيك أخبار النزوح واللجوء لمدنيي مناطق الاشتباكات، خرجت المذيعة لتقرأ أهم الأخبار ومن ثم عادت لتعرض مشاهد من المعارك.

قام القائد بانو من مكانه وأطفأ التلفاز، وعلى ضوء مصباح القائد قمنا بمغادرة القاعة والعودة إلى نقاطنا حيث مراقبة أطراف المعسكر إلى الساعة العاشرة، قمنا بجلب لوازم النوم من المهجع، وقد حان موعد النوم طلبت من زملاء النقطة أن يتناوبون في حراسة الساتر، أما أنا سأنام ريثما يحين دوري في قيادة الحرس.

و أخيراً سأنام قليلاً، فلا أدري في أي لحظة سيوقظني الزميل شير لنوبة قيادة الحرس مجدداً، ما أن وضعت رأسي على الوسادة ومن تحتها البندقية ثم تلحفت بالغطاء حتى عاد صوت الطائرة مجدداً، فلم أتحرك لأني أريد أن أرتاح مهما كلف الأمر، ظلت الطائرة تطن فوقنا دون أن تغادر المنطقة , قلت في نفسي " مجرد طائرة استطلاع , حتى وإن كانت مسلحة بالقنابل، يستحيل أن ترمي قنبلة مكلفة لتقتل شخصاً مستلقياً يريد النوم، وتجرح معه شخصين آخرين في أحسن الأحوال، هدف غير ذي قيمة، بعد ربع ساعة تلاشى صوتها إلى أن اختفت تماماً عاد الهدوء مجدداً إلى المكان، حينها أغمضت عيني .

كسر رشاش البرج صمت الليل وأطلق أول رشقة رصاص، استيقظت على صوتها وانتفضت من مكاني، حملت بندقيتي وصعدت الساتر، وإلى جانبي زميليا، انطلقت رشقة ثانية باتجاه الجنوب، بدا وأنه يتعامل مع هدف ما هناك، تبعه انطلاق مجموعة من المتطوعين إلى خارج المعسكر انطلاقا من الساتر الجنوبي باتجاه النقطة التي رمى عليها الرشاش.

خرج القائد بانو من الغرفة وأخذ يعدو صوب البوابة ومنها إلى خارج المعسكر انتظرنا عودتهم حتى نفهم ما جرى هناك، وبعد ربع ساعة عاد القائد و المتطوعون ومعهم رجل يرتدي ثوباً طويلاً، وقد وضع أحد الزملاء يده خلف عنقه وهو يدفعه إلى الأمام، أما البقية ومنهم القائد فهم منتشرون حوله دخلوا إلى المعسكر وتوقفوا بالقرب من العربة المزودة برشاش ثقيل، والتي كانت ما تزال في مكانها، اتجه القائد سارو والسائق الأصلع من أمام غرفة القادة باتجاه المجموعة مع الرجل، حيث تكلم القادة وتناقشوا قليلاً ومن ثم قام سارو بتقييد يدي ذلك الرجل خلف ظهره بعدها عصَب عينيه بقطعة قماش قد جاء بها أحد المتطوعين من غرفة القادة، لم ينتظروا طويلاً، تم وضع الرجل خلف العربة إلى جانب الرشاش، يحرسه ثلاثة زملاء، صعد القائد سارو إلى جانب السائق، وانطلقت العربة إلى خارج المعسكر من البوابة الرئيسية .

بعدما تأكدت من عودة القائد إلى غرفته، طلبت من زملاء النقطة أن يكونوا يقظين، أخبرتهم أني سأعود بعد قليل، صعدت البرج لأتكلم مع شير وأفهم ماذا جرى، فوجدته يراقب من النافذة الجهة الشرقية للمعسكر، أما المتطوع فهو ما يزال يحمل الرشاش الذي أطلق منه النار قبل قليل، وهو يراقب منطقة الجنوب من النافذة، وإصبعه على الزناد، سألت شير لأستفسر أكثر:

- كان قروياً؟

- نعم أو لا، لا أدري ... قال إنه ضل الطريق!

اتجهت بالسؤال لمطلق النار:

- هل حاولت أن تقتله أم تصيبه؟

- ليتني قتلته لكن القتل ممنوع ... هكذا هي قواعد القائد بانو ... جاء ليستطلع المكان تمهيداً لدخول المعسكر بشكل أو بأخر لاحقاً ... أنا أدرك طباع هؤلاء الناس جيداً ... سبق وأن قتلت الكثير منهم، لكن ليس هنا.

قال شير:

- من الجيد أنه جاء مساءاً لا صباحاً، فالزملاء المجندين غير قادرين على التعامل مع هكذا موقف ... هم أصلاً لا يصلحون لشيء، فأفضل شيء يمكن أن يقوموا به في الحرب هو ألا يقتل أحدهم الأخر عن طريق الخطأ.

نظرت من النافذة المطلة على الجهة الغربية، رأيت زملاء نقطتنا مازالوا في وضع الاستعداد وبنادقهم مصوبة إلى خارج المعسكر. اقترب مني الزميل شير وقال:

- من الأفضل أيها الزميل أن تعود إلى نقطتك الآن، فالجهة الغربية للمعسكر تقريباً على عاتق أنت.

مرت تلك الليلة واليوم التالي دون أن يحدث أي جديد، سوى سماع صوت طائرة الاستطلاع لفترة قصيرة. وبعد عدة أيام أثناء نوبة الحراسة الليلية، فيما اتجه من البوابة إلى البرج أضاء مصباح يدوي مرتين مصدره إحدى غرف القادة، استغربت من ذلك، فاتجهت إليه مسرعاً، لحظة دخول الغرفة وجدت القائد بانو قد أضاء الغرفة عن طريق المصباح اليدوي الموضوع على الطاولة، أضاءت جزء من الغرفة، وعليه أخذ يتأكد من جاهزية بندقيته، أخرج أولاً مخزن الرصاص وفحصها، بعدها قام بتلقيم البندقية وضغط على الزناد، فأصدرت صوت طقطقة، إذن كل شيء على ما يرام، فيما يعيد تركيب مخزن الرصاص، بدأ يتكلم وهو يتفحص بقية مخازن الرصاص التي في جعبته هذه المرة، قال:

- هل من أي حركة حول المعسكر؟

- لا.

- إذن أيقظ الزميل شير وكل الزملاء المجندين، أخبرهم أن الاجتماع في الساحة على شكل رتل ... مثل العادة.

- حاضر أيها الزميل ... وماذا عن قيادة الحرس؟

- سيتولى القائد سارو ذلك عنك.

وضعت عدة الحراسة على الطاولة وخرجت من أجل إيقاظ الزملاء، بعدها اجتمعنا في الساحة بأسرع وقت ممكن، امتد الرتل من الساتر الجنوبي وصولاً لغرفة القائد، مروراً بالبرج الذي وقفت إلى جانبه مباشرة، أي وسط الرتل.

أعدت النظر للخلف حتى أتأكد من جاهزية وانضباط مجموعتي حينها رأيت القائد بانو يتقدم مسرعاً إلى أن وصل إلى بداية الرتل، ومجرد وصوله هناك هو إعلان لبداية المسير.

اتجه مشياً نحو الساتر الشمالي خلف المهجع، إلى أن توقف أمام الساتر مباشرة، وضع بندقيته جانباً على الأرض وجلس القرفصاء ثم قام بإزالة التراب – مستخدماً يديه – من عدة أماكن ليرفع غطاءاً حديدياً مربعاً من الأرض ووضعه جانباً، نفض يديه وعاد لحمل البندقية، قفز بعدها في تلك الفتحة تبعه شير وبقية الزملاء، إلى أن جاء دوري في النزول، نظرت إلى تلك الفتحة، والتي بدت عبارة عن مربع أسود، تساءلت عن عمق هذا المكان وهل أقفز أم هناك طريقة ما للنزول! لم يسبق لي أن نزلت نفقاً من قبل، لم يكن هناك مجال للتفكير أو أي أسئلة أخرى، فتهيأت وقفزت، كانت المياه أول شيء اصطدم به داخل النفق، تطايرت في كافة الاتجاهات، فأصدرت صوتاً سرعان ما طغت عليه أصوات خطوات الزملاء أثناء سيرهم في النفق , أخفضت رأسي , فارتفاع النفق لم يكن يزيد عن متر ونصف في أحسن الأحوال , بدأت أسير مسرعاً دون أن أرى شيئاً أمامي، فالمكان خانق للغاية ولا مجال للرؤية مطلقاً، فلا شيء إلا الظلام وأصوات خطوات الزملاء من أمامي ومن خلفي، بقيت أسير ولا أدري متى ينتهي هذا النفق، فالدقيقة في هذا المكان المعتم الخانق الطويل تعادل ضعفها إلى أن اصطدمت فجأة بالزميل الذي أمامي، جاءني صوت يقول :

- مهلاً عليك!
- لم أكن أقصد ذلك.
- علينا أن ننتظر قليلاً حتى يصعد الزملاء نحو الخارج.

تقدمت ببطء إلى أن وصلت نهاية النفق، كانت هناك أربعة ثقوب مربعة محفورة في الجدار فوق بعضها، لم يكن من السهل التسلق من خلالها نحو الأعلى، فهي رطبة، حيث تناوبت أحذية الزملاء المبللة بالمرور عليها، فالتسلق بحاجة إلى سرعة وتوازن، قمت بتثبيت البندقية إلى ظهري، ومن بعدها وضعت قدمي اليسرى على الثقب الثاني الذي في الأسفل، فارتفعت عن الأرض، وأصبحت يدي اليمنى في الثقب الرابع وهو الأعلى، حينما رفعت جسدي بقوة نحو الأعلى أصبح نصفي الأعلى خارج الفتحة، وبحركة رفع ثانية أصبحت في الخارج، تنفست بعمق ومسحت يدي ببنطالي مزيلاً عنها ما علق بها من طين، أنزلت البندقية من ظهري وحملتها بيدي لأخذ مكاني مجدداً في الرتل، والذي كان يتقدم ببطء حتى ينضم إليه الجميع ويصبح كاملاً.

سرنا ساعة أخرى في تلك الصحراء المفتوحة، قبل أن يدوي فجأة انفجار قوي على مسافة ليس بعيدة عنا، انبطح الجميع أرضاً، صوبت البندقية نحو الجهة اليمنى للرتل، وأتخذ الذي أمامي وخلفي عكس اتجاهي، أي كل زميل يصوب إلى الجهة المعاكسة لمن هو أمامه، أخذت أراقب المكان خلف إبرة تسديد البندقية، رغم معرفتي أني أحمل بندقية لا تعمل، دوى انفجار ثاني وثالث على مقربة من مكان الأول، نادى القائد في كلام لم أفهمه، مما جعل المجموعة الأولى تبدأ

بالركض بدلاً من السير، نهضت وطلبت من مجموعتي الإسراع قدر المستطاع، تبعني الأكثر نشاطاً فيما تأخر البعض، مررت بثلاثة زملاء من المجموعة الأولى يمشون بعدما استبد بهم التعب، دوى انفجار رابع في مكان ما فجاء صوته ضعيف وبعيد، ما جعل الجميع يسرع أكثر في لحاق القائد، بقينا في تلك الحالة بين المشي والركض إلى أن ظهر من بعيد ما يشبه أطلال قرية، غرف وبيوت سوداء، وعلى مسافة أبعد منها مجموعة من الأضواء البيضاء، إذن أصبحنا على مشارف القرى!

وقفت في مكاني في تلك اللحظة وقررت العودة للخلف ومرافقة من تخلف من الزملاء والتأكد من سلامتهم، وعند عودتي وجدت أن معظم رجال المجموعة أي الأكبر سناً، قد تخلف عن ركب الرتل، أكملت العودة لمسافة لا بأس بها وفي كل مرة ألقى أحدهم وهو يسير ببطء من شدة الإعياء، فأحثه على الإسراع، طبعاً لم يكونوا يستجيبوا لكلامي، إنما اكتفوا بالنظر إلي وهم يتنفسون بصوت مرتفع، سألني أحدهم:

- أريد ماءاً أيها الزميل، وإلا سأهلك.
- لا أحمل الماء ... تماسك.
- تماسك! من أجل ماذا؟ " قالها وهو يبتسم بيأس.
- ليس الأن بوقت هذا الكلام.

كان أخر زميل وجدته هو الزميل" دور " البدين، لقد بدا مستسلماً تماماً فيمشي ويتوقف كيفما يشاء، عندما اصبحت بالقرب منه سألته:

- لقد وصل معظم الرفاق للقرية وأنت ماتزال هنا!
- سأصل إليها أيضاً ... ألا ترى أني أسير!
- بقاؤك في نهاية الرتل سيجعل منك صيداً سهلاً.
- أتركني وشأني، فلست بحاجة لنصائحك.

لم انتظره، إنما عدت بسرعة إلى القرية حيث جلس معظم الزملاء بانتظار وصول البقية والذين وصلوا بصعوبة بالغة، وعندما اكتمل العدد بوصول الزميل دور، نهض الزميل بانو عندما تأكد من وصول الجميع، قال:

- سنتمركز في هذه القرية اليوم، حيث سأقوم بتوزيعكم إلى نقاط محددة، لكن إياكم والتحرك منها ... مفهوم؟

- مفهوم. صاح الجميع.

- الزميل شير.

- نعم أيها الزميل. لبى النداء منتفضاً.

- انهض أنت ومجموعتك.

نهض زملاء المجموعة الأولى وساروا خلف القائد الذي سار بهم إلى داخل القرية، إلى أن عاد مجدداً وطلب منا أيضاً النهوض واللحاق به، حيث قام بتوزيعنا على أسطح بيوت القرية، تمركزت والزميل مر خلف تحصين من أكياس الرمل فوق إحدى البيوت متجهين صوب تلك القرية ذات الأضواء البيضاء ونحن لا ندري بعد لماذا جيء بنا أصلاً إلى هنا!

مرت ساعات الليل ونحن في وضع الاستعداد خلف التحصين متأهبين لأي احتمال قد يقع، لكن شيئاً لم يحدث إلى أن حل الصباح، ومعه كشف لنا عن تفاصيل هذه القرية المهجورة بسبب الحرب، لم يكن هناك بناء سليم إنما بقايا بيوت طينية مدمرة تماماً، وبيوت أخرى أجزاء منها سليمة، أما التي تقع على أطراف القرية، تم تحويلها إلى نقاط دفاعية، استمر الوضع على نحو ذلك إلى منتصف اليوم ونحن في مواضعنا إلى أن جاء الزميل شير يطلب منا النزول والاجتماع عند مدخل القرية حيث مكان وصولنا البارحة، ما أن وصلنا حتى طلب منا القائد أن نتأكد من أعداد الزملاء في المجموعة، بدأت عد مجموعتي فوجدتها كاملة، ثم قمت بإعادة عد تلك الوجوه المنهكة المغبرة أكثر من مرة، فوجدتها كاملة لا نقص فيها، أخبرت القائد بذلك، أما شير فقد بدا أن شيئاً قد حصل لديه، أعاد العد أكثر من مرة دون أن يعطي جواباً للقائد، أخذ يفكر، حينما طال صمته سأله القائد بقلق:

- ما بك! هل هناك أي نقص؟

- نعم، زميلين اثنين، أجاب بتردد.

دقق شير النظر في مجموعته وأضاف:

- ران وماف.

حينما عد القائد بنفسه المجموعة الأولى وتأكد من النقص، فكر قليلاً ثم قال:

- هيا انهضوا، الكل سيشارك في البحث ... اسمعوا أيها الزملاء، ابحثوا جيداً في بيوت القرية وفي كل مكان، وإذا ما سمعتم صوت طلقة واحدة، فهذا يعني عليكم العودة والاجتماع مجدداً هنا.

انتشرنا في تلك القرية، بدون أي تنظيم وبشكل عشوائي رحنا نتفقد تلك البيوت والتي كان أغلبها من الطين والقليل منها مبني من الحجر، يبدو أن القرية مهجورة منذ عدة سنوات، فكل شيء مغطى بطبقة من التراب، لا أثر للحياة فيها مطلقاً، خالية من كل شيء، حتى الأبواب والنوافذ تم أخذها، نقلت أو سرقت إلى مكان أخر لتستخدم هناك، حينما هممت في البحث، اصطحبت معي الزميل روه ، أخذنا أنا وهو نفتش الغرف بحذر شديد خشية أن تكون أجزاء منها ملغمة بشكل أو أخر، كان التفتيش بإلقاء نظرة سريعة نحو الداخل، لقد ساعدنا ضوء الشمس كثيراً في البحث، أكملنا التنقل بين البيوت إلى أن سمعنا صوت طلقة العودة، عدنا نحو مكان الاجتماع، عندما وصلنا وجدت أمام القائد بذلات عسكرية مرمية، بالإضافة إلى بندقيتين، كان جميع الزملاء ينظر إلى تلك الأشياء وهم يتهامسون فيما بينهم، بعد مراقبة وتفكير رفع القائد عينه عن تلك الأشياء المرمية ونظر إلينا وكأنه أراد أن يقول شيء لكنه صمت، توجه نحو البنادق وحمل إحداها أما الثانية فأعطاها للزميل شير ليحملها، أما البذلات فحملها زميلين من المجموعة الأولى حيث وضعوها على أكتافهم، أعدنا تشكيل الرتل مجدداً لنعود إلى المعسكر من حيث أتينا.

في المعسكر أعيدت تلك البذلات إلى البرج، أما البنادق فقد أخذها القائد معه إلى غرفته، تناولنا العشاء مع القائدين، كان عشاءاً سريعاً وصامتاً، أثناء توجهي لنقطة الانتشار سألني أحد الزملاء مستغرباً:

- ماذا جرى يا زميل؟ إلى أين ذهبنا وماذا حصل؟
- كان تدريباً على الانسحاب ثم الانتشار، خلال التدريب هرب أو انسحب زميلين.
- الآن فهمت، مرحلة الاستعداد للجبهة والقتال.
- لقد اقترب موعد الذهاب، كن مستعداً.

استيقظت فجأة على صوت رعد، نظرت إلى السماء لأرى هل بدأت تمطر أم بعد، لكن السماء كانت صافية ولا غيوم هناك! انتظرت قليلاً لأتأكد، هل أنا أتخيل أم ماذا! جاء صوت انفجار أخر قوي للغاية، حدث نوع من الارتباك في المعسكر منهم مازال في فراش النوم والبعض الأخر جلس في مكانه لا يدري ماذا يفعل، لم يستوعب الكثير بعد أن موعد القتال قد حلَ، نهضت من مكاني مباشرة حملت البندقية وتسلقت الساتر مصوباً تلك البندقية التي لا تعمل إلى الجهة الغربية من المعسكر، توالت أصوات الانفجارات بمعدل من ثلاثة إلى خمسة في الدقيقة الواحدة، غير أنها كانت بعيدة بعض الشيء عن المعسكر، لم يصلنا منها سوى صوتها، في طريقي إلى الحمام سمعت الزميل كاند يسأل باهتمام القائد سارو:

- أيها الزميل القائد، أين تسقط تلك القذائف؟

- أي قذائف!

- هذه التي نسمع صوتها.

- أه هذا صوت الرعد لا أكثر.

قالها وهو يبتسم ومن ثم ذهب إلى غرفته.

لم يبدي القادة أي ردة فعل على اقتراب المعارك من معسكر تدريبي يحتوي على مجندين غير مدربين جيداً بالإضافة لحملهم أسلحة لا تعمل، ظل الأمر كذلك إلى عصر نفس اليوم، حيث طلب القائد بانو من زملاء المجموعة الأولى الاجتماع في المهجع، لم يستمر ذلك الاجتماع سوى عشرة دقائق ثم خرج القائد من الداخل ثم وقف وكأنه ينتظر شيئاً ما، بعد قليل جاءت أصوات خروج الزملاء من المهجع وهم مرتدين ثيابهم المدنية الذي جاؤوا به وعليها الجعب! أما البندقية فكانت على الكتف، حملوا بأيديهم البذلات العسكرية البالية وهم يتوجهون إلى البرج، ليعيدوها إلى مكانها الأول، وحينما انتهوا من وضعها هناك عادوا إلى نقاط انتشارهم، طاف الزميل شير على زملاء المجموعة الثانية وهو يدعوا للاجتماع في المهجع، فاتجهنا إلى هناك فوجدنا القائد بانو ينتظرنا هناك، وما أن اكتمل العدد قال:

- أرسلت القيادة طلباً إلينا تطلب فيه إرسالكم إلى إحدى القواعد العسكرية، أيها الزملاء لقد انتهت الدورة التدريبية، وما تعلمتموه من دروس نظرية وعملية على الأسلحة أخرها درس المسير الليلي والانتشار كان البارحة وهو كاف لتخوضوا معارك حقيقية، الآن عليكم ارتداء الملابس المدنية وإعادة البذلات إلى البرج، على أن تنقلكم عربات مدنية في شكل مجموعات إلى المكان الجديد، أتمنى لكم التوفيق والنصر.

دون أن يضيف أي كلمة أخرى خرج من المهجع، دنوت وأخرجت من تحت السرير ثيابي المدنية، نفضت الغبارين ذلك القميص الأسود وبنطال الجينز الأزرق، خلعت البذلة ومن ثم ارتديت تلك الثياب رغم قذارتها لطول تلك الفترة، قمت بشد أحزمة الجعبة ثم حملت البندقية واتجهت إلى البرج وأنا أحمل بيدي بذلتي العسكرية، هناك رمى الزميل الذي أمامي بذلته العسكرية فوق تلك الكومة المتجمعة تحت درج البرج، تماماً في نفس المكان الذي كانت فيه ساعة استلامها، وضعت بذلتي إلى جانب تلك الكومة متمنياً ألا يرتديها أحدهم ثانية.

لم تنقطع أصوات انفجارات القذائف خلال هذا اليوم وإن خفت قليلاً، خلال الليل حلقت طائرة الاستطلاع أكثر من مرة، وقبيل منتصف اليوم التالي جاءني الزميل شير كالعادة:

- أيها الزميل عليك الذهاب إلى البرج والتمركز فيه بشكل دائم إلى أن يتم نقلكم.
- وماذا عنك؟
- يبدو أنهم سينقلوننا من هنا قبلكم، على الآن الذهاب إلى المهجع حيث الاستعداد للرحيل.

ثم غادر، عندما صعدت إلى البرج وجدت الزميل شيد المسؤول عن نظافة القاعة يحمل ذلك الرشاش الأسود مصوباً إياه نحو الجنوب!

- طاب يومك زميل شيد.
- طاب يومك أيها الزميل. قالها دون أن يلتفت إلي.
- أراك هنا!
- نعم هنا وأين تريد مني أن أكون!

لم أعهد لهذا الهادئ أن يتكلم بهذه الطريقة.

- أخبرني شير أنهم سينقلون المتطوعين اليوم.
- ليس كلهم اليوم، لا أعلم كم سيأخذون، على العموم لن يبقى أحد في هذا المعسكر قريباً.

بدأت أتنقل بحذر بين النوافذ – باستثناء المطلة على الجنوب حيث شيد – لأراقب أطراف المعسكر.

- لقد وصلت المدرعة ... إلى الجبهة مباشرة.

قالها الزميل شيد وكأنه يتكلم مع نفسه ومن ثم أنزل ذلك الرشاش من يده وأشعل لفافة تبغ وهو يتابع باهتمام، وقفت إلى جانبه لنراقب المشهد، توقفت مدرعة بتمويه صحراوي وسط الساحة، انطلق نحوها عشرة من الزملاء المتطوعين معهم القائد بانو، الذي كان يحمل بيده بندقية قنص بالإضافة إلى بندقيته، صعدت تلك المجموعة إلى المدرعة من بابها الخلفي، أخرهم الزميل شير، بقي الباب مفتوح، كان صوت نشيد حربي يخرج من جهاز تسجيل من داخل العربة، حينما انتظم جلوس المجموعة داخل المدرعة، أغلقوا الباب لتنطلق المدرعة مسرعة باتجاه البوابة ومنها إلى أقصى الجنوب، راقبنا المدرعة وهي تشق طريقها وسط الصحراء، إلى أن اختفت تماماً.

- أيها الزميل.

نظرت خلفي لأرى من المتكلم، فإذا هو بالزميل كاند، بادرني قائلاً:

- يا زميل.
- هذه هي المرة الثانية التي تعيد فيها كلمة زميل.
- نعم أيها الزميل، فالزميل القائد سارو بانتظارك في غرفة القيادة، لا تتأخر.
- ابق هنا إلى جانب الزميل شيد ريثما أعود.
- عليَ العودة لنقطتي.
- مكانك خلف المهاجع، أليس كذلك.
- تماماً.
- هناك أكثر من زميل، راقب أطراف المعسكر خلال هذه النوافذ، إياك أن تشرد.
- عُلم أيها الزميل.

نزلت مسرعاً نحو غرفة القائد سارو، وجدته يجلس وسط الغرفة ومن حوله أوراق ودفاتر، كان يقرأ في ورقة كبيرة، أضاء شعاع من الشمس قد دخل من خلال نافذة صغيرة تلك كومة الأوراق، وبين الفينة والأخرى يُسمع صوت انفجار قذيفة تهتز معها الطاولة الوحيدة التي في الغرفة اهتزازة خفيفة. لم يرفع نظره عن تلك الورقة، راح يعيد قراءتها، إلى أن انتهى فقال:

- أيها الزميل، هذه الورقة تحتوي على معلومات لا يجوز لأحد قراءتها سوى قائد القاعدة العسكرية التي ستذهبون إليها اليوم.

انحنى على تلك الكومة من الأوراق وأخرج ظرفاً بني اللون، طوى تلك الورقة عدة مرات ثم وضعها داخل الظرف، أحكم إغلاقها بمادة لاصقة، ثم مدها أمامه فاقتربت منه وأخذتها من يده، ثم أضاف قائلاً وهو يرتب الأوراق من أمامه:

- بعد قليل ستأتي السيارة ... ستنقلك مع زميلين آخرين.
- مفهوم أيها الزميل القائد، متى سيكون الرحيل تحديداً؟
- بعد قليل، أنت وكاند ودي، على أن تلحق بكم دفعة ثانية اليوم، وغداً البقية .... بإمكانك الانصراف الأن.
- حاضر.

عدت مسرعاً إلى البرج منتظراً الرحيل، وقبل أن أطلب من كاند العودة لنقطته قلت له:

- كن مستعداً، سنذهب سوية إلى المعسكر الجديد.
- أعلمني القائد بذلك.
- هل أخبرت دي بذلك؟
- ليس بعد، الآن سأخبره.

ثم انصرف، عدت أراقب أطراف المعسكر وأترقب مجيء السيارة التي ستنقلنا، أما الزميل شيد فلم يكن بمزاج من الممكن التكلم معه، بقينا صامتين، وفيما أراقب الجهة الشرقية من المعسكر بدأت سماع صوت محرك سيارة، حينها قال شيد:

- لقد اقتربت سيارة!
- نعم سيتم نقلي وإثنين من الزملاء بها.
- إذن أنت أيضاً ستغادر اليوم.
- نعم.

بعد قليل أضاف:

- ها هي قد وصلت.

لم تكن سيارةً مدنية كما توقعت، إنما عربة رباعية الدفع قد أزيل منها الرشاش الثقيل وأعيد صبغها باللون الأحمر، توقفت وسط الساحة وانطلق منها زميل نحو غرفة القائد، انتظرت في البرج إلى أن جاء أحد المتطوعين وقال لي:

- القائد سارو بانتظارك.

نظرت إلى شيد فوجدته مصوباً الرشاش نحو الجنوب، وقبل أن أغادر قلت له:

- أتمنى لك القوة والنصر أيها الزميل.
- شكراً لك.
- إلى اللقاء.

لحظة نزولي من البرج وجدت القائد مع الزميل الضيف يتوجهون نحو العربة، أما كاند ودي قد صعدوا إلى خلفها وجلسوا منتظرين، وقبل أن أصعد إلى جانبهم قال القائد:

- ضعوا البنادق والجعب داخل العربة.

- من الأفضل أن تبقى معنا أيها القائد، خاصة أن الطريق قريب من القرى. قلت للقائد.

- خلف كرسي السائق والمرافق هناك مساحة فارغة، ضعوا ما طلبت منكم هناك. أجاب بهدوء حتى يغلق باب النقاش.

نفذنا ما طُلب منا ثم صعدنا إلى العربة، نظر القائد إلينا وقال:

- من أجل سلامتكم طلبت منكم إخفاء الأسلحة، فطائرات الاستطلاع لا تغادر السماء، فالآن هيئتكم أقرب للقرويين منها لمقاتلين ... أتمنى لكم النصر ... إلى اللقاء.

- إلى اللقاء أيها القائد.

انطلقت بنا العربة مجتازة البوابة الرئيسية، سرعان ما بدأ المعسكر يصغر كلما ابتعدنا عنه، إلى أن اختفى البرج عنا تماماً، صحراء مفتوحة شاسعة، شمس حارقة، بيئة معادية. سارت بنا العربة أقصى الجنوب في طريق غير الذي سلكناه ساعة المجيء إلى المعسكر، بعد أقل من ساعة أصبحنا على طريق معبد ضيق، لك أن تتخيل مدى القلق الذي انتابني جراء تجريدنا من بنادقنا، فعلى الرغم أنها ستكون غير ذي فائدة لحظة الاشتباك، إلا أن وجودها معنا يبعث على الراحة، ناهيك عن خشية الكثير من القرويين من مهاجمتنا لو شاهدوها معنا، أما الأن فلا شيء معنا، يقول القائد سارو أن القرويين لن يشكوا أننا مقاتلين، لكن هذا غير دقيق، فهم يفرقون القروي من المدني من المقاتل.

جلست صامتاً، لم أصغي أو أشارك في الحديث الدائر بين الزميلين كاند و دي، وهذا الأخير من الزملاء الشباب وقد كان مرحاً، حيث الضحك و المزاح لا يفارقه لخلاصه من المعسكر التدريبي، أيضاً لابد أن يكون مشتاقاً لعائلته، فهناك خاتم في بنصر يده اليسرى، لم أكن أقل شوقاً منه للعودة إلى البيت، فقد اقترب موعد الانسحاب من هذه الخدمة التي لا يرجى أي فائدة منها سوى التضحية في المزيد من الشبان في حرب لم تعد حربنا، أما كاند بدا شارد الذهن، بدأ دي يتكلم بكل نشاط وأشار بيده إلى الجهة اليسرى من الطريق، نظرت إلى المكان المشار فإذا هي بخيمة سوداء كبيرة وعلى مقربة منها يسير قطيع من الجمال يقودهم راع , قال دي مازحاً :

- قريباً سأشتري جملاً.

رد عليه كاند:

- إنها باهظة الثمن يا زميل.
- فليكن ... عندما استلم رواتب الأشهر الماضية، سأشتري واحدة.
- كم مجموع تلك الرواتب؟
- حوالي مئة ألف.
- أها مئة ألف، إذاً ستشتري بها خصية جمل لا جمل كامل.

فضحك كلاهما، حتى ظهرت معها أغلب أسنان الفك العلوي لدي بألوانها الصفراء الداكنة، تفحصته جيداً أثناء ضحكته تلك، له وجه غريب بعض الشيء، محاجر العيون متقاربة أعلاها حواجب ثخينة متصلة بالإضافة إلى أنه أصلع، زد على ذلك القميص الزهري الذي يرتديه! أما كاند قد طغى الشيب على شعره، لقد سألته خلال إحدى نوبات الحراسة عن سبب الشيب، فأجاب بعد صمت طويل:

- لقد قُتل أخي الصغير قبل خمس سنوات، كانت صدمة لنا، ألمني ذلك كثيراً ومازال.

بعد انتهاء موضوع الجمال، بدأ دي بموضوع آخر وقد كان عن تربية الطيور، فأحاديث الحيوانات هو الموضوع الوحيد هنا، كان كاند يسايره في بعض الآحيان جاعلاً من نفسه مستمعاً لكلامه، غير أنه لم يكن يعرف معنى السكوت إلى أن قاطعه كاند قائلاً: " أريد أن أتبول ".

رد دي مقترحاً: " أخبرهم بذلك، فأنا أيضاً أريد أن أقضي حاجة ".

دق كاند الزجاج الخلفي لمقصورة القيادة عدة مرات، فأدار المرافق رأسه ليرى ماذا هناك، وهو رجل أربعيني برأس كبير وشارب أسود كثيف، تبادلوا إشارات عن طريق اليد، وفي النهاية أشار المرافق إلى ساعة يده ومن ثم رسم الرقم عشرة بجميع أصابعه، حينها هز كاند رأسه موافقاً وعاد وجلس كما في السابق، بعد قليل توقفت العربة إلى جانب الطريق بالقرب من غرفة بيضاء صغيرة، يقف أمامها مقاتل يرتدي بذلة خضراء داكنة عليها جعبة سوداء وهو يحمل البندقية بتأهب.

نزل الجميع من العربة، ألقينا التحية على ذلك المقاتل:

- طاب يومك أيها الزميل.

رد بإجابة واحدة: " طاب يومكم أيها الزملاء " وهو ينظر إلينا نظرات فاحصة.

اكتفيت بالوقوف إلى جانب العربة، أما البقية فقد انتشروا بعيداً وقد أخذوا يتبولون وقوفاً باستثناء دي الذي توجه نحو الزميل الحارس وسأله:

- أيها الزميل أريد أن أقضي تلك الحاجة " الثقيلة " فهل هنا من مرحاض؟

نظر إليه الحارس وهو يبتسم بشكل ساخر وكأنه طلب منه شيئاً مستحيلاً في هذه الصحراء، رد الحارس قائلاً:

- كل ما هو حولك مرحاض فاقض حاجتك أينما تريد، هيا لا تخجل.

بعدها قصد دي خلف غرفة الحراسة لقضاء حاجته، عاد السائق والمرافق أولاً إلى السيارة، غير أن المرافق أخرج بندقيته وقال للسائق:

- خرج لنرى.

رد السائق باستغراب:

- ماذا هناك؟

- اخرج بندقيتك وتعال.

عندما جاء السائق ببندقيته، قال المرافق:

- أترى تلك الحجرة. مشيراً إلى حجرة تبعد حوالي عشرين متراً عنهم.

- نعم أراها.

- حاول أن تصيبها.

صوب السائق بندقيته وبدأ يرمي دراكاً صوب الحجرة، لكنه لم يصيبها، كرر المحاولة بانتباه أكثر غير أنه فشل مجدداً، أنزل البندقية ليغير مكان الإبرة من دراكاً إلى رمياً، ومن ثم ضغط على الزناد، فانتشرت الطلقات بعيداً عن يمين ويسار وخلف الحجرة، خرج دي من خلف غرفة الحراسة وهو يركض مسرعاً ممسكاً بأعلى بنطاله دون أن يغلق السحاب والحزام، فقد ظن أن شيئاً ما قد حصل.

- افسح لي المجال. قال المرافق بكل ثقة، بدأ يرمي صوب الهدف، لكنه فشل كزميله، حينها قال له السائق:

- لقد استهلكنا أكثر من نصف ذخيرتنا، علينا العودة الآن. ومن ثم عادا إلى مقصورة العربة، أما حارس الغرفة فقد تابع هذه المباراة دون أي يقول أو يبدي أي اهتمام، قفزنا إلى الخلف، وحينما تأكد المرافق من صعود الجميع، انطلقت العربة مسرعة مجتازة تلك الغرفة أو نقطة التفتيش.

سأل دي مستغرباً:

- كيف للحارس أن يأتمن لمثل هذا المكان!

فأجبته على الفور:

- ألم تنظر إلى وجهه! إنه من سكان هذه المنطقة، ففي النهار معنا وفي الليل معهم ".

بدأت الحياة تدب في الصحراء، أخيراً بدأنا نرى أولى علامات الحياة، عربات عسكرية مدمرة مرمية هنا وهناك، وهي من أثار المعارك السابقة، إحداها كانت عربة نقل عسكرية مشطورة إلى جزأين، الجزء الأول يشمل المقصورة وجزء من المؤخرة وقد كانت على مقربة من الطريق، أما الجزء الثاني وهو ما تبقى من العربة، فقد طار بعيداً عن الطريق، لم تنقطع مشاهد قطع الخردة الصدأة تلك، وقف كاند فجأة وراح ينظر من أعلى المقصورة في الاتجاه الذي تسير إليه العربة، ثم نزل وجلس في مكانه:

- أصبحنا على مقربة من مدينة القصور، سنصلها بعد أقل من ساعة تقريباً ... المدينة التي ولدت فيها.

قلت في نفسي " أخيراً سنرى أشياءاً غير البنادق والخرائب "، حتى هذه القرى المتناثرة على مقربة المدينة أصبحنا نتفحصها باهتمام رغم أنها متشابهة فيما بينها، أخذت المشاهد تتكرر بيوت من الطين مسورة بجدار طيني منخفض، بداخلها أشجار تسقى من أبار محفورة، وحول البيوت وأمامها أطفال ورجال بأثواب معظمها بيضاء أو فضية، ولا أثر للنساء طبعاً، إذ جميعهن داخل البيوت. قلما يتواجد الدكاكين هناك , إلا واحدة أو اثنتين في بعض القرى، وهي دائماً ما تطل على الطريق المعبد الذي عادة يمر قرب القرية أو وسطها، هذه الدكاكين مبنية من الطين، وقد كتب على إحدى جدرانها أسماء المواد التي تباع لديهم (مواد غذائية – خضراوات – غاز الطبخ – وقود مكرر – رصيد للاتصالات) بالإضافة إلى اسم الدكان ورقم هاتفه , عادة ما يكون ذلك مكتوب بلون أسود مائل للأسفل وبخط غير جميل، و أمام الدكان تقف عادة دراجة نارية أو دراجات للباعة الذين يأتون بالمواد إلى الدكان أو زبائن من غير قرى، أما السيارات فلا وجود لها إلا نادراً، التنقل بواسطة الدراجات أوفر وأفضل لهذه البيئة، بدأت تزداد القرى أكثر من ذي قبل، نهضنا نحن الثلاثة من مكاننا لنشاهد تلك المناظر بشكل أفضل، استمر مشهد القرى المتناثرة المتشابهة على جانبي الطريق إلى أن ظهرت المدينة. الناظر إلى مدينة القصور من بعيد يحسبها مقبرة كبيرة،

فليس هناك سوى بيوت وأبنية ترابية اللون، عندما أصبحنا على مدخلها، فإذا بالخرائب مجدداً، فهذا شارع بأبنية ذات طابقين أو ثلاثة وقد سوي أغلبه بالأرض أما الأبنية المتبقية فباتت " هياكل عظمية " أي عبارة عن سقوف تثبتها أعمدة رفيعة من الأطراف بالأرض، أما الشارع يقسم إلى طريقين، ذهاب وإياب. وفي وسط ذلك الطريقين رصيف رفيع بلا أحجار في معظم جوانبه، وفي الوسط لا أثر للبلاط، إنما فقط التراب وحفر دائرية يبدو أنها كانت مكان أشجار النخيل، أزيل الركام من وسط ذلك الطريقين المهمين، مما أعاد ذلك فيهما بعض الحياة، حيث ترى فيها الدراجات النارية بين الفينة والأخرى متجهة إلى القرى أو قادمة منها.

كلما دخلنا أكثر إلى المدينة كلما أصبح الوضع أفضل حالاً، حيث تزداد البيوت التي رممت أو أعيد بناؤها، بدأ كاند – ابن هذه المدينة – بسرد ذكرياته لنا، التي عاشها في هذه الأماكن.

- انظروا جيداً إلى ذلك الدكان. وهو مغلق الآن وبهيئة سليمة، ومن ثم صمت زميلنا إلى أن قطعنا عدة شوارع، حينها قال:

- أما ذلك الدكان الذي في زاوية الشارع، هو لنا، حيث كنا نصلح السيارات المعطلة، أتذكر في الصيف الأول من الحرب جاءنا في أحد الأيام أربعة جنود تابعين للديكتاتور، كانوا في سيارة زرقاء، طلبوا منا أن نصلح لهم خلل في كهرباء السيارة، أجابهم أبي بأن يرجعوا بعد ساعة.

حينما عادوا وجدوها جاهزة، أعطوا لأبي ما طلب من أجر وانطلقوا من حيث جاؤوا، بعد ربع ساعة على ما أذكر، شاهدت رجالاً وحركة باتجاه الشارع الرئيسي، فطلبت من أبي أن أذهب وأرى ماذا هناك! فوافق لكن بسرعة، تجمع الأهالي حول شيء ما، والشرطة لم تكن قد جاءت بعد , فاخترقت ذلك التجمع، وإذا بي أرى تلك السيارة الزرقاء تماماً في المكان الذي أشرت لكم عليه قبل قليل، والجنود الأربعة بداخلها مقتولين برصاصات في الرأس، تطاير دماغ السائق على الزجاج الأمامي، أما جسمه فقد كان متكئ على المقود، كل واحد منهم قد نال رصاصة أو اثنتين في رأسه، أما الذي يجلس إلى جانب السائق فهناك أثر لرصاصتين في الرقبة، أما الاثنان الأخران فقد تمددا على جانبهما الأيمن وهم مضرجان بالدم، لقد امتلأت السيارة بالدم، لقد قتلوهم بمسدسات كاتمة للصوت .

كان كاند يذكر تلك الأشياء دون أن يظهر على وجهه أي تعبير، فهو لا يبالي لها، بعد صمت قصير عاد وأكمل حديثه، يبدو أن ذلك الدمار قد أفاق ما بداخله من ذكريات، فأضاف:

- أها مازالت صامدة، فعلى عمود الإنارة تلك علقت جثة شاب بثياب مدنية، في تلك الأيام كانت قوات القمصان السود تسيطر على المدينة ... محظوظ هذا العمود فقد نجا من المعارك التي دارات هنا، حينها كان الموت أمراً عادياً، اعتدنا على ذلك حتى أن امرأة ترتدي ثياباً أسوداً كانت تمشي أسفل ذلك الجسد

المعلق وهي ممسكة بيد طفلها المشغول بأكل الحلوى من كيس في يده، لم يرفع أحد منهما رأسه نحو ذلك المعلق، أكملوا طريقهم وكأنه لا موت هناك.

هبط برج الاتصال التابع للبريد، مستنداً على مبنى البريد المدمر وعلى جزء من الشارع، وفي نهاية الشارع دوار يؤدي إلى ثلاثة شوارع أخرى، كان كاند المتكلم الوحيد بيننا فلا حديث يدور سوى ذكريات أيامه تلك، وأضاف وهو يشير إلى دوار يحتوي على برج صغير، يبدو أنه يرمز لشيء ما وهو بقاعدة مربعة تصبح أقل اتساعا كلما ارتفعت، ومن حوله سور حديدي أسود اللون، وأعلى السور هناك رؤوس مدببة، كل نصف متر هناك واحدة.

- خلال فترات المعارك التي حدثت على أطراف المدينة، كان كل يوم تقريباً تعلق عدة رؤوس، أو بضع عشرات أحياناً، يتم غرسها في تلك النتوءات المدببة، حتى أنها في بعض المرات لم تكن تتسع للجميع، فوضعوا البقية أسفل السور على الأرض، رؤوس ملطخة بالدم والتراب بعضها بعيون مغلقة أو مفتوحة، منظر مرعب، قالها بقرف لأول مرة.

جلست في مكاني، فيما بقي كاند ودي واقفين حيث أكمل كاند سرد حوادث تلك الأيام، لفت انتباهي بقايا بناء قديم مبني من الطوب الترابي، وهو بتصميم مختلف عن بقية المدينة، فاستفسرت كاند عن ذلك:

- ما هذا البناء؟

- إنه قصر ... إحدى القصور الأثرية في هذه المدينة. ومن ثم عاد ليكمل حديثه للزميل دي.

انعطفت العربة إلى شارع ضيق يقع في أواخر المدينة، وفي وسط ذلك الشارع كان هناك نقطة تفتيش! بدت نقطة تفتيش قوية، وذلك يعني أنها مدخل قاعدة عسكرية هامة، فقد سد الشارع بجدار مبني من الخرسانة، يتوسطه باب حديدي كبير مائل للصفرة، يتسع لمرور عربة عسكرية، يتخلل هذا الباب نافذة صغيرة بحجم اليد، وهو مغلق بقطعة حديد لها نفس لون الباب. نزل المرافق من العربة وطرق ذلك الباب بقوة، لم يستجب أحد، فكرر المحاولة إلى أن أبعد أحدهم تلك القطعة عن النافذة لتظهر عيون الحارس وجزء من أنفه. تكلم المرافق مع الحارس كلاماً لم أسمعه لبعدنا عنهم وأيضاً لصوت العربة وأصوات المركبات من الشارع الرئيسي الذي خلفنا، اختفى وجه الحارس وعاد بعد قليل ليخبر المرافق شيئاً ما، الذي بدوره توجه مسرعاً نحونا وطلب منا النزول.

حينما وصلنا الباب نحن الثلاثة، قال المرافق للحارس:

- هؤلاء هم ... ثلاثة فقط.

- علم أيها الزميل ... بإمكانك العودة الآن.

أصدر الباب صريراً وهو ينزاح جانباً، حينما أصبحت المسافة المفتوحة تكفي لمرور شخص، توقف الحارس، فدخلت أولاً ومن ثم الزميلين، فبادرته بالتحية:

- طاب يومك أيها الزميل.

- ويومك أيضاً ... أكملوا المشي حتى نهاية هذا الطريق ومن ثم انعطفوا للجهة اليسرى، فالقائد هناك بانتظاركم.

ومن ثم عاد ليغلق ذلك الباب، وقد وجد بعض الصعوبة في جر الباب نظراً لنحافته، مشينا في ذلك الطريق فعلى يمينه جدار إسمنتي مرتفع أعلاه أسلاك شائكة، وفي الجهة المقابلة جدار أبيض بستة نوافذ كبيرة مغطاة بشبك صدأ، ما زالت رسومات أطفال صغار يلعبون بالكرة ظاهرة أسفل طلاء أبيض حاول إخفاء تلك الرسومات بتفاصيلها وألوانها، و حينما انعطفنا، إذ بزميل أربعيني بشعر قصير و ذقن مثلها يجلس على كرسي كبير مريح بجلد أسود، وهو كرسي عادة ما يكون مخصص لمدراء الدوائر الحكومية، كان يحمل بيده جهاز اتصال لاسلكي أسود , إلى جانبه يقف زميلان شابان مسلحان ببنادق سوداء حديثة، أخذ الزميل القائد ينظر إلينا بعيون تراقبنا، وعندما أصبحت على مقربة منه ألقيت التحية:

- طاب يومكم أيها الزملاء.

- ويومك أيها الزميل.

توجهت بالكلام إلى ذلك الزميل القائد:

- أيها الزميل، جئناكم من معسكر تدريبي. ومن ثم أخرجت الظرف من جيب بنطالي وأعطيته إياه، ففضها وألقى نظرة عليها، ثم قام من مكانه وطلب مني أن أرافقه إلى الداخل.

راقبت المكان وإذ هي مدرسة ابتدائية تم تحويلها إلى مقر عسكري، تقع مقابل هذه المدرسة مدرسة ثانية من ثلاثة طوابق، كانت كلاهما تشتركان في ساحة واحدة طولها حوالي مئة متر وعلى مقربة من المدرسة الابتدائية توقفت ثلاث مدرعات مدولبة قد أزيل الرشاش الثقيل من فوقها، وإلى جانبهما عربة هندسية لرفع الكتل الإسمنتية وأيضاً عربتي دفع رباعية بيضاء، أحاط بالمدرستين جدار إسمنتي مرتفع وبأسلاك شائكة، فأصبحت بذلك قاعدة عسكرية مستقلة مفصولة عن البيوت السكنية الملاصقة لها، فيما انتشرت التحصينات من أكياس الرمل على سطح المدرستين، تحصين في كل زاوية من السطح، داخل المدرسة الابتدائية عبارة عن ممر طويل له جدار مصبوغ باللون

الأبيض للنصف الأعلى والفضي للأسفل وعلى كل جهة ثلاثة غرف بأبواب من الخشب فضية اللون.

فتح القائد الباب الأول من الجهة اليمنى، وهي مقر القيادة، ففي صدر الغرفة تقع طاولة فضية كانت مخصصة في السابق لمدير المدرسة، فارغة تماماً سوى من علبة مربعة صغيرة بداخلها قلم رصاص، وخلف كرسي القائد الذي يقع خلف الطاولة، علقت صورة لقائد الميليشيا الغاضب، وهي مطبوعة على قطعة قماش وقد ثبتت بأربعة مسامير على الجدار، مقابل الطاولة وعلى الجهتين انتشرت مقاعد مريحة واسعة مغطاة بجلد أسود، وأعلى الجدار علقت لوحة خشبية بيضاء اللون بداخلها العلم الأصفر وكذلك علم القوات الصديقة ذي اللون الأزرق والأحمر بنجوم بيضاء، وأسفل العلمين قد كتب " إخوة في السلاح إلى الأبد ". وهذه اللوحة هي كل ما تركتها القوات الصديقة خلفها!

جلس القائد على الكرسي القريب من الطاولة ووضع جهاز الاتصال اللاسلكي الصغير فوق الطاولة، أعاد قراءة تلك الورقة، فيما جلستُ على المقعد الأول من الجهة المقابلة له، أشاح نظره عن تلك الورقة وسأل:

- هل تدربتم على كل الأسلحة؟
- تقريباً ... لكنها سريعة وغير كافية أبداً.
- من الجيد أن الدورة انتهت بترك زميلين اثنين فقط كما هو مكتوب في هذه الورقة, هنا في هذه القاعدة حينما كانت القوات الصديقة ماتزال موجودة كنا خمسة وستين زميلاً، ومع بدء الحرب وانسحاب القوات الصديقة إلى أقصى الشرق، ترك ثمانية وخمسون زميلاً السلاح خلال عدة أيام، في إحدى الأيام قام عشرين زميلاً بخلع بذلاتهم ووضعوها مع الأسلحة داخل الغرفة الملاصقة للبوابة الرئيسية ومن ثم هربوا إلى داخل المدينة، يا للمصيبة، تركوا البوابة دون حراسة والأسلحة بالقرب منها، لم نكتشف الأمر إلا حينما ذهب عدد من الزملاء إلى البوابة حينما حان موعد حراستهم، والآن نحن سبعة فقط، سبعة داخل هذه القاعدة.

أصدر جهاز الاتصال أصواتاً متداخلة، انقطع الاتصال ومن ثم عاد صوت واحد واضح، قال:

- أيها الزميل القائد، لقد وصلت دفعة جديدة من الزملاء.
- أدخلهم للقاعدة.
- حاضر.

أكمل القائد كلامه مستفسراً عن بعض تفاصيل الدورة التدريبية يبدو أنها غير مذكورة في الورقة:

- غريب ... لا تتضمن الورقة تقييماً لسلوك الزملاء!
- يجب الأخذ في الاعتبار أن الدورة لم تكتمل بالشكل المعتاد.
- ذلك ليس مبرراً، اسمع سيكون لنا اجتماع أخر لتحدد لي مستوى الزملاء على كل سلاح.
- حاضر يا زميل.
- الأن بإمكانك أن الانصراف والاستراحة من تعب السفر أنت وبقية الزملاء، عليكم بالغرفة التي تقع إلى جانب الإدارة، أي الغرفة الثانية من الجهة اليمنى.
- علم أيها القائد. ثم نهضت من مكاني.
- تذكرت، هي أيضاً غرفة الأرشيف، وستكون ابتداءاً من اليوم أنت المسؤول عن أرشيف القاعدة.
- أنا جاهز.
- خذوا قسطاً من الراحة الآن لتبدؤوا اعتباراً من هذه الليلة نوبات الحراسة.

مع وصول ثلاثة زملاء آخرين، أصبحنا بذلك ستة الآن، طلبتُ من كاند و دي أن يأتوا معي إلى غرفة الأرشيف، أما الثلاثة البقية فقد أرسلتهم إلى المبنى الثاني أو المدرسة الثانية.

الصق أعلى باب الغرفة الثانية ورقة بيضاء قد كتب في وسطها وبخط كبير " الأرشيف "بجانب الباب من الداخل هناك طاولة خشبية سوداء وعليها حاسوب محمول فضي، وإلى جانبه مجموعة من الأوراق البيضاء وجهاز طباعة، وإلى يسار الطاولة وعلى الأرض وضع صندوق أزرق بداخله حزم من الأوراق البيضاء وكذلك علب الحبر، وعلى الجدار الأيمن للغرفة وعلى مقربة من الباب، تم تثبيت خمسة مسامير كبيرة، ثلاثة منها قد علقت عليها بنادق سوداء حديثة، وقد ثبتت عن طريق تمرير جهاز التسديد المعدني خلال المسمار، وإلى يسار الغرفة وضع سرير عسكري مفرد وفي صدر الغرفة سرير بدورين .

تفحصت إحدى تلك البنادق المعلقة، وجدتها جديدة تقريباً، أخذت واحدة ثم علقت بندقيتي القديمة مكانها، وعلى مسمار غير مشغول، علقت الجعبة، عدت مع البندقية السوداء إلى السرير المفرد لأنام، فيما سبقني كاند ودي وناما.

- أيها الزملاء ... أيها الزملاء.

استيقظت فجأة من النوم وإذا بزميل قصير ممتلئ يقف وسط الغرفة ينقل نظره بيننا، نظرت إليه وقد بدا لي غير واضح، فمازلت أشعر بالتعب وبحاجة للمزيد من الراحة:

- نعم أيها الزميل؟ سألت بصعوبة.
- تهيؤوا لنوبة الحراسة فهي بعد عشرة دقائق.
- علم أيها الزميل.

لاحظت أنه لمح معي البندقية السوداء، فقلت له:

- نعم سأستخدمها في الحراسة، فبندقيتي بحاجة للتصليح.
- هل أخبرت القائد بذلك؟
- ليس بعد.
- أخبره إذن.
- أه طبعاً ... هل هذه البنادق جاهزة؟
- طبعاً، وهي ممتازة، لقد رميت بها منذ شهر تقريباً.

فيما انهض لأرتدي الجعبة، أخبرت الزميل:

- عليك العودة وإيقاظ الزميلين إن تأخروا.
- سأعود إليهم بعد خمس دقائق.

خرجت مع الزميل القصير من الغرفة، وفي الممر سألته:

- في أي نقطة عليً أن أحرس؟
- لا أعلم، راجع القائد فهو المسؤول عن تنظيم الحراسة.

أكمل هو طريقه وخرج من المبنى فيما دخلت إلى غرفة القيادة، حيث القائد يجلس على ذلك الكرسي الكبير وهو يتكلم بالهاتف، انتظرته إلى أن انتهى من المكالمة، ألقيت عليه تحية المساء ومن ثم سألت:

- إلى أي نقطة حراسة عليَ أن أذهب؟

نظر إلى ورقة موضوعة على الطاولة وقال:

- فوق هذا المبنى. وقد أشار بأصبعه للسقف، أضاف:
- أين بندقيتك التي أتيت بها؟
- في الغرفة، استبدلتها بهذه البندقية بشكل مؤقت، فتلك لا تعمل.
- لا تعمل؟
- بحاجة إلى تصليح.

فكر قليلاً ثم قال:

- بإمكانك الذهاب الآن.
- حاضر.

صعدت بواسطة سلم حديدي إلى سطح المبنى، هناك تم إنشاء أربع تحصينات، واحدة في كل زاوية، يتنقل بينهم زميل طويل يحمل البندقية بوضع الاستعداد.

- مساء الخير أيها الزميل.

نظر خلفه وأجاب:

- مساء النور.
- تتنقل بين كل التحصينات!
- من المفترض بين اثنتين فقط ... لكني وحيد هنا.
- ها قد وصلت.
- إذن التحصينات التي تطل على المدينة لك، والبقية لي.
- لا مشكلة.

كانت المدينة بأضواء قليلة للغاية، تبتدأ بعد مئة متر من حول القاعدة، أما أصوات السيارات أو الدراجات النارية، فهي منعدمة تقريباً في الليل، وقفت خلف التحصين أراقب الأرجاء بكل حذر، فهذه المدينة من أخطر المدن على الإطلاق لقد كانت عاصمة لقوات القمصان السود وخزاناً بشرياً

لها، لقد مدتها بآلاف المقاتلين في السابق، مع الفجر أصبحت معالم المدينة أوضح، كان هناك القليل من البيوت والأبنية التي ما تزال سليمة وسط المدينة أما ما تبقى من حولها كانت عبارة عن ركام، خلال الصباح وصلت بقية العربات التي نقلت ما تبقى من الزملاء في المعسكر التدريبي، وفي الظهر عقد لنا القائد اجتماعاً في الإدارة ، ضم الاجتماع زملاء الدورة التدريبية، بدأ الكلام بوصفٍ للوضع العام، وما علينا من واجبات خلال الفترة المقبلة، وفيما القائد مشغول بالكلام فجأة رن هاتفه الخاص، فضغط على زر اسكت معه الجهاز، بعد عدة دقائق رن الهاتف مجدداً، مما تسبب في قطع حديثه للمرة الثانية، فتح الهاتف وتكلم مع أحدهم:

- أهلاً يا زميل ... كم شخص تحديداً؟ ... أغلبهم نساء! نعم.. يسألون عن أبناءهم! ... أعد لهم الشاي وسآتي بعد قليل.

ومن ثم أكمل حديثه:

- عليكم أن تكونوا مستعدين في أي لحظة للذهاب إلى الجبهة والقتال هناك ... أعلم أنكم غير مدربين جيداً، لكن ذلك لا يمنع من مشاركتكم في القتال.

ومن ثم نظر إلي وقال:

- أيها الزميل، عليك بتحضير قائمة تضم معلومات عن كل الزملاء ... ستجد في حاسوب الأرشيف نسخة قديمة عن تلك القائمة، قم بعمل واحدة مثلها.

ثم صمت وهو يمعن النظر في الجميع وبنوع من القرف قال:

- صراحة لا أحبذ أن أراكم بثيابكم الملونة هذه، سنأتي لكم ببذلات عسكرية جديدة هذه الأيام.

بعدها انتهى الاجتماع وانصرف الجميع , عدت إلى غرفة الأرشيف لإعداد قائمة المعلومات، تضمن الحاسوب خمسة عشرة ملفاً، وكل ملف يحتوي على معلومات كاملة عن مقاتلين تم تجنيدهم مؤخراً انطلاقاً من هذه القاعدة، تتفاوت أعدادهم في كل قائمة، وهي تتراوح من عشرة إلى خمسين اسماً في القائمة الواحدة، قمت بإعداد قائمة جديدة تتضمن معلومات عنا نحن (الاسم الحقيقي الكامل و الاسم الرمزي – تاريخ ومكان الولادة – تاريخ السحب – رقم السلاح - قياس البذلة – السلوك خلال الدورة – مستوى إتقان استخدام السلاح) لكني أبقيت " السلوك ومستوى الإتقان " فارغين , لسببين , الأول أنه من المرجح أن تكون تلك الورقة التي نقلتها من القائد سارو إلى قائد هذه القاعدة تتضمن شيئاً واو قليلاً عن هذين الأمرين , والسبب الثاني أني لا أريد أن أتحمل وزر أحدهم , فمثلاً الزميل مر يمتلك جسماً ضخماً وقد أبدى مهارة جيدة في فك وتركيب والرمي بالرشاش الثقيل خلال الدورة، لدرجة أن الزميل بانو قد نظر إليه بإعجاب وقال: أنت خلقت لتكون

رامي رشاش ثقيل، والآن إذا ما ضمنت القائمة هذه المعلومات التي ذكرتها، ماذا سيكون موقف القائد؟ سيرسله مباشرة إلى الجبهة كرامي رشاش نظراً لقلة المقاتلين خلال هذه الحرب، وأنا متأكد أن مر غير مؤهل بعد لخوض المعارك، وإن كان قادرا على استخدام هذا السلاح، لكنه غير قادر بعد أن يستخدمه بالشكل الصحيح على الجبهة، لإنه سرعان ما سيقتل، راجعت الإدارة فلم أجد القائد، وفي صباح اليوم التالي استدعاني، وحينما دخلت إلى الإدارة وجدته وزميل أخر يتباحثون في موضوع ما:

- صباح الخير.

- صباح النور أيها الزميل.

- القائمة جاهزة، أبقيت نسخة في الحاسوب وهذه نسخة ورقية. ثم وضعتها أمامه على الطاولة، قرأ القائمة ومن ثم مررها للزميل الأخر، ليقرأها بدوره، سألني القائد:

- هناك ثلاث قوائم فارغة!

- نعم، سبق وقد أخبرتكم أن بنادق الزملاء لا تعمل، وهي غير مؤهلة لخوض المعارك.

- صحيح، وقد كلفت أحد الزملاء بمسؤولية استبدالها خلال هذين اليومين ... وماذا عن بقية القوائم؟

- من المفترض أن يكون القائد سارو قد زودكم بها.

- لم يذكر شيئاً من هذا القبيل.

- أيها الزميل، هناك القليل منا قد سبق وخدم كمتطوع أو كان جندياً في الجيش قبل الحرب، أما البقية فكلهم أغرار وبحاجة إلى المزيد من التدريب.

- وهذا ما كنت أفكر فيه، أن أرسل أصحاب الخبرة إلى القتال وأبقي الأغرار، لكن القيادة رفضت طلبي، وطالبت بإرسالكم جميعاً.

- أنتم والقيادة أدرى.

سمعت أصوات مشي مجموعة من الأشخاص في الممر متجهين نحو المطبخ، وهي الغرفة الثالثة من جهة اليمين، أي بعد غرفة الأرشيف. تلاها إلقاء تحية الطعام، أكمل القائد كلامه:

- سيتم ارسالكم خلال الفترة المقبلة، لكن لابد من إجازة ولو قصيرة، لتودعوا عائلاتكم.

- سيكون ذلك جيداً بالطبع.

خرجت من الإدارة عائداً إلى الأرشيف، منتظراً خروج الوافدين الجدد من المطبخ لأقوم بعمل قائمة معلومات عنهم، سمعت وقع خطاهم وهم يخرجون من المطبخ باتجاه الخارج، ثم تم تشغيل إحدى العربات العسكرية داخل القاعدة، على الفور هرعت نحو الساحة مستغرباً، وعندما وصلت وإذ بي أرى مجموعة من الأطفال يصعدون إلى العربة التي جاؤوا بها، فقصدتهم لأسأل السائق إذا ما كان لديه قائمة تتضمن معلوماتهم، لربما نسي.

- طاب يومك.
- ويومك أيها الزميل.
- ربما قد نسيت ... لم نقم بتسجيل معلوماتهم! وقد أشرت إلى خلف العربة.
- أه ... القائمة معي، جئنا في استراحة إلى هنا، والآن سنكمل طريقنا صوب أقصى الشرق.
- بالتوفيق.
- شكراً لك.

اتجهت مباشرة لخلف العربة، وهي تعج بأطفال ما بين العاشرة والخامسة عشرة عاماً، كانوا بثياب مدنية، يرتدون فوقها جعب عسكرية وبأيديهم بنادق، وقد بدت كبيرة بالنسبة لحجمهم، هيئتهم تدل أنهم من أبناء أقصى الشرق، فهم بلباس بالية للغاية ومتسخة، كذلك يبدو أنهم لم يستحموا منذ مدة طويلة، فالغبار يملئ شعرهم الأشعث المجعد، سألت من بدا أنه أكبرهم سناً:

- كيف حالك؟
- بخير.
- من أين جئتم؟
- من المعسكر التدريبي.
- كنتم في دورة تدريبية إذن ... أي معسكر تحديداً؟
- لا أعرف اسمه!
- كم مدة تلك الدورة؟
- عشرة أيام تقريباً.

- ماذا تعلمتم خلالها؟
- الرمي بهذه البندقية، وقد ضرب كفه الأيسر على قبضتها الأمامية الخشبية.
- أيضاً الرشاشات؟
- لا ... هذه فقط.
- كم طلقة رميت خلال الدورة؟
- خمسة عشرة طلقة، خمسة دراكاً وعشرة رشاً.
- **فقط!**
- نعم فقط.
- إلى أين ستذهبون الآن بالتحديد؟

أخرج السائق رأسه من شباك العربة وقال:

- أيها الزميل حان وقت الرحيل، فالمكان الذي سنقصده بعيد.

ابتعدت عن العربة لتسير باتجاه البوابة فيما الأطفال خلفها يتكلمون ويضحكون دون أن يعرفوا ما ينتظرهم، مساء نفس اليوم وصلت دفعة ثانية من الزملاء، وقد شاهدتهم وأنا في نوبة الحراسة أعلى المدرسة الابتدائية، اتجهوا إلى الداخل حيث كان القائد بانتظارهم، بعد قليل صعد كاند إلى سطح المدرسة وهو يحمل بندقيته، وقف إلى جانبي وقال:

- جئت لأستلم عنك الحراسة، فالقائد يطلبك.

وبدون أي كلام نزلت لأجد أن أغلب الزملاء الضيوف قد تجمعوا في الممر والقليل منهم في الساحة، على مقربة من باب المدرسة، فتحت باب الإدارة، فبادرني القائد قائلاً:

- قم بتسجيل معلومات الزملاء بسرعة، وزودني بنسخة منها.

انطلقت إلى غرفة الأرشيف، وقد بدأ الزملاء بالتوافد إلى الغرفة دون أي تنظيم، إلى أن أخرجتهم وطلبت منهم أن يقفوا في صف واحد في الخارج ثم أضفت:

- في كل مرة يدخل واحد فقط.

عندما اقتربت من الانتهاء، حيث لم يتبقى سوى أولئك الذين توقفوا على مقربة من المدرسة، وإذ بالزميل شير يدخل وهو بوجه شاحب كالأموات! وقفت مستغرباً.

- شير هذا أنت؟
- نعم أيها الزميل.
- ماذا تفعل لوحدك هنا؟ وأين بقية الزملاء المتطوعين؟
- لا أعلم من بقي منهم حياً ومن مات.
- كيف ذلك؟
- القصة طويلة يا زميل.

سجلت معلوماته على عجل وسلمت القائد نسخة عن القائمة، لأعود لشير وأفهم منه ما جرى وذلك قبل أن ينطلقوا، مشيت معه إلى الساحة وهناك بدأ يخبرني ما حصل معهم.

- أتتذكر حينما جاءت المدرعة إلى المعسكر التدريبي وحملتنا مع القائد بانو؟
- نعم ... تذكرت ذلك اليوم.
- انطلقت بنا المدرعة إلى مكان قريب من جبهة القتال في المدينة، انتظرنا إلى أن جاء القائد سارو ومعه من تبقى من المتطوعين، وفي ليلة اليوم التالي تم تقسيمنا إلى مجموعتين، المجموعة الأولى قتالية تضم القائدين وأغلب المتطوعين وزملاء آخرين، أما المجموعة الثانية مجموعة الدعم الناري وقد كنت من ضمنها، سار الرتل الأول في البداية، وبعد ربع ساعة سرنا نحن الرتل الثاني في خمس عربات، كنت في العربة الرابعة أي قبل الأخيرة، وهذه العربة تحمل قذائف للمدفعية الخفيفة، وعند الاقتراب من المدينة دوى انفجار قوي أمامنا، فقد تطايرت أجزاء العربة الأولى والثانية من رتلنا في كل مكان تلاها عدة انفجارات استهدفت الرتل الأول، إذن لقد اكتشف طيران العدو موقعنا وبدأ بعملية تدمير الرتلين , تذكرت أني داخل عربة ذخيرة، ولا مجال للانسحاب بها، فخرجت منها ببندقيتي فقط وكذلك فعل من بقي حياً من الزملاء، تشتتنا في كافة الجهات، حاولت أن أسير في نفس الطريق الذي جئنا منه، لكني لم أهتدي إليه كوننا تحركنا ليلاً فلا أنوار تضيء الطريق ولا كهرباء في تلك الأماكن. بقيت أركض نحو الجنوب بين القرى إلى أن عثرت عليَّ دورية للزملاء تجوب تلك الأماكن بحثاً عن الهاربين من الجبهة، لكني شرحت لهم ما جرى معي.

- وماذا عن بقية الزملاء؟

- كل ما أعرفه أن خمسة من الزملاء قد نجوا من القصف، أما القائدين فقد قتلا في تلك الغارات، ألم تسمع أسماءهم على قناة الشمس؟

- لم أشاهد التلفاز منذ أيام المعسكر التدريبي.

- بقيت جثاميهم هناك دون أن تستعاد، بل أن أحد الأعداء قد استخدم هاتف القائد بانو في الاتصال بأهله واخبارهم أن ابنهم قد قتل وهو الآن ممد أمامه ... لقد أخبرني بذلك أحد الزملاء.

في تلك اللحظة تم تشغيل إحدى مدرعات هذا المعسكر والتي كانت بدون رشاش ثقيل، نظر إليها شير لبرهة ثم أمسك يدي مودعاً واتجه صوبها، لينطلقوا مجدداً إلى مكان ومصير ستحددها لهم " القيادة"، وفي صباح اليوم التالي ُطلب مني ومن خمسة رفاق أن نكون جاهزين خلال نصف ساعة، للنزول في إجازة مدتها ثلاثة أيام، أطفأت الحاسوب وأعدت تعليق البندقية إلى الجدار، بعد أقل من ساعة عادت بنا العربة من الطريق التي سلكتها الحافلة أول مرة.

شتاء القنابل

عدت وتأكدت بما في حقيبتي من عدة السفر ريثما ينتهي أبي من صلاة الصبح، فتحت الجيب الأول، ورحت أقلب بين الكتب، إحداها كبير الحجم وهو " المفصل في علوم البلاغة " وثلاثة كتب أصغر حجماً، نظرية الأدب، الشعر الحديث وفقه اللغة، بالإضافة إلى رزمة مكونة من بضع مئات من الأوراق، وهي كل ما تبقى لدي من محاضرات السنة الأخيرة من الجامعة، أما الجيب الأخر فاكتفيت بالنظر إليه دون أن أدقق في محتوياته، كونه لا يتعدى سوى القليل من الثياب الضرورية.

وضعت الحقيبة جانباً منتظراً أبي، لكنه وبعد أن أنهى صلاته، بدأ هذه المرة بالدعاء، وكوننا سنسافر فلابد له بالمزيد من الوقت، فهذه المرة سيتلو عدة أدعية منها دعاء التوفيق والسفر، أي من خمسة إلى عشرة دقائق أخرى ...

فماذا سأفعل خلال هذه المدة؟

عدت مجدداً وعلى ضوء مصباح الزيت أدقق في رزمة المحاضرات تلك، فلابد من ذلك... كوننا سنمر خلال الطريق بحواجز قوات القمصان السود، والخطأ الأول هو الأخير لديهم، ما من رحمة مع من يخالف قوانينهم، لهذا عليَ أن أدقق جيداً عن محتوى تلك الأوراق خشية أن تحتوي على محاضرات الغزل الإلهي أو التغزل بالغلمان وغيرها من موضوعات فترة " انحدار الشعر في الشرق ".

أخرجت الأوراق إلى خارج الحقيبة ورحت أقلب فيها.

- هل أنت جاهز؟ سألني أبي.

لقد انتهى وأخيراً من تلك الأدعية، رفعت نظري عن الأوراق نحوه، فوجدته مازال يجلس في وضعية الدعاء وهو ينظر إلي.

- نعم جاهز، بانتظارك.

- منذ البارحة قد أخبرتك أن تكون حقيبتك جاهزة!

- هي كذلك، كل ما في الأمر أني أردت أن أتأكد ما فيها ... هل انتهيت من الصلاة؟

- أجل.

- وهل قمت بالدعاء لي؟

- بالطبع، الدعاء مفتاح التوفيق.

قالها وهو ينظر إلي، منتظراً إجابتي، كان يعلم جيداً بما أفكر، لكني سكتُ ورحت أعيد الأوراق إلى الحقيبة، ترددت أن أطلب منه ألا يقوم بالدعاء لي ثانية، لكن لا فائدة من ذلك.

- هل يلزمك الكثير من الوقت حتى تنهي عملك هذا؟

- انتهيت. حينها أغلقت السحاب.

- ضع بعض الثياب الشتوية الإضافية، حتى نأخذها لأخيك ماد.

- البارحة اتصلت به واستفسرت إن كان بحاجة لشيء.

- وماذا أجاب؟

- لا أريد شيئاً، يوجد لدي كل ما أنا بحاجة إليه.

- إذن احمل المصباح وتعال معي إلى المطبخ.

حملت المصباح بهدوء حتى لا تنطفئ ناره، طوى أبي سجادة الصلاة ووضعها جانباً، ومشى بعدها إلى المطبخ وأنا أسير خلفه.

- ضع المصباح فوق الرف ... اخرج ذلك الكيس الأسود من الثلاجة.

لم يكن في الثلاجة من أشياء غيره، على الرغم من انقطاع الكهرباء لأكثر من نصف يوم، إلا أن الكيس ما يزال يحتفظ بالقليل من البرودة، تحسسته برؤوس أصابعي، كان بداخله شيء ما بين الليونة والصلابة، فسألت:

- ما هذا؟

- جبن، أعطني إياه بسرعة.

- كان من الأفضل شراءه من المدينة.

- من المدينة! وهل تستطيع أن تشتري هناك شيئاً؟

- أدرك أنها أغلى، لكنها على الأقل طازجة أكثر.

- ليست أغلى، بل أسعارها بأرقام فلكية، لقد بات طعام تجار الحرب، أما الفقير فليس لديه سوى الخبز والشاي.

حاول أن يجد مكاناً للكيس في حقيبته لكنه بقي يحاول إلى أن ازداد غضباً، فأشار إلى المصباح وقال بلهجة مستاءة:

- انزل ذلك الشيء قليلاً لأرى جيداً.

أنزلته له، بقيت واقفاً ممسكاً المصباح أعلى أبي وهو يحاول مع الحقيبة السوداء، وهي حقيبة قمت بشرائها قبل الحرب، واستخدمتها خلال فترة التدريب العسكري الجامعي، وبعد ذلك رميتها في القبو كونها لم تعد تلزم، إلى أن رأيت أبي في إحدى الأيام يتهيأ للسفر وهو يحزم أشياءه بحقيبتي تلك.

وإلى الآن مازال يستخدمها، فتح السحاب حتى النهاية وأخرج ما بداخلها، وضع كومة الثياب جانباً ومن بينها بنطاله البني، وهو الذي قالت عنه جارتنا يوماً لأبي أثناء ذهابه إلى المدرسة:

- أريد أن أسألك سؤالاً أيها الجار.

- تفضلي.

- أليس لديك المال لتشتري بنطالاً أخر غير هذا البني؟

- أها، لدي من المال ما يكفي لشراء ملابس تكفيك لعدة سنوات، لكن أخبريني بكل صراحة، أيهما أهم: أن أهتم بعائلتي أم أشتري بنطالاً يبهج نظر جارتي؟

وإلى الآن مازال البنطال في الخدمة، وإن بات دوره ثانوياً، حيث الذهاب إلى الدكان أو استقبال ضيوف من الدرجة الثانية.

بالإضافة إلى البنطال البني وضع الثياب الداخلية وتلك المخصصة للخروج، كيس أسود صغير يحتوي على عدة الحلاقة، لم يكن قد ربط هذا الكيس جيداً، ظهر منه الفرشاة

والمعجون وماكينة قديمة وشفرات حلاقة جاهزة مستعملة عدة مرات، فذكرته بكلام طالما كنت أعيده حينما أجده يحلق ذقنه:

- يا أبي، ليس من الجيد إعادة استخدام الشفرات المستعملة، فقد تحمل الجراثيم، والتي بدورها قد تدخل الجسم عن طريق الجرح.

وضع كيس الجبن أولاً في الحقيبة بعدها كيس الحلاقة ومن ثم حشر الملابس في المساحة المتبقية، وفيما يغلق الحقيبة قال:

- أكثر من خمسة وأربعين سنة وأنا أستخدم الشفرات المستعملة، إلى الآن لم يصيبني شيء مما قلته، والآن سر إلى الغرفة قبلي أيها الطبيب حتى ألبس، فلم يعد هناك الكثير من الوقت.

سرت والمصباح إلى الغرفة، هناك ارتدى أبي ذلك القميص المخطط والبنطال الأسود على عجل ومن ثم السترة السوداء بعدها حمل الحقيبة السوداء وأنا أيضاً حملت حقيبتي البنية الجديدة والتي بسببها ألقى الجندي القبض عليَّ قبل عدة أشهر، نفخت على المصباح نفخة قوية فانطفأت معها، حل الظلام في الغرفة، خرجنا من البيت، أدار أبي المفتاح في القفل عدة دورات، ومن ثم تأكد من متانة القفل بدفع الباب بشكل قوي إلى الداخل، فلم يفتح، إذن كل شيء على ما يرام فانطلقنا نحو المرأب.

مازال الشارع مظلم والسماء غائمة، لكنها لم تمطر بعد، مشينا في صمت بين بيوتٍ ماتزال تحمل أثار المعارك الأخيرة رغم محاولة ترميمها، إلى أن كسرت ذلك الصمت، عدت وكررت ما أقوله حينما أمر بجانب هذا البيت، وهو من أكثر البيوت تضرراً، حيث ملأت الثقوب جداره الخارجي، لكن بدلاً من هدم هذه المصفاة، قاموا بملأ تلك الثقوب بالإسمنت!

- أي صبر لديهم!

- مجبرون على ذلك.

- من المفترض أن يهدموه ويبنوا واحداً جديداً مكانه، فهو هش بشكله هذا.

- لو كان لديهم المال، لقاموا بذلك.

أضاف وهو يشير إلى ثلاثة كلاب يفترشون الرصيف:

- منذ أن غادر " جِك " المدينة وقد ازدادت أعداد الكلاب الشاردة في المدينة ... كان يقتل العشرات منها في الجولة الواحدة، كلما قتل أكثر، كلما حصل على مكافأة أكبر من مدير البلدية، لكنه لم يعد موجوداً، لابد أنه الآن يجالس شياطين جهنم ... ولا أحد يقوم بعمله.

أما جك فهو رجل خمسيني له هيئة قطاع الطرق، كان يعيش هنا في مدينة المحطة قبل قيام الحرب، حيث ينظف الشوارع ويقتل الكلاب، وما إن نشبت الحرب حتى غادرها إلى مدينة القلعة وتطوع لدى قوات الديكتاتور، أتذكر أني رأيته أخر مرة قبل ثلاث سنوات أثناء دراستي في الجامعة، كان جالساً مع صاحب البيت الذي أستأجر غرفة لديه، كان جك جالساً على الأرض مقابل صاحب البيت ولفافة التبغ بين أصابعه، يتكلم بنوع من الفخر:

- يطلقون عليَ لقب عزرائيل ... علاوة على المشاركة في القتال، أقوم أيضاً بحرق جثث قتلى العدو، نقوم بجمعهم فوق بعضهم في شكل تلة، ومن ثم يبتعد البقية، فأقترب من الجثث وأخرج قداحتي، وأبدأ بحرق لحاهم ليمتد النار رويداً رويداً إلى شعرهم الطويل وثيابهم، فتتحول تلة الجثث إلى كتلة نار، والدخان يتصاعد عالياً. ثم أعقبها بضحكة خفيفة وهو ينظر في عين صديقه.

- ولماذا لا تدفنوهم؟ سأله صاحب البيت.

- أين لنا ذلك، فلا جرافات هناك، ثم من يستطيع الحفر لتلك الأعداد! فالحرق أسرع حل ...أتعلم لو لم أقم بذلك لانتشرت الأمراض المعدية جراء تعفن تلك الجثث.

وبعد عدة أشهر من ذلك اليوم سمعت صاحب البيت يترحم عليه، وعند الاستفسار عن السبب أجاب أنه قد قتل في معركة المطار.

ظهر المرأب من بعيد، وأمامه تقف حافلتان ومن حولها عدد من المسافرين، على جانبي الطريق انتشر تلال من الركام، ومن بينها أعمدة البرج المائي وبقايا مبنى السرايا والسجن القديم، جميعها يعود تاريخ بنائها لأكثر من مئة عام وقد سويت بالأرض خلال معركة التحرير الأخيرة للمدينة.

امام المرأب اصطفت حافلتان صغيرتان بجانب بعضهما، الأولى فضية اللون وقد كتب بخط أبيض على باب السائق " مدن النهر وأقصى الشرق " وعلى الزجاج الخلفي للحافلة كتب بنفس حجم ولون ذلك الخط:

" ارضاء الناس غاية لا تدرك " وفي داخلها جلس ثلاثة رجال يرتدون سترات قروية طويلة ما بين سوداء وبنية وفي الخلف جلست في الزاوية امرأة وحيدة وهي تراقب المكان من الشباك.

أما الحافلة الثانية فهي بيضاء مخصصة لمدينة القلعة يرتفع الطين على جوانبها وعلى الزجاج الخلفي صورة فتاة صغيرة تبكي وهي تتضرع لربها وقد كتب إلى جانبها " يا رب احم الحافلة ومن فيها " لاحقاً رأيت نفس صورة الفتاة وهي تقوم بالدعاء للديكتاتور بالنصر، وهذه الحافلة معروفة لدى كل سكان مدينتنا، سائقها شاب يدعى " مودي " وهو من أمهر السائقين، هناك مقولة منتشرة عنه مفادها أنه ما أن خرج من بطن أمه حتى بدأ في البكاء ولم يسكت مطلقاً، إلى أن لمس مقود حافلة!

- أليس ذلك الأستاذ " سلمو! ذلك الذي يقف بالقرب من الحافلة البيضاء وهو ينظر إلى الأرض. سأل أبي متعجباً.
- لست متأكداً، لكنه يبدو أصلعاً مثله ... قد يكون هو.
- إنه هو، التقيت به منذ يومين، ولم يخبرني بأمر سفره هذا!

ما أن وصلنا الحافلة البيضاء، اتجه أبي إلى الأستاذ سلمو، وقد كان هذا الأخير شارد الذهن، لم ينتبه لاقترابنا منه إلى أن بادره أبي قائلاً:

- إستاذ سلمو، على كلاً أنت انسان غير صادق.

كأن تلك الكلمات قد أيقظته من سباته، فرد:

- على كلٍ، حرف جر واسم مجرور.
- اعلم ذلك، لكني تعودت على نصب " كل " .... لماذا لم تخبرني أنك مسافر؟
- لإني البارحة ليلاً قد قررت السفر، أريد أن أودع ابني وأعطيه حاسوبه المحمول هذا.

وقد رفع قليلاً تلك الحقيبة السوداء بيده اليمنى.

ابتعدت عنهم قليلاً لألقي نظرة داخل المرأب المهجور، والذي لم يعاد إلى الخدمة حتى الآن ذلك لقلة المسافرين، له باب أسود كبير شبيه بباب المدارس الحكومية، مقفل من الخارج بقفل كبير، وللباب شباك صغير في وسطه، نظرت من خلاله إلى الداخل، حيث باتت ساحته فندقاً لكلاب المدينة، هناك خمسة منها ممدين وسط الساحة، وأخر يخرج من غرفة قطع التذاكر، أما الجدار الشمالي فقد هدم تماماً، مما جعل المرأب متصلاً بتلك الساحة المفتوحة والتي تضم ركاماً وأعشاباً برية صفراء جافة وصولاً لسياج الحدود، وأمام المرأب وعلى عمود الإنارة الخشبي بمصباحه المطفأ، علقت لوحة كبيرة أسفل المصباح، ومع ضوء الفجر، بات من الممكن قراءة تلك اللوحة القريبة من مكان وقوف أبي وصديقه الأستاذ، تحمل هذه اللوحة الحمراء الكبيرة صوراً لعشرين متطوعاً أجنبياً، ففي الأعلى قد كتب بخط أسود كبير " المجد والخلود لشهداء المقاومة العالمية " وفي أسفل الكتابة صورة كبيرة لأحد هؤلاء المتطوعين، يبدو أن دوره كان ذا أهمية كبيرة حتى وضعت له صورة أكبر من البقية، وفي أسفل صورته، توزعت عشر صور صغيرة على الجهة اليمنى ومثلها على الجهة اليسرى، وأسفل كل صورة قد كتب اسم المتطوع الذي ضحى بحياته خلال القتال، أغلبهم رجال بالإضافة إلى أربع نساء.

فُتح باب الحافلة، نظرت خلفي وإذ بالسائق " مودي " وهو شاب متوسط الطول ضعيف الجسم، وقد اختفى تحت تلك السترة السوداء الشتوية، وصل وهو يعتذر:

- آسف على التأخير، لقد تركتكم في البرد، أليس كذلك.

جلستُ إلى جانب السائق وإلى يميني جلس أبي، وفي المقاعد الثلاثة التي خلفنا، جلس رجل خمسيني أشيب قصير إلى جانب الأستاذ سلمو بالإضافة إلى مراهق اسمر ضعيف له شارب خفيف ورفيع، وفي المقاعد الثلاثة الأخيرة جلست امرأتان وهن يلبسن عباءات سوداء وقد غطين أنفسهن بشكل كامل إلا عن الوجه مؤقتاً.

على الفور انطلقت الحافلة من أمام المرأب تقصد خارج المدينة، وفيما نزال في المدينة قال السائق بلغة ناصحة:

- يا شباب إياكم والكلام لحظة الوقوف عند الحواجز، فالكلمة الخاطئة وإن كانت عن غير قصد قد تكلفكم حياتكم ... كونوا حذرين.

- من المفترض أن تخبرنا عن طبيعة تلك المليشيات قبل الوصول للحاجز! سأل الأستاذ سلمو.

- خريطة السيطرة تتبدل بشكل دائم، ثانياً هناك الكثير منها على الطريق، لهذا من الأفضل السكوت ... لمن يريد أن يبقى حياً.

تناثرت القرى وسط أرض جرداء مجدبة، لا شيء هناك سوى بيوت متهالكة أو مدمرة، طقطق أبي أصابع يده، اتجهت بالنظر إليه فوجدته ينظر من الشباك، تساءلت في نفسي عن جدوى مجيئه معي أصلاً ووضع نفسه في هكذا مخاطرة! فسألته بصوت منخفض:

- كان من المفترض ألا تأتي معي، فما فائدة هذه المجازفة!

حرك رأسه قليلاً ونظر إلى من طرف عينه وقال بهدوء:

- ليس فيها أي مجازفة، ثانياً أريد أن أرافقك وأخاك إلى أخر مكان ممكن أستطيع الوصول إليه معكم ... قد لا نلتقي مجدداً.

اجتازت الحافلة أول حاجز للزملاء دون أن تتوقف عندها للتفتيش، غرفة بيضاء صغيرة أمامها زميل وحيد، تماماً نفس مشهد ذلك الحاجز في الصحراء أثناء العودة من المعسكر التدريبي، رفع السائق يده ملقياً التحية على الزميل الحارس، الذي بدوره أعاد التحية بحركة من رأسه، لم يكن يعلم السائق أني قد تركت لتوي الخدمة لدى الزملاء، وإلا ما كان ليأخذني معه خوفاً من المسؤولية، بعد نصف ساعة من ذلك قال مودي:

- من الآن إلى مدينة القلعة، ستكون الحواجز تابعة لقوات معادية لنا، لهذا كونوا مستعدين أيها الإخوان ... أغلقن أمام وجوهكن يا أختاه يا أماه.

أجابت إحداهن بغضب:

- عندما نصبح على مقربة من الحاجز سأغلق ... لا أستطيع تحمل هذا الشيء طيلة الطريق.

عندما اقتربنا من النهر ظهرت قرى بأشجار مثمرة ومن حولها أراض مزروعة، بقيت الحافلة تسير وسط تلك القرى إلى أن وصلنا الجسر لنعبر إلى الجهة الثانية، حينها قال السائق:

- اقتربنا من أول حاجز. قالها بصوت مسموع حتى يستعد الكل لذلك.

توقفت الحافلة وسط الجسر، أمام مقاتل شاب من القوات الحرة يرتدي نظارات سوداء، قال بثقة:

- الهواوي.

يقصد بها " الهويات الشخصية " استفزني هذا الخطأ اللغوي، لكني لم أبدي أي ردة فعل، كتصحيح ذلك الخطأ، أو النظر إلى أبي والضحك على ذلك الخطأ، لطالما كانت الأخطاء اللغوية مادة للضحك لديه، ثانياً تذكرت كلام تلميذتي الصغيرة والتي قالت لي في إحدى الأيام:

- أيها الأستاذ لقد فتشوا سيارة أبي طويلاً، دققوا في كل شيء، لدرجة أن أبي شعر بالاستياء، لكنه لم يتكلم بأي كلمة.

- من هم؟

- القوات الحرة، أتدري لماذا يسمون أنفسهم بالقوات الحرة؟

- لا، لماذا؟

- أي أنهم أحرار فيما يفعلون بك.

جمع ذلك المقاتل " الهواوي " ومن بينها هويتي، قلبها واحدة واحدة، ونادى:

- من هو دارو؟

- أنا هو. كنت انتظر سؤاله، فأنا الشاب الوحيد هنا، أما المراهق الذي يجلس خلفي فلم يعيره أي اهتمام.

- هل خدمت لدى قوات الديكتاتور أو الزملاء؟

- أنا طالب جامعي في طريقي إلى الجامعة، لم انتسب لأي قوة من قبل.

- إذن هات دفتر الخدمة العسكرية.

وهو دفتر صغير يثبت أني معفى من الخدمة العسكرية لدى قوات الديكتاتور لضعف النظر، قلَّب صفحات الدفتر وأضاف:

- لماذا لم تنتسب للزملاء؟

- أنا طالب علم لا حامل سلاح.

نظر إليَ ملياً وتفحصني جيداً بنظراته تلك ومن ثم انتقل لتفتيش قسم الحقائب وهو يقع خلف الحافلة.

كان هناك مقاتل أخر في هذا الحاجز وهو رجل قد تجاوز الخمسين، يجلس على كرسي أما الغرفة، وهذه الغرفة أقامتها قوات الديكتاتور كنقطة تفتيش للشاحنات المتجهة إلى الحدود، كان ذلك قبل الحرب، لكنها خسرت الجسر وما حوله من قرى ومدن في الصيف الثاني من الحرب، و فور سيطرة القوات الحرة على الجسر قامت بإزالة ما على الغرفة من شعارات تمجد الديكتاتور الصغير وحزبه وجيشه، حيث تم إعادة صبغ الحائط باللون الأبيض ورسم عليه علم القوات الحرة الأخضر أعلى الجدار وفي أدناه كتبت عدة عبارات كبيرة بخط أسود " ثورة شعب " ، " يسقط الديكتاتور " وإلى جانب الغرفة هناك غرفة صغيرة وهي مرحاض للحاجز، وقد كتب على جدارها المقابل للطريق " مطعم الديكتاتور " .

عاد المقاتل مع السائق من تفتيش الحقائب وأعاد " الهواوي " ودفتر الخدمة العسكرية، قال وهو يبتعد عن الحافلة:

- بأمان الله.

انطلقت الحافلة مجدداً، رفعن النسوة غطاء الوجه، إحداهن كانت تتأفف، أبقيت الهوية والدفتر في يدي منتظراً الحاجز التالي.

أخذت الحافلة تعبر طريق بين الجبال المكسوة بالأشجار الخضراء، وهي متوسطة الطول وغير كثيفة، لكن سرعان ما تنتهي تلك الجبال وينتهي اللون الأخضر معها، فيصبح طرفي الطريق عبارة عن أرض صفراء ترى فيها بعض القرى هنا وهناك، ظهرت من بعيد عربة مطلية بالطين مركونة على الجانب الأيمن للطريق، اقتربنا أكثر منها، فلم أجد أي علم أو رمز في الحاجز، فقط هناك مقاتلان يقفان على الطريق وأخر خلف الرشاش الثقيل المثبت خلف العربة بالإضافة إلى السائق، سألت السائق مستفسراً:

- إلى أي قوة يتبعون هؤلاء؟

- لا أدري أي فصيل من الشياطين هم تحديداً ... لقد اقتربنا من الحاجز يا نساء.

وضعت الهوية فوق دفتر الخدمة ثم سلمتها للسائق، توقفت الحافلة، أحد هؤلاء المقاتلين ممن يقف على الطريق أخذ يدور حول الحافلة وهو ينظر إلى الداخل! , يلبس معطفاً

شتوياً بني اللون وبنطالاً عسكرياً، لحيته قصيرة ولا يرتدي أي قبعة، نفس الأمر بالنسبة للبقية، توقف عند شباك السائق ذلك المقاتل وقال :

- الهويات.

أعطاه السائق رزمة الهويات، أخذها المقاتل وراح يقرأها إلى أن وصل إلى هويتي نظر إليَ وقال:

- إلى أين؟

- مدينة القلعة.

- لماذا؟

- لدي امتحانات في الجامعة.

- هل خدمت لدى قوات الديكتاتور أو الزملاء أو القوات الحرة؟

- لا، أنا طالب.

- دفتر الخدمة؟

سلمه السائق الدفتر، قلَّب في صفحاته ومن ثم أعاده، لينتقل في تدقيق باقي الهويات، حينما انتهى أعاد الهويات وأشار للسائق أن ينطلق، دون أن ينطق بأي حرف.

عندما ابتعدت الحافلة عن ذلك الحاجز سأل أبي مستغرباً:

- يا ترى إلى أي قوة أولئك يتبعون!

- ميليشيا دينية معتدلة. أجاب الأستاذ سلمو.

وفي تلك اللحظة مررنا من خلال تقاطع واسع يربط أربع طرق رئيسية ببعضها، وفي منتصف التقاطع قاعدة قطرها حوالي عشرين متراً مربعاً، يتوسطها بناء صغير مربع الشكل، ففي السابق كان قاعدة لتمثال إسمنتي للديكتاتور الكبير، نظر السائق مودي إلي وابتسم، أجبته بضحكة خفيفة، وسبب ذلك أن كلانا يكره الديكتاتورين الكبير والصغير، غير أن مودي كان أكثر كرهاً مني، وفي بداية الحرب بدأت قوات الديكتاتور بإزالة أغلب التماثيل من المناطق المهددة، وذلك خشية انسحابها المفاجئ من تلك المناطق وبقاء التماثيل هناك، فقد سبق وأن تركت بعضها بعد انسحابها، مما جعلت الجهات المعادية لها

بأن تقوم بتدمير تلك التماثيل أو تدمير جسم التمثال وإبقاء الرأس سليماً، حيث يرمى الرأس إلى مكب النفايات، أو يتم حفر جزء من فم تمثال الديكتاتور ووضع حذاء بداخله.

لكن تمثال هذا التقاطع قد بقي مدة أطول من غيره، مما أثار غضب مودي ففي كل مرة أسافر فيها معه، كان يقول لحظة رؤيته للتمثال:

- مازال ذلك الصنم في مكانه، صنم الديكتاتور البائد، ألا يستطيع أحدهم أن يضربه بقذيفة صاروخية!

إلى أن تقابلنا في إحدى الأيام، قال هو يبتسم على غير عادته:

- دعني أخبرك بشيء مفرح.
- ماذا هناك؟
- لقد أزالوا ذلك الصنم.
- أزالوه أم دمره أحدهم؟
- أزيل على الأغلب، فالمعارك اصبحت قريبة من تلك المنطقة ... المهم لم أعد أراه مجدداً هناك، أمل أن تزال جميع أصنامه من البلاد.

نادى مودي بصوت حازم وقوي:

- الحاجز التالي لقوات القمصان السود، أخواتي لا ترفعن الغطاء أبداً، من الآن إلى أن نصل مدينة القلعة، أعيد وأكرر لا استخفاف في أماكن سيطرة هذه القوة، ومن ثم وجه الكلام إليَّ:
- وأنت كن مستعداً لأسالتهم.

بعد ربع ساعة تقريباً وبالقرب من استراحة " النخيل " ظهر أربعة مقاتلين باللباس الأسود على الجانب الأيسر من الطريق، كانت هذه الاستراحة فيما سبق إحدى النقاط الرئيسية لتوقف الشاحنات، وهي مقامة على الجانب الأيسر للطريق المؤدي إلى مدينة القلعة، تضم حافلة صغيرة من الطراز القديم، تم افراغ داخلها وحولت إلى مطعم صغير ومن خلال نوافذها يمكن التكلم مع صاحبها وطلب الطعام، تم طلاء الحافلة باللون البني الغامق، وقد كتب عليها بخط أبيض كبير (شاي – قهوة سريعة – ماء – عصير – فطائر) وإلى جانب الحافلة مطعم مبني من الطين له سقف من سعف النخيل، وقد ألحق

به غرفة مبنية بشكل كامل من السعف، وقد ثبتت على أربعة أعمدة من الحديد، يليه دكان من الطوب وقد هبط سقفه إلى الداخل كذلك تطايرت الواجهة الحديدية إلى الداخل.

وقف المقاتلون الأربعة أمام تلك الحافلة المطعم، جميعهم يرتدي قمصاناً سوداء طويلة، فوقها جعب خاكية وسراويل سوداء قصيرة، ثلاثة مقنعين وواحد مكشوف الوجه ينتعل نعلاً أما البقية فيرتدون أحذية رياضية بيضاء مغبرة، توقفت الحافلة على مقربة منهم، جاء لابس النعال مسرعاً في مشيته إلينا، وشعره الطويل يرتفع وينزل خلال مشيته تلك وهو ينظر إلى داخل الحافلة إلى توقف إلى جانب السائق، ومن النافذة قال:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام. رد الجميع.

رفعت عيني إليه فوجدته ينظر إليَ، له لحية طويلة بشكل مبالغ فيه، بل وقد تركها دون اعتناء، فباتت الشعيرات تنفر في غير انتظام من الأسفل والأطراف، وهي سوداء كذلك لون شعر رأسه الطويل الممتد إلى أسفل الكتفين أفردها كيفما يشاء وهي موزعة على شكل جدائل، لم يرفع نظره عني، وأنا كذلك بقيت انظر إلى ذلك الوجه الشاحب، هناك شعر ناعم في المنطقة التي تقع أسفل العين وصولاً إلى اللحية، وحاجباه غليظتان مقفلتان، أي بات فوق العين خط أسود عريض من الشعر، أدركت من نظراته تلك أنه شك فيّ بأمر ما أو شبهني بأحدهم، لكني تساءلت في نفسي:

- يا ترى ما الذي يفكر فيه!

وبصوت أجش قائل للسائق:

- الهويات.

فناوله تلك الرزمة من الهويات، وراح يقلبها بسرعة إلى أن وصل إلى هويتي، قرأ كلا الوجهين بكل هدوء ومن ثم نظر إليَ مجدداً وقال:

- هذه لك، أليس كذلك؟

- أجل هي.

حرك رأسه موافقاً ثم انتقل من نافذة السائق إلى النافذة اليمنى حيث يجلس أبي، فيما أبقى الهويات بيده، حينها بدأ يسألني:

- إلى أين تسافر؟
- إلى مدينة القلعة.
- لماذا؟
- لدي امتحانات في الجامعة.
- طالب!
- أجل.

هنا تدخل أبي وقال:

- وهل للفقراء غير الدراسة.

ودون أن يعطي أي أهمية لكلام الوالد، سألني:

- أين بطاقتك الجامعية؟

أخرجت من محفظتي بطاقتي الجامعية، وهي بيضاء صغيرة يعود تاريخ صدورها إلى أربع سنوات مضت، أعطيته إياها، قرأها ومن ثم أعادها وقال:

- هل سبق وأن حملت السلاح؟
- لا أبداً، أنا طالب علم لا حامل أسلحة.
- لدى الطاغية؟
- لا.
- الملاحدة؟
- لا.
- الصحوات؟
- لا.

أجبته وأنا أشعر بنوع من الارتباك، نظر إلى الهوية مجدداً ثم عاد نحو بقية المقاتلين الذين كانوا مشغولين في الكلام فيما بينهم وهم متجهين نحونا، قال لأحد المقنعين شيء ما، وإذا بذلك المقنع يعطي بندقيته لأحدهم ومن ثم جاء صوب النافذة اليمنى، عندما اقترب قال لأبي:

- انزل يا عم.

وعلى الفور نزل أبي ووقف في الخارج يراقب بقلق، ومن الباب المفتوح اقترب مني وقال بلغة آمرة:

- أين حقيبتك؟

- هذه هي.

أشرت إليها أولاً ومن ثم رفعتها إلى جانبي، اقترب المقنع أكثر وقد التصقت ساقه بإطارات الحافلة الأمامية، انحنى بنصفه الأعلى فوق الحقيبة، بدأ بفتح الجيب الأول، أخرج الكتب أولاً وراح يقرأ عناوينها ومن ثم بدأ بأوراق المحاضرات، بدت هذه الأوراق مهمة له، وقد أخذ يقلبها ويقرأ فيها، وفيما هو مشغول بعمله ذلك رحت أراقب هيئته، لفت نظري صاعق قنبلة وأربعة أسلاك حمراء تظهر خلف جعبته! دققت النظر أكثر بتلك الأشياء، وإذا هي متصلة بحزام ناسف، وقد وضع الحزام ما بين صدره والجعبة، أعاد الكتب والأوراق بشكل عشوائي إلى داخل الجيب الأول ومن ثم انتقل إلى الجيب الثاني، فانحنى أكثر من قبل وصار بإمكاني رؤية المزيد عن تفاصيل ذلك الحزام، وهو أسود اللون بحجم الجعبة، ليس مستوياً إنما متعرجاً، لابد أن تكون تلك التعرجات ناتجة عن قطع الحديد الصغيرة، التي تعمل كشظايا لحظة التفجير، أما الأسلاك الحمراء فقد خرجت من موضعين أعلى الحزام ومن ثم عادت لتدخل إلى موضع أخر وإلى جانبها استقر صاعق حديدي لامع، وهو نفس صاعقة القنبلة اليدوية، تساءلت في نفسي وأنا انظر إلى ذلك الشيء الرهيب وهو يهتز أمامي وفوق أوراقي :

- ماذا لو حدث تماس داخل الحزام، أو وصلته شرارة نار بطريقة ما؟ أو عن طريق الخطأ قد علقت حلقة الصاعق بشيء فشدها من مكانها؟ ماذا سيحصل؟

أعاد الثياب إلى الجيب الثاني وقال:

- ضع هذه الحقيبة في الأسفل.

اعدتها على عجل إلى مكانها الأول وحينما انتهيت، قال:

- اقترب.

فاقتربت إليه وبدأ بتفتيشي بإمكاني رؤية القسم الأخير من اللحية وهي خارجة من أسفل القناع، كانت مختلطة بالبياض، بدأ تفتيش الجيوب الخلفية للبنطال حينها اصبحت أكثر قرباً من صاعق الحزام، رفعت بصري عنه نحو رأسه المغطى بقناع أسود، وإذا باحمرار زاوية العين و ارتسام الفم والآنف على القناع، عندما لم يعثر على شيء مما يبحث عنه تراجع للخلف مبتعداً عن الحافلة وأشار لأبي بالصعود، عدت إلى مكاني ووضعت الحقيبة على ركبتي، أعدت ترتيب محتوياتها على عجل، ومن ثم أغلقت جيوبها، جلس أبي خلال ذلك في مكانه وأغلق الباب، حينها وصل المقنع إلى مكان وقوف تلك المجموعة وحرًك رأسه إلى الأعلى، أي ليس هناك من شيء، عاد صاحب الشعر الطويل مجدداً إلى الحافلة، لكن إلى جهة السائق هذه المرة، وقال للسائق مودي:

- أين حقائب المسافرين؟

- في الخلف ... في المكان المخصص لها.

- تعال معي إليها.

نزل السائق واتجه معه إلى خلف الحافلة حيث فتحوا باب قسم الحقائب، كان الكل صامتاً، ولا صوت سوى صوت تحريك الحقائب وفتحها، هرع المقاتل مسرعاً من مكان تفتيش الحقائب إلى الباب الجانبي للحافلة، فتح الباب ونادى وهو يمسك حقيبة الحاسوب بيده اليمنى:

- لمن هذا الحاسوب؟

- لي أنا. قال الأستاذ سلمو.

- وماذا يوجد فيه؟

- لا أعرف، هي لابني، ليست لي.

- أين ابنك الآن؟

- طالب في الجامعة.

- عليك بتشغيله حتى نتأكد من محتوياته.

- يجب أن نصله بالكهرباء، فالبطارية معطلة.

- إذن انزل، ستذهب معنا لنتأكد من محتوى الحاسوب.

اقترب السائق من المقاتل وقال له:

- إذن سننتظر حتى تعودوا.

- لا، بإمكانكم الذهاب الآن، عندما ننتهي سنخلي سبيله ليسافر مع أي حافلة أو سيارة إلى مدينة القلعة.

وأضاف الأستاذ:

- وهذا الصواب، أكملوا طريقكم أيها الأخوة.

أغلق السائق باب الحقائب والجانبي وأخذ الهويات من المقاتل، وصعد إلى الحافلة، فيما توجه الأستاذ والمقاتل إلى بقية المجموعة، وانطلقت الحافلة، نظرت إلى الوراء، ومن النافذة العريضة خلف النسوة المنقبات بالسواد رأيت الأستاذ يقف إلى جانب أولئك المقاتلين الأربعة، يبدو أنه يشرح لهم شيئاً ما مستخدماً يداه في ذلك، فيما المقاتل المكشوف الرأس صاحب الشعر يحمل بيده حقيبة الحاسوب السوداء وهو ينصت إلى كلام الأستاذ.

- نسأل الله أن يرجعه سالماً إلى أهله. قال أبي.

- أمين، لكن اعلم يا عم إن كان ذلك الشيء يحتوي على أشياء ممنوعة لديهم، فلن يعود أبداً. قال السائق مودي، وقد كان محقاً، حيث أعدمت قوات القمصان السود الأستاذ سلمو بعدما رفض ابنه أن يسلم نفسه لهم مقابل إطلاق سراح أبيه.

هذه المرة لم يرفعن النسوة الغطاء، ساد صمت الخوف داخل الحافلة، وبعد نصف ساعة قال السائق:

- بقي حاجز واحد للقمصان السوداء على الأغلب، قد تكون هناك حواجز طيارة لهم، لكن إذا ما عبرنا هذا الحاجز الأخير والذي يعرف أيضاً باسم حاجز جامعة الريف، يمكننا القول حينها قد أصبحنا على مقربة من مدينة القلعة.

توزعت على جانب الطريق باعة الوقود المكرر، ففي كل ميل تقريباً هناك من ثلاثة إلى خمسة منهم، عدة براميل من الحديد بألوان مختلفة غير أنها باتت سوداء من أثار الوقود المنسكب منها وعليها، وإلى أمامها عدة غالونات مائلة للسواد، وهي تحتوي على سوائل بألوان مختلفة كالأحمر والأبيض والأسود، وعلى قصاصة من الورق المقوى قد كتب بخط اليد اسم المادة وسعر اللتر (الديزل مئة، الديزل النظيف بمئتين، الديزل الممتاز، البنزين بأربعمئة ....) وقد وضعت تلك القصاصة فوق إحدى البراميل أو أمام الغالونات.

باعة الوقود أولئك هم الوحيدون هناك ومن خلفهم بعض الأشجار هنا وهناك وهي كل ما تبقى من آلاف أشجار السرو كانت تغطي جانبي الطريق من النهر إلى مدينة القلعة، وقد قطعت من أجل التدفئة خلال الشتاء.

قلما يمكن رؤية قرى هناك، إحداها يبدو أنها تابعة لقوات القمصان السود، يظهر أنها تحتوي على مقرات تدير كل هذه المنطقة، توقفت حوالي خمس عربات قرب إحدى بيوتها، خرج مقاتل يرتدي زيهم الأسود من ذلك البيت وهو بذراع مكسورة قام بتعليقها بواسطة حبل أبيض عريض حول رقبته، سار مبتعداً عن البيت لكن بخطوات بطيئة، يبدو أنه قد أصيب في إحدى المعارك، ظهرت جامعة الريف على يسار الطريق وهي من ثلاثة طوابق، أما الطابق الثاني من الجهة اليسرى قد تلقت قذيفة أو صاروخاً ثقيلاً مما أدى إلى حدوث فجوة دائرية كبيرة اختفى معها عدد من النوافذ، ومن حول الفجوة انتشرت ثقوب كثيرة وبأحجام متفاوتة، اقتربنا أكثر من مدينة القلعة، فظهر عمود دخان أسود رفيع من بعيد، أشار السائق إلى الدخان وقال:

- لم يتبقى الكثير، نصف ساعة وسندخل المدينة، لكن بعد المرور بالحاجز الأخير لقوات القمصان السود.

ثلاثة مقاتلين وعربة سوداء بالكامل، مزودة برشاش ثقيل، وخلف الرشاش طفل في العاشرة تقريباً من عمره وهو أيضاً يرتدي قميصاً أسوداً طويلاً وسروالاً قصيراً، نظرت إليه فنظر إلي وهو يقف خلف الرشاش يلمس أجزائها الأخيرة، وإلى جانب العربة توقف ثلاثة مقاتلين مكشوفي الوجه، أحدهم طويل يرتدي نظارة طبية بإطار مربع، يحمل بيده بندقية سوداء من الطراز الحديث، لكن القميص الذي يرتديه ليس أسوداً إنما بتمويه ثلاثي الألوان، الأخضر والأسود والبني، أما المقاتلان الأخران فكانا باللباس الأسود المعهود، وهما إخوة على الأغلب أو أقرباء، فالشبه كبير بينهما، كلاهما بلحى قصيرة وبنادق قديمة.

توقفت الحافلة على مقربة منهم، تقدم واحد منهم ممن يرتدي قميصاً أسوداً فيما الأخران توجهوا بنظرهم للحافلة، وبدلاً من سؤال السائق، فتح الباب الخلفي للحافلة وبلهجة سكان شمال شرق الصحراء الكبرى قال بكل هدوء:

- السلام عليكم، كيف حالكم.

ومن ثم ألقى نظرة إلى داخل الحافلة، وسأل المراهق في المقعد الثاني:

- أنت ... أين هويتك؟

مرر السائق هوية المراهق إليه، والذي بدوره أعطاها للمقاتل بذعر وهو ينظر في عينه، فقرأ ما عليها وسأل:

- كم عدد ركعات صلاة المغرب؟
- ثلاثة. أجاب المراهق.
- صلاة الظهر؟
- أربعة.
- صحيح، أربع ركعات.

أعاد إليه هويته واتجه إلى الأمام، إلى أبي، لم يكن المقاتل يختار الأشخاص بنظام، إنما بشكل عشوائي، أيضاً لم تكن هناك أي سيارة أو حافلة في الأرجاء، لذا لا بد أنه أحس بنوع من الراحة واللذة في طرح هذه الأسئلة.

- الهوية، وعدد ركعات صلاة الصبح؟
- ركعتان، وللنبي أحاديث في فضل صلاة الصبح. ثم راح يقول له إحدى تلك الأحاديث.

أبي مؤمن للغاية، يعجبه هكذا نوع من الأسئلة، لهذا راح يجيب بكل سرور وكأنه ينتظر هكذا نوع من الأسئلة، راح يضيف المزيد من الأحاديث وفوائد هذه الصلاة، وقد ابتسم المقاتل لذلك، بل أن المقاتل الطويل صاحب النظارات نظر إلى أبي بكل رضا وهو يهز رأسه مؤيداً كلامه.

بعدها سأله أبي بنوع من التحدي:

- هل من سؤال أخر؟

فأجاب المقاتل:

- لا يا أخي. ثم ضحك كلاهما ضحكة قصيرة وبصوت منخفض ... كان مزاحاً دينياً بامتياز.

لكن أبي لم يقف عند هذا الحد، بل شعر بحماسة زائدة وقال:

- أريد أن أتكلم مع ذلك الأخ قليلاً. وقد أشار إلى المقاتل صاحب النظارات، فيما نظرات السائق مودي المرتبكة المتجهة إلى أبي كأنها تقول: " ارجع واسكت ".

أعاد المقاتل الهوية إلى أبي وقد أفسح له المجال ليخرج من الحافلة، فتح الباب وانطلق صوب " الأخ " وبدؤوا الكلام، التفت إليَ هذه المرة وقد ذهبت الابتسامة عنه، أعطيته الهوية وفيما ينظر إليها، رحت أتأمل ذلك المقاتل الغريب، لم تكن لحيته كثيفة، بالإمكان رؤية سمرة بشرته من خلالها، بحثت عن الحزام الناسف، لكني لم ألحظ وجوده، نظر إلي وسألني:

- وأنت يا حليق الذقن، كم عدد ركعات صلاة الميت؟

- لا سجود في هذه الصلاة.

- صلاة المغرب؟

- ثلاثة.

- صحيح.

أعاد لي الهوية واتجه نحو الخلف، إلى الرجل الخمسيني وسأله:

- صلاة الظهر؟

- ثلاثة. هنا أخطأ في عدد الركعات.

- طيب ... صلاة المغرب؟

- أربعة. أخطأ مجدداً.

حينها اتجه نحو رفاقه المقاتلين رافعاً صوته وهو غاضب والهوية بين أصابع يده اليمنى:

- تعالوا يا إخوة واسمعوا هذا الشيء.

اتجه المقاتلان نحو المكان الذي يقف فيه، فيما عاد أبي وجلس في مكانه داخل الحافلة.

- لا يعرف مبادئ الدين ... تخيلوا أنه لا يعرف عدد ركعات الصلوات، وهو بهذا الشيب وبهذا العمر! قالها وهو ينظر إلى بقية المقاتلين، اتجه صاحب النظارة نحو الرجل الخمسيني وبصوت غاضب يدل على حنقه:

- أتدري بخطأك هذا أنك لم تعد مؤمناً؟ وهل تعلم أنك ومالك وعائلتك غنيمة للمؤمنين، قل لي ماذا أفعل معك الأن؟

لم يتكلم الرجل المخطئ بأي كلمة، بقي صامتاً لا يعلم ماذا سيحصل.

- أرى أن نعفو عنه هذه المرة. قال المقاتل الثالث.

- سأعطيك فرصة أخيرة هذه المرة، لكي تتعلم أصول الدين، لكن تذكر أنك لن تجد دائماً رحماء مثلنا.

تراجع صاحب النظارة والثالث للخلف قليلاً، وانتقل المقاتل إلى المرأة التي تجلس إلى جانب النافذة في أقصى اليمين وسألها:

- الهوية.

فأعطاه السائق ما تبقى لديه من الهويات، نظر إلى هوية تلك المرأة وسأل:

- عدد ركعات صلاة العصر؟

- خمسة.

تمالك نفسه حينما سمع الإجابة الخاطئة، عاد وسألها:

- هل تصلين؟

- أجل أصلي، الحمدالله.

- إذن اشرح لي كيف تصلين؟

تحركت تلك الكتلة السوداء قليلاً، وخرج صوت متردد مرتجف، صوت امرأة في حدود الخمسين، وبيدها المغطاة بقفاز أسود قماشي بدأت تشرح:

- أقف وأقول: أني أنوي أن أصلي صلاة الظهر مثلاً، ومن ثم أبدأ الصلاة.
- هذا قبل الصلاة، الآن اشرح لي كيف تقومين بالصلاة نفسها؟
- أقرأ الحمدالله رب العالمين، ومن ثم سورة قل هو الله أحد.

هنا قاطعها قائلاً:

- أكمل " الحمد لله رب العالمين " أولاً، ومن ثم بقية الخطوات.
- الحمدالله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين أمين " ومن ثم سكتت.
- انتهت!
- أجل.
- أهكذا تصلين يومياً؟
- أجل.
- ومنذ متى بدأت الصلاة؟
- لا أتذكر، منذ زمن بعيد.
- منذ زمن بعيد ترددين السورة ناقصة! ها ... طيب أي السور تقرأين في الصلاة؟
- السور التي أحفظها، مثل قل هو الله الصمد وغيرها.
- طيب اقرأ أي واحدة من تلك السور التي تحفظيها.

سكتت المرأة ولم تجيب، فعاد وسأل:

- هيا اقرأ، ماذا تنتظرين؟
- أقرأ الذي أعرفه، إن الله يقبل صلاتي، فأنا لست متعلمة، وأقرأ بما في قلبي.

انتفض وقال:

- يا إلهي، الأول لا يعرف عدد ركعات الصلاة، والثانية لا تعرف ماذا تقول في الصلاة!

عاد وسألها:

- أين المحرم؟

التفت الرجل الخمسيني وقال:

- أنا زوجها.
- أها أنت زوجها ... كلاكم بحاجة لتعلم أساسيات الدين.
- هذا صحيح، أعدك بذلك.
- إن شاء الله.

أعاد هوية المرأة لزوجها، واتجه إلى المرأة الثانية وسألها:

- أين المحرم؟
- ابني هذا. وأشارت إلى المراهق.

نظر المقاتل إلى المراهق متفحصاً وقال بكل هدوء:

- هذا طفل.
- شاب. ردت المرأة.
- لا، طفل كما أقول لك، ليس بالغاً بعد، ولا يجوز أن يكون محرماً بهذه الحالة.

اتجه إلى صاحب النظارات بالكلام:

- تصطحب طفلاً في السفر! انظر أخي، بعضهم لا يعرف شيء عن الدين، وهنا امرأة بدون محرم!
- لن تمروا، قال صاحب النظارات.

وأضاف الثاني بعد أن أعاد الهوية للمراهق:

- لا يمكنكم المرور بهذا الشكل، في المرة القادمة أصلحوا أموركم حتى تضمنوا المرور ... أيها السائق ارجع من حيث جئت.

أغلق المقاتل الباب بقوة، قام مودي بتشغيل الحافلة وأدارها باتجاه الخلف، وبدأنا بالعودة فيما الطفل مازال يلهو بالرشاش.

عدنا إلى الوراء مسافة بعيدة عن الحاجز الأخير للقمصان السود، فجأة أوقف مودي الحافلة على جانب الطريق وأطفأها، كان الجميع صامت لا يتكلم، نظر مودي من المرآة الصغيرة المثبتة أعلى رأسه، نظرة سريعة للخلف واتجه

بالكلام إلى المرأة الثانية، وهو يستند على المقود:

- أهذه هي المرة الأولى التي تسافرين فيها؟
- نعم هي الأولى بعد سيطرة أصحاب اللحى على الطريق.
- توقعت ذلك، لكن ألا تعلمين أنك بحاجة إلى محرم؟
- أجل أعلم، وقد جئت بابني الشاب.
- هذا مراهق غير بالغ ... حينما بدأنا السفر توقعت أن الأستاذ سلمو هو محرمك.

تدخل أبي وسأل:

- إذن ما العمل الآن؟
- لا أعرف.

وبعد تفكير قصير، اعاد مودي تشغيل محرك الحافلة واتجه يساراً من خلال طريق ترابي، بدأت الحافلة تهتز وتصدر صوتاً مرتفعاً، حرك مودي رأسه متأسفاً ورفع من صوته حتى يسمع الكل وخاصة النسوة:

- سأحاول أن أدخل إلى الطريق المؤدي للمدينة عن طريق خط الجبهة، لنتملص من ذلك الحاجز ... لكن اعلموا إن كشفت قوات القمصان السود أمرنا، توقعوا أسوأ الاحتمالات.

اجتزنا ثلاثة قرى، لم نرى فيها غير الرعاة والمواشي، فيما كان يجلس مودي بشكل طبيعي دون أن تظهر عليه أي علامات التوتر خلال تلك القرى، بعد القرية الرابعة أصبحت الأرض جرداء تماماً، ليس عليها أي معلم، ظهر مجدداً خط الدخان الصاعد للسماء من مدينة القلعة، زاد من سرعة الحافلة، مال مودي إلى الأمام ممسكاً المقود من

الأعلى بكل قوة ثم راح ينظر أمامه وحوله ليتأكد إذا ما كان هناك أي أثر لقوات القمصان السود، ومن بعيد ظهر شيء ما، بدا كأنه نقطة سوداء صغيرة، قال مودي:

- لن أتوقف أبداً ... بعد أن قطعنا هذه المسافة من الطريق بين القوتين.

ظهرت تفاصيل ذلك الشيء البعيد أكثر، وإذا بدراجة نارية عليها رجل قروي يلبس سترة سوداء طويلة وقد غطى رأسه ووجهه بشماغ أحمر وأبيض اللون، قرر مودي أن يوقفه، بدأ مودي بتخفيف السرعة ومن ثم أخرج يده اليسرى من النافذة وهو يشير لسائق الدراجة بالتوقف، فهم القروي معنى الاشارة تلك وقد اقترب صوبنا، توقفت الحافلة ومودي ينظر حوله بخوف، جاءت الدراجة النارية وتوقفت بالقرب من نافذة مودي، والذي بدوره سأله:

- من أين تأتي؟

- ماذا تريد الآن؟

- أريد أن أسألك هل من دوريات قريبة؟

- انظر ... لقد عدت لتوي من إحدى القرى التي تقع على مقربة من الطريق المعبد، ولم أجد أي دورية في طريقي، لكن عليك الانتباه جيداً.

- كم يبعد الطريق المعبد من هنا؟

- حوالي عشرين دقيقة ... هيا انطلق الآن.

ومن ثم انطلق القروي باتجاه القرى التي جئنا منها قبل قليل، ضغط مودي بقدمه على دواسة السرعة، فانطلقت الحافلة بسرعة كبيرة والغبار يتصاعد من خلفها، عاد مجدداً إلى الاتكاء على المقود والنظر من حوله وقال بذعر:

- إذا ما اعترضتنا دورية ما لأصحاب اللحى الطويلة ... رأسي هذا سيقطعونه.

قام بتحريك عصا نقل السرعة والتي تقع بيني وبينه، فازدادت السرعة، أصبحت جنونية، حتى يخيل أن الحافلة قد ارتفعت عن الأرض وهي تطير بنا، ظهرت مدرسة صغيرة مهجورة من ثلاث غرف ترابية مسيجة بشبك حديدي مع ساحة صغيرة، وبداخل الساحة مروحية نقل عسكرية معطوبة تتبع لقوات الديكتاتور، يظهر أنها هبطت اضطرارياً فيما سبق هنا، وقد غرست أجزاء من الشفرات الرئيسية الكبيرة في الأرض وقد أدى ذلك إلى

تهشم مقدمتها وتطايرت أجزاء منها على مقربة منها، فيما انكسر ذيلها من الوسط فنزلت مجموعة مراوح الذيل مع النصف الأخير من الذيل إلى الأسفل وهي ماتزال معلقة ببقية المروحية.

أبقى مودي عينه على تلك المدرسة مطولاً، يخشى أن تكون موقعاً عسكرياً، أما البقية فكانوا يحدقون من خلال النوافذ وأبي يحرك شفتاه بالدعاء.

- إذا اكتشف أمرنا ... سيقتلونني مباشرة ... فأنا أعلم ذلك جيداً. قال مودي بخوف.

توقعت أن يخرج مقاتلي قوات القمصان السود في أي لحظة من المدرسة أو أن نسمع أصوات الرصاص وهي تشير لنا بالتوقف، لكن لا شيء من ذلك قد حصل إلى الآن، جحظت عيني مودي بشكل مخيف وقال لي:

- انظر ... انظر إلى الخلف ... هل ... من أحد؟

أدرت نصفي الأعلى إلى الخلف، لكن الغبار الصاعد من الحافلة حجب الرؤية، راقبت الأطراف من خلال نوافذ الحافلة، لكني لم أجد شيئاً، فعدت إلى مودي:

- لا شيء.

- لا شيء ... أليس كذلك.

- أجل.

- انظر ... انظر إلى الأمام جيداً، هل ترى ما أراه؟

فإذا بخط أسود طويل، إنه الطريق المعبد، وقد أضاف مودي:

- لم يتبقى الكثير ... سنغادر المكان قبل أن يعلم أصحاب اللحى الطويلة إننا هنا .... لو علموا بذلك، حينها أنا من سيدفع الفاتورة.

أصبح الطريق أوضح من ذي قبل، زادت تفاصيله، صار بإمكاني رؤية ثلاث سيارات تسير عليها، زرقاء وفضية متقاربتان وواحدة سوداء بعيدة، خفف من سرعة الحافلة، إلى أن دخل الطريق المعبد بكل هدوء، اتخذ الطرف الأيمن من الطريق وبسرعة متوسطة قاد نحو المدينة، أعاد ظهره إلى الكرسي ومن ثم أطلق زفيراً وهو مغمض العينين، أمسك المقود بيده اليسرى وباليمنى أخرج علبة لفائف التبغ وبحركة سريعة اخرج لفافة وأشعلها ثم قال بعد أن أخذ نفساً عميقاً ثم قال والدخان يرافق كلماته:

- إلهي لن أعيدها ثانية ... مالي وهذه المتاعب.

لكن ذلك لم يشفي غليله، فبعد صمت قصير توجه بالكلام إلى المرأة أم المراهق وقال بسخرية تنم عن غضب:

- ماما ... بإمكانك الأن رفع الغطاء، لم يعد هناك وجود لقوات القمصان السود. وحينما رفعت الغطاء، نظر إليها من المرآة العاكسة وأضاف:

- كان بإمكاني أن أتركِكِ أنت وابنك المراهق على الطريق، ونعبر نحن البقية الحاجز الأخير، تعلمين ذلك؟

أشاحت المرأة وجهها جانباً ولم تجيبه بأي كلمة، فأضاف مودي:

- حياتي ليست رخيصة إلى هذه الدرجة.

صمت مودي، لم تجيب المرأة بأي كلمة، ازدادت السيارات المتجهة نحو مدينة القلعة، أضاف مودي:

- أنا أدرك جيداً معنى هذه المغامرة التي قمنا بها، فيما سبق كان هناك حاجز لقوات القمصان السود يسمى بحاجز (تريا) كان يقع على المدخل الشرقي لمدينة القلعة، في إحدى الأيام أوقفنا كالعادة للتفتيش، فيما انتظر المقاتل من الانتهاء من تدقيق الهويات، أشار صديقي الذي يجلس إلى جانبي إلى صخرة قريبة من الطريق وقال بصوت منخفض خائف: " انظر إلى اليمين " فما أن نظرت حتى وجدت جثة جندي ملقاة قرب الصخرة، وقد قطعوا رأسه ووضعوه فوق ظهره، كان الرأس مضرج بالدماء بعينين جاحظتين، لقد سال الدم الخارج من الرقبة مسافة بعيدة أمام الجثة، وبعد تدقيق الهويات وقف المقاتل بالقرب من نافذتي وهو يرتدي قميصاً فضياً وسروالاً أسوداً، اخرج فجأة السكين من غمده! لم يكن يمسك السكين من قبضتها، بل في نهاية القبضة حلقة حديدية، تماماً كالتي يستخدمها الجزار في تعليق سكاكينه، أخذ المقاتل يمرر فيها سبابة يده اليمنى، وراح يرفع السكين نحو الأعلى ومن ثم يعيده إلى قبضته، بقي واقفاً إلى جانبي وقال:

- البارحة ذبحت هذا الجندي، وهو من قوات الطاغية، مر رتل للإخوة يضم أسرى من العدو، فاقترح الأمير أن نذبح أحدهم ونضعه على قارعة الطريق حتى يصبح عبرة لغيره، فوقع الاختيار على هذا الجندي.

وأكمل مودي:

- بقيت عيني تنتقل بين ذلك السكين الذي يحركه بطريقة خاصة والجثة وما عليها وأمامها من دماء، عندما رأى المقاتل أثار القلق في نظراتي حينها أدرك أنه أوصل رسالته، فطلب منا المغادرة.

ارتفعت ثلاث أعمدة من الدخان بين بحر لا نهاية له من الأبنية البيضاء المتراصة، حلقت طائرة حربية عالياً، ظلت تحوم فوق مكان ما إلى أن انقضت وضاعت بين الأبنية، لتظهر مجدداً وهي ترتفع بسرعة نحو الغيوم، ارتفع خلفها عمود رابع تلاه صوت انفجار، حينما مررنا من تحت جسر قديم كانت هناك عربة بيضاء مزودة برشاش ثقيل وأمامها يقف مقاتلان بثياب مدني مسلحين ببنادق، قال مودي موضحاً للجميع:

- نحن الآن في منطقة سيطرة القوات الحرة مجدداً ... حتى تكونوا على علم بذلك ... أيضاً لا تنسوا ألا تتكلموا.

سألت أم المراهق:

- وماذا عن غطاء الوجه؟

- أنت حرة في ذلك، فلا تشديد على ذلك هنا.

ومن ثم قام مودي بتشغيل المذياع، فأصدر الجهاز صوت شوشرة في البداية، أبقى أصابعه الرفيعة على الزر الدائري لتغيير المحطات، أدارها بكل هدوء لجهة اليسار فأصدر صوتاً خفيفاً، وبكل دقة حرك الزر قليلاً، فأصبح بذلك صوت المحطة واضحة تماماً:

- وقد عثر البارحة على خمسة وعشرون جثة مكبلة الأيدي وعليها أثار إطلاق نار في الرأس، وذلك في حديقة المستشفى، وقد أكد أحد شهود عيان أن ...

على الفور لمس مجدداً ذلك الزر الدائري حتى اختفى صوت المذيع، قام بالبحث عن محطة أخرى، إلى أن عثر على المحطة التالية، فارتفع صوت أغنية تمجد الديكتاتور، مما جعله يضغط على زر كبير أعلى المذياع مطفئً الجهاز، قال معلقاً على ذلك:

- من الأفضل اسكات هذا الشيء حتى لا يتسبب لنا في مشاكل نحن بغنى عنها.

لم يكن هناك أي بناء سليم من تلك الأبنية المنشرة على جانبي الطريق، إحداها من ستة طوابق، هبطت الطوابق الثلاثة العليا نحو الجهة المطلة على الشارع، وفي الطابق الثاني بإمكاني مشاهدة عائلة مازالت في بيتها، ستارة إحدى النوافذ نصف مفتوحة ومن خلفها يضيء مصباح أصفر، أما بقية الأبنية كانت أقل ضرر، لم يتعدى ذلك سوى فتحات القذائف على جدرانها أو احتراق البناء نتيجة وصول نيران القصف إليها، وفي نهاية الشارع دبابة مدمرة، طار برجها واستقر إلى جانبها، ومن بدن الدبابة خرج زيت أسود قد سال لعدة أمتار أمامها، وفي الشارع التالي هذه المرة دبابة ومن خلفها مدرعة نقل جنود، كلاهما مدمر، حافظت الدبابة على أجزاءها فيما المدرعة تعرضت لضربة على جنزيرها فانقطعت عقدتها، بقي نصفها ممدوداً خلفها.

كلما تقدمت الحافلة ازدادت الأبنية المدمرة أما الناجية منها لم تعد صالحة للسكن فهي أشبه بغربال منها لبناء، أكمل السائق قيادة الحافلة وسط هذا الركام، على يمين هذا الشارع عربة نقل صدأة بها ثقوب كبيرة متراصة من أعلى مقصورة القيادة إلى الباب الخلفي، وهي بدون شك أثار رشاش الطيران الحربي أثناء تمشيطه لهذا الحي، لكن ذلك لم يمنع المرور هنا، فحركة المركبات قليلة , نادراً ما تشاهد سيارة أجرة في الأرجاء , أما عربات نقل المواد الغذائية فهي بأعداد لا بأس بها , توقفت الحافلة في شارعٍ جانبي وأطفأ مودي المحرك، ارتفعت أصوات متداخلة من مكان قريب من هذا الشارع، وقال :

- المعبر في الشارع التالي.

بعد أن دفعنا أجرة السفر توجهت وأبي إلى المعبر حيث مصدر تلك الأصوات، وإذا بشارع عريض يمتد لأكثر من مئتي متر، وفي نهايته حافلات تغلق الطريق، كان الازدحام كبيراً، مئات الأشخاص أو أكثر بالإضافة إلى عربات الباعة التي تنوعت محتوياتها فمنها الخضار والفاكهة، كذلك مواد غذائية متنوعة، عج المكان بالحركة، فمنهم القادم وأخر يتجه نحو نهاية الشارع، اختلطت أصوات الباعة بأصوات المارة ومشيهم السريع، سرنا على الرصيف الأيسر للطريق، كدنا نلتصق بجدار تلك الأبنية المهجورة من شدة الازدحام، قال لي أبي فجأة:

- احمل هذه.

وقد أعطاني حقيبته، فحملتها، وأضاف:

- سأنزل الآن إلى الحمام.

- تنزل! ... أين هو؟

- ستراه الآن، إنه في قبو إحدى الأبنية، كونه يستحيل على أحد أن يصعد إلى إحدى بيوت هذه الأبنية وقضاء حاجته في حمامتها، فالقناصة في كل مكان.

توقفنا أمام مدخل بناية، قال أبي:

- انتظر خمس دقائق وسأرجع.

ومن ثم نزل من خلال الدرج إلى الأسفل حيث الحمام في القبو، وبالقرب من ذلك المدخل هناك شباك مستطيل الشكل بدون زجاج يطل على ممر الحمام، فعلى جانبي الممر انتشرت أبواب سوداء، ينتهي الممر بمغسلتين منفصلتين وإلى جانب صنابير المغاسل قد وضعوا صابوناً سائلاً أخضر اللون في علبة شفافة دائرية الشكل كانت مخصصة للبوظة فيما سبق، ومن السقف تدل مصباح أبيض معلق بشريط قصير. وفي الخارج أعلى النافذة هناك الكثير من النتف الورقية الملتصقة بالجدار بواسطة مادة لاصقة , البعض منها قديم بعض الشيء مائل للصفرة , والأخر عبارة عن قطع صغيرة زرقاء أو حمراء وهي في الغالب كانت تحمل صوراً لمرشحين لإحدى الانتخابات، فقط ثلاثة أوراق بقيت سليمة، اثنتان منها قد ألصقت إلى جانب بعضها وواحدة في الأسفل وحيدة، فكلتا الورقتين كانتا تحتويان على ارشادات للتعامل مع الأسلحة الكيميائية، وقد احتوت الورقة التي على اليمين صوراً توضيحية، ففي الأعلى رسم دائري يرمز للسلاح الكيميائي، وأيضاً على أشكال توضيحية لطرق إسعاف الإصابات، وقد كتب في الأسفل " المجلس الحر لمدينة القلعة ".

- هيا لنكمل الطريق.

رفعت نظري عن تلك الورقة وإذا بأبي ينتظرني، وعندما بدأنا المشي طلب مني أن أعطيه حقيبته.

- لا، سأحملها مع حقيبتي ... هي ليست ثقيلة أصلاً.

دوى انفجاران متتاليان في مكان ليس ببعيد عنا، مما زاد ذلك من سرعة حركة المارة، قال أبي:

- هات الحقيبة، لا وقت للكلام الآن.

فأخذها مني وأكملنا المسير إلى أن اقتربنا من نهاية الشارع حيث لم يتبقى هناك أي عربة للباعة، فقط أناس خائفين مسرعين في مشيهم.

سد الشارع بحافلتين من الطراز القديم , وقد وضعتا فوق بعضهما البعض , الصفراء في الأسفل والحمراء فوقها , وقد ملأت بالتراب , أما الزوايا المتبقية من الشارع فقد عبأت بأكياس بيضاء كبيرة تحتوي على التراب , وهذه الأكياس كانت مخصصة للسكر والأرز .وأمام الحافلات تلك , طريقان جانبيان , فاليسار مغلق بكومة تراب مرتفع , أما اليمين فقد احتوت في وسطه على عنبر كبير تجمع أمامه المئات , قمنا بشق طريقنا بصعوبة إلى مدخله المزدحم , بدءنا نسير بشكل بطيء للغاية , وسط بحر من الرؤوس , يتخللها دوي القذائف , استمر البعض في الكلام رغم ذلك والبعض كان يتلو أدعية السلامة ، إلى أن دخلنا العنبر تمهيداً للتفتيش الذي يسبق الدخول إلى منطقة سيطرة قوات الديكتاتور.

كان هذا العنبر فيما سبق مكاناً مخصصاً كموقع لتخزين الخضار ومن ثم أفرغ وتم تحويله إلى معبر لعبور المدنيين إلى منطقة سيطرة الديكتاتور فقط، وضعت حوالي عشر طاولات من الحديد وسط العنبر، وعلى الشخص الذي يريد أن يعبر أن يمر للتفتيش أولاً، تقدمني أبي وأنا أتبعه، وقف مقاتل شاب يرتدي بذلة عسكرية مموهة، له لحية قصيرة، وفوق الطاولة قد وضع بندقيته، بدأ بتفتيش أبي أولاً، فقلب محتويات الحقيبة وأخرج كيس الجبن، تحسسه في البداية ثم قام بفتحه، حينما شاهد الجبن أخذ ينظر إلى أبي وهو يقطب حاجبيه:

- ما هذا؟

حاول أبي استعطافه، وبصوت أقرب للرجاء:

- القليل من الجبن، سأخذه إلى ابني الطالب، فأنت تدري كم هي باهظة المواد الغذائية هناك.

نظر إلى أبي وهو يفكر فيما سيفعله، ومن ثم أعاد الكيس إلى الحقيبة وقال:

- ألا تدري أنه من الممنوع ادخال المواد الغذائية إلى منطقة الديكتاتور؟

سكت أبي قليلاً ثم أجاب:

- أدرك ذلك، لكن كما ترى .... قاطعه المقاتل وقال:

- هذه أخر مرة تدخل فيها شيء كهذا إلى منطقة سيطرة الديكتاتور.

- هي القليل من الجبن لا أكثر!
- وإن كان ... ممنوع.
- تمام ... عُلم.

ثم قام بتفتيش جيوب أبي، أذن له بالعبور إلى النصف الثاني من العنبر، حان دوري هذه المرة فاقتربت من نفس المقاتل ووضعت الحقيبة على الطاولة، بدأ يفتشها وهو يسأل:

- ماذا تريد أن تفعل هناك؟
- أنا طالب في طريقي إلى الامتحانات في الجامعة.
- وما فائدة الدراسة في هذه الظروف؟
- هناك امتحان أخير، عليَ أن أنتهي منه.

ثم بدأ بتفيشي وخاصة الجيوب، وأشار لي بالمرور، وما أن خرجنا من المعبر بدأنا السير مع البقية بمحاذاة حائط فيه من ثقوب الرصاص ما يفوق العد، وفي هذا الشارع الفرعي المؤدي إلى الشارع الرئيسي، تحصين مبني من أكياس التراب، يتوسطه فتحة صغيرة مخصصة لإخراج البندقية والرمي منها في حال تعرض الشارع لتقدم قوات الديكتاتور، نظرت خلفي ونحن نتجه نحو الشارع الرئيسي، وإذا بمقاتل شاب يرتدي بنطالاً عسكرياً يبدو أنه غنمها من قوات الديكتاتور وهو يحمل بيده كوب ورقي بداخله مشروب ما، اتجه نحو التحصين، عندما أصبحت وأبي في نهاية الشارع الفرعي، حينها بدأنا المرحلة الأخطر، وهي السير في الشارع الرئيسي، أي الحد الفاصل بين الطرفين، والشارع هذا يتكون من طريقين، ذهاب وإياب، كان من الشوارع المهمة فيما سبق، أما الآن فهو مهجور ومرصود من قبل القناصة منذ الصيف الثاني من الحرب، ما أن خطونا في الشارع الرئيسي، نظرت خلفي فإذا بالمقاتل صاحب الكوب، يضع رأسه في فتحة التحصين، وبدأ ينادي بأعلى صوته:

- الله أكبر.

لم يتوقف، كررها بشكل متتالي، حينما أصبحنا في الشارع الرئيسي " الحد الفاصل " كان الجميع يركض بأقصى سرعة للوصول نحو الشارع الفرعي الثاني حيث منطقة الديكتاتور، كان قناص تابع لقوات الديكتاتور يطلق الرصاص، يمكن سماع صفير الطلقات بكل وضوح وهي تعبر من فوقنا، زاد الجميع من سرعته في الركض، لقد

استفزت صيحات " الله أكبر " القناص، الذي بدوره أخذ يطلق الرصاص دون توقف ليحثنا على الإسراع في قطع ذلك الشارع، نظرت حولي فلم أجد سوى الوجوه الخائفة، سيارات وشاحنات مهجورة على الطريق المرصود هذا، ارتفعت أعشاب برية على جوانبه، الأبنية المطلة المهجورة عليها أثار المعارك السابقة من قذائف ورصاص، لفت انتباهي في الشارع بقعة مائلة للون الأسود، تبعد عني عدة أمتار، عدت ونظرت إليها وإذا هي ببقعة كبيرة لدم جاف، دخلت إلى شارع الفرعي الذي سدت أجزاء من مداخله بثلاث كتل إسمنتية مربعة كبيرة، خلفها يقف ثلاثة جنود وعقيد أشيب، وفي وسط الشارع علقت مجموعة من صور الديكتاتور الصغير والأعلام الحمراء وقد ربطت بحبل قد مدت من شرفة بيت في الطابق الثاني ومررت إلى الشرفة المقابلة لها .

بدأ الجنود بالصراخ لنسرع نحو الداخل، نظرت حولي فلم أجد أبي! عدت إلى بداية الشارع الفرعي فوجدته قد وضع الحقيبة على الأرض وأخذ يلتقط أنفاسه، حملت الحقيبة وقلت له:

- هيا علينا أن نسرع، فالمكان خطير للغاية.
- انتظر قليلاً، فأنا متعب.
- أدرك ذلك، فقط امش لوسط الشارع، فالمكان هذا مكشوف لقناصة كلا الطرفين. وبتثاقل بدأ المشي، إلى أن قطعنا ذلك الشارع، عاد المارة إلى التمهل في المشي، فلم يعد هناك خطر القناصة، بل وانتشرت عدة عربات لباعة الكعك والمشروبات الساخنة في الشوارع التالية على الرغم أن هذا الحي الملاصق للحد الفاصل أيضاً مهجور ولا سكان فيه. جلس أربعة جنود شبان أمام إحدى البيوت، كان باب البيت مفتوح، ثلاثة منهم يجلسون على كراس خشبية من الخيزران وواحد على أريكة بغطاء أخضرن، أمامهم على الطاولة الصغيرة إبريق قد اسودَ تماماً من السخام وثلاث كؤوس فارغة وواحدة فيها القليل من الشاي أما أعقاب اللفائف فهي مرمية من حولهم، نهض الجندي من الأريكة وانتظرنا حتى أصبحنا أمامه مباشرة، وبدون أي كلام وقفنا أمامه للتفتيش، بدأ بأبي أولاً ومن بعدها حقيبته، حيث طلب منه أن يفتح هو حقيبته وبينما بدأ بفتح الحقيبة انتقل لتفتيشي وعندما انتهى عاد مجدداً إلى أبي، وفيما يفتش الحقيبة لفت انتباهه الجبن وسأل؟
- جبن!

- أجل. أجاب أبي وهو ينظر في عيني الجندي بقلق، كون جنود الديكتاتور قد اعتادوا على أخذ الأشياء عنوة.

- كيف استطعت ادخال هذا الشيء؟ قالها وهو يعيد الكيس إلى الحقيبة.

- بعد التذلل. قالها بعد أن تنفس الصعداء.

- غريب.

أكمل بقية الجنود حديثهم لحظة التفتيش الذي كان يدور عن " بطولاتهم " في عمليات القنص، من بعيد ظهرت مئذنة مسجد تقع في إحدى الأحياء التابعة للقوات الحرة القريبة من الحد الفاصل، لم يتبقى من تلك المئذنة سوى نصفها تقريباً، فالنصف العلوي قد تهدم نتيجة تعرضه لضربة مباشرة من قذيفة دبابة أو صاروخ، أما النصف المتبقي فمازال يحتوي على حلقة واحدة، يمكن رؤية الزخارف السوداء على الجزء المتبقي من المئذنة، ومن حولها انتشرت الأبنية البيضاء المدمرة وهي ما بين الطابقين والخمسة.

أثناء ذلك كان القناص المطل على الشارع الرئيسي ما يزال يطلق الرصاص، وأصوات رصاصاته يمكن سماعها بوضوح، تنضم إليها بين الفينة والأخرى أصوات انفجارات القذائف وهي تصيب الأحياء الحرة، عاد الجندي للجلوس على أريكته المريحة دون أن يتكلم، فقط أشار بيده إلى أن نغادر المكان، حينما قمنا بإغلاق الحقائب وصلت مجموعة جديدة من أجل التفتيش، نهض جندي أخر هذه المرة ليقوم بتفتيشهم، أكملنا المشي وصولاً إلى نهاية الحي حيث تقاطع للطرقات، اتخذنا الشارع المؤدي إلى الفنادق. افترش الباعة رصيف ذلك الشارع، كانت بضاعتهم من المعلبات والبقوليات والخبز من القلة ما لا تكفي أجر قوت يوم واحد إذا ما تمكن صاحبها من بيعها كلها! توقف أبي فجأة وقد ناولني حقيبته!

- ماذا هناك؟

- الخبز.

أمام باب إحدى المدارس المغلقة، وضع رجل أربعيني عدة أكياس من الخبز فوق صندوق خشبي مقلوب مخصص لنقل الخضراوات، اتجه أبي إليه وحينما وصل ناوله ورقة من فئة الخمسين، وعلى الفور انحنى البائع وحمل الكيس الذي في الأعلى وأعطاه لأبي، ومن ثم أكملنا المشي، فسألته:

- أين البقية؟

- بقية ماذا؟

- المال!

- سعر الكيس بخمسين.

- جريمة.

- أين الجريمة، أنت في مكان محاصر، من الجيد أن تجد خبزاً بهذا السعر.

دوى انفجار فاهتز معه باب المدرسة بكل عنف.

- ارحمنا يا الله. نادى أحد المارة وهو يسير على رصيف المدرسة.

- اللهم سترك. أضاف أبي.

- كم يبعد الفندق؟

- لم يتبقى الكثير، أترى تلك البناية الجميلة؟

- أجل.

- هي بالقرب منها.

هذه الشوارع من أكثر الأماكن خطورة نظراً لقربها من منطقة الاشتباك، كذلك تتركز فيها أهم المباني العسكرية لقوات الديكتاتور، لم يكن " المبنى البلدي " يبعد عن هذه المدرسة سوى خمسين متراً، حيث ينتشر القناصة في الطوابق العليا لهذا المبنى، بالإضافة أنهم قد وضعوا رشاشاً ثقيلاً على سطح المبنى! لفت انتباهي وجود راجمة صواريخ مثبتة فوق شاحنة عسكرية، وهي تتخذ من إحدى الشوارع الفرعية القريبة من المبنى البلدي مكاناً لها، ومن حول الشاحنة انتشر حوالي عشرة جنود، عندما أصبحنا على مقربة من " البناية الجميلة " أشار أبي إلى الفندق المقصود وهي بناية قديمة من ثلاثة طوابق مكسوة بالمرمر المائل للسواد من شدة الأتربة، لكل طابق نافذتان يتوسطها باب وأمام ذلك شرفة مسورة بإطار حديدي أسود مزخرف، وفي الشارع نفسه توزعت الفنادق الرخيصة، وعلى بعد عدة شوارع تقع الفنادق الأرقى والأغلى، دخلنا الممر المؤدي إلى الفندق انتشرت رائحة غريبة تجمع ما بين الرطوبة والعفن، فعلى الرغم أن

الوقت مازال في وسط النهار، إلا أن الممر كان معتماً تماماً بدءاً من وسطه، مالت الأرضية المكسوة بالبلاط الأبيض إلى اللون الفضي وفي وسطه أثار طين، مطبوع عليه خطوات أحذية مختلفة الأحجام، وفي نهاية الممر درج لا يرى منه شيء، والصعود بواسطته بحاجة إلى الاستناد للحائط أو الدرابزين، بالإضافة إلى حفظ مقاس الدرجة الأولى، وعليه قياس المسافة اللازمة للصعود بشكل سوي في الظلام دون تعثر، ففي نهاية الدرج نور خافت يصله من الباب المطل عليه، دخلنا من ذلك الباب الخشبي ذي اللون البني الغامق، وإذا بمكان الاستقبال ليس إلا بهو واسع، على الجهة اليمنى من الباب مكتب صاحب الفندق، وضعتُ الحقيبة على الأرض، ورحت أتأمل هذا المكان، فيما انشغل ابي بالكلام مع صاحب الفندق.

فالمكتب عبارة عن طاولة ضخمة من الخشب، أسود اللون، تغطيه طبقة من الزجاج الشفاف من الأعلى، وأسفل الزجاج عملات ورقية ومعدنية قديمة لدول كثيرة، بعضها لم يعد لها وجود في الوقت الحاضر، وعلى الطاولة مفكرة مكتبية يعود تاريخها إلى العام الثاني للحرب، وإلى جانبها علبة أقلام سوداء مربعة على جوانبها زخرفة مذهبة، وفي داخل العلبة ثلاثة أقلام، واحدة حمراء واثنتان زرقاء، إحداها جديدة والثانية بدون غطاء، استهلك نصف حبرها، يستقر بجانب ذلك دفتر كبير بغلاف أزرق.

جلس صاحب الفندق وهو رجل قد تجاوز الستين من العمر على كرسي من الخشب، وهو بدين أصلع بوجه دائري حليق له نظرات رخوة كسولة غير مبالية، ومن وراءه وعلى الحائط علقت لوحة خضراء وقد خط عليها بإتقان " فندق الحرية " , واللوحة بإطار خشبي مذهب ومن الأمام يغطيه لوح زجاج، كانت الكهرباء مقطوعة حينها، دخل ضوء النهار من مدخل غرفتين على الجهة اليسرى من البهو، فأضاء المكان بضوء خافت كان كافياً لإظهار تفاصيل المكان، فعلى الجدار الأيمن علقت ثلاث لوحات كبيرة مرسومة، اثنتان منها تصور الحياة في الريف، حيث الجبال والأشجار والحيوانات، وواحدة في الوسط لقلعة هذه المدينة، أما الجدار الأيسر فهو يضم بابين اثنين، كل غرفة تضم سريرين وفي نهايته باب يؤدي إلى الشرفة، عادة ما يفتح باب الشرفة و باب الغرفة حتى يضاء الصالون، أما صدر البهو فهو يحتوي على أرائك من الطراز القديم بفرش رمادية وإطار بني مزخرف.

- ستبقى الهويات لدينا اليوم، سنرسل المعلومات إلى شعب المخابرات حتى يتأكدوا منها ... هكذا هي التعليمات، قالها صاحب الفندق وهو يضع الهويات داخل الدفتر الأزرق.

- بالنسبة للسعر؟ سأل أبي.

- لن نختلف على ذلك، خلال الليل سنتكلم في الموضوع، بإمكانكم الآن أن تستريحوا قليلاً من عناء السفر ... ابنكم في الغرفة رقم ستة.

في أقصى الجدار الأيمن هناك مدخل لممر يضم ثماني غرف، لكن المكان هناك مظلم فلا نوافذ تطل على الشارع ولا كهرباء، وفي الطريق إلى الغرفة رقم ستة قال لي أبي:

- انظر ... حينما ندخل الغرفة، سنجد أخاك ماد نائماً، أنا متأكد من ذلك.

فتح أبي الباب مباشرة حتى دون أن يطرقه، دخل أولاً ثم تبعته، لم أرى شيئاً في بادئ الأمر، فلا شيء سوى السواد، سواد قاتم بالإضافة إلى رائحة الرطوبة والبيض المقلي وأغطية النوم، جميعها اختلطت فيما بينها، وبعد ثوان قليلة، بدأت تظهر بعض التفاصيل الباهتة للمكان.

- أيها المهندس ... استيقظ لقد وصلوا ضيوفك. نادى أبي.

انتفض أخي فجأة عندما سمع صوت أبي ونهض مباشرة من سريره، استدار أبي إلي وقال:

- كما قلت لك، نائم .... وعندما اتصل به لأطمئن عليه، يقول لي: " أبي أنا لا أنام تقريباً ... لانشغالي بالدراسة ".

تقدم ماد نحو أبي وقبل يده، حينما اقترب ليصافحني سألته بصوت ضعيف:

- لماذا نائم؟ لقد اتصلت بك وأخبرتك إننا قادمون.

- أجل، أخبرتني أنكم ستصلون في العاشرة! وهي الآن الثانية ظهراً! قالها بانزعاج واضح.

- أه صحيح، لقد حدث معنا طارئ في الطريق، لهذا تأخرنا.

- أين؟

- لدى الحاجز الأخير لقوات القمصان السود.

- أها ... هل فتشوا هاتفك؟

- لا، لم يفعلوها معنا، لكن سألوا عن ركعات الصلاة.
- لقد فتشوا هاتفي، اسمع لقد وجدوا في هاتف صديقي مقاطع جنسية.
- وماذا فعلوا به؟
- سأخبرك لاحقاً ماذا فعلوا. ثم استدار نحو أبي وهو يقول:
- يا أهلاً وسهلاً بأبي وأخي، سأشعل شمعة.

أجاب أبي وهو يبتسم:

- يا ماد نحن ضيوفك، والضيافة ثلاثة أيام، طيلة هذه الفترة ستكون مسؤولاً عن كل شيء.
- وفي كل الأيام أيضاً، أنا في خدمتكم ... صغير القوم خادمهم.

زاد ذلك من فرحة أبي وقد أخذ يبتسم بفرح لدرجة أنه نسي أن يسأله عن كثرة النوم خلال فترة الامتحانات، أشعل ماد شمعة ووضعها على الطاولة التي تفصل السريرين عن بعضهما، وقد أضاءت الغرفة بضوء خافت، فسأله أبي مستغرباً حينما رأى نور الشمعة المتراقص:

- لماذا لم تستأجر إحدى الغرف المضاءة! لقد مررت بالقرب منها وقد كانت رائعة ... اضاءة وتهوية.
- غالية الثمن، أيضاً أخطر كونها تطل على الشارع، لا يمكن الدراسة فيها كون أبوابها دائماً مفتوحة.

دوى انفجار قوي للغاية وقريب رافقه صوت تحطم زجاج، ومن شدة الصوت شعرت بألم في صدري فيما أخذت أذناي بالطنين، أطفأ ماد الشمعة وفي تلك اللحظة جاء صاحب الفندق مسرعاً، فتح الباب ثم قال وهو يلهث:

- هيا انزلوا إلى الأسفل بسرعة. ثم انتقل إلى الغرفة التالية.

تقدمنا ماد وسرنا إلى أسفل درج الفندق، وقد سبقنا إلى هناك شابين هم أصدقاء ماد، بقينا هناك حوالي ربع ساعة، صامتين بانتظار سقوط قذائف أخرى، لكن شيء لم يحدث فعدنا

أنا وماد إلى الغرفة أما أبي فانشغل بالكلام مع صاحب الفندق، وبعد دقائق دخل أبي إلى غرفتنا وقال:

- تعال معي يا دارو.

مشيت معه وأنا أفكر ماذا عساه أن يكون هناك! فإذا به يأخذني إلى إحدى الغرف ذات الشرفات، حينما أصبحنا على الشرفة المطلة على الشارع، أشار إلى جهة اليمين من الطريق، وإذا بالقذيفة قد سقطت على بعد شارعين من الفندق أي على مقربة من مكان تواجد راجمة الصواريخ، في نفس المكان الذي مشينا فيه منذ نصف ساعة تقريباً، غادرت الشرفة فوراً وعدت إلى الغرفة، وحينما حملت الحقيبة، نظر إليَ ماد وقال:

- لا تضعها على السرير ... حتى لا يتسخ.

- لم أكن أفعل ذلك، غير أني أريد أن أحملها إلى الجهة الأخرى من السرير.

حملت الحقيبة ووضعتها إلى جانب السرير، ثم سألت ماد:

- يا أخي هل تسمي هذا سريراً نظيفاً؟

- في عرف " نال " يعتبر نظيفاً ... فهو يأمر باستبدال الأغطية كل شهر تقريباً.

أعاد اشعال تلك الشمعة، أضاء لهبها الصغير أرجاء الغرفة القديمة، سريران خشبيان بأغطية بيضاء اسودت مع الأيام، طاولة صغيرة بارتفاع السرير، وهي تفصل بين السريرين، عليها عدد من الكتب والأوراق أيضاً الشمعة وبقايا شمع قديم، وبجانب سريري باب خشبي أبيض اللون، وهو الحمام، كان نصف مفتوح، تدخل من خلاله إلى الغرفة رائحة كريهة للغاية تضاف إلى رائحة الغرفة، فيصبح مزيجاً فظيعاً، لا تخرج هذه الرائحة إلا بعد مرور حوالي الساعة من فتح باب الغرفة، أمام سريري تلفاز فضي صغير قد وضع على كرسي خشبي من الخيزران تماماً كالذي يجلس عليه مدير الفندق حينما يبدأ بتسجيل معلومات المستأجرين ليرسلها إلى المخابرات، وإلى جانبه غاز الطبخ وصندوق متوسط الحجم من الورق المقوى أبيض اللون، سألت ماد مستفسراً:

- ماذا يوجد في ذلك الصندوق؟

وفيما يتمدد في فراشه أجاب:

- الفطور والغداء والعشاء ... الخبز والشاي والبيض.

- أضف إلى ذلك الجبن.

- أين الجبن؟ " سأل مندهشاً وهو يبتسم.

- في حقيبة أبيك في الغرفة الثالثة.

- عظيم ... ألا تريد أن ترتاح قليلاً!

خلال الليل دخل أبي إلى الغرفة ثم جلس على حافة سريري، ناولني الهوية وأضاف:

- قبل قليل أعادها مع هويتي، قال لي صاحب الفندق: " لستم مطلوبين، بإمكانك أخذ الهويات والبقاء هنا "، لكنه طلب مئتان للشخص الواحد، وذلك مبلغ كبير ... هذا يعني أني سأدفع ستمئة في اليوم!

أجابه ماد باستياء:

- كانت الأجرة مئة ... هذا الكلام منذ شهر تقريباً، لكن ومع توافد الطلاب خلال هذه الفترة حيث الامتحانات ... قام بزيادة الأجرة.

- سأحاول أن أجد بيتاً، فذلك أوفر وأكثر راحة لنا، لدي الكثير من الأصدقاء ... سأسألهم لعلهم يجدون لنا واحدة ... لكن يا ماد كم تبقى حتى تنهي الامتحانات؟

- شهر تقريباً، لكن لا تنسى أنه لا طريق لخروج المدنيين من المدينة حالياً.

- أعلم، لابد أن يفتح يوماً ما، حينها سنخرج متجهين نحو الحدود حيث العبور إلى الأناضول.

فجأة أنار ضوء قوي الغرفة، قال ماد:

- وأخيراً الكهرباء ... إنها مقطوعة منذ يومين.

ارتفع صوت إعلان في التلفاز، فأخفض ماد الصوت عن طريق جهاز التحكم.

- اقلب إلى قناة إخبارية لنسمع أخر الأخبار. قال أبي.

جلسنا نتابع أخبار المعارك والمجازر والإعدامات إلى أن انتهت النشرة ليغادر أبي نحو غرفته، فيما جلست وماد نشاهد فيلماً عن بطل يقاتل في البحار، وحينما بدأ البطل في مواجهة زعيم الأعداء انقطع التيار الكهرباء، سألت وسط تلك العتمة مستغرباً:

- ما هذا؟

- ما هو؟

- أين الكهرباء! فقط ساعة واحدة؟

- وأقل أيضاً في الكثير من المرات.

صمت ماد قليلاً وأضاف:

- خلال الأيام الأولى لقدومي إلى المدينة، اشتريت جهازاً كهربائياً مستعملاً لطهي الطعام، لم استخدمه غير مرة واحدة لندرة الكهرباء ... لكني عدت به إلى صاحب الدكان وطالبت بإرجاعه، فرفض قائلاً: " ألم تكن تعلم أنه لا كهرباء تقريباً في المدينة!

- لم تخبرني عن صديقك ... ماذا فعل به مقاتلي القمصان السود بعد اكتشاف المقاطع الجنسية في هاتفه؟

- لا شيء ... خمس ركلات وست كفوف.

فضحكنا على ذلك إلى أن سمعت صوت وقع خطوات أخذت تقترب أكثر فأكثر إلى أن فتح فجأة باب غرفتنا، ظلام دامس، لا شيء يظهر من هذا الزائر سوى جمرة لفافته الحمراء تظهر بوضوح وسط ذلك السواد، فجأة ازداد بريقها ومن ثم ضعف، تبعه صوت نال صاحب الفندق:

- لم تناموا إلى الآن؟

- وهل هناك موعد محدد للنوم في هذا الفندق؟ سألته مستغرباً.

- اسمعوا ... الضحك والكلام ممنوع في الليل ... خاصة الضحك.

استغربت من كلامه ذلك، ناهيك عن أسلوبه المستفز بذلك الصوت المثقل بالبلغم.

- منذ متى كان ذلك ممنوعاً؟

- منذ زمن بعيد.

ومن ثم طرق الباب وأضاف:

- يبدو أنك لم تقرأ قائمة التعليمات ... هي معلقة في الجهة الداخلية من هذا الباب.

لم أتكلم وكذلك ماد، تنحنح نال وبلع ذلك البلغم ليصبح صوته أكثر وضوحاً، وقال بحزم:

- لولا الحرب وقلة المستأجرين، لما أجرت للطلاب ... لكني مضطر لذلك الآن.

ارتفعت الجمرة نحو الأعلى فأضاءت مجدداً ومن ثم خفتت، انتظر قليلاً حتى يرى هل من أحد يرد على كلامه، لكننا سكتنا كوننا مضطرين لذلك حالياً، إلى أن نجد مسكناً غير هذا، أغلق الباب واتجه ببطء نحو مجلسه في بهو الاستقبال .

استيقظت في ساعة متأخرة من الليل على صوت بكاء أحدهم، للوهلة الأولى ظننت أن أحداً يتابع فيلماً على هاتفه، فعدت محاولاً النوم مجدداً، لكن صوت البكاء بقي متواصلاً، يرتفع تارة ومن ثم سرعان ما ينخفض، كان الليل هادئاً إلى حد ما، لم يكن هناك الكثير من الاشتباكات ودوي القذائف، مما جعل من صوت البكاء الصوت الوحيد المسموع. استدرت إلى الجهة الثانية لأستفسر من ماد لكني وجدته نائماً كالعادة، حاولت أن أكمل نومي فلم أستطع، بقي على بكائه وأنا بقيت مستيقظاً اسمع صوت آلامه ولا أستطيع أن أفعل شيئاً، بقي الأمر على حاله إلى الفجر تقريباً.

عندما جلسنا نحن الثلاثة على سريري لتناول طعام الفطور، سألت ماد:

- هل سمعت ذلك الصوت خلال الليل؟

- أه ... طبعاً، حتى أنه أثر على تركيزي أثناء الدراسة. ومن ثم نظر إليَّ وهو يقطب حاجبيه.

- إذن ما القصة؟ وهل تعرف ذلك الشاب؟

- لا أعرفه ولا أعرف لماذا كان يبكي.

هنا تدخل أبي وقال: - في الصباح غادر الفندق، حمل حقيبته وذهب، كان أثر الحزن شديد عليه، احمرت عيناه من شدة البكاء.

- إلى أين ذهب؟

- لقد قتل أخاه قبل عدة أيام على يد قوات القمصان السود، ما دفعه ذلك بأن يقوم بتسجيل اسمه كمتطوع لدى الجيش (أي قوات الديكتاتور)، واليوم صباحاً اتصلوا به حتى يلتحق بالجيش.

قام أبي وغادر نحو البهو ليجلس مع صاحب الفندق، لم يرفع ماد عينه عن الطعام المكون من البيض والقليل من الجبن، سألني:

- متى أخر مرة ذهبت فيها إلى المسجد؟
- لا أتذكر جيداً ... حينما كنت في العاشرة على ما أعتقد.
- سنذهب بعد قليل.
- اذهب انت وحدك.
- ليس للصلاة.
- لماذا إذن؟
- لنجلب الماء، لم يتبقى لدينا سوى القليل منه في الحمام.

في تلك اللحظة دخل شاب متوسط الطول له ذقن وشعر قصير إلى الغرفة:

- بالصحة والعافية ... متى سنذهب لجلب الماء؟

سأل وهو ينظر إلى الطعام، فقلت له:

- تعال وشاركنا.
- لا شكراً.

أجابه ماد:

- خمسة دقائق فقط.
- إذن سأنتظرك في الغرفة.

ومن ثم خرج، نهض ماد من مكانه وأخذ ينقل الصحون من أمامي إلى صندوق الطعام الموضوع إلى جانب التلفاز.

- يكفي، ألم تشبع ... علينا الاسراع قبل أن يذهب الشيخ إلى البيت ويقفل باب المسجد.

حملت ما تبقى من الطعام، فيما دخل ماد إلى الحمام وأخرج دلواً أحمر اللون وثلاثة قرب جلدية من النايلون الشفاف مربعة الشكل مزودة بمقبض من الأعلى لحملها، حملت الدلو وقربة، فيما حمل ماد البقية وخرجنا من الغرفة، وفي بهو الاستقبال جلس كل من أبي وصاحب الفندق، بالإضافة إلى رجل هزيل في الخمسين تقريباً من العمر، وهو المحامي المحترم الذي تكلم عنه أبي في إحدى المرات.

لحظة مرورنا بالقرب منهم، فإذا بصاحب الفندق المناصر لقوات الديكتاتور يجلس على الأريكة الوسطى وهو المتكلم الوحيد بينهم، كان الموضوع عن أخر مستجدات المعارك، يتكلم وهو يستخدم يداه في الشرح وبكل حماسة، فيما جلس البقية من حوله وهم ينصتون لتلك التحليلات العسكرية:

- من المتوقع أن يتقدم " الجيش " بهجوم خاطف من المحور الجنوبي لمعمل المواد الكيميائية باتجاه مدن وقرى الريف الجنوبي وذلك لفك الحصار عن المدينة، يمكن استشفاف امكانية ...

في تلك اللحظة خرج صديقا ماد من الغرفة الأولى، الشاب الذي جاءنا قبل قليل ومعه شخص طويل وضعيف له وجه شاحب، حمل كل واحد منهم قربة واحدة فقط، وأثناء النزول من الدرج قام ماد بدور الوسيط في عملية التعارف بيني وبينهم. لم يكن المسجد يبعد كثيراً عن الفندق، فالوصول إليه بحاجة للسير في ثلاثة شوارع، فالطريق خطير بدون شك، كون المكان عرضة لسقوط القذائف، وهي عادة تطلق لتستهدف الأبنية والنقاط التابعة لجيش الديكتاتور، لكن هامش الخطأ في هذه القذائف كبير، لهذا كثيراً ما تسقط في أماكن غير التي قصدتها القوات الحرة، في الشارع التالي للفندق سقطت قذيفة ثقيلة منذ وقت قريب حسب ما ذكر ماد، لايزال مكان سقوطها مدمر وكأنها سقطت اليوم، فالجدار مهدم، بل لم يقم أحد بإزالة الركام الذي في الشارع، فتناثرت أجزاء من جدار بيت إلى الشارع، انتشرت الحجارة إلى ما بعد الرصيف، أما الجزء الأكبر من الركام فقد استقر داخل ذلك البيت، بل وهناك حفرة ثانية في ساحة البيت، أما الغرف فهي أقل تضرراً لبعدها عن مكان سقوط القذائف واقتصرت الأضرار على تطاير الأبواب والنوافذ من مكانها ومجموعة من الثقوب ذات الأحجام المختلفة في الجدار، أو أن أحدهم قام بسرقة الأبواب والنوافذ مستغلاً فتحة الجدار وغياب أصحاب البيت. وهذا المكان لكان مهجوراً مثل بقية الأماكن في المنطقة لولا الفندق الذي نحن فيه فبقية الفنادق مغلقة، لقد غط التراب مداخلها والأغبرة على مقابض وأقفال الأبواب والنوافذ، إحداها بواجهة حمراء وسوداء وقد شمع قفل الباب بالشمع الأحمر، قال ماد معلقاً على ذلك الفندق:

- تم إغلاقه من قبل الشرطة، بعدما قيل إنه تحول إلى بيت للدعارة، قوامه نساء أرامل تم استغلالهن للعمل فيه نتيجة حاجتهن الماسة للمال.

اقتربنا من المسجد، وبالقرب منه فندق فاخر من سبعة طوابق، وهو من الطراز المخصص للأثرياء أو السياح ممن كان يقصد المدينة لزيارة القلعة، أما الآن ينتشر فيه عدد من قناصي قوات الديكتاتور، هذا الفندق بالإضافة إلى المبنى البلدي يشكلان إحدى أقوى النقاط الدفاعية، مما جعلهم في اشتباكات شبه يومية مع القوات الحرة، حيث تستهدفهم هذه الأخيرة بالقذائف والأسلحة القناصة والرشاشة.

قبل الدخول للمسجد بأمتار هناك عدة حفر صغيرة في الشارع، بل على الرصيف القريب من إحدى أماكن سقوط هذه القذائف، هناك أثار دم جاف يمتد لمتر يبدو أنه تم سحب الجريح قليلاً قبل أن يتم إسعافه والغريب أن أثار الدم مازال هناك ولم يقم أحد بتنظيفه، إلى جانب البوابة الرئيسية للمسجد اصطف طابوران أمام صنبورين في المكان المخصص للوضوء، رغم أن المكان يحتوي على خمسة صنابير لكن أغلبها لا يعمل، معظم أولئك الأشخاص هم من طلاب الجامعات وخاصة أبناء الريف، وضعوا أدوات نقل الماء إلى جانبهم , وقفنا في نهاية الصف بانتظار أن نملأ الماء، من حسن حظنا أنه لم يحدث أي اشتباك ولم تسقط أي قذيفة، سوى أصوات عدة انفجارات لكنها كانت بعيدة للغاية.

عندما عدنا إلى الفندق وجدت شاباً قصيراً ممتلئ الجسم يقوم بتغيير أغطية سريري، وقد انتهى لتوه من سرير ماد، وضع الأغطية القديمة في دلو أزرق، كان يقوم بعمله وهو يردد إحدى الأغنيات بصوت منخفض، لم ينتبه لدخولي إلا حينما وضعت القُرب على الأرض ثم قلت له:

- شكراً لك يا أخي.

توقف عن الغناء ونظر إلى الخلف، بابتسامة أقرب منها للضحك، أجابني:

- هذا واجبي. ومن ثم أكمل عمله.

- كيف تمكنت من غسل هذه الأغطية ولا ماء للشرب والحمام أساساً!

- أحملها على كتفي لوسط المدينة حيث المغسلة.

- لابد أنه عمل متعب.

- لقد تعودت عليه ... أنت تقرب ماد أليس كذلك؟

تدخل ماد وأجاب:

- أجل هو أخي الذي يكبرني بعدة سنوات.
- أها أنت هنا ... ظننتك في الجامعة ...... لديك امتحان.

قال الجملة الأخير مع غمزة بعينه اليسرى وضحك هو وماد، لم أفهم سبب الغمز والضحك الزائد ذلك، في تلك اللحظة أنهى عمله، حمل الدلو المليء بالأغطية وخرج من الغرفة إلى التالية.

سألت ماد:

- جميل، يبدو وكأنكما أصدقاء منذ زمن بعيد.

أجاب ماد:

- هذا العامل الوحيد هنا، صديق الكل والكل يحبه.
- يضحك كثيراً ... مرح ها!
- مسكين، لو تعلم مدى استغلال صاحب الفندق لهذا الشاب.
- توقعت أن يكون نال بأخلاق سيئة، لكن قل أين الاستغلال فيما يخص هذا العامل، فهو يقوم بعمله!
- لم ترى شيئاً بعد.
- طيب دعنا نغسل أرض الغرفة الآن.

أغلق ماد باب الغرفة، فظهرت ورقة بيضاء كبيرة عليها التعليمات وهي مجلدة بكيس شفاف معلقة أعلى الباب، وقد كتب في مقدمتها " فندق الحرية، فندق نجمة واحدة فئة باء، عزيزي المستأجر ..." ومن ثم قائمة طويلة من التعليمات، بحثت فيها فلم أجد بند " يمنع الضحك ليلاً " عندما بدأنا بالغسل قال ماد:

- اسمه مصطا.
- تقصد العامل.

- أجل العامل، لقد أخبرني أحد أصدقائي قصة هذا العامل، في بداية الحرب حينما كان في العمل، تعرض بيته في الريف للقصف، لا أدري أي جهة قامت بذلك، فقتلت زوجته وأطفاله الثلاثة.

- مسكين.

- هذا الفندق بحاجة لأكثر من عامل، لكن نال صاحب الفندق اكتفى بمصطا فقط، يعمل كل يوم مقابل النوم هنا وأجر زهيد للطعام، والعمل هنا يعني أن تجلب الماء من المسجد بالإضافة إلى غسل الأغطية في إحدى المغاسل وسط المدينة، كما تعلم مدى خطورة الخروج للشارع، بالإضافة إلى غسل الفندق وخدمة صاحبه وضيوفه .... لدرجة أن بعض الزوار يتصدقون عليه ببعض المال أو الثياب.

حينما انتهينا من غسل الغرفة، جلس ماد على سريره واضعاً أمامه عدداً من الكتب والأوراق ليدرس، حملت الهاتف وبدأت مراسلة أختي ميلا التي تقيم في الأناضول، وقد كانت قلقة للغاية من تواجدنا في مدينة القلعة، كانت تسأل بلهفة عن موعد مغادرة المدينة والسفر للأناضول.

في الليل جلس أبي على جانب سريري، تحديداً بالقرب من الطاولة التي تفصل بين السريرين، أمسك رزمة من الأوراق، وراح يملؤها بالمعلومات على ضوء الشمعة، فيما جلس ماد مقابله على سريره وهو يقرأ في كتاب، دوت سلسلة من الانفجارات في مكان ليس ببعيد، تلاه إطلاق رشقة من الرصاص مصدره المبنى البلدي، يعقب كل رشقة صدى قوي، قال أبي وهو يملأ المعلومات:

- بموجب هذه الأوراق سنحصل على مساعدات إغاثية اسوة ببقية الناس هنا ... رز سكر زيت بطانيات. فجأة دق أحدهم باب غرفتنا:

- تفضل. نادى أبي.

فُتح الباب بهدوء ومن ثم دخل صديق ماد، ذلك الأسمر متوسط الطول، وقف بالقرب من أبي وقد فتح رغيف الخبز أمامه وقال:

- فقط قطعتين من الجبن، واحدة لي والثانية لصديقي. بقي صديقه الطويل واقفاً بخجل بالقرب من الباب وهو يراقب منتظراً ردة فعل أبي.

نظر إليهم أبي ومن ثم إلى رغيف الخبز، ثم أجاب وهو يشير إلى صندوق الطعام:

- هناك الجبن .... خذوا ما يكفيكم اليوم وغداً.

- لا شكراً، فقط قطعتين.

فيما يتجه الشاب نحو الصندوق، أضاف أبي:

- إذا كنتم بحاجة إلى المال ... أخبروني بذلك.

هنا تشجع قليلاً ذلك الطويل وقال:

- لا شكرا.

عندما انصرفا، أكمل أبي كلامه:

- هذه المساعدات التي سنحصل عليها، لن نستخدمها هنا في الفندق، بل في البيت الذي سننتقل إليه قريبا.

- هل وجدت بيتاً؟ " سأل ماد بعدما رفع رأسه عن الكتاب الذي أمامه.

- أجل، قيل لي أن قاطنيه سيخلونه خلال الفترة المقبلة.

- كم مدة هذه " الفترة "؟

- لا أعلم تحديداً، لكنه ليس ببعيد.

في هذه اللحظة أطلق الرشاش الرشقة الرابعة أو الخامسة، جاءه الرد بقذيفة في مكان ما قريب، فسكت الرشاش.

- هل رأيت ذلك الطويل. قال ماد متكلماً مع أبي.

لم يرفع أبي نظره عن تلك الأوراق وأجاب:

- أجل ... وماذا به!

- لقد أعدم مقاتلي القمصان السود كل أسرته، بالإضافة إلى بعض أقرباءه.

هز أبي رأسه متأسفاً وأجاب: " كل ما أستطيع قوله هو " فليغمدهم الله برحمته الواسعة ", وماذا عن الثاني؟

- ذلك ابن خاله، كلاهما قاما بتسجيل أسماءهم لدى لجنة الجيش.

- لجنة الجيش؟

- نعم زارنا في الكلية قائد الفرقة الخامسة مشاة، وألقى محاضرة في ضرورة نصرة الجيش، وذلك بالانتساب إليه، مقابل تسهيلات في التوظيف بعد انتهاء الخدمة.

- يعني بعد تسع سنوات من الخدمة!

- هكذا شيء، سيتم سوقهم للخدمة خلال الصيف.

وضع أبي القلم على الطاولة، قام بطي تلك الأوراق وعاد إلى غرفته.

وفي صباح يوم الجمعة وبينما نحن نيام، سمعت فجأة أحدهم يصرخ:

- انهضوا.

فتحت عيني بصعوبة وحينما نظرت إلى صاحب الصوت، فإذا بصاحب الفندق يحمل عصا بطول نصف متر تقريباً بيده اليمنى وهو يقف وسط السريرين، فاستغربت من ذلك وسألت:

- ماذا هناك؟ ماذا جرى؟

- انهضوا فقد حان موعد الصلاة. قالها بصوت حازم ووجه مبتسم، ما بين المزح والجد.

- الصلاة؟

- أجل. قالها بذلك الصوت المثقل بالبلغم وهو يهز العصا بيده، نهضت بسرعة من السرير واتجهت إلى الباب ومن ثم أغلقته، نظر إليَ مستغرباً وقد ذهبت تلك الابتسامة عنه، طرقتُ بيدي اليمنى على ورقة التعليمات وسألت:

- أين بند الصلاة؟

- لا يوجد.

- إذن لماذا تطلب منا هذا الطلب؟

- مجرد سؤال لا أكثر، على العموم لا يجوز أن يبقى أحد في الفندق خلال فترة غيابي أنا ومصط.

- تمام، سنخرج بعد قليل.

ثم فتحت الباب فخرج.

لبست على عجل وكذلك ماد، وحينما هممنا بالخروج من الغرفة، جاءت الكهرباء، فأقفلنا الباب، عندما اتجهت صوب الباب الخارجي، قال لي ماد:

- تعال معي حتى نخبره إننا سنغادر.

وقف نال أمام باب الغرفة السابعة وأخذ يتجادل مع الرجل:

- يا أخي لا يجوز ... لا يجوز.

- سأقفل الباب من الداخل. أجاب الرجل بصوت ملؤه الرجاء.

- لا يمكن لأحد أن يبقى في الفندق ... الكل سيخرج. أجاب نال وقد ازداد غضباً.

- أتفهم كلامك، لكن قل لي: أين ستبقى زوجتي؟

- عند أحد من أقاربكم ...أو فلتذهب إلى الحديقة ... إلى أي مكان.

- ليس لنا أقارب يا أخي وفي الخارج خطر القذائف.

حينما وجد ماد أن النقاش قد طال، اقترب من نال وقال له:

- أيها العم، سنغادر أنا وأخي الآن.

نظر إلى الخلف وتأكد من وجودي مع ماد، ثم قال:

- مع السلامة.

فيما نبتعد عن تلك الغرفة، كنا ما نزال نسمع أصوات النقاش:

- يا أخي افهمني، إذا ما حدثت أي سرقة خلال فترة غيابي، فأنا المسؤول عن ذلك، لهذا لا أريد لأحد أن يبقى هنا.

- أدرك ذلك لكن ...

لأول مرة أرى الدرج مضاءاً، في الأعلى مصباح متوهج أصفر متصل بشريط كهربائي بالسقف وفي زاوية السقف أعلى الباب نسج العنكبوت شبكة كبيرة، لم أرى العنكبوت بداخلها، وقد بدت الشبكة مثقلة بالغبار، فتحول لونها إلى الفضي، قال ماد:

- كن مستعداً.

- مستعداً لأي شيء؟

- للركض ... سنمر خلال شارعٍ مرصود من قبل قناصة القوات الحرة ... لكن للأمانة فقط يطلق النار على قوات الديكتاتور أو الأشخاص الذي يشتبه في أمرهم.

- حسناً.

في نهاية شارع هذا الفندق من الجهة اليسرى يقع الشارع الرئيسي المرصود، وفي الجهة المقابلة، أي الشارع الجانبي المقابل لنا، يبتدئ الطريق نحو مركز المدينة. وفيما نسير إلى نهاية الشارع استعداداً للمرحلة الأخطر، كانت تسير أمامنا امرأة كبيرة في السن، ممتلئة الجسم ترتدي جلباباً فضياً وغطاء رأس أبيض، يرافقها رجل أصغر منها بقليل، يبدو أنه ابنها، حينما وصلنا إلى حافة الشارع الرئيسي، بدأت المرأة والرجل في الركض نحو الجهة الثانية، تمكن الرجل من العبور بسرعة وسهولة، أما المرأة فأخذت تحاول الركض، غير أنها بطيئة للغاية، جسمها يتحرك نحو اليمين واليسار وهي تنظر إلى أمامها بخوف.

- قف يا ماد. قلت له قبل أن نبدأ العبور نحو الجهة الثانية.

- ماذا هناك.

- هل أنت مستعد؟

- أجل!

- خذ نفساً عميقاً، واحد ... اثنان ... ثلاثة.

بدأنا الركض بأقصى سرعتنا، مررت بجانب المرأة، فهي ماتزال في منتصف الشارع، تصدر تأوهاً في كل خطوة تخطوها، خلال لحظات وصلنا إلى الجانب الثاني، وفي بداية هذا الشارع الفرعي هناك حاجز لقوات الديكتاتور، تحصين من أكياس خضراء مملوءة بالرمل، خلفها يجلس جنديان شابان على كرسيين، حينما وصلنا إليهما، طلب أحدهم

الهويات، فأخرجناها ونحن نلتقط أنفاسنا، في تلك اللحظة وصلت المرأة إلى الحاجز أمسك الرجل الذي كان ينتظرها حقيبتها، وبدأت تتنفس بكل عمق، أخذ الجندي الثاني ينظر إليها، فيما الأول ما يزال مشغول بتدقيق هوياتنا ومن ثم ارجعها، وحينما ابتعدنا عن الحاجز سألت ماد:

- ماذا سنفعل خلال ساعة الصلاة؟

- نذهب إلى السوق، فنحن بحاجة إلى بعض الأشياء الضرورية ... لكن دعني أخبرك شيئاً. قال الكلمات الأخيرة بنوع من التردد وهو ينظر أمامه.

- ما هو؟

- هل تتذكر حينما سألني عامل الفندق مصطا عن سير الامتحانات ومن ثم ضحك كلانا؟

- أجل أتذكر ... وماذا هناك!

- لقد قمت بإيقاف الدراسة في الجامعة لمدة عام.

- منذ متى؟

- منذ الصيف.

- وماذا تفعل هنا إذن؟

- أقوم بتقديم الامتحانات عوضاً عن الطلاب، مقابل المال، فالامتحان الذي أنجح فيه، أحصل فيه على عشرة آلاف من الطالب.

- أها مغامرة، ألا تخاف من أن يكشف أمرك في الجامعة؟

- لا، الأمر بحاجة إلى القليل من الشجاعة واستبدال الصور الشخصية للبطاقات الجامعية .... حتى إذا كشف الأمر، ماهي العقوبة؟ الفصل من الجامعة؟

- فصل نهائي.

- فليكن.

في تلك اللحظة بدأ المطر في السقوط، سرعان ما أصبح غزيراً، فاقترح ماد:

- علينا العودة.

- انتظر ... قد يتوقف المطر بعد قليل.

- لن يتوقف ... سننتظر في ممر الفندق ريثما تنتهي الصلاة.

عدنا من نفس الطريق إلى الفندق، وفي الممر أكمل ماد كلامه:

- قمت بتقديم عشرات الامتحانات، أغلب الطلاب الذين قمت بالتقديم بدلاً منهم، تعرفت عليهم عن طريق مصطفا، طبعاً لم تكن خدمات مصطفا مجانية، فقد حصل بدوره على ألفين مقابل كل طالب ناجح.

- ماذا عن الامتحانات التي ترسب فيها؟

- لا أحصل على شيء.

وبعد صمت قصير أضاف:

- لماذا الخوف أصلاً! سنغادر المدينة ومعها الجامعة، ربما لن نعود إلى هنا ثانية.

بعد قليل دخل نال الممر مسرعاً نحو الفندق، ألقى التحية رافعاً يده دون أن ينظر إلينا، بعدها تبعناه إلى الداخل وقد كان مشغولاً بالتفتيش عن شيء ما في إحدى أدراج الطاولة التي بالقرب من الباب، حينما دخلنا غرفتنا سمعت المرأة التي في الغرفة رقم سبعة وهي تتكلم بالهاتف، يبدو أن نال قد رضخ لكلام الرجل ووافق على بقاء المرأة داخل الفندق أثناء فترة الصلاة.

دخل أبي إلى غرفتنا وقال مبتسماً:

- لقد أخلوا البيت، سننتقل إليه خلال هذين اليومين.

- لماذا الانتظار! فلنذهب الآن. قالها ماد بحماسة.

- ننتظر الحصول على المساعدات الإغاثية، بدونها لا نستطيع الذهاب للبيت، خاصة لوازم النوم.

لم يطول الأمر كثيراً، ففي صباح اليوم التالي حملنا حقائبنا واتجهنا إلى الحي القديم.

***

- مالك تقف! تعال وساعدنا فالمطر في ازدياد. ناداني أبي وهو يحمل صندوقاً أبيضاً إلى الغرفة الوحيدة، نظرت حولي متفحصاً هذا المكان، لكني قلت في نفسي: " مهما يكن، سيبقى أفضل من الفندق.

هو بيت من تلك البيوت القديمة، بل غاية في القدم، فأمامي يقف باب الغرفة الوحيد وهو مطلي بالأبيض ليتماشى مع الحائط المطلي بالكلس الأبيض، لكن الصدأ انتشر على أطراف الباب وفي وسطه على شكل بقع ، بينما ذهب الكلس من الحائط مع مرور الأيام، فظهر مكانه الإسمنت الفضي، أمام باب الغرفة ساحة البيت وهو صغير لا يتعدى خمسة أمتار، إلى جانب باب البيت وبين هذه الرطوبة والعفونة هناك مترين من الأرض الترابية، وقد زرعت بنبات له أوراق خضراء ثخينة وطويلة لتعطي المكان طابعاً جميلاً، كذلك يمكن رؤية بعض حبات الفلفل الأخضر أسفل تلك الأوراق، وعلى يمين هذه الحديقة غرفة صغيرة للغاية من الطوب البني وهو المرحاض، ليس له باب، لذلك تم تغطيته ببطانية فضية من تلك التي توزع مع المواد الإغاثية، يلتصق الحمام بالمرحاض ولا باب له، أما المطبخ فهو ملاصق للغرفة الوحيدة .

حملت من عربة النقل ذات الإطارات الثلاثة صندوقاً أبيضاً ثقيلاً لا أدري ماذا يوجد بداخله، دخلت به إلى الغرفة ووضعته أرضاً، اختلطت رائحة الرطوبة مع الأثاث الخشبي، تفحصت الغرفة، وإذا هي ليست بغرفة، بل أكبر من ذلك، إلى جانب الشباك هناك خزانة ثياب عسلية اللون وهي من بقايا جهاز عرس أحدهم، إلى جانبها طاولة فارغة من الحديد وهي مخصصة لوضع فراش النوم عليها، وفي وسط الغرفة مدفأة وقود قديمة تحتها بساط أحمر بزخارف سوداء وبيضاء، هناك طاولة صغيرة تقابل طاولة الفراش، وعليها تلفاز بني اللون له أزرار صغيرة على الأطراف بدلاً من جهاز التحكم، هذا هو كل أثاث الغرفة، لم تشغل كل تلك الأشياء سوى النصف الأول من المكان، أما النصف الثاني فهو فارغ تماماً يعلوه بقع الرطوبة البيضاء، عندما انتهينا من نقل تلك الصناديق الثلاثة وأغطية النوم والبطانيات وقفنا داخل الغرفة، أخذ أبي يمعن النظر إلى المكان والأشياء الموضوعة على الأرض وقال :

- لابد أن نستحمل قليلاً هذا المكان، إلى أن ينتهي ماد من الامتحانات.

ومن ثم استدار نحو ماد وسأله:

- متى ستنتهي ... في أي يوم تحديداً؟

- عشرة أيام .... يوم الثلاثاء العشرين من هذا الشهر سأتقدم لأخر امتحان. أجاب ماد بسرعة وكأنه قد أعد هذه الإجابة مسبقاً.

- جيد، لم يتبقى الكثير.

طرق أحدهم باب البيت، انطلق ماد لينظر من هناك، ثم عاد بعد دقيقتين ونادى أبي:

- أحدهم يسأل عنك.

تبعت أبي إلى الخارج، وإذا برجل أربعيني يرتدي بذلة عسكرية لقوات الديكتاتور يدخل إلى البيت دون ان يأذن له أحد بذلك، وقف في وسطه وهو يراقب حوله واضعاً يديه في جيبي البنطال، قال بعجرفة:

- حافظوا على البيت، فأي ضرر يقع فيه ... أنتم المسؤولون.

فأجابه أبي بعد صمت:

- تمام، على العموم لن نطول بالإقامة هنا.

أكمل ذلك الضابط فحص المكان وأضاف:

- هو قديم بعض الشيء، لكن لا عيوب فيه، ومن مزاياه أن الكنيسة بالقرب منكم حيث الماء، والفرن وسوق الخضار أيضا قريب، موقع هذا البيت إستراتيجي للغاية ... لديكم جار ظريف أيضاً.

- من؟

- جرذ.

- جرذ!

- إنه يحب هذا البيت، يزوره كل فترة ... سأذهب الآن.

وقبل أن يخرج من باب البيت، نظر إلينا وقال:

- مكتبي يقع في مدخل هذا الشارع.

وحينما خرج أغلق ماد خلفه الباب، فسألت أبي مستفسراً:

- من هذا الضابط؟

- هذا ليس ضابطاً، مجرد إنسان مدني متعاون مع المخابرات لينقل لهم أخبار الحي.

طُرق الباب مجدداً، عاد ماد وفتح الباب، وإذا بطفل دون العاشرة يتوجه بالكلام إلى أبي:

- أبي يريد الفلفل المزروع.

فسأله ماد:

- أي فلفل وأي بابا هذا؟

- أبي صاحب البيت، أما الفلفل فهذا. وقد أشار إلى تلك الحبات الظاهرة بين النبات المزروع في " حديقة البيت" ، فأجابه أبي :

- اقطفها كلها.

راح الطفل بكل نشاط وسرعة بالبحث والقطف، وقد اجتمع في يده حوالي ست حبات من الفلفل الأخضر الصغير، بعضها يميل للسواد، بقي يبحث إلى أن تأكد أنه لم يتبقى هناك أي واحدة منها، وعندما هم بالخروج قلت له:

- لدينا البعض من الفلفل، ما رأيك أن أعطيك إياها؟

- لا، هذه تكفي.

ومن ثم غادر البيت، وفيما نعود للغرفة قال لي أبي:

- ما كان بك أن تقول للطفل ذلك الكلام.

- ألم ترى إلى أي شيء قد جاء.

تدخل ماد وقال:

- وإن كان، فنحن لا نعرف ظروفهم، ثانياً بإمكان والده أن يكتب تقريراً ملفقاً للمخابرات في أي واحد منا لينتهي به المطاف في إحدى افران اذابة المعتقلين.

دخل أبي إلى الغرفة وقال:

- تعالوا لنجهز الغرفة، لابد أن يكون هذا المكان بارداً خلال الليل.

***

بعد منتصف الليل استيقظت على صوت انفجار قوي، رافقه صوت تحليق طائرة حربية، والذي سرعان أن غادر سماء المنطقة بعد تلك الغارة، نظرت إلى ماد وإذا به ينظر إليَ، عكس ضوء الشمعة الموضوعة على طبق صغير، أثار النحول الشديد، فبرزت خطوط الجبهة وهالات سوداء أسفل العين، تجاعيد على شكل قوس حول الفم من الجهتين، يجلس على فراشه وهو يلتحف ببطانية فضية اتقاء للبرد، أعاد نظره إلى الكتاب الذي أمامه وقال بصوت منخفض:

- أيقظتك صوت الغارة الجوية أليس كذلك؟

- يبدو إنها قريبة.

- اتصل بي مصطفا اليوم.

- أهاً، لقد وجد لك زبوناً جديداً؟

- ثلاثة طلاب.

- وهل وافقت؟

- موافق طبعاً، سأحصل مقابل ذلك على أربع وعشرين ألف، وستة ألاف لمصطفا مقابل السمسرة.

- لم يتبقى سوى القليل لنخرج من هذا المستنقع.

- في الشمال حيث الأرض التي تدر أمناً وعملاً، سنعيش هناك حياة تليق أكثر بالبشر.

بعد عدة ساعات من ذلك وعندما استيقظت صباحاً سمعت أحدهم ينادي صديقه قائلاً:

- تعال بسرعة، اجلب معك القرب والدلو.

وعلى الفور نهضت من دون أن أيقظ أبي، واتجهت إلى الحمام، حملت دلوين أحمرين، حصلنا عليهما ضمن المساعدات الأخيرة وخرجت بهم إلى الشارع وإذا بأربعة صبية يحملون الدلاء والقدور، رافقتهم إلى حيث يذهبون وإذا بهم يقفون بالقرب من الكنيسة،

وقد ثبت على جدارها الخلفي المطل على الشارع خمسة صنابير خضراء موصولة بأنابيب تخترق الجدار إلى داخل الكنيسة حيث إحدى الآبار، كان أمام كل صنبور قد اصطف حوالي عشرة أشخاص، اللافت أن جميعهم تقريباً من الأطفال أو النساء اللواتي تجاوزن الخمسين وحتى أن بعضهن في الستين، ناهيك عن الجالسات على شرفات البنايات المتهالكة وهن مشغولات بمراقبة المارة أو الاستماع إلى أغان قديمة وسط أصوات الانفجارات!

وقفت في الصف الأول، أمامي ثلاثة صبية وامرأة في المقدمة، وإلى جانب هذا الصنبور الأول وقفت راهبة ترتدي لباساً أسوداً، كانت في العقد الرابع من عمرها، دائمة الابتسامة، بابتسامة خفيفة وبصوت هادئ نادت على مجموعة من الأطفال يتزاحمون على من يقف أولاً:

- بهدوء أيها الأطفال ... فالماء يكفي للجميع.

بعد ربع ساعة زاد التوافد على الماء، أغلبهن نساء، البعض منهن جئن بعربات الأطفال، فقد وضعن القرب ذات الأحجام الكبيرة مكان جلوس الطفل، أكثر ما آلمني في تلك اللحظة مشهد حملهن إلى البيوت، إحداهن تتمايل إلى اليمين لثقل القربة، وأخرى تحمل دلواً في كل يد، وقد أتعبها ذلك كثيراً حتى أنها راحت تستريح كل عشرة أمتار بوضع الدلو على الأرض، ومن ثم إلى حمله مجدداً، عدت بالماء إلى البيت، وجدت أبي مستلق في فراشه وقد استيقظ لتوه من النوم، فسألني:

- أين كنت؟

- جلبت الماء.

- جيد ... كم الكمية؟

- دلوان.

- اذهب يا ابني مرة أخرى وأتي بدلوين أخرين.

- لقد توقفوا عن التوزيع.

- بهذه السرعة!

- لا أعلم ما السبب.

وعلى الفور خرجت من البيت باتجاه مكان توزيع الماء لأساعد قدر المستطاع من يقبل المساعدة، إلى أن توقف توزيع المياه، حينما عدت إلى البيت وجدت ماد في المطبخ يأكل من إحدى علب الفول التي تم توزيعها ضمن المساعدات، يبدو أنه قد وصل لتوه من الجامعة فهو ما يزال يرتدي الثياب المخصصة للذهاب إلى الجامعة، فوجدته مشغول بهاتفه بيد وبالأخرة يمسك الملعقة، فسألته:

- ما رأيك أن نذهب إلى السوق؟ سألته مقترحاً.

استدار إليَ وأجاب وهو يمضغ الطعام في فمه:

- موافق، لكن عليك الانتظار قليلاً.

- طبعاً بعد أن تنتهي من الأكل.

- عليَ الذهاب إلى لقاء أحد أصدقائي، حينما أعود سنذهب إلى السوق " قالها وهو يبحث بالملعقة عن حبات الفول المتبقية في قعر العلبة.

- بعد ساعة!

- لا أعلم تحديداً، فالأمر ليس بيدي.

- أي أمر؟

- حينما أعود سأخبرك. رمى العلبة في دلو القمامة أسفل المغسلة، ومن ثم غادر إلى خارج البيت، انتظرته طويلاً إلى أن عاد، نظرت إلى الساعة وإذا هي بالساعة التاسعة ليلاً، ثم اتجهت بالكلام إلى ماد، الذي كان واقفاً أمام باب الغرفة وهو ينتظرني:

- لقد تأخرت كثيراً وتأخر الوقت.

- ذلك أفضل فالازدحام أقل الآن ... هيا بنا قبل أن تمطر مجدداً. وقد أنهى كلامه بغمزة عين!

فيما أرتدي ثيابي، توقف أبي عن متابعة قراءة إحدى الكتب الدينية التي بيده وقال:

- لا تتأخروا كثيراً، فتلك الأماكن خطرة للغاية ... لا تنسوا أن تشتروا القليل من الشاي.

- حاضر يا أبي، سنحاول العودة في أسرع وقت. أجاب ماد.

اتخذنا طريقاً يمتد من الحي القديم مروراً بالمحطة المهجورة وصولاً لشارع الملك فالسوق، حاولنا فيه الابتعاد قدر الإمكان عن مباني ونقاط جيش الديكتاتور، خشية أن تنال منا قذيفة ما وهي تستهدف تلك النقاط، سألت ماد:

- أين كنت منذ الصباح؟

- كان يوماً حافلاً، في الصباح قمت بتقديم امتحانين اثنين، وخلال الظهر ذهبت إلى بيوت الطلاب الذين قمت بتقديم الامتحان بدلاً منهم واستلمت أجرة سبعة امتحانات ناجحة، بعدها قصدت الفندق وأعطيت لمصطا ما كان نصيبه من المال.

- أين قدمت الامتحانين؟

- كلاهما في كلية الهندسة ودون أن أكتشف.

- مغامرة.

- فليكن، المهم الآن هو المال، أيضاً سأبيع الكتب ومسطرة الهندسة والآلة الحاسبة خلال هذين اليومين ... سيلزمنا كل هذا المال في الأناضول وما بعد الأناضول.

عندما مررنا بحاجز الجسر القريب من السوق، أشار جندي ملتحف ببطانية عسكرية وهو يجلس على الكرسي أن نكمل طريقنا دون الحاجة للتدقيق في هوياتنا.

في إحدى الشوارع الفرعية المؤدية إلى السوق، كان رجل وزوجته يرتدون معاطف سوداء طويلة قد خرجوا لتوهم من السوق، الزوجة تمسك بذراع زوجها فيما حمل هو بيده اليمنى كيساً أسوداً بداخله كمية من الخضار ذات الحبات الصغيرة، مرَ بالقرب منهم رجل مسرع الخطى وهو يتكلم في الهاتف، دوت ثلاث انفجارات متتالية، لم يعير أحداً انتباهاً لذلك.

لم يكن ذلك سوقاً بالمعنى الحرفي، إنما أربعة شوارع متتالية من الطريق المؤدي من الجسر إلى المبنى البلدي قد تم تحويلها إلى سوق، أضاء السوق عدة أعمدة إنارة تستمد طاقتها من إحدى فروع المخابرات القريبة من الجسر، كون الكهرباء قلما كانت تنقطع عن المراكز الأمنية لقوات الديكتاتور، قصدنا الشارع الأول المخصص لبيع الخضار، انتشر على جانبي الشارع الأول عربات مصنوعة من الخشب مزودة بأربع إطارات، وقد كانت فارغة في معظمها، أربعة منها قد نشر عليها البطاطا، وهي من النوع المستورد

ذي الحبات المائلة للسواد، أما بقية العربات التي تعمل فهي موزعة ما بين الطماطم و البصل، حينما اشترينا حاجتنا من تلك الخضار، قال لي ماد مقترحاً:

- هل نعود إلى البيت أم نتجول قليلاً في السوق؟
- وماذا يوجد هناك؟ " حينها اتجهت بالنظر إلى بقية السوق.
- كل شيء، فالناس هنا تبيع كل ما يمكن بيعه.
- أنا بحاجة إلى عدد من الكتب، لقد سئمت من قراءة الكتب التي أتيت بها.
- على ما أعتقد هناك عدد من باعة الكتب، هيا بنا.

على جوانب الشوارع المتبقية من السوق، افترش الكثير من الرجال والشبان أدوات وأثاث تعود لبيوتهم أو البيوت التي هجرها أهلها، تجول بضع عشرات من الأشخاص في السوق، كانت الغالبية تسير وهي تتفحص تلك الأشياء دون أن تشتري شيئاً. اتجهت إلى إحدى الممرات في الشارع الثالث، حيث رجل مسن بذقن بيضاء يرتدي معطفاً عسكرياً وبنطالاً أسوداً، معتمراً قبعة سوداء من الصوف على رأسه، كان يجلس على كرسي صغير شارد الذهن وقد افترش مدخل الممر بالكتب، حينما اصبحت على مقربة منه رفع رأسه ونظر إلينا بقرف.

- مرحباً، كيف حالك يا عم. ومن ثم اقتربت أكثر من الكتب ورحت أتأملها.
- أهلاً بكم.

غابت معظم الكتب في عتمة المكان سوى القريبة من مدخل الممر حيث ضوء الشارع، أخرجت الهاتف من جيب بنطالي وعلى ضوءه أخذت أقرأ عناوين الكتب وقد صدمت لما رأيت، سألت الرجل متعجباً:

- من أين جئت بهذه الكتب؟
- نفيسة .... أليس كذلك؟

معظم تلك الكتب كانت طبعات قديمة ومجلدة تجليداً فاخراً، إحداها كانت عن رحلة أحد المستكشفين الغربيين لبلدان الشرق، يعود تاريخ طبع الكتاب لمئة وأربع سنوات، حملت الكتاب بيدي وسألت البائع:

- بكم هذا الكتاب؟ رحت أحركه أملاً ألا يتعرف عليه.

- خمسمئة.

- هذا كثير، دعنا نتفاوض.

- هذا السعر النهائي، ثانياً هذه الكتب ليست ملكي.

أعدت الكتاب لمكانه، ورحت أفتش عن كتاب أخر، خلال ذلك أضاف البائع:

- هذه الكتب تعود لدكتورة في الجامعة، وقد طلبت مني أن أبيعها مقابل مربح بسيط.

- كم تبيع في اليوم؟ سألته وأنا أقلب بين الكتب.

- ما أكثر الأيام التي لا أبيع منها شيئاً.

- إذا كان الأمر كذلك، كيف تعيش إذن؟

- لا ينسى الله أحداً. وأكمل بعد ذلك:

- لقد أخبرتني الدكتورة أن هذه الكتب تعود لمكتبتها التي تقع في الجهة الثانية من المدينة، أي التي تحت سيطرة المسلحين (يقصد القوات الحرة)، في إحدى الأيام وذلك قبل الحصار، وصلها اتصال يفيد بأن بيتها قد تعرض للسرقة ولم يتبقى منه سوى المكتبة، التي راح الجيران يحرقون كتبها للتدفئة وطهي الطعام، على الفور اتجهت إلى البيت واستعادة ما تبقى من الكتب، وهذه الكتب التي أمامك جزء منها.

حملت كتابين أخرين وقد عزمت على شرائهما مهما كان سعرهم، الأول ديوان لشاعر مهجري والثاني مذكرات مستشرق، اقتربت من البائع وعرضت عليه الكتابين منتظراً أن يقول السعر:

- مئتان ... لكل واحدة.

بلعت ريقي ونظرت إلى الكتب مفكراً بإعادتها أم لا بعد هذا السعر، بعدها رحت أتأمل الرجل الذي لم يحلق ذقنه منذ شهر تقريباً، يرتدي سترة قد حصل عليها من جندي ما، ارتفع الطين أسفل بنطاله البالي، هيئته تدل أنه معدم، قطب حاجبيه وقال بتثاقل المستسلم:

- يا بني لا تناقشني على السعر، لإنك لن تنقص إلا من مربحي القليل.

- سأدفع لك كما طلبت. بينما أخرج المحفظة من جيبي، قال:

- لولا الحرب لما استطاع أمثالنا أن يشتري هكذا نوع من الكتب وأنت تدري ذلك جيداً.

- هذا صحيح. وقد ناولته ورقتان من فئة المئتين، خرجت يد ضعيفة بعروق بارزة من جيب السترة واستلمت الأوراق برؤوس أصابعها، وضعها في الجيب الداخلي ومن ثم أعاد يده للجيب الخارجي، ودعناه ومن ثم طفقنا عائدين، في الطريق قلت لماد متحسراً:

- لو كان لدي المال الكافي ولست على سفر ... كنت اشتريت كل هذه الكتب.

- أه صحيح، الاستقرار هو الأساس، حتى هذين الكتابين لن يطول بقاؤهما معك.

- سأضعهم في حقيبتي، وزنهم خفيف ... ستكونان نواة مكتبتي الجديدة حينما نصل لإحدى دول الشمال.

- آمل ذلك.

لم يكن أبي موجوداً حينما عدنا للبيت، اتجه ماد إلى المطبخ لوضع الخضار هناك وصنع ابريق من الشاي الذي اشتريناه في طريق العودة، فيما دخلت إلى الغرفة واشعلت الشمعة والمدفأة، ثم جلسنا نخطط للمرحلة التالية،ُفتح باب البيت، قال ماد:

- لقد عاد.

ثم فتح باب الغرفة ووقف أبي مرتدياً البنطال البني وهو ينظر إلينا مبتسماً**!** اتجهت بالنظر إلى ماد مستغرباً، في تلك اللحظة قال أبي:

- فُتح الطريق.

- متى؟ سألت.

- اليوم عندما كنت عند صديقي الأستاذ سال ... لقد اتفقوا أن يتأذنوا لطلاب الأرياف أن يخرجوا من المدينة، حتى يتمكنوا من العودة إلى بيوتهم، لكن لثلاثة أيام فقط اعتباراً من الأحد، أي بداية الأسبوع القادم.

أجاب ماد متحمساً:

- وأخيراً سنخرج من هنا.

هنا تدخل أبي وقال:

- سأرافقكم.
- إلى أين؟ سألت مستغرباً.
- سبق وأن أخبرتك ... إلى الأناضول ... إلى أين يعني!
- الطريق طويل ومتعب للغاية يا أبي، لا تنسى أنك مريض.
- أعرف ... مع ذلك سأكون معكم.
- إذن لماذا ستتعب نفسك كل هذا التعب!
- حتى الأناضول فقط، لابد أن ألتقي بأختكم ميلا هناك، لم أراها منذ من خمس سنوات.

صمتنا ولم يتكلم أحد، بقي أبي واقف في مكانه ينظر إلينا إلى أن بدأت أثار الغضب ظاهرة عليه:

- لم يتبقى الكثير ... أيام قليلة وسينتهي كل شيء، قد لا نلتقي مجدداً.
- يا أبي المسألة ليست بهذا الشكل.
- وبأي شكل هي؟
- كل ما في الأمر إننا نبحث عن راحتك.
- وراحتي أن أكون معكم حتى أخر محطة أستطيع الوصول إليها معكم.

وحتى ينهي أبي هذا الحديث قال:

- لقد أخبرت سائق الحافلة أننا سنسافر معه، والانطلاق سيكون الأحد فجراً. وبعد صمت أضاف:
- قم يا ماد وضع رغيف خبز في زاوية ساحة البيت، يبدو أن جارنا الجرذ جائع ... إنه بالقرب من الحمام ينتظر العشاء.

***

في الليلة التي سبقت السفر بدأنا في تجهيز الحقائب، وبعد الانتهاء من حقيبتي سألت أبي مستفسراً:

- هل الحافلة التي سنسافر بها مريحة؟
- لا أعلم، لم أشاهدها ... من الجيد ما يزال هناك حافلات تعمل. قالها وهو يعيد خياطة الجزء المفصول من السحاب بالحقيبة السوداء، لكنه توقف فجأة وكأنه تذكر شيئاً ومن ثم نظر إلي وقال:
- اذهب إليه الآن.
- من؟
- اذهب إلى السائق وتأكد أنه لن يؤجل السفر غداً.
- أين هو الآن؟
- بجانب الفرن مباشرة، بيت بباب أسود، هيا بسرعة قبل أن ينام.

نظرت إلى ماد لأطلب منه أن يذهب هو، لكنه جعل من نفسه مشغولاً بمراسلة أحدهم عن طريق الهاتف، ارتديت ثيابي على عجل وانطلقت، كانت الساعة في الحادية عشرة تقريباً، لقد اعتمت تلك الشوارع الضيقة، فلا قمر في السماء ولا شيء يضيء ذلك السواد القاتم سوى بعض الأنوار التي تخرج من زجاج النوافذ المطلة على الشارع هنا وهناك، عندما كنت اسير مسرعاً في إحدى الشوارع مر شيء ما سريع خلفي، أدرت نفسي للوراء لأرى ما كان ذلك الشيء، لكني لم اسمع صوتا ولم أرى سوى السواد الذي يملأ المكان، أكملت طريقي وأنا متأكد أنه مجرد جرذ، ففي هذه الشوارع يكثر الجرذان، أصحاب إحدى البيوت كان لديهم مصباح أبيض قوي حتى أنه أضاء جزء كبيراً من امام الشباك المطل على الشارع، جلس أحد الطلاب وهو يرتدي الملابس السميكة على كرسي مقابل ذلك الشباك وبدأ يقرأ في كتاب، حينما مررت بالقرب منه لم يرفع نظره عن الكتاب، فقلت له:

- بالتوفيق.
- لنا أجمعين.

- الجو بارد في الخارج!

- أما في الداخل برد وظلام.

- ألم تنتهي امتحاناتك؟

- غداً الامتحان الأخير.

كان قناص المبنى البلدي يطلق النار حينها، حوالي رصاصة كل عدة ثوان، لكن الصوت ضعيف لبعد المسافة، دخلت إلى البيت الملاصق للفرن وقد كان بابه مفتوح، ساحة البيت فارغة تقريباً سوى من برميل في الزاوية، وغرفتان ودرج يؤدي إلى غرفة في الأعلى، خرج نور خافت من شباك إحدى تلك الغرفتين، فاتجهت إليه مباشرة ومن الشباك المفتوح وسط ذلك البرد أطلت إلى الداخل، وإذا بخمسة شبان لهم لحى متوسطة الطول يدخنون بشراهة ويتناقشون عن ري أراضيهم الزراعية، اثنان منهم مستلقين يتخذون من حقائبهم السفرية وسائد لهم، وثلاثة أخرين يسندون ظهورهم إلى الجدار.

- السلام عليكم.

توقفوا عن الكلام لحظة مشاهدتي، وأجاب البعض منهم:

- وعليكم السلام.

- من منكم سائق الحافلة؟

- كلنا سائقين ... لكن بعد التخرج.

ضحكت لتلك " الدعابة " وأضاف نفس الشاب:

- السائق في الغرفة التي في الأعلى.

- شكراً لك، سأذهب إليه.

عندما ابتعدت عن الغرفة نادى أحدهم:

- كن حذراً فهناك جرذ كبير في البيت ... قد يكون على الدرج.

- سأكون حذراً.

اتعبني هذا الدرج الغريب، فارتفاع الدرجات ليس متساوياً، بعض الدرجات أعلى من الأخر، ومن الجيد أني لم ألتقي بالجرذ في هذا المكان، حينما اقتربت من الغرفة سمعت صوت شخير يرافقه صدى، توقعت أن يكون نائماً، طرقت الباب عدة مرات لكن السائق لم يستيقظ، فتحت الباب بهدوء ومن ثم دخلت إلى تلك الغرفة المعتمة، لم أرى سوى فرشة نوم وعليها شخص نائم على مقربة من الباب، أما بقية الغرفة فهي فارغاً تماماً، اقتربت منه وناديت بصوت هادئ:

- أيها العم ... يا عم. أعدت تكرار النداء فلم يستيقظ، رفعت من صوتي، كذلك لم يستجب، حركته بلطف مع النداء عليه، فلا نتيجة، إلى أن حركته بعنف، ففتح عينه قدر المستطاع ونظر إليَ بذعر وهو صامت،

لم أرى من وجهه سوى أنفه الكبير، وذقن قصيرة، تكلم أخيراً وسأل:

- من أنت؟
- أأنت السائق؟
- جئت إلى هنا وبهذا الوقت المتأخر وقد أيقظتني كي تسأل هذا السؤال! ... نعم أنا السائق، ماذا تريد الآن؟
- هل تريد أن تسافر غداً صباحاً؟
- أسافر! أه نعم بالتأكيد ... لكن لا أماكن متوفرة الآن.
- لقد أخبرك أبي أننا سنسافر معك ... نحن ثلاثة أشخاص.
- أباك! أشاح نظره عني وراح يتذكر الأشخاص الذين سيسافرون معه غداً، ومن ثم قال:
- لقد تذكرته، ذلك الشايب!
- نعم هو.
- غداً السفر، لا مجال للتأجيل.

ومن ثم عاد واستلقى في فراشه وأضاف:

- هل هناك من أسئلة أخرى؟

- لا.

- إذن أريد أن أكمل نومي الآن ... غداً أمامنا طريق طويل.

دوى انفجار، يبدو أنهم ردوا على طلقات قناص المبنى البلدي.

- تصبح على خير.

لم يرد عليَ، إنما عاد للنوم مجدداً، وعندما انتهيت من نزول الدرج نادى أحد هؤلاء الشبان:

- هل رأيت السائق والجرذ؟

عدت إلى الشباك، نظرت إليهم، وإذا هم بنفس الوضعية السابقة، سألت مستغرباً:

- الكل يدخن بشراهة!

أجاب نفس الشاب الذي ناداني، وهو الوحيد الذي يتكلم أما البقية فقد اكتفوا بالنظر، وقال:

- لابد من ذلك، غداً سنعود للبيت والبيت في قرية تقع تحت سيطرة قوات القمصان السود، والتدخين ممنوع لديهم.

- رأيت السائق، لكن لم أرى الجرذ. مجيباً على سؤاله.

- هذا جيد.

- أين تقع قريتكم؟

- في أقصى شرق الصحراء.

- لماذا لا تسافرون إلى دول الشمال أو تبقون هنا؟

- لا مال معنا، ولا عمل هنا.

- طيب ... كم عدد ركعات صلاة الظهر؟

- أربعة.

- صحيح، أيضاً مع هذه اللحى ستصلون بسلامة إلى بيوتكم.

- الحمدالله نحن نحافظ على صلاتنا.

- علي أن أذهب الآن، السلام عليكم.

- وعليك السلام. رد بعضهم.

استمر قناص المبنى البلدي بالاشتباك مع القوات الحرة في تلك الأثناء، هو يطلق النار بكثافة وهم يستهدفونه بالقذائف، التي يبدو أنها تخطئ في معظمها، مررت من أمام الطالب وهو ما يزال يدرس في الشارع، لم يرفع رأسه عن الكتاب ولم أشأ أن أقاطعه بالسلام.

خلال الليل استيقظت على وقع دوي انفجار غير مسبوق، لم أتحرك من مكاني، أخذت عيني تراقب السقف وقد عكس عليها ضوء الشمعة ظلالاً عريضة للمدفأة وأنابيبها الممتدة لأعلى الجدار، فكرت بالذي جرى! دوى انفجار أخر تبعه صوت محرك طائرة نفاثة، كان أقرب للصفير، ارتفع الصوت أكثر فأكثر إلى أن أصبحت الطائرة فوق الحي تقريباً، ليعود صوتها بالابتعاد وهي تتسلق نحو الأعلى إلى أن اختفى تقريباً، وإذ بها تنقض مجدداً على هدف ثالث لتستهدفه بقنبلتين، لقد انفجرتا في وقت متقارب فاهتز معها المكان بشدة، تراقصت تلك الظلال رافقها صوت اهتزاز أثاث الغرفة، استدار ماد بوجهه صوبي، التفت إليه ووجدته قد استيقظ مذهولاً وهو ينظر إلي بعينين جامدتين للحظة ومن ثم عاد إلى وضعه السابق عندما أدرك أنها غارة جوية، رفعت رأسي قليلاً فوجدت أبي منكباً في الدعاء لأمي وهو دامع العينين وأمامه الشمعة والكتاب، عدت واسندت رأسي على الوسادة وقد ابتعدت الطائرة بعيداً إلى أن اختفى صوتها تماماً ومعها توقف الاشتباك بين القناص ومطلقي القذائف.

....

- هل أنت جاهز يا دارو؟

سأل أبي وهو يرتدي جواربه الزرقاء.

- أجل.

- إذن اذهب إلى السطح، وتأكد أن برميل الوقود قد أقفل عليه بشكل جيد، حتى لا تمتد إليه أيدي أحد منهم، كما تعلم قد وعدت الأستاذ سال أن أعطيه إياها مقابل أن يعيد ما تبقى من أشياءنا هنا إلى بيتنا في الريف.

تسلقت بواسطة سلم من الحديد لسطح الغرفة، كان الوقت فجراً بدت أصوات الاشتباكات البعيدة أكثر وضوحاً، حركت القفل جيداً لأتأكد من سلامته، فوجدته متيناً أميناً، وقبل أن أنزل أردت أن ألقي نظرة أخيرة لذلك البحر الذي لا ينتهي من الأبنية المدمرة، فجأة ارتفع صوت انطلاق صاروخ، فنظرت إلى اليمين، وإذا بقوات الديكتاتور تطلق صاروخاً ثقيلاً، من منصة قريبة من المبنى البلدي، كان الصاروخ أسوداً عريضاً في الوسط والرأس، رفيعاً في منطقة الذيل مزود بزعانف عريضة .انطلق من وسط المباني وهو ينفث لهباً أصفراً، رافقه صفير سرعان ما انقطع ومن ثم انطفأ اللهب حينما أصبح وسط السماء، وبحركة أشبه بالقوس، انحنى الصاروخ نحو الأسفل وسقط في إحدى أحياء القوات الحرة، دوى انفجار ومن ثم تصاعد دخان أبيض من بين الأبنية.

حينما نزلت وجدت أبي وماد قرب باب البيت، فطمئنت أبي:

- كل شيء بخير، الوقود في مكان آمن.
- جيد ... هذه الأشياء البسيطة المتبقية ستصل بيتنا حينما يفتح الطريق أمام جميع المدنيين ... يوماً ما.

أخذت حقيبتي من يد ماد ووضعتها على كتفي كانت خفيفة للغاية فلأشيء فيها سوى بعض الثياب والكتابين، أما أبي فحمل بيده اليمنى الحقيبة السوداء، أقفل الباب وانطلقنا نحو الحافلة، ازداد ضياء الفجر وأصوات الاشتباكات ماتزال تسمع من بعيد في جولة جديدة من المعارك، أخذنا نسير في صمت، نقطع الأزقة والشوارع إلى أن سأل ماد:

- أين مكان الحافلة؟
- عند محطة القطار. أجاب أبي باقتضاب.
- تقصد قرب الثكنة.
- بالضبط.
- ألم يجد السائق مكاناً أخر! هذا المكان من أكثر النقاط المستهدفة بالقذائف، هل تذكر يا دارو حينما مررنا من أمام الثكنة ونحن في طريق العودة من الجامعة وكيف سقطت قذيفة بعد أقل من خمسة دقائق من مغادرة المكان، وقد قتلت ثلاثة أشخاص.
- نعم اتذكر ذلك جيداً.

أجاب أبي:

- لا أدري لماذا هناك ... آمل ألا يطول بقائنا هناك.

عندما وصلنا إلى الشارع المحاذي للمحطة رأيت جمعاً من الناس، عائلة مكونة من أب وأم وثلاثة أطفال أما البقية شبان ورجال، وقفوا إلى جانب حافلة من الطراز القديم، وخلفها ثلاث حافلات صغيرة، منها حافلة مودي، عندما أصبحنا إلى جانب ذلك الحشد سأل ماد مستغرباً:

- متى ستأتي الحافلة!

فأجبته:

- لا أعلم، ربما بعد قليل.

فجأة استدار إلينا رجل، لفت انتباهي انفه الكبير المائل للأسفل، هذا الآنف ليس بغريب علي، أجاب الرجل على تساؤل ماد:

- بهذه ستسافر. ومن ثم أشار إلى الحافلة القديمة.

فأجبت متعجباً:

- أبهذه ستقطع كل المسافة المقبلة؟

- أجل، وماذا بها! وهو يحدق بعيون من حوله وكأنه منتظراً تأييدهم فيما قاله.

نظر إليها ماد ومن ثم إلى الرجل وقال:

- هذه تعود للعصر الحجري.

وقبل أن يرد على سخرية ماد وأنا متأكد من أن كلامه سيصبح متعالياً، سألته:

- هذه مخصصة للمسافات المتوسطة! ثانياً هل هي صالحة لاجتياز الصحراء؟

وضع كفه الأيمن على الحافلة وأخذ يحركها ببطء، وقال بصوت متحمس، وهو ينقل نظره بيني وبين ماد:

- بكل سلاسة وسهولة وراحة تامة للمسافرين، هذه الحافلة صنعت لتقطع الصحاري، إنها شابة بل أقوى من الحافلات الحديثة.

ومن ثم راح يشرح أكثر وهو ينظر إلى تلك الوجوه بعيونها الناعسة وغير المبالية لما يتكلم به هذا الرجل، تثاءب أحدهم فاتحاً فمه قدر المستطاع، ومن ثم أشاح نظره باتجاه بقية الحافلات، في تلك اللحظة توافد المزيد من المسافرين، وأكمل السائق حديثه:

- اشتريتها قبل واحد وأربعين عاماً لكنها ماتزال جديدة ... عروس.

ألصق كفه إلى الطين الجاف تحت إحدى النوافذ، فأكمل كلامه دون أن يعير اهتماماً لما تركته تلك الحركة على يده من التراب، حافلة بنية اللون يتوسطها ثلاثة خطوط عريضة سوداء تمتد من الباب الأمامي مروراً بأسفل النوافذ وإنتهاءاً بالأنوار الحمراء الخلفية، ارتفع الطين على جوانبها حتى وصل إلى المنطقة الواصلة بين الإطارات والنوافذ، تموضع على سقفها إطار حديدي مزخرف مربع الشكل، وهو مخصص لوضع حقائب المسافرين في حال لم يتسع مخزن الحقائب الجانبي لكل الحقائب توقف الرجل عن الكلام ومن ثم نقل نظره بين الحشد، حينها أدرك أنه يجب أن ينطلق، فاتجه مباشرة نحو الباب الأمامي وقد تبعه مراهق بدين، فتح الباب وصعد أولاً ومن ثم ذلك المراهق، هدرت فجأة الحافلة وأطلقت دخاناً أسوداً، ابتعد من كان قريباً من العادم، اطلق شاب صيحة تذمر " لقد أصبحت رائحتي كريهة " فأطل المراهق البدين من الباب وقال:

- هيا اصعدوا ... علينا ان ننطلق.

ناديت أبي المشغول بالكلام مع السائق مودي بالقرب من حافلته، ومن ثم صعدت وماد، وإذا برائحة غريبة داخل الحافلة، جلس ذلك الرجل على كرسي القيادة وإذ هو بالسائق، وأمامه العدادات بزجاجات ضبابية مغبرة من الأسفل، وقد علق أعلى الزجاج عنقود عنب بلاستيكي بحبات خضراء دائرية، معها مسبحة سوداء، أما أعلى الزجاج فقد كتب بخط اليد مجموعة أدعية لحماية المسافرين.

جلست إلى جانب النافذة، كانت المقاعد مزدوجة بغطاء من المخمل المطرز بنقوش ذهبية، كان ماد يجلس بالقرب مني، فيما جاء أبي متأخراً وجلس في الخلف، ومن النافذة ظهر مبنى محطة القطار المهدم، أمامها سكتين اثنتين عليها العشرات من العربات المتوقفة منذ سنوات طويلة أغلبها قديم والقليل منها يبدو قليل الاستخدام، خاصة ثلاث عربات سوداء تحمل أرقاماً وحروف بيضاء، أمام المحطة تقع إحدى أهم ثكنات قوات الديكتاتور وهي مؤلفة من مبنى أبيض من ثلاثة طوابق وإلى جانبه عدد من الغرف الصغيرة، كانت الحفر الناتجة عن سقوط القذائف تملأ المكان أيضاً تركت أثاراً على المبنى والغرف في شكل حفر متفاوتة الأحجام.

انطلقت الحافلة، سار مساعد السائق وهو ذلك المراهق في الممر الفاصل بين المقاعد وأخذ يرش عطراً برائحة الورود من قارورة معدنية، اختلطت تلك الرائحة مع رائحة الحافلة فأصبح مزيجاً يدعو للغثيان، حينها كانت شوارع المدينة خالية من أي أثر للمركبات أو المشاة سوى بعض حراس المنشأت العسكرية، لكنها أخذت بالازدياد إلى أن اقتربنا من تقاطع طريق يعج بالحافلات الكبيرة وقد تجمهر حولها المئات من الأشخاص، توقفت حافلتنا إلى جانبهم، غص المكان بهم دون أي انتظام، فيما أصوات الاشتباكات والانفجارات مازالت مستمرة، توافد المزيد من المسافرين وهم يحملون الحقائب باتجاه الحافلة، فيما نزل المعاون ليساعدهم في وضع حقائبهم في المكان المخصص لذلك، بينما أراقب صعود الناس إلى الحافلات وهم يتزاحمون على ذلك بوجوه قلقة خائفة، لفت نظري في إحدى الشوارع المطلة على التقاطع وجود رتل من الحافلات المحترقة، حوالي ثماني حافلات من الطراز الحديث وهي محترقة بشكل كامل، لقد باتت عبارة عن قطع خردة سوداء، بعد حوالي ربع ساعة امتلأت الحافلة بأكملها، سارت ببطء وسط ذلك الحشد إلى أن خرجت من ذلك المكان واتجهت صوب جنوب المدينة.

- لابد أنكم تعرفون قواعد السفر، أليس كذلك؟ " قال ذلك السائق بصوت مرتفع ومن ثم صمت وهو ينتظر إجابة من المسافرين عن تلك " القواعد " أما المرافق أخذ يراقب ردة فعل المسافرين من سؤال السائق.

وصلت الحافلة إلى شوارع الجزء الأخير من المدينة، ومازالت المدينة فارغة تقريباً، سوى من القليل من الحافلات التي توقفت لتحمل المسافرين من أمام بيوتهم، لم يتكلم أحد أو يعلق على سؤاله، فعاد السائق وقال بحزم هذه المرة:

- هناك خمسة حواجز للجيش (جيش الديكتاتور) موزعين على طول الطريق، وكل حاجز يريد " حصته " لهذا على كل واحد منكم أن يعطيني خمسمئة حتى أقوم بتوزيعها على الحواجز، أو بإمكانكم عدم الدفع، لكن عليكم أن تتفاهمون مع جنود كل حاجز.

بدأت الحقائب والمحفظات تفتح، اختلطت أصوات السحابات، بنغمات قصيرة وطويلة، أما المعاون البدين وبحركة بطيئة بدأ بجمع الأوراق النقدية.

أخرج ماد من محفظته ورقة من فئة الألف، تحمل في الزاوية اليسرى صورة للديكتاتور الأب، أطرافها البيضاء قد باتت صفراء من عرق الأيدي التي لمستها، إلا أنها ماتزال جديدة مقارنة بالفئات الأصغر، توقف المعاون أمام ماد وبيده اليمنى رزمة من الأوراق

النقدية وقد قام بترتيبها بكل إتقان، أخذ الورقة من ماد ووضعها في الأسفل مع فئة الألف، أصوات أنفاسه مسموعة، فهو الآن يقوم بعمل مجهد بالنسبة له، كان يرتدي بذلة نوم قطنية صفراء اللون ونعلاً بلاستيكياً أسوداً، تظهر من أمامه أصابع قدمه الكبيرة بأظفار طويلة غير مقلمة، قلل السائق من سرعة الحافلة حينما مر بالقرب من إحدى مخافر الشرطة، أكمل جمع المال ومن ثم عاد المعاون وسلم الغلة إلى السائق والذي بدوره سأل المعاون بصوت منخفض وهو ينقل نظره بين الطريق والمعاون وخاصة عند السؤال والجواب:

- هل دفع الكل؟
- أجل، الكل.
- قم بعدها.
- لقد قمت بذلك أكثر من مرة ... إنها خمسة وعشرون ألف.

ومن ثم ناوله إياها وهي مطوية، فوضعها السائق في جيب قميصه المخطط بالأحمر والأبيض، عاد وزاد من سرعة الحافلة، ولا مانع من الزيادة، فلا حركة للمركبات في الطرقات ولا حتى إشارات مرور تعمل، وقف ثلاثة جنود أمام بوابة مرأب مهجور وبالقرب منهم كان نصب لطائرة حربية قديمة مموهة بالأصفر والأخضر موضوعة على جانب الطريق، توقفت الحافلة أمامهم، صعد أحد هؤلاء الجنود إلى الحافلة وهو يرتدي خوذة خضراء وجعبة بتمويه لها نفس لون البذلة التي يرتديها، ودون أن ينظر إلى قائمة أسماء المسافرين، ناوله السائق بضعة أوراق نقدية، وعلى الفور أخذها الجندي ووضعها في جيبه ومن ثم نزل من الحافلة، بعدما ابتعدنا عن ذلك الحاجز، قام السائق بتشغيل أغنية محلية ورفع من صوتها , فطغى صوتها على أصوات الاشتباكات، أما الانفجارات فمازالت تسمع بين الحين والأخر، إلى أن ضعفت بدورها حينما ضاعت البنايات البيضاء والسوداء خلفنا، ولم يعد يظهر سوى عدة أعمدة دخان رفيعة.

رفع جندي يده اليمنى، يدعو فيها السائق أن يكمل طريقه دون توقف، وأمام ذلك الجندي ورفاقه تحصين من أكياس خضراء وقد ملأت بالرمل، وعلى مقربة منهم أحد الرعاة يقود قطيعاً من الماعز نحو قريته ذات البيوت المبنية من الطين وهي لا تبعد كثيراً عن الطريق والحاجز.

انتهت جميع أغاني شريط الكاسيت وأصوات الرصاص والقنابل والقرويين والحيوانات، لا صوت سوى هدير المحرك، سارت الحافلة على طريق معبد خال من أي عربات، ومن حولها أرض جرداء وسماء مثقلة بالغيوم، كان البعض نائماً والأخر ينظر إلى ذلك الفراغ وهو يفكر، على يمين الطريق جثة رجل ميت مغطى ببطانية بنية تحمل صورة نمر أصفر، وإلى جانبه رجل قروي وجنديين، لفت ذلك انتباه بعض المسافرين فنظروا إليهم لحظة المرور بالقرب منهم، ابتعدت الحافلة عن ذلك المكان إلى أن توقفت بالقرب من غرفة مبنية من الطوب الفضي، لها سقف من الصفيح وبدلاً من الباب قد علقوا بطانية فضية لكن الرياح أخذت تلعب بها فتدفعها نحو الداخل، خارج الغرفة وإلى يمين الباب وضع سرير عسكري من الحديد أخضر اللون، وقد جلس عليه جنديين قد تجاوزا الأربعين من العمر , لهم ذقون طويلة قد خالطها الشيب , أمامهم علبة من الصفيح مربعة الشكل مثقوبة بثقوب صغيرة من الأطراف، وقد أشعلوا بداخلها ناراً تتحرك رؤوسها في كافة الاتجاهات، كان بيد أحدهم عبوة زيت طبخ من تلك المخصصة للمساعدات الإغاثية، اسندوا بندقيتين إلى جانب السرير، واحدة رشاشة والأخرى بندقية قنص، وفي وسط الطريق المعبد وبخط أسود كبير قد كتب أحدهم :

- تسقط قوات القمصان السود.

صعد الجندي الثالث إلى الحافلة، وهو كبير في السن، له لحية وشعر أشيب، استقبله السائق بابتسامة تنم عن صداقة، ثم سأل السائق:

- كيف حالك يا بطل؟

فابتسم الجندي الشايب وقد تجعد حول عينيه وأجاب:

- بخير ... بخير. ومن ثم أخذ ينظر إلى داخل الحافلة متفحصاً المسافرين، سأله السائق:

- هل شربت القهوة؟

- ليس بعد.

- قهوة اليوم على المسافرين.

ومن ثم مد مجموعة من الأوراق النقدية للجندي، الذي التقطها مباشرة ووضعها في جيب بنطاله، فعاد السائق إلى سؤاله:

- كيف هي الأوضاع هذه الأيام؟

- الجيش في تقدم مستمر، من المتوقع أن يفك الحصار عن المدينة خلال هذا الشهر.

- إن شاء الله.

ومن ثم أخذ السائق ينظر أمامه، إلى الطريق، ففهم الجندي ونزل من الحافلة، قام أحد الجنديين برش القليل من زيت الطبخ على النار، فارتفعت ألسنة اللهب وزاد النار تأججاً، انطلقت الحافلة وقد مرت من فوق تلك الجملة المكتوبة على الطريق.

بعد مسافة غير بعيدة عن ذلك الحاجز، وعلى الجانب الأيمن من الطريق، انتشرت ثلاث شاحنات تحمل منصات صواريخ بالإضافة إلى مدفعين، ومجموعة كبيرة من صناديق الذخيرة، خشبية خضراء مصفوفة بانتظام على مقربة من المدافع، توقف خمسة جنود على يمين الطريق، فتوقفت الحافلة إلى جانبهم، صعد أحد هؤلاء الجنود، وهو يرتدي نظارة سوداء، ودون أن يتكلم أي كلمة هو أو السائق، أعطاه هذا الأخير حصته من المال، فأخذها ونزل مباشرة من الحافلة والتي سرعان ما أكملت طريقها.

انتشرت العربات والشاحنات المدمرة على جانبي الطريق، إحدى العربات وهي من الطراز المخصص لمعارك الصحراء قد تلقت ضربة مباشرة، فكانت في وسطها تماماً، مما جعل العربة تنكمش على نفسها، وعلى مقربة منها شاحنة نقل طويلة مقلوبة على جانبها الأيمن، كبقية المركبات فقد تحولت إلى " هيكل عظمي " فككوا كل شيء قابل للتفكيك فيها، وبين تلك المركبات انتشرت بقايا قنابل الطائرات، والتي لم يبقى منها سوى الذيل ذي اللون الفضي وكذلك الحفر التي شكلتها، كانت تنتشر في معظمها على الأراضي الممتدة حول الطريق سوى القليل منها على الإسفلت.

ارتفع عمود دخان أسود من بعيد، ازدادت نقاط انتشار جيش الديكتاتور، وهذه النقاط على شكل دوائر دفاعية واسعة يحيط بها ساتر ترابي، بداخلها خيم ودبابات تتجه بمدافعها نحو جهة الجنوب، على جانب الطريق كانت هناك عربة عسكرية بداخلها جنديين يجلس أحدهم خلف المقود، خرج الجندي الثاني وهو شاب لم يتجاوز العشرين من الباب الأيمن لحظة وقوفنا بالقرب منهم، ليصعد إلى الحافلة، كالعادة أعطاه السائق حصته من المال، لكن هذا الجندي لم يضعه في جيبه بل بدأ يعد المبلغ وعندما انتهى، نظر إلى السائق وقال:

- أهذا هو كل المبلغ؟

- هذا نصيبك.

- قليل.

- هذا المتوفر.

- طيب انتظر قليلاً.

ومن ثم نزل من الحافلة واتجه إلى العربة العسكرية، أطفأ السائق الحافلة، واستند بظهره على الكرسي وقال باستياء:

- اسمعوا ... لا تعطوا أي شيء للجندي عندما يعود، لقد أعطيته كفايته.

صعد الجندي إلى الحافلة ووقف في بداية الممر متجاوزاً السائق، تحديداً بين أول مقعدين وتوجه بالكلام إلى الجميع وقال:

- يقول " سيادة العقيد " أن على كل مسافر أن يدفع خمسمئة، أي ما مجموعه خمسة وعشرون ألفاً، وإلا لن تعبروا.

سكت الجميع ولم يجيبه أحد، تبادلنا والجندي النظرات، بقي منتصباً ينتظر الإجابة، لكن لا جواب، توجه إليه السائق وقال:

- الناس هنا فقراء، وقد أعطوك ما يستطيعون عليه.

- لا... لا يكفي، سيادة العقيد قد حدد المبلغ وبشكل نهائي لا يقبل الجدال.

- كما تشاهد لا أحد يريد أن يدفع، اذهب وأخبر سيادته بذلك.

نظر الجندي إلى الجميع نظرة أخيرة سريعة، ومن ثم نزل واتجه إلى سيادة العقيد، ومن الشباك تكلم الجندي معه، مما حدا بسيادة العقيد أن يخرج بذاته من العربة ليقف أمام باب الحافلة ونادى بأعلى صوته:

- قائمة الأسماء.

صعد الجندي إلى الداخل وأخذ القائمة من السائق ليعود بها إلى العقيد، أخذ يقرأ الأسماء ومن ثم نادى على السائق، وما أن نزل حتى طلب منه أن يفتح باب مخزن الحقائب

الجانبي، ثم بدأ يفتش فيها، وقف الجندي والسائق يراقبان عملية التفتيش، وما أن فرغ من التفتيش السريع والشكلي حتى أخذ قائمة الأسماء من الجندي وقرأ فيها مجدداً، قال شيء ما للجندي، الذي بدوره هرع إلى داخل الحافلة ونادى على الجميع:

- على كل الشباب النزول حالاً.

نزلنا نحن الثلاثين تقريباً، فنظر إلينا العقيد مندهشاً.

كان يجلس على حافة المكان المخصص للحقائب، والباب مرفوع نحو الأعلى، بدين له كرش كبير، يرتدي بذلة قوات الديكتاتور وهي خليط من الأخضر والأسود والبني، وقد حل الأزرار الأولى من سترته، فظهر قميصه الأبيض الداخلي، كان تقريباً في الأربعين من العمر، وهو أصلع بذقن قصيرة وقد اسود تحت عينيه، قال بابتسامة ساخرة:

- ما شاء الله، كلكم تريدون أن تهربوا؟

لم يتكلم أحد منا، قام من مكانه ووقف أمام الشاب الأقرب إليه:

- إلى أين تذهب؟

- إلى البيت، سيدي " أجاب وهو ينظر إليه برعب.

- لا، ليس إلى البيت، إنما إلى مكان أخر.

انتقل إلى شاب أخر وقال:

- أنت تحديداً أعرف إلى أين تذهب.

سكت الشاب خوفاً، وأكمل سيادة العقيد:

- إلى الأناضول.

ومن ثم وضع يده في جيب الشاب وأخرج محفظته، وهي سوداء صغيرة، قام بفتحها والشاب يراقب دون أن يقوى على الكلام:

- لنرى كم لديك من المال.

أخرج ما في المحفظة من مال ومن ثم راح يعد المبلغ إلى أن انتهى فقال:

- عشرة ألاف!

سحب منها ورقة من فئة الخمسمئة وأعاد الباقي للشاب مع المحفظة، ثم طلب منه أن يصعد، اتجه صوبي ووضع يده على كتفي وقرب وجهه مني قال ورائحة الشاي ترافق أنفاسه:

- لماذا تريد أن تترك وطنك؟

- أريد أن أعود إلى بيتي في شمال البلاد. اجبته وأنا انظر إلى النسر والنجوم التي على كتفه.

تحسس جيوب بنطالي، فلم يجد المحفظة، فانتقل إلى الشاب الذي بجانبي:

- أتستكثر عليَ مبلغ خمسمئة! وأنا أقف وسط هذا المكان طوال اليوم؟

فأخرج الشاب من جيبه وأعطاه ما يريد، فابتسم ودعاه للصعود إلى الحافلة، جاء دور ماد، فقال له:

- غداً عندما تعمل في الأناضول، ستحصل على الكثير من المال وهذه الخمسمئة التي ستدفعها لن تؤثر عليك.

- أي أناضول هذا! أنا مسافر إلى البيت.

- لن تدفع؟ طيب.

اتجه إلى شاب كان يبدو خائفاً للغاية، ما أن طلب منه المال حتى أخرج من جيبه وأعطاه ما أراد، عاد العقيد وجلس على حافة باب الحقائب وقال بصوت حازم:

- والله سيدفع الجميع أو العودة إلى مدينة القلعة، جهزوا المال حتى أرجع.

عاد وأخذ قائمة الأسماء من الجندي وصعد إلى داخل الحافلة وقال لبقية المسافرين:

- ألا تعلمون أن الطريق ممنوع على العائلات ... فقط يسمح للطلاب بالمرور.

قال أحدهم:

- نحن أهالي الطلاب، نريد أن نعود مع أبناءنا.

- قد حذرتكم، فهذا الحاجز الأخير للجيش، وأول حاجز للمسلحين سيعيد كل من ليس له صلة بالطلاب.

وفي هذه الأثناء قال السائق لنا بلغة الناصح المستسلم للأمر الواقع:

- ادفعوا له، فهذا الحاجز الأخير للجيش، لن تدفعوا بعدها شيء.

بعد تفكير ونقاش بصوت منخفض لم نجد سبيلاً غير الدفع، فأخرجنا المال ونحن مجبرين على ذلك، بدأ الجندي بالجباية، وعندما نزل العقيد، استقبله الجندي بابتسامة مع المبلغ، مما حدا بالعقيد أن يبادله بابتسامة تحمل علامات النصر وأضاف:

- منذ البداية كان عليكم القيام بذلك ... الآن بإمكانكم الذهاب إلى حيثما تشاؤون ... هيا اذهبوا.

لم تكن المسافة بين حاجز سيادة العقيد وحاجز الراديكاليين سوى بضعة أميال، توقفت الحافلة مجدداً بالقرب من ثلاثة مقاتلين لا يختلف مظهرهم الخارجي كثيراً عن قوات القمصان السود، كانت هناك عربة عسكرية مزودة برشاش ثقيل تبعد عنهم حوالي العشرين متر ،صعد مقاتل يرتدي بذلة مموهة، لكنها عبارة عن ثوب قصير وفي أسفله بنطال من نفس اللون، كذلك يرتدي قبعة من القماش الفضي، غطى معظم الرأس، ومن حول الأذن والرأس نزل الشعر الأسود الطويل إلى الكتف، كان شديد السمرة، يبدو أنه من إحدى دول جنوب الصحراء الكبرى، أمسك قائمة الأسماء من السائق ومن ثم بدأ بالمرور على المسافرين وهو يدقق في الهويات، وما أن انتهى حتى نزل إلى تلك المجموعة وهو ما يزال يمسك بالقائمة، تكلم معهم ومن ثم نادى مقاتل من تلك المجموعة:

- دارو.

نظر السائق إلى الخلف وقال:

- عليك بالنزول يا دارو.

أُفسح لي ماد المجال وفيما أنزل من درج الحافلة قال نفس المقاتل الذي ناداني قبل قليل:

- لو كان النداء من جنود الطاغية (قوات الديكتاتور) لنزلت فوراً دون أي تأخير.

لم أفهم سبب انزعاجه! نظر إليَ وسأل:

- هل أنت طالب؟

- نعم طالب.

- إذن اذهب إلى تلك العربة.

وقد أشار إلى عربة الرشاش، بقيت مستغرباً، هناك العشرات من الشبان في الحافلة، لماذا تم اختياري أنا! توجهت بسرعة هذه المرة نحو العربة التي تقف بعيداً عن نقطة التفتيش، وعلى مسافة بعيدة هناك دخان متصاعد، وبين الفينة والأخرى تسمع أصوات انفجارات بعيدة، وصلت إلى تلك العربة وبداخلها مقاتل يبدو أنه " الأمير " وهو يجلس في مقعد السائق، لكنه ترك الباب مفتوحاً، كان يرتدي ثوباً أسوداً قصيراً له ذقن وشعر طويلة، لم أتمكن من معرفة إلى أي مجموعة من مجموعات الراديكاليين ينتمي هذا الأمير، عندما وصلت إليه، بادرته بالسلام:

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام ... الهوية.

يتكلم بصوت منخفض وابتسامة ضاع معظمها تحت تلك اللحية، أخذ يقرأ بتمهل، فيما ينظر في الهوية قال:

- اعطيني هاتفك.

أخرجت الهاتف وأعطيته إياها، أبقى الهوية بيده اليسرى وباليمنى راح يفتش محتويات الهاتف.

- لقد حذفت معظم محتويات الهاتف ... أليس كذلك؟
- لم أقم بحذف شيء.
- بلى لقد حذفت ... هل أنت طالب؟
- نعم.
- أين البطاقة الجامعية؟

أعطيته البطاقة، قلبها على عجل ومن ثم أعاد لي الهاتف والهوية والبطاقة وقال:

- بإمكانك العودة.

حينما عدت وجدت السائق يقف مع المقاتلين فسألني:

- هل انتهيت؟
- نعم.
- وماذا كان يريد؟
- دقق في الهوية وفتش الهاتف، لكن لماذا أنا تحديداً!
- يبدو أنهم اختاروا شخصاً لا على التعيين فكنت أنت، هيا أصعد لننطلق بسرعة من هذا المكان.

وفيما أعود إلى مقعدي، اقترب مني شاب وقال:

- أباك مريض، إنه يناديك.
- مريض!
- أجل، تعال معي.

وجدت أبي يقف أمام الكرسي وهو يتوجع، لقد توقعت ذلك، فسألته:

- احتباس البول مجدداً؟
- أجل. قالها بصعوبة بالغة وهو يغمض عينيه من شدة الألم، لم يكن هناك مجال للكلام مجدداً عن سبب قدومه أصلاً معنا، فلابد من إيجاد حل ما، طلبت من الشاب أن يجلس في مكاني إلى جانب ماد، ذهبت إلى السائق وسألته:
- هل هناك أي مستشفى قريب من هنا؟
- لا، كلها بعيدة.
- أبي مريض، علينا أن نجد حلاً ما له.
- بعد أقل من نصف ساعة سنكون في بلدة صغيرة، يوجد فيها مركز طبي صغير، لا أدري إذا كان قادراً على معالجة حالة أبيك.
- جيد، كل ما عليك فعله هو أن تأخذنا إلى هناك.
- وهو كذلك.

عدت وإذا بأبي لا يزال يقف متألماً، لا يستطيع الجلوس، وإلى جانبه، جلس ماد، فوقفت في الممر إلى جانبهما، إلى أن توقفت الحافلة إلى جانب ذلك المركز الطبي والذي يبدو وكأنه بيت عادي، أطفأ السائق المحرك وبدأ يساعدنا في إنزال أبي الذي وجد صعوبة بالغة في المشي، ناهيك عن النزول عن درج الحافلة، وعلى كل درجة كان يتأوه من شدة الألم، وفيما نطرق الباب سألت السائق مستغرباً:

- هل أنت متأكد أن هذا مركزاً طبياً لا بيتاً عادياً!

- أجل يا أخي إنه مركز طبي، لقد جئت إليه كثيراً من قبل.

فتح الباب رجل ضعيف له ذقن سوداء متوسطة الطول وهو في متوسط العمر، يرتدي ثوباً أبيضاً طويلاً، نظر إلينا، ومن ثم راح يتفحص أبي، فسأله السائق:

- نريد رؤية أي طبيب هنا.

- لا أحد منهم هنا، هم الآن في الصلاة.

هذا ما كنت أخشاه، فقلت للرجل:

- انظر إلى أبي، إنه يعاني، نريد طبيباً بسرعة.

نظر إلى ساعة يده وقال:

- لقد اقترب موعد انتهاء الصلاة، سأذهب لأرى إذا ما كان أحدهم قد أنهى الصلاة.

خرج وأغلق الباب خلفه، عندما بدأ في المشي سألته مستغرباً:

- ستذهب مشياً!

- السيارة في الشارع التالي.

انطلق مسرعاً، نظرت إلى السائق فوجدت علامات عدم الارتياح ظاهرة عليه، وإلى جانبه يقف أبي وماد، أما المسافرين فمنهم من ينظر إلينا والبعض مشغول بالكلام، فقلت للسائق:

- أخي بإمكانك المغادرة، فالمكان غير آمن.

- سأنتظركم ومن ثم سنغادر سوية.

- قد يطول موعد عودة الرجل ومعه الطبيب، أيضاً المكان خطر، فلا يجوز أن نعرض حياة المسافرين للخطر.

- دعنا ننتظر عودة الرجل، لنرى ماذا سنفعل.

بعد قليل توقفت عربة ڤان بيضاء خلف الحافلة ونزل منها الرجل، لكن بدون طبيب، وما أن وصل إلينا حتى قال:

- مازالوا في الصلاة، علينا نقله إلى المستشفى.

- وكم يبعد؟

- ربع ساعة تقريباً.

هنا تدخل السائق:

- المستشفى خارج الخدمة منذ مدة ليست بالقليلة!

- لقد أعادوا جزءاً منه للخدمة منذ شهر.

نظرت إلى السائق وأخرجت من محفظتي أجرة السفر وأعطيته إياها وقلت:

- بإمكانك الذهاب الآن.

وأضاف الرجل المسؤول عن المركز الطبي:

- المنطقة معرضة في أي لحظة لغارات جوية، عليك الإسراع في المغادرة.

حرك السائق رأسه موافقاً، تمنى الشفاء لأبي ومن ثم صعد إلى الحافلة، قام بتشغيلها وانطلق بها مسرعاً.

أجلسنا أبي بصعوبة على إحدى مقاعد عربة الڤان، وإلى جانبه جلست، أما ماد فكان في المقدمة مع السائق، الذي بدأ يقود العربة بسرعة كبيرة.

مسرعة بين شوارع خالية من سكانها وكذلك من أي حركة للسيارات، لم نكن نسمع سوى صوت المحرك وصوت أبي المتألم، زاد الألم بعد جلوسه على الكرسي، وبدأ يسأل كل عدة دقائق عن موعد الوصول، ويجيب السائق بكلمات يكررها في كل مرة:

- لم يتبقى الكثير.

تجاوزنا المدينة لندخل في غابة كثيفة الأشجار، يخترقها طريق معبد، أخذ السائق يسار الطريق، مرت فجأة سيارة حمراء في الاتجاه المعاكس وهي أيضاً في سرعة من أمرها، فجأة قال السائق:

- لقد وصلنا تقريباً.

جلس حارس بلباس مدني على كرسي إلى يمين البوابة وهو يضع بندقية إلى جانبه، اجتزنا البوابة باتجاه مبنى المستشفى، لكنها لم تكن سوى عبارة عن كومة من الأنقاض. ثلاث كتل من المباني، اثنتان منها متقابلة وواحدة ثالثة بعيدة تصل الكتلة الأولى بالثانية, وفي الوسط مساحة كبيرة، مربعة الشكل كانت فيما ما مضى حديقة صغيرة، أغلب المستشفى مدمر، فالكتلة الأولى التي تقع خلف الحارس والبوابة كانت عبارة عن كومة من الأحجار والتراب، نفس الأمر بالنسبة للكتلة الثالثة، أما الثانية فما تزال تحافظ على ربعها، والحديقة لم يتبقى منها شيء، سوى أن أصبحت مكاناً للأتربة والحجارة المتطايرة جراء تدمير المستشفى، وبقايا نهايات جذوع خشبية تشهد أن شجراً كان هناك، والقليل من المقاعد الحديدية والتي كانت مكاناً لاستراحة المرضى وزائريهم .

توقفت العربة أمام ذلك الجزء السليم من المستشفى، كانت هناك العديد من السيارات وبعض الأشخاص يجلسون على الأرض بالقرب من الأشجار التي تحيط بالمستشفى، ساعدت أبي على النزول، وانطلقنا به أنا والسائق إلى الداخل، من بوابة متوسطة الحجم، انتشرت رائحة الدم في ذلك الممر المعتم، وقف أكثر من عشرة أشخاص بداخله، سأل السائق أحد الممرضين المشغول بالكلام مع رجل يبدو متوتراً عن دكتور البولية، فأجاب الممرض:

- الغرفة الرابعة من اليمين.

كان باب الغرفة مفتوح والطبيب في الداخل مشغول بمعاينة إحدى المرضى، عندما دخلنا التفت الطبيب إلى الخلف وقال بغضب:

- واحد فقط، أما الثاني عليه بالخروج.

نظر إلي السائق وقال:

- أنا سأتولى الأمر، أنت ارجع إلى حيث يجلس أخيك.

خرجت من الممر المزدحم وجدت ماد يجلس إلى جانب مجموعة رجال على الأرض، فجلست بالقرب منه، أحد هؤلاء الرجال وهو بقميص أبيض يحمل جهاز اتصال لاسلكي، بعد عدة دقائق أصدر الجهاز صوتاً، مما جعله يضغط على إحدى أزرار الجهاز ومن ثم قام بتقريبه من فمه، أصدر الجهاز أصواتاً غير واضحة، فجأة ارتفع صوت أحدهم من الجهة الثانية، وقد فهمت من بعض كلماته القصيرة أنه هناك اشتباكاً، فرد عليه الرجل:

- قادمة ... قادمة، الصواريخ قادمة.

رد الطرف الثاني وهو يضحك:

- تكلم بصدق، كم قتل لكم منذ الصباح؟

- غردِ يا راجمات ... غرد يا راجمات، الصواريخ في طريقها إليكم.

أكمل الثاني ضحكته وبدأ يشتم، فأجابه الرجل بشتائم لا تقل قذارة عنها، تحولت مفردات الاتصال إلى اسماء ومهام الأعضاء التناسلية، قام أحد الشبان من مكانه ووقف إلى جانب الرجل وقال له بكل غضب:

- اعطيني هذا الجهاز، فأنا أعرف كيف أرد عليه.

استلم هذا الشاب جهاز الاتصال وبدأ بالشتم، للأمانة كان الشاب محترفاً في هذا المجال، بدأ يشتم بكل فصاحة وسرعة حتى أنه لم يعطي مجالاً للطرف الأخر في الرد بالشكل المناسب، بدت كلمات الطرف الثاني متقطعة غير منظمة من وقع سيل الشتائم التي يسمعها، لفتت هذه المعركة الكلامية انتباه كل الجالسين، فسكتوا ليستمعوا إليها وقد بدأت الابتسامة ترتسم عليهم.

دخلت فجأة عربة إسعاف مسرعة من البوابة باتجاه المبنى، اطفأ الشاب جهاز الاتصال وبدأ الجميع يراقبها باهتمام بالغ، نزل منها ثلاثة رجال من الأمام، فتح السائق الباب الخلفي وأنزل مع الممرض أحد الجرحى باتجاه الداخل، نادى الرجال طلباً للمساعدة، فاجتمع حوله العديد من الشبان والرجال، فنقلوا المصاب الثاني والثالث إلى الداخل، وقد كانوا مضرجين تماماً بالدم، بل أن الثالث كان دمه يتساقط على الأرض فترة نقله إلى الداخل وبعد عشر دقائق خرج رجلان من الداخل وهم يحملون كيساً أسوداً طويلاً، تبعه كيس ثان يحملانه رجلان يبكيان بكل حرقة، فوضعوا الجثامين داخل عربة الإسعاف، ومن ثم أغلقوا الباب الخلفي، وقفوا خلف العربة وهم يبكون، حاول الجميع تهدئتهم

ومواساتهم، إلى أن جاء السائق وصعدوا ثلاثتهم لتنطلق بهم العربة إلى خارج المستشفى .

نهضت من مكاني وذهبت لأرى سبب تأخر أبي في الداخل، وعندما اقتربت من الباب رأيت أن دم الجريح الثالث قد رسم خطاً أحمراً نحو الداخل، وخارج الباب وقف حوالي عشرة أشخاص والممرض يقف أمامهم ليمنعهم من الدخول، ومن خلفه تجمعت مياه مائلة للحمرة وعليها رغوة بيضاء، اختلطت رائحة الدم مع مادة التنظيف وقد بدت قوية ومخيفة، لم يكن في الممر أحد سوى الصبي وهو يغسل المكان، فتشت بين أولئك الأشخاص الواقفين أمام الباب فوجدت السائق، فسألته:

- لقد طال بقاء أبي في الداخل!
- مازال عند الطبيب.
- ألم يخبرك الطبيب كم يلزمه؟
- لا، يقوم بتفريغ المثانة، لابد أن يأخذ الأمر بعض الوقت.

وبعد قليل خرج أبي من الغرفة وهو يمشي مسرعاً يبدو بحالة طبيعية، عندما رآني مع السائق قال:

- هيا بنا نخرج من هنا.

صعدنا إلى العربة نحن الأربعة وانطلقت بنا إلى خارج المستشفى، فتح أبي حقيبته ووضع بداخلها علبة دواء وقال:

- هذه الحبوب أعطاني إياها الطبيب حتى لا يحتبس البول مجدداً.

ومن ثم أخرج تفاحة خضراء، قدمها نحوي وقال:

- خذ كُل هذه التفاحة.
- لست جائعاً، لكن من أين جئت بالتفاح؟
- السائق مودي أعطاني ثلاثة منها، خذ يا ماد، كُل هذه التفاحة الكبيرة، فمنذ الصباح لم تأكل شيئاً.

أخذها ماد من يده، فيما امتنع السائق متشكراً، اتجهت نحو أبي وهو يقضم قضم كبيرة فقلت له:

- في المرة الماضية جبن، وهذه المرة تفاح!
- لابد من وجود القليل من الطعام في الحقيبة.

سأل السائق:

- إلى أين ستذهبون الآن؟

أجاب أبي وهو يمضغ:

- إلى مدينة الزيتون.
- لم أفهم.

وبعد البلع قال بصوت أعلى من قبل:

- إلى مدينة الزيتون.
- الزيتون ... يبدو يا عم أن صحتك قد تحسنت، أراك أكثر نشاطاً من قبل.
- هذا بفضل الله، والطبيب وفضلك أنت أيضاً.
- تريد الذهاب لمدينة الزيتون لزيارة الأهل؟
- للأهل والعمل.
- العمل في حقول الزيتون؟
- ليس لقطف الزيتون.
- إذن!
- سنعبر إلى الأناضول.
- الأناضول؟
- نعم الأناضول.

ومن ثم فتح أبي طرف الشباك ورمى بقية التفاحة، قال السائق مقترحاً:

- الأناضول من هنا أقرب، بإمكاني أن أجد لك مهرباً " خلوقاً " سيعبر بكم إلى الأناضول بشكل سريع وأمن ورخيص.

- يقال إن العبور من مدينة الزيتون أسهل

- غير صحيح، هنا أفضل، البارحة وصلت مجموعة بسلام، ولم يستغرق الأمر سوى ساعة من المشي.

نظر إلي أبي وقال:

- ما رأيك؟

- ما تراه أنت مناسباً.

- لم يسبق لي أن عبرت الحدود من قبل.

- أرى أن نجرب هذا الطريق، فهو الأقرب إلينا الآن، أما مدينة الزيتون فهي بعيدة عن هنا.

فاتجه أبي بالكلام إلى السائق:

- وكم تكلفة الشخص الواحد؟

- لا أعلم يا عم فأنا مجرد سائق، إذا كنتم تريدون الذهاب من هذا الطريق بإمكاني أن أخذكم إلى الشخص المسؤول عن عمليات الدخول إلى الأناضول.

- طيب، خذنا إليه حتى نرى.

أخرج السائق هاتفه من جيب الثوب واتصل:

- مرحباً ... هل أنت في البيت ... هناك موضوع.. نعم.. نعم.. تمام.

أبقى الهاتف الأبيض الصغير بيده وبعد تفكير اتصل برقم أخر وأخبره أن يذهب إلى المركز الطبي ريثما يعود، عاد بنا السائق مجدداً إلى تلك البلدة الصامتة، وتوقف بالقرب من دكان، عاود الاتصال بالشخص الأول لكن أحداً لم يجيب، لحظات وخرج رجل بدين يرتدي ثوباً فضياً من البيت الملاصق للدكان، ومن ثم اخفض نصفه الأعلى وفتح قفل

الواجهة الحديدية للدكان والتي بدورها ارتفعت نحو الأعلى، أشار السائق إلى الرجل وقال:

- هذا هو، دعنا ننزل.

اتجهنا إلى الدكان، والذي لم يكن فيه سوى ثلاث طاولات خشبية، عليها أطعمة مغلفة كالبسكويت والشيبس، أيضاً مشروبات وماء، وحينما أصبحنا في الداخل قرب الرجل كرسي خشبي ثان إلى أمام الطاولات، بادرناه السلام:

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام، اجلس يا عم على هذا الكرسي.

وقد قرَب الكرسي من أبي، فيما جلس هو على الأخرى، توجه سائق العربة إلى المهرب وهو نفسه صاحب الدكان وقال:

- هؤلاء الأخوة يريدون العبور إلى الأناضول، فهل لديك طريق آمن لهم؟ .... هم بمثابة إخوتي، لهذا عليك أن تختار لهم أفضل طريق.
- يا أهلاً وسهلاً بك وبإخوتك، لدي طريق لن يستغرق سوى أقل من ساعة، وهو آمن ومضمون بإذن الله.

سأل أبي مستفسراً:

- وكم تكلفة الشخص الواحد؟

صمت الرجل قليلاً ثم قال:

- هذا السعر لكم فقط ... لإنكم جئتم عن طريق هذا الرجل الطيب، وقد أشار إلى السائق وأكمل:
- عشرون ألف للشخص.
- كثير، أليس كذلك.
- هو بالأصل ثلاثين، لكني أخفضت السعر لكم أنتم خصيصاً.
- إذن لا مجال للتخفيض؟

- لا أبداً، هذا السعر النهائي.

صمت الجميع وساد الهدوء المكان، وأضاف:

- إذا لم يكن معكم المال، بإمكاني ألا أخذ منكم ... صدقة.

أجاب أبي بنوع من الاستياء:

- كل ما سألتك إياه هو تخفيض السعر، لا أن تتصدق علينا.

- لا يمكن للأسف.

- طيب اتفقنا ... عشرون ألف، ومتى موعد الانطلاق؟

- اليوم.

ومن ثم نظر إلى ساعة يده وقال:

- مع حلول الظلام ستنطلق مجموعة ... لم يبقى هناك سوى ساعتين.

تدخل السائق وقال:

- إذن عليَ الذهاب الآن.

فأجابه صاحب الدكان:

- سأتكلم معك لاحقاً.

تشكر أبي السائق على مساعدته لنا، ومن ثم صعد إلى عربته وانطلق.

اتصل صاحب الدكان على أحدهم وطلب منه أن يأتي الأن ثم توجه بالكلام إلينا:

- ستأتي الآن العربة لتأخذكم إلى نقطة الانطلاق.

ومن ثم أشار إلى الأطعمة والمشروبات التي على الطاولات وأضاف:

- إذا كنتم جائعين أو تريدون شراء شيء من أجل الطريق، فهذه الأطعمة مناسبة لذلك.

" لقد أكلنا قبل أن نأتي إلى هنا " , أجاب أبي .

- أنتم أدرى ... انتظروا هنا إلى أن تأتي العربة.

ومن ثم نهض واتجه إلى البيت، وبعد ربع ساعة توقفت عربة ڤان بيضاء أمام الدكان، راح سائقها ينظر إلينا، خرج صاحب الدكان من البيت وأشار لنا إلى العربة، وقبل أن يصعد أبي، أعطى للرجل ستين ألفاً والذي بدوره قام بعد المال مرتين، وحينما انتهى رفع يده مودعاً، حينها انطلق السائق.

جلس أبي في المقدمة إلى جانب السائق، فيما جلست وماد في الكرسي المزدوج خلف السائق، وعلى يميننا شاب في العشرين، جلس صديقاه خلفنا مباشرة، أما المقاعد الثلاث الأخيرة بقيت فارغة.

لم تستقر عيون السائق السوداء في مكانها، كان يراقب الشوارع من النوافذ الجانبية، كذلك ينظر إلينا من المرآة العاكسة الموضوعة أعلى الزجاج الأمامي، كان في أواخر الثلاثينات من العمر، له لحية متوسطة الطول، حليق الشارب نصف أصلع، يرتدي ثوباً أبيضاً طويلاً كبقية لباس سكان المنطقة، وضع هاتفه الكحلي الصغير وأيضاً جهاز اتصال لاسلكي أسود بالقرب من بعضهما أمام عدادات السرعة والوقود للعربة، وعند الاقتراب من أول حاجز قام بتشغيل أناشيد دينية، ومن ثم أخفى جهاز الاتصال اللاسلكي في صندوق أسود صغير إلى جانبه، خفف من السرعة إلى أن توقف إلى جانب مقاتل وحيد يقف إلى يمين الطريق ومن حوله انتشرت أشجار كثيفة على جانبي الطريق، وخلف ذلك المقاتل هناك خيمة بيضاء متوسطة الحجم عليها شعار أزرق للمساعدات الإغاثية، لكن لم يكن هناك أي شخص سوى هذا المقاتل والذي هيئته تدل أنه يتبع لإحدى المجموعات الراديكالية حيث اللحية الطويلة والثوب العسكري.

فتح الباب الجانبي وطلب الهويات، قرأ معلومات الهوية بشكل سريع، إلا أنه دقق على الصورة الشخصية ومدى تطابقها مع الشخص، نقل نظره بين صورتي ووجهي عدة مرات ومن ثم أعاد الهوية، وقد فعل نفس الأمر مع ماد وبقية الشبان، إلى أن انتهى وأغلق الباب، وعندما ابتعدت الحافلة عن الحاجز مسافة قصيرة، ضغط السائق على زر أمامه فانقطعت تلك الأناشيد، رن هاتف السائق، فأخرجه من الصندوق بسرعة وأجاب على الاتصال:

- أهلاً أخي ... نعم في الطريق ... حوالي ربع ساعة وسأكون هناك ... نعم أدرك ذلك ... سأصل في الموعد المحدد إن شاء الله.

ثم أغلق الهاتف، وبدأ يتكلم لأول مرة منذ أن انطلقنا:

- هل سبق أن عبر أحد منكم الحدود؟

أجاب أبي:

- بالنسبة لنا، هذه هي المرة الأولى.

- الطريق سهل للغاية، كل ما هو عليكم القيام به هو المشي لنصف ساعة فقط.

- فقط؟

- نعم فقط**!** قالها بعد ألقى نظرة سريعة على أبي كأنه يقول فيها " وهل أنا أكذب؟

- أحدهم قال لنا ساعة، وأنت تقول الآن نصف ساعة**!**

- أنا أدرى بالطريق من غيري ... هناك عدد من الأشخاص سينضمون إليكم بعد قليل، ومن ثم سننطلق إلى نقطة العبور.

قرب دكان صغير يقع على جانب الطريق وقفت ثلاث نساء في العقد الخامس من العمر، بدينات إلى حد ما، يرتدين جلباباً وغطاء رأس أسود، وإلى جانبهن حقيبتان كبيرتان للغاية، طول الواحدة أكثر من متر، توقفت الحافلة إلى جانبهن، نظر السائق إليهم باندهاش بالغ ومن ثم نزل من الحافلة وسألهن:

- ما هذا؟ وهو يشير إلى الحقائب، وأضاف:

- لن تستطعن العبور بهذه الحقائب.

- لماذا؟ سألت إحداهن بقلق.

- لماذا**!** ستعبرون مشياً على الأقدام لا بالطائرة.

- والحل؟

- الحل أن تعيدوها إلى البيت ... أصلاً الطريق صعب عليكم، فكيف مع هذه الحقائب**!"**

هنا تدخلت الثانية وقالت بصوت ملؤه الرجاء:

- يا بني، هذه الحقائب تحمل ثياب وأشياء ضرورية لأبنائنا في الأناضول، ساعدنا حتى نصل بها إلى الجهة الثانية من الحدود.

- يا عمة، أنا أتفهم كلامك، لكني مجرد سائق ولا أستطيع فعل شيء سوى أن أقول لكم أعيدوها إلى البيت، لإنكم لن تستطيعوا حملها أثناء المشي.

- بيوتنا بعيدة، فهي في أقصى الجنوب.

تدخلت الأولى مجدداً وقالت:

- سنأخذها معنا، فلا تدري، ربما أرسل الله الملائكة لمساعدتنا.

- أو شباناً يساعدونا على حملها. أضافت الثالثة.

نظر إليهم السائق وأجاب مستسلماً:

- ربما ... اصعدوا إلى الحافلة، علينا أن نغادر الآن.

جلسن في المقاعد الأخيرة من الحافلة، ومن ثم حمل السائق تلك الحقائب بصعوبة ووضعها داخل الحافلة.

خلال الطريق لم يتكلم السائق، بقي صامتاً، ومن ثم أعاد تشغيل الأناشيد الدينية، وتوقف إلى جانب حاجز أخر، ثلاثة مقاتلين، اثنان منهم يبدو أنهما من سكان المنطقة، أما الثالث فهو غريب بلا شك، تقدم هذا الثالث الذي له لحية وشعر نحاسي اللون، أشقر، فتح الباب الخلفي وقال بلغة ركيكة:

- الهااويات.

نطقها بصعوبة، وبدأ التدقيق بالهويات، جعل نفسه يقرأ فيها، لكنه كرفيقه في الحاجز السابق، راح يدقق في الصورة ومدى تطابقها مع الشخص، أبقى هوياتنا نحن الشباب في يده، ومن ثم انتقل إلى النساء، وما أن انتهى حتى اتجه صوب أحد المقاتلين وأعطاه الهويات دون أن يتكلم أي كلمة، جاء ذلك المقاتل وقال بلغة واضحة وواثقة:

- السلام عليكم، كيف حالكم يا أخوان؟

ومن ثم رفع أول هوية وقرأها:

- دارو.

- نعم ... أنا هو.

- هل خدمت لدى جيش الطاغية؟

- لا.

- اعطيني دفتر الخدمة العسكرية لأرى ذلك.

أعطيته الدفتر، قلب في صفحاتها وأبقاها في يده مع هويتي، وانتقل إلى الهوية الثانية، نظر إلى أخي وسأله:

- هل أنت ماد؟

- نعم.

- دفتر الخدمة.

فأعطاه ماد الدفتر، وكذلك فعل مع دفتره، فقد أبقاه في يده إلى جانب دفتري.

- وأنتم يا شباب أين دفاتركم جميعاً.

رد أحدهم:

- نحن أبناء المناطق المحررة، لم نستخرج دفتر الخدمة بعد.

- أنتم! تقصد أنكم أقرباء؟

- أولاد عم.

- تقصد أنكم لم تخرجوا من المناطق المحررة باتجاه مناطق الطاغية؟

- لا، لم نتحرك من القرية.

دقق في هوياتهم، وتأكد أنهم مازالوا صغاراً في السن، ومن ثم أعاد لهم هوياتهم وكذلك لي ولماد، لكنه لم يرجع دفاتر الخدمة، حيث أبقاها في يده، وقال:

- بإمكانكم الذهاب الأن .... أيها السائق انطلق.

وقبل أن يغلق الباب سألته مستغرباً:

- لكنك نسيت دفاتر الخدمة العسكرية!

- لم أنسى شيء، كل ما في الأمر أنكم لم تعودوا بحاجة إليها.

- ولكن لا يمكن ذلك ...

قاطعني وقال بلغة صارمة وهو يغلق الباب:

- قلت لك لا يعني لا، توكلوا على الله واذهبوا.

وقد أغلق الباب بقوة وانطلقت الحافلة، نظر السائق من المرآة العاكسة إلي وقال:

- لماذا تناقشهم؟ لا تحاول أن تجادلهم مجدداً ... وهذه نصيحة مني، ثانياً ماذا تريد أن تفعل بدفتر الخدمة وأنت في طريقك إلى الأناضول؟ "

- لا تدري، قد لا نعبر لسبب ما، حينها سنضطر للعودة إلى مدينة القلعة.

- لا مجال للعودة، ستعبرون اليوم.

على يمين الطريق لوحة كبيرة وضعت عليها صورة تضم جعبة عسكرية وبذلة برتقالية تستخدم للنجاة من الغرق، وقد كتب في الأعلى " أيهما تختار؟ ", وعلى مقربة من اللوحة توقفنا عند حاجز أخر، لكنها لرجال بأثواب بيضاء ولحى طويلة، معهم مقاتل واحد مسلح ببندقية، اتجه أحد هؤلاء الرجال بلباسه الأبيض وفتح الباب الخلفي وقال متوجهاً بالكلام للجميع وهو يبتسم ويحمل بيده أوراق صغيرة:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام. رد الجميع.

- هل من أحد يريد أن يتبرع للمرابطين على الثغور؟

صمت الجميع ولم يتكلم أحد، أخذ ينظر الرجل إلينا وأضاف:

- أي مبلغ كان، مهما كان صغيراً.

سأل الشاب الذي يجلس على يمين ماد:

- ما هو أقل مبلغ يمكن التبرع به؟

- مئتان.

أخرج الشاب ورقتين من فئة المئة وناوله للرجل، والذي بدوره أعطى الشاب ورقة من تلك التي يحملها بيده، ومن ثم سأل مجدداً:

- هل من متبرع؟

فلم يجيب أياً منا.

- بأمان الله.

ومن ثم أغلق الباب بهدوء وانطلقت الحافلة، نظرت إلى الشاب المتبرع، فرأيته يفكر في شيء ما وهو ينظر إلى الطريق والورقة ماتزال بيده، فسألته:

- أخي هل من الممكن أن ألقي نظرة عليها؟
- بالطبع.

ناولني إياها، وهي ورقة بحجم الكف، بيضاء وفي وسطها صورة لرصاصة بندقية وقد كتب تحتها " ثمن رصاصة "، أعدتها للشاب، ومن بعيد ظهرت جبال خضراء، عليها أشجار كثيفة، سأل أبي السائق وهو ينظر إليها:

- حينما انطلقنا من الدكان، قد أخبرتني أن مدة العبور إلى الأناضول لن يستغرق أكثر من ساعة؟
- هذا صحيح، بل نصف ساعة.
- وهل سنتسلق تلك الجبال بنصف ساعة؟
- لا يا عم لن تذهبوا إلى تلك الجبال، إنما هناك طريق أخر أقل صعوبة.

ومن ثم أخرج جهاز الاتصال اللاسلكي وقام بتشغيله، جاء صوت من الجهة الأخرى يسأل السائق متى سيصل، فأجاب السائق:

" ربع ساعة ".

لكنها لم تكن ربع ساعة، بل أكثر، ظلت الحافلة تسير بنا بين القرى إلى أن حل الليل، حينها توقفنا بالقرب من إحدى الجبال، ينتظرنا عشرة أشخاص بالإضافة إلى شابين يقفان بعيداً عنهم، فتح الشاب الباب ونزل ومن ثم تبعه ماد وأنا وبقية الشبان واتجهنا صوب أولئك الأشخاص، وهم في الحقيقة عائلتين، أب وأم وعدد من الأطفال، أنزل السائق

الحقيبتين، وحينما رأى ذلك الشابين الواقفين بعيداً، حتى جاؤوا مسرعين، كان كلاهما يحمل جهاز اتصال لاسلكي، أحدهم يلبس قميصاً أبيضاً والثاني أخضر، سأل الأول السائق وهو مذعور من مشهد الحقائب:

- ماذا تفعل؟

- انزل حقائب المسافرين.

- ارجعها إلى الحافلة.

هنا تدخلت إحدى النساء الثلاثة وقالت:

- يا بني ساعدنا في ايصالها إلى الأناضول، وأنا مستعدة أن أدفع لك عشرة آلاف لكل واحدة.

- لا يمكن يا خالة، انظري إلى هذه الجبال.

وقد أدار رأسه صوب الجبل الذي أمامه وأضاف:

- سنصعد هذا الجبل بعد قليل ... هل بإمكانك حمل هذه الحقائب خلالها؟

نظر أبي إلى السائق، غير أن هذا الأخير قد جعل نفسه مشغولاً بحديث المرأة والدليل.

تدخلت المرأة الثانية وقالت:

- حاول أن تحملها، فقط جرب، فهي ليست بذلك الوزن.

ازداد غضب الشاب وقال:

- سننطلق الأن، بإمكانكم العودة مع الحقائب إلى مدينة الغرب.

ومن ثم قال لنا بلغة آمرة:

- اطفؤوا هواتفكم، سننطلق الآن.

أخرجت الهاتف من جيبي، وقبل أن أضغط على زر الإطفاء، نظرت إلى الساعة، وقد كانت في الثامنة والربع تقريباً، ومن ثم أطفأت الهاتف ووضعته في جيبي، اقتربنا من بعض في شكل مجموعة، صعد الدليل الثاني صاحب القميص الأخضر إلى الجبل قبلنا وذلك لهدف الاستطلاع، نظر الدليل الأول إلى النساء وقال لهم:

- سننطلق .... ستذهبون معنا أم لا؟

- نعم سنرافقكم. قالت إحداهن ومن ثم اتجهت نحو السائق الواقف أمام الباب الخلفي للحافلة وهو يراقب حديث الدليل والنساء.

- خذها يا بني ووزعها على المحتاجين. تكلمت بأسف وعيناها لا تحيد عن الحقائب، يبدو أن السائق كان ينتظر هذا الكلام من البداية، وعلى الفور حمل الحقائب ووضعها بشكل أكثر ترتيب من قبل، كانت علامات الفرح ظاهرة عليه، وقبل أن يغلق باب الحافلة ألقى نظرة أخيرة على الحقائب ومن ثم أغلق الباب الخلفي، قالت إحداهن بكل حرقة:

- وحده الله يعلم كم شقينا حتى تمكنا من شراء ما بداخلها من ثياب شتوية لأبنائنا وأحفادنا.

وأضافت الثانية:

- يا للحسرة، كل حقيبة قد كلفتنا خمسين ألف.

وقبل أن يصعد السائق إلى الحافلة قال لهن:

- لا تقلقوا، ستكون من نصيب الفقراء.

رفعن عيونهن عن الحقائب وهي داخل الحافلة، واستدرن نحو الجبل، حيث بدأنا المشي.

***

كان الشاب صاحب القميص الأبيض هو الدليل القائد أما الثاني فهو المعاون والمستطلع، يتواصلان عن طريق جهاز اتصال لاسلكي، حينما اقتربنا من أول جبل أوقفنا الدليل، قال وهو يتصنع الغضب:

- لن ارحم من يتخلف عن المجموعة ... هيا امشوا.

بعد أن بدأنا صعود الجبل بقليل، سرعان ما انقسمت المجموعة إلى قسمين، الشبان في المقدمة، خلفهم البقية، رغم أن الجبل الأول كان متوسط الارتفاع إلا أن كبار السن قد بدؤوا يعانون من التعب، خاصة النساء الثلاثة، لقد اختفين تماماً خلفنا، حينما استدار الدليل ليرى حال المجموعة، وإذ به لا يرى أكثر من نصفها، قال بصوت منخفض:

- اجلسوا في أماكنكم ريثما يصل البقية. ومن ثم نزل ليأتي بالبقية.

أنزلت الحقيبة عن ظهري وقد حفرت أحزمتها خطاً على كتفي، كان ماد يجلس إلى جانبي حينها، نظر إلى الحقيبة وقال:

- حينما نستأنف الصعود ستحمل أنت هذه المرة حقيبة أبي.

- لا مشكلة، هل أتعبتك لهذه الدرجة!

- أجل، لا أدري ماذا قد وضع بداخلها!

وصلت العائلات ومن ثم أبي وبعد عشر دقائق وصلن النساء يرافقهم الدليل، سرعان ما جلسوا على مقربة منا وقد كنا يتنفسن بصعوبة، قالت إحداهن:

- يا إلهي ما هذا!

أجابها الدليل:

- ماذا لو كنتي تحملين إحدى تلك الحقائب الكبيرة ... كان الأمر أكثر صعوبة؟

- اسكت الآن ... لا تذكرني بها.

بعد استراحة دامت لعشر دقائق من وصول الجميع، اتصل الدليل بالمعاون عن طريق جهاز الاتصال:

- كيف هي الأمور؟

- لا توجد أي دورية، الطريق آمن.

أقفل الجهاز ونهض وهو يشير بيده أن ننهض وقال:

- إذا ما سمعتم صوت عربة ما، على الفور اجلسوا في أماكنكم دون أن تصدروا أي صوت.

ارتديت الحقيبة وأنا جالس في مكاني، أبعدت أحزمة الحقيبة عن مكانها السابق ومن ثم نهضت وحملت حقيبة أبي على صدري وقد كانت ثقيلة بعض الشيء.

تقصدنا البطء في الصعود حتى نبقى في مجموعة واحدة لكن النساء تأخرن عنا رغم ذلك، حينما وصلنا على مقربة من قمة الجبل، جاء صوت عربة من بعيد، لكنه سرعان

ما أخذ في الارتفاع، أشار الدليل أن نجلس، وحينما حاول أن ينزل ليطلب منهن التوقف، أصبحت العربة قريبة ولم تكن المسافة بيننا سوى أمتار، توقف فجأة ونزل منها جندي قام بتلقيم البندقية وأطلق رصاصة واحدة في الهواء، ساد صمت مطبق، مشى الجندي مسافة قصيرة يبدو أنه يراقب خلالها أي حركة بين الأشجار أو أن يسمع أي صوت، عاد وصعد إلى العربة التي بدورها غادرت المكان، أشار الدليل للمعاون بيده أن يذهب ويستطلع، ليعود بعد دقائق ويشير للدليل بأن كل شيء على ما يرام، طلب منا الدليل أن نسير مع المعاون على أن يأتي هو بالبقية، بعد دقائق من المشي قد أصبحنا على قمة الجبل الذي يتوسطه طريق ترابي عريض مخصص لمرور دوريات حرس الحدود، فيما نجتاز الطريق راقبت المكان من حولي، وإذا بالطريق يمتد أعلى الجبال ولا يُرى له بداية أو نهاية، حينما ابتعدنا عنه مسافة لا بأس بها، طلب منا المعاون أن نجلس ريثما يصل الدليل ومعه من تبقى من المجموعة، وهم أبي والنساء والعائلات، امتدت الاستراحة عشرة دقائق أخرى بعد وصول الجميع، لننهض بعدها ونكمل طريق النزول إلى الوادي .

كان الوصول إلى الوادي سريعاً وسهلاً، هناك وقف الدليل أمامنا وقال:

- بقي أمامنا هذا الجبل فقط، اجتيازه يعني ضمان وصولنا إلى الأناضول.

تدخل المعاون وأضاف:

- كل ما نريده منكم أن تسرعوا قليلاً حينما نصل أعلى هذا الجبل، هناك برج مراقبة لابد من المرور بالقرب منه.

نهضنا بعد تلك الوقفة التي أعادت لنا نشاطنا إلى حد ما، لكن العطش بدأ بالتأثير على سرعة تقدمنا، بدأنا صعود الجبل الثاني وببطء شديد هذه المرة إلى أن أصبحنا على بعد عشرين متراً من برج المراقبة، كان البرج على ارتفاع خمسة أمتار أو أكثر، وهو مبني من الإسمنت، ففي الأعلى غرفة لها نوافذ عريضة من كل جهاتها، اقتربنا بهدوء نتجنب فيها ملامسة الأشجار أو اصدار أي صوت، إلى أن اجتمعنا تحت الأشجار الملاصقة للطريق والبرج، حينما وجد الدليل أن الوقت أصبح مناسب، أشار بيده لنبدأ الركض نحو الجهة الثانية من الطريق، لم نكن لنخرج تواً من بين الأشجار حتى صاح جندي من البرج:

- أنتم هناك. وقد أطلق رصاصة واحدة.

اجتزنا نحن الشبان نحو الجهة الثانية، مبتعدين عن الطريق، أحدهم رمى حقيبته وحاول أن يتقيأ وقد صدر عن ذلك صوتاً مسموعاً! وفيما نبتعد عنه أطلق الجندي ثلاث رصاصات أخرى، حينما وجدت أنني وماد أصبحنا على بعد مسافة آمنة، رميت حقيبة أبي وحقيبتي أرضاً وتمددت في مكاني لألتقط أنفاسي وماد إلى جانبي، عدنا إلى مكان اجتماع البقية وقد وصل الجميع بسلام، جلست إلى جانب أبي الذي قال بصوت متعب:

- من الجيد أنه لم يطلق النار علينا.

أجاب الدليل:

- يطلقون النار في الهواء فقط.
- إذا كان الأمر كذلك لماذا طلبت منا الاستعجال؟
- المشكلة مع عربة الدورية التي تسير على الطريق، لو أن جنودها اكتشفوا أمرنا ... سيلقون القبض علينا ويعيدوننا من حيث جئنا.

ثم نهض الدليل من مكانه وقال:

- اسمعوا ... لقد بقي أمامنا جبل أخير، وهذا الجبل ليس عليه أبراج أو دوريات، خلفه مباشرة تقع أول قرية.

تمكنا من اجتياز ذلك الجبل بمشقة كبيرة نتيجة العطش والتعب الشديد، إلى أن دخلنا أول قرية في الأناضول، وفيما نجتاز بيوت القرية بسرعة وحذر، شاهدنا برميل ماء بالقرب إحدى البيوت، تهافتنا إليه دون أن نعير اهتماماً لأحد، امتدت الأيدي إلى أسفل الصنبور، نادى أحد الشبان محذراً:

- لا تكثروا من شرب الماء بعد هذا التعب ... في ذلك خطر كبير، قد يتوقف القلب عن العمل فجأة. لم يستمع إليه أحد إلى أن جاء الدليل وأبعدنا عن البرميل إلى حيث تقف عربة ڤان، كانت فارغة من الداخل فقد أزيلت المقاعد منها، جلس الجميع كيفما شاء بداخلها، قامت بنقلنا إلى قرية ثانية ومنها قام الدليل بتوزيعنا إلى سيارات لتوصل كل شخص إلى المدينة التي يريدها، وبعد عدة ساعات كنا أنا وما وأبي في مدينة الميناء.

البحـر أم النـهر؟

حينما أصبحت نصف عارٍ تذكرت أنه عليَّ ألا أخلع كل ثيابي، خشية أي مفاجئة غير متوقعة، بقيت مرتدياً البنطال الملوث بالطين فقط، اقتربت من صنبور الماء، وأنا أمل ألا يخيب ظني، عندما أدرت مفتاحه وإذ بالماء يتدفق قوياً، انتابني شعور بالنشوة فابتعدت قليلاً لأراقب الدلو وهو يمتلئ، لكني سرعان ما تابعت المشهد بقلق وأنا أقول في نفسي:

- سيتوقف الأن، لابد أنه بقايا الماء المتجمع في الأنابيب.

استمر في النزول ولم يتوقف إلى أن بدأ الماء يطفو من فوق الدلو، فأغلقت الصنبور مباشرة، إذن دلو كامل من الماء، أي نعيم هذا! نظرت إلى الأعلى وإذا بمصباح أصفر يضيء الحمام بأكمله، لابد لي من الاستعجال في الاستحمام قبل أن تنقطع الكهرباء أو الماء، أيضاً هناك ثيابي، ربما أغسله إذا ما كان هناك مجال، فهي شديدة القذارة بعد تلك الرحلة، خلعت ما تبقى من ثيابي وأخذت انظر إلى هذا الجسد العاري المنهك المتسخ: أنت بحاجة إلى عشرة دلاء أو أكثر.

أمسكت علبة لبن بيضاء فارغة لأغرف الماء من الدلو وأبدأ الاستحمام، لكني عدلت عن ذلك، فتحت صنبور الماء مجدداً ورحت انظر إلى مشهد الماء الطافي والمصباح المضيء لأشبع نظري، إلى أن طرق باب الحمام:

- ألم تنتهي بعد!

كان صوت ماد، فأجبت وأنا أراقب الماء:

- وهل أنت مستعجل؟

- هيا استعجل يا أخي فأنا بانتظارك.

- تمام، انتظر قليلاً.

- كم؟ ... عشر دقائق!

- هيا اذهب الآن.

بدأت الاستحمام، ربما صرفت أكثر من عشرة دلاء وحينما انتهيت ومن باب الاحتياط قمت بغسل ثيابي بيدي، ثم فتحت الباب وخرجت لأجد ماد يتجه صوبي غاضباً وهو يحمل ثياباً نظيفة في يده، عندما وصل بالقرب مني قال بغضب ظاهر:

- ساعة كاملة في الحمام!

- بعد تلك الرحلة نحن بحاجة إلى ساعات من الاستحمام.

- إذا ما انقطع الماء، اعلم أنك من سيذهب إلى المسجد ويأتي بالماء إلى أن انتهي من الاستحمام.

- اتفقنا، لكن ادخل الآن إلى الحمام وباشر بدلاً من الكلام.

نظر إلى يدي ورأى الثياب المغسولة وقال مستغرباً:

- ما هذا! قمت بغسلها أيضاً ... وأنا انتظرك.

- ادخل إلى الحمام يا أخي.

ومن ثم ابتعدت عنه متجهاً إلى غرفة الجلوس:

- دارو.

نظرت خلفي وإذا بأختي ميلا تقف أمام المطبخ، ثم أكملت:

- إلى أين تذهب بهذه الثياب؟

- جئت لأسألك عن مكان حبل الغسيل لأنشرها.

- لتنشرها!

- نعم، لقد غسلتها ... احتياط، قد ينقطع الماء في أي لحظة.

- أي انقطاع وأي غسيل باليد.

نظرت إليَّ باستغراب وأشارت إلى الثياب وقالت بصوت هادئ:

- هاتها.

- لا، أنا من سينشرها، أين مكان الحبل؟

- أريد أن أعيد غسلها.

اقتربت مني وأخذت كومة الثياب الرطبة من يدي وقالت:

- سأغسلها بالغسالة، ثانياً رائحتها كريهة، بماذا غسلتها؟

- بالصابون.

- اذهب إلى غرفة الجلوس ريثما يصبح الطعام جاهزاً.

- احرصِ على أن تنتهي الغسالة من غسلها قبل أن ينقطع الكهرباء، ليس لدي غيرها.

- أي انقطاع يا أخي، اذهب واجلس في الغرفة.

جلست مع أبي نتابع التلفاز في غرفة الجلوس إلى أن خرج ماد من الحمام، سمعت ميلا تطلب منه أن يأتي بثيابه القديمة لتغسلها مع ثيابي، بعد عدة دقائق وقفت ميلا أمام باب الغرفة واتجهت إلى أبي بالكلام قائلة:

- بابا اخرج ما في حقيبتك من ثياب حتى أغسلها لك.

ألقى نظرة إلى الحقيبة ومن ثم أجابها:

- إنها نظيفة وليست بحاجة إلى الغسل، لقد غسلتها جيداً قبل السفر.

- مع ذلك ... دعني أغسلها مجدداً.

- قلت لك لا. ثم اخذ يكمل مشاهدة التلفاز.

توقفت ميلا عن الإلحاح وعادت بصمت إلى المطبخ، نهضت منتفضاً نحو حقيبة أبي، اتجهت أنظار أبي وماد إلي وهم مستغربين!

- ماذا تفعل؟ " سأل أبي.

- أريد أن أرى ماذا يوجد بداخلها!

- ماذا سيكون يعني! بعض الأشياء الضرورية.

- كل الذي أعرفه أنه لديك القليل من الثياب ومن بينها البنطال البني وعدة الحلاقة ... لكن الحقيبة كانت ثقيلة وقد أتعبتنا كثيراً خلال الطريق.

- هذا صحيح، استخرج كل الأشياء التي بداخلها. قال ماد متحمساً وهو يراقبني بلهفة.

حينما فتحت الحقيبة دهشت لما وجدت، أربعة قطع من الصابون الأخضر، ثلاث علب من معجون الأسنان الرديء، تفاحة، خبز، علبة شاي، علبة قهوة، عدة الحلاقة معها ماكينات حلاقة جديدة وزعت مع المواد الإغاثية بالإضافة إلى الثياب، وضعت كل تلك الأشياء على الأرض، ومن ثم اتجهت إلى أبي الذي يراقبني، فيما كان ماد يضحك بصمت وقد وضع يده على فمه.

- ما هذه الأشياء!
- أشياء ضرورية لابد منها.
- لقد جعلتنا نحمل الصابون ومعجون الأسنان كل تلك الأميال وتحت رصاص!
- اعد الثياب وعدة الحلاقة إلى الحقيبة وخذ البقية إلى المطبخ دون المزيد الكلام. قالها بغضب ومن ثم عاد لمشاهدة التلفاز.
- أخي ارم لي التفاحة. قالها ماد وهو يشير إليها.
- لقد أكلت حصتك في الحافلة، أما هذه فهي من نصيبي. ومن ثم قضمت قطعة منها حتى يقطع أمله منها.

***

بعد الطعام شعرت بنعاس قوي وتساءلت:

- هل يستطيع الإنسان أن ينام لأسبوع كامل؟ دعني أجرب. ذهبت إلى الغرفة الثانية ونمت يوماً كاملاً تقريباً، مبقياً المصباح يعمل طيلة تلك الفترة، وبعد استراحة دامت لعدة ايام، وبينما نحن في غرفة الجلوس همست في إذن ماد:
- اريد أن أتكلم معك.
- تكلم ... ماذا تريد؟
- لا أريد لميلا أن تسمع ... تعال إلى سطح البناية.

جلسنا على أريكة خضراء قديمة موضوعة في زاوية السطح وعلى مقربة منا كانت هناك قطة بيضاء ترافقها قطة صغيرة فضية مخططة بالأبيض، كانت الأم تتمدد على الأرض وهي تراقبنا بحذر فيما تلعب الصغيرة من حولها، سألت ماد:

- متى نبدأ بالخطوة التالية؟

- من الآن.

- عظيم، سننطلق من الأناضول إلى هلاس ... لقد أخبرتني أن أحد أصدقاءك قد سافر منذ فترة قصيرة؟

- صحيح، سأتصل به لأستفسر عن تفاصيل رحلته.

- هل سافر عن طريق القارب في البحر أم مشياً خلال الطرق البرية؟

- على ما أعتقد بحراً.

- أرى ألا نختار الطريق البحري، يومياً يغرق الكثير في البحر، الطريق البري أفضل.

- لا، طويل ومتعب للغاية، ناهيك عن خطورة الغابات.

- يبقى أفضل من البحر.

- دعنا نسأل ونفكر جيداً في الموضوع قبل أن نقرر.

- المسألة ليست بحاجة للتفكير، لا تنسى أننا في الشتاء والبحر هائج في هذه الفترة.

لم نتوصل خلال هذا اليوم إلى أي اتفاق فلم يقتنع ماد بكلامي، وبعد يومين وفيما نحن جالسين نتابع التلفاز قالت ميلا:

- عليكم مراجعة دائرة الهجرة، لتسجلوا أسماءكم كلاجئين، فلا يجوز أن تبقوا بدون هوية لاجئ، ففي عدم حملها مسؤولية كبيرة.

نظرت إلى ماد وابتسمت، فنحن في المرحلة الأخيرة لمغادرة الأناضول وهي تدعونا للتسجيل والبقاء هنا، أجاب أبي تعقيباً على كلامها:

- لست بحاجة إليها، سأعود لبيتنا بعد مدة قصيرة.

تعجبت ميلا من جوابه وسألت:

- وماذا تريد أن تفعل هناك**!** وسط الخراب وغياب أبسط مقومات الحياة**!**

- لم يتبقى من العمر سوى القليل من السنوات، أريد أن أقضيها هناك لأرقد في النهاية إلى جانب أمك وبقية رفاقي.

- لا تحاولي معه، قرار المغادرة قرار نهائي. قال ماد.

عادت واتجهت بالكلام إليَّ وماد:

- وماذا عنكم؟

أجبتها على الفور:

- الأمر لا يستحق كل هذا التعب والانتظار، فبعد مدة قصيرة سنكمل طريقنا صوب الشمال.

- أبهذه السرعة، ابقوا لدينا عدة أشهر.

- هذا كثير.

وأضاف أبي:

- عودتي متوقفة على رحيلكم.

- لم يتبقى الكثير، أيام قليلة.

نظرت إلينا ميلا مستسلمة صامتة.

***

كانت الساعة في السابعة والنصف ليلاً حينما انتهيت من ارتداء ثيابي وأنا انتظر من ماد أن ينتهي بدوره، خلال الأيام الماضية تمكنا من التواصل مع المهرب الذي ساعد صديق ماد في الوصول إلى إحدى الشمال وحصلنا على موعد للقائه، حينما بدأ ماد في ارتداء حذائه لنخرج من البيت، نظر إلينا أبي وقال:

- انتبهوا جيداً من المهرب، ليس لدى المهربين أي قيمة لحياة الإنسان.

- أدرك ذلك يا أبي، سنذهب لنسمع ما لديه من طرق لا أكثر. أجبته وأنا أفتح الباب لنخرج، حينما أصبحنا أمام باب البناية، وقفت انظر إلى الشارع العام وقد كان مزدحماً في تلك الساعة بالسيارات والشاحنات، قلت لماد مقترحاً:

- علينا ألا نسلك هذا الشارع، انظر كم سيارة للشرطة هناك. في تلك اللحظة كانت هناك سيارة بيضاء للشرطة وعربة زرقاء للدرك، وهي دوريات مسؤولة عن حفظ أمن الميناء، وقد كان الميناء ملاصقاً للحي الذي نقطنه.

- إذن من أين تريد أن تدخل الميناء؟ " سأل ماد.

- من خلال الشوارع الفرعية والأزقة ... أفضل.

سلكنا شوارع ضيقة وأزقة كانت معتمة في معظمها، باستثناء بعض البيوت التي وضع أصحابها مصابيح أعلى باب البيت، فأضاءت جزءاً من الشارع وأعطت بريقاً لحجارتها بعدما غسلها المطر، لكن المطر لم يمنع جامعي العبوات المعدنية من التجول في هذه الأمكنة الصعبة مع عرباتهم التي يسحبونها خلفهم تماماً كالعربات التي يجرها الحصان، حينما وصلنا إلى نهاية الحي وقفنا نراقب بوابة الميناء جيداً، فلم نجد أي حراسات عليها أو مرور دورية، وعلى الفور دخلنا بخطى سريعة إلى الميناء.

والميناء أشبه ما يكون ببلدة صغيرة، وهو في قسمين، الأول بيوت ودكاكين مخصصة لعمالها أما الثاني المطل على البحر، فهو مكان العمل حيث الرافعات الحمراء الضخمة وعنابر الشحن ومحطة قطار، وعلى الرصيف تقف سفن تجارية وحربية.

كانت الشوارع واسعة تنتشر فيها مركبات العمل من شاحنات وعربات صغيرة، بيوتها تتشابه إلى حد كبير، فهي بطابق أو الطابقين في أفضل الأحوال، ذات تصميم واحد خال من أي أثر للاهتمام، عادة ما تكون الواجهة مطلية بالإسمنت الفضي ومتآكلة في الكثير من أجزائها، تتخللها نوافذ لها إطار قد أتى عليه الصدأ، وحبل غسيل يمتد على جزء من الجدار المطل على الشارع وقد علَق على بعضها سراويل وقمصان عليها أثار عمل الميناء الشاق من بقع وشقوق، وفيما نذهب إلى العنوان المحدد، سألت ماد:

- هل أنت متأكد أننا نسير في الطريق الصحيح؟

- متأكد يا أخي، فالعنوان على النحو التالي: المشي لمئة متر بعد البوابة، على الجهة اليسرى من الشارع مخزن للحطب، وضع على بابه لوحة مكتوب عليها: احذروا هناك كلب شرس في الداخل، وإلى يسار المخزن شارع فرعي مقفل النهاية تقف في نهاية الشارع شاحنة زرقاء، مقابل تلك الشاحنة يقع مقهى عمالي، اللقاء في ذلك المقهى في الساعة الثامنة.

- آمل ألا توقفنا أي دورية في هذا المكان وهذا الوقت ونحن بدون أي أوراق ثبوتية.

- لا تقلق.

أضاء مصباح وحيد نهاية ذلك الشارع فانعكس نوره على أجزاء من مقدمة الشاحنة، أسرعنا الخطى نحوه وكلما اقتربنا أكثر ارتفعت الأصوات، إلى أن أصبحنا أمام المقهى الذي كان بدون واجهة، مما جعلهم ينقلون الطاولات القريبة من الرصيف إلى الداخل اتقاءاً من المطر والذي قد يعود ويهطل في أي لحظة، في الداخل بدا الجو ضبابياً من دخان اللفائف والتراجيل، توزع عشرات الأشخاص حول الطاولات البعض منهم مازالوا بثياب العمل المتسخة، وعلى الطاولات انتشرت أوراق اللعب أو الدومينو ومن حولها كؤوس الشاي في الغالب، أخذت أنقل نظري في المكان فوجدت طاولة يجلس خلفها شخص واحد، رجل خمسيني يرتدي بذلة زرقاء عليها بقع سوداء وأثار تراب، وما أن نظرت إليه حتى وجدته يراقبنا ومن ثم رفع يده يدعونا فيه للاقتراب إليه، وحينما وصلنا إليه بادرته بالسلام فوقف مصافحاً:

- مرحباً، كيف حالك؟

- أهلاً بكم، أنا جاد، تفضلوا اجلسوا ... سأطلب قهوة.

وبعد طلب القهوة، بدأت الكلام:

- جئناك بخصوص ...

فقاطعني:

- انتظر قليلاً ... هل أنت على عجلة من أمرك؟

فسكتُ، اقترب رجل عجوز يلبس مريولاً أسوداً، بيده صينية عليها فناجين القهوة، فجأة بدأ " جاد " الكلام متظاهراً إننا جئنا من أجل إيجاد عمل لنا في الميناء، فعلى الرغم من عدم فهم العجوز للغة التي نتكلم فيها، لكن لا بد من الحذر والتكلم بأسلوب يوحي أننا في نقاش بين عامل وآخر، أخذ يتكلم بانفعال:

- يا شباب العمل ليس بتلك السهولة، عليكم يومياً أن تفرغوا حوالي ثماني شاحنات ... أربع عشرة ساعة من حمل الصناديق، لهذا عليكم أن تكونوا مستعدين لعمل شاق.

وحتى يكتمل المشهد، أجبته وكأني سأفقد صبري:

- يا أخي سبق وأن قمنا بأعمال ما يفوق ذلك.
- وإن كان، فصناديق السمك ثقيلة، الواحدة منها ثلاثين كيلوغرام ... هل بإمكانك حمل هكذا وزن بيدك تلك التي تشبه أيدي المعلمات؟

وما أن ابتعد العجوز عنا عاد جاد إلى هدوءه وقال:

- لنرجع إلى موضوعنا.

بدأ ماد الكلام متحمساً: نعم، صراحة لقد أعجبنا سرعة وصول أحد أصدقائي إلى إحدى دول الشمال قبل ستة أشهر والذي سافر من خلالكم وجدنا أنه من الأفضل أن نقتفي نفس الطريق، لعلنا نصل بنفس السرعة والأمان.

- قبل ستة شهور! ... قل لي لماذا هذا التأخير في المجيء إلى الأناضول، فالأمور باتت تصبح أكثر صعوبة وتعقيداً يوماً بعد يوم. هنا انتابنا القلق لكلامه هذا.
- لم يكن الأمر بإرادتنا، ثانياً ما الفرق بين الآن وقبل ستة شهور!
- هناك الكثير ... تشديد الحراسة على الحدود أصبح أكثر من ذي قبل، حيث أغلقت كل الدول حدودها بوجه اللاجئين.
- هل هذا يعني أنه لا طريق الآن؟
- ليس كذلك، إنما أصبح أكثر صعوبة وتكلفة.
- لا مشكلة فيما يخص المال، المهم هو العبور بأمان خلال الرحلة.
- لا، بل المال هو الأساس، فرص الوصول تصبح أكبر كلما دفعت أكثر.

تدخلت في النقاش وسألت:

- المال موجود، لكن قل لنا أي طريق سنسلك، البحري أم البري؟
- قبل الكلام عن البحري أو البري، أخبرني كم معك من المال؟

نظرت إلى ماد متعجباً وأجبت:

- المال متوفر يا جاد، لكن أخبرني كم تكلفة الطريق البري؟

- ثمانية آلاف للشخص الواحد.

- ثمانية آلاف ماذا؟ أقصد أي عملة؟

- من العملة الخضراء طبعاً.

حينما قال " الخضراء " شعرت وكأن سكيناً قد اخترق قلبي، تبادلنا أن وماد نظرات الشعور بالإنهيار، وحينما رأى جاد ذلك عرف أنه هناك خطب ما:

- أعيد وأكرر السؤال، كم معكم من المال؟

- عشرة آلاف من عملة الأناضول.

تنفس بعمق ومن ثم أطلق ابتسامة ساخرة قصيرة وأعاد ظهره إلى الكرسي وقال:

- عشرة آلاف الأناضول تساوي ثلاثة آلاف من العملة الخضراء، تريدان عبور ست دول بثلاثة آلاف؟

فأجبته وأنا أدرك أنه لم يعد هناك فائدة من الكلام:

- ولكن أصدقاءنا قد وصلوا بأقل من هذا المبلغ!

- صحيح، منذ ثلاثة أشهر قد تم إغلاق الحدود بوجه اللاجئين وتوقفت المنظمات الدولية عن نقلهم، لهذا بات على الراغب في اللجوء أن يدفع تكاليف طريقه بشكل كامل.

صدمتني هذه الحقيقة، ولم أكن أتوقع هكذا احتمال، جاءني صوت جاد:

- هل أنت معي ... أراك قد ذهبت بعيداً بالتفكير!

- لا شيء، على العموم دعنا نفكر في الموضوع ومن ثم نجيبك.

- المسألة ليست بحاجة إلى التفكير، لا تنسوا أن الوقت ليس في صالحكم.

- أدرك ذلك، علينا المغادرة الآن.

- كما تشاؤون، متى قررتم السفر اتصلوا بي.

- وهو كذلك، سنخبرك حينما نقرر.
- بالتوفيق.
- مع السلامة.

خرجنا صامتين لم نتكلم، أو لم تكن هناك رغبة أو حاجة لذلك، وبعد أن عبرنا البوابة وفيما نمشي في إحدى الأزقة، قلت لماد:

- أنت المسؤول عما حدث؟

وقف ونظر إليَّ بعيون تقدح بالشرر:

- وكيف ذلك، هلَ وضحت لي أكثر؟
- امش الآن، لا تتوقف هنا.
- سأبقى واقف، قل لي لماذا أنا المسؤول؟

مشيت وتركته خلفي، جاء مسرعاً وقال بصوت مرتفع:

- لماذا تسكت وتهرب، تكلم؟
- كان عليك أن تستفسر بشكل يومي من أصدقاءك عن الوضع.
- كل أصدقائي قد سافروا ووصلوا قبل ستة أشهر على الأقل.
- وإن كان، من المفترض أن تبقى على اطلاع بأخر أخبار اللجوء.
- وأنت أيضاً مسؤول.
- أنت أفهم بهذه الأمور، كونك تتواصل مع أناس قد سلكوا هذا الطريق.
- يا أخي اسكت، لم يعد هناك أي فائدة للكلام.

وبعد صمت دام لعدة أزقة، قلت مستسلماً:

- المشكلة، أننا لم نعد نملك دفتر الخدمة العسكرية، لن نستطيع العودة إلى مدينة القلعة مجدداً.

- مازالت محاصرة أصلاً، ولا أمل في العودة إليها، ولا فائدة في ذلك، فأنا أوقفت الجامعة، وأنت لا عمل لك هناك.

- أيضاً لا أستطيع العودة إلى بيتنا في الريف، فأنا مطلوب للزملاء بعد أن تركت الخدمة العسكرية لديهم.

- ولا أنا أريد أن أذهب إلى هناك.

- إذن ما الحل؟

- لا أدري.

أثناء العشاء لاحظ أبي أنه هناك خطب ما، فسألني:

- هل التقيتم بالمهرب؟

- نعم، منذ ساعة تقريباً.

- هل اتفقتم على شيء؟

- لا.

- جيد، لابد من التريث قليلاً.

أضاف ماد:

- لم نتفق على شيء لأنه يبدو أننا سنعود معك.

- لم أفهم.

- لقد طلب ستة عشرة ألف.

- يا إلهي.

- نعم، ستة عشرة ألف، فهو يقول ان الطريق بات أكثر صعوبة، وهذا هو السعر حالياً.

حرك أبي رأسه بأسى وبقي صامتاً، تدخلت ميلا وقالت:

- ليس أمامكم إلا أن تبقوا هنا، فالعمل متوفر.

وعلى الفور أجبتها باستياء:

- نعم متوفر، لكن أخبريني كم هي أجرة العامل يومياً؟

بقيت صامتة، فأجاب زوجها:

- خمسون.

- خمسون من عملة الأناضول، يعني تساوي عشرة من الفئة الخضراء، إذن كم نحتاج ليجمع الواحد فينا سبعة آلاف؟ هذا إذا افترضنا هناك عمل يومي، بالإضافة إلى المصاريف والأجارات والفواتير!

وأضاف ماد:

- بحاجة لسنوات كثيرة.

- عليكم أن تبقوا هنا وتعملوا. قال أبي.

- لا فائدة من ذلك، استعباد دون أي أمل للمستقبل، مال الأناضول للأناضول.

- عليكم أن تبقوا هنا وتعملوا إلى أن أرسل لكم تكاليف السفر.

تفاجئت من كلامه هذا وقلت:

- يا أبي من أين ستأتي بالمال؟ فأنا ابنك وعشت معك طيلة الفترة الماضية، اعرف الوضع المادي جيداً، إذن من أين ستأتي بكل هذا المبلغ؟

- هناك أمور تعرفها وأخرى لا ... لي دين قديم على صديقي، سأسترد المال وأرسله لكم.

- لكنك لم تخبرنا به من قبل!

- لأنها كانت مخصصة لصعاب الأيام .... ميلا.

- نعم أبي.

- اين يتم تسجيل أسماء الراغبين في " العودة الطوعية " فأنا أريد أن أعود خلال هذه الأيام.

- بعد شهر سأخبرك بمكان التسجيل.

- شهر! هذا كثير يا ميلا.

- ليس كثيراً، لماذا هذا الاستعجال!

- طيب اسبوع واحد ... اتفقنا!

ردت على مضض:

- اتفقنا.

في اليوم التالي عقدنا أنا وماد اجتماعاً على الأريكة الخضراء للتباحث في أخر المستجدات، بادرته بسؤال كان يشغلني طوال الليلة السابقة:

- من أين لأبي هذا المال؟

- يبدو أنها كانت لزواجك أو زواجه أو سيستدين المبلغ.

- لا أحد يعطي ديناً بهكذا مبلغ.

- لا أدري، لكن قل لي ماذا سنفعل حتى يصلنا المال؟

- لا تعول كثيراً على المال، سنبقى هنا ونعمل لنهاية العام، إن أرسل ذهبنا وإذا لا سنعود للبيت في الريف.

- لكن ليس لدينا أي مهنة لنعمل بها!

- لدينا العضلات، سنعمل بأي عمل متوفر.

جاءت القطة البيضاء ترافقها الصغيرة، توقفت الأم أمام الباب وهي تراقب المكان وذيلها يتحرك يميناً ويساراً وخلفها تقف ابنتها الصغيرة، وبعد لحظات اتجهت الأم نحو طبق الحليب الذي وضعته خصيصاً لهم، وبعد شرب الحليب بدأت الصغيرة تلعب بالقرب من أمها التي كانت مشغولة بتنظيف نفسها، راقب ماد المشهد وقال:

- إذا بقيت في وضع الطعام لهم، لن يتركوا هذا المكان.

- وأنا أريد ذلك.

- أقصد أنهم لن يبذلوا جهداً في البحث عن الطعام في الشارع.

- وأنا أريدهم أن يعتمدوا عليَّ.

استمر الأمر عدة أيام حتى وجدنا أول عمل، وهو قطف البرتقال من بستان يقع خارج المدينة، لكن العمل لم يستمر لأقل من أسبوع وانتهى بانتهاء البرتقال في البستان، حينها كان علينا البحث عن عمل أخر وهكذا، خلال هذه الفترة سجل أبي اسمه مع من يريد العودة إلى البلاد، وبعد أسبوع من ذلك كان الرحيل.

داخل مرآب المدينة توقفت خمس حافلات بيضاء كبيرة، وهي مخصصة لنقل من يريد العودة وبشكل طوعي إلى البلاد، احتشد المئات، ما بين مسافر ومودع، الكل يتمنى التوفيق للأخر سواء في العودة أو البقاء هنا، كان هناك الكثير من الدموع، ازدادت حينما تم تشغيل الحافلات، اقترب الرحيل، بكت ميلا كثيرة وكذلك العجوز، الذي قال لنا قبل الصعود:

- اصبروا يا أولادي وتحملوا مشاق الحياة، إياكم أن تضعفوا مهما ضاقت بكم الأيام، عليكم بالصبر حتى تفرج أموركم، تذكروا أني ما أزال معكم.

ودعناه بتقبيل يده ومن ثم صعد مع البقية، وحينما بدأت الحافلات في التحرك، لوح أبي بيده مودعاً، إلى أن ابتعدت الحافلة عنا وهي تتجه نحو الشرق.

***

أظلمت فجأة الغرفة، استدرت لأرى من الذي توقف أمام الباب، وإذا بماد يقف هناك وهو يراقبني مستغرباً، فسأل:

- ماذا تفعل؟

- أريد أن أفرغ هذه الغرفة، تعال ساعدني بدلاً من وقوفك.

- اخرج تلك الأشياء إلى خارج الغرفة وأنا سأنقلها إلى زاوية السطح.

كان على سطح البناية غرفة صغيرة بداخلها أشياء لم تعد لها ضرورة كالأبواب والمدافئ المعطوبة، لهذا قررت أن أفرغها وأحولها إلى غرفة، رغم كونها صغيرة وسقفها من الصفيح، إلا أنها تفي بالغرض، بعد تفريغها وتنظيف الأرضية قمنا بنقل الأريكة الخضراء إلى داخلها، ثم طلبت من ماد أن يرافقني إلى دكان يبيع أثاث بيوت

مستعملة، اشتريت طاولة بيضاء من الحديد لها ساق أقصر من البقية بينما حوافها كانت صدأة، أيضاً اشتريت كرسياً من الخشب وغطاء فضياً للطاولة، حمل ماد الكرسي وأنا الطاولة، عدنا بهم إلى الغرفة، وضعتهم أمام الأريكة، غطيت الطاولة بالغطاء الفضي ووضعت قطعة صغيرة من الخشب أسفل الساق القصيرة للطاولة، وقد اطلقت على الغرفة اسم " العرزال "، تمعن ماد العرزال وقال:

- ستغضب ميلا إذا رأت هذه الغرفة.
- لن تزعل، هي تعلم جيداً أني أحب الوحدة، ثانياً هذا المكان مناسب لكافة النشاطات.
- مثل؟
- القراءة والتفكير ... أيضاً لعقد الاجتماعات الدورية للنظر في الخطوات المقبلة.

ابتداءاً من ذلك اليوم بدأت بوضع طعام القطط داخل الغرفة، بالقرب من الأريكة، لم يعجب الأم المكان لكنه سرعان ما أصبح مسكناً للقطة الصغيرة، حيث اتخذت من الأريكة مكاناً لها، في البداية كانت تشعر بالخوف لحظة دخولي الغرفة، وبعد مدة ظلت تبقى في مكانها حذرة تراقبني باستمرار إلى أن أصبحت مع الأيام أليفة تماماً، وقد أسميتها " سالي " وكانت هذه القطة الخرساء أفضل رفيق رأيته خلال كل الرحلة.

أمضينا ذلك الشتاء والصيف وجزء من الخريف بالعمل في قطف البرتقال والليمون والخوخ، وفي حمل أكياس الإسمنت في أبنية قيد الإنشاء، وفي مصانع تعبئة الأرز والعدس والزعتر، كل ذلك حينما يكون العمل متوفراً، أما في أيام بقية الأيام أجلس وحدي في العرزال حيث القراءة أو التخطيط للمستقبل مع ماد، أين وكيف وماذا سندرس ونعمل حينما نصل الأرض التي تدر علماً وعملاً، تشاركنا سالي الاجتماع عبر استماعها للأحاديث وهي تجلس على الطاولة أمامي أو على الأريكة.

في صباح إحدى الأيام وحينما عدنا من العمل الليلي في معمل الأرز، أخبرتني ميلا أنه يجب علينا أن نتصل بأبي اليوم، فهو يريد أن يتكلم معنا في موضوع ضروري، لم انتظر بل اتصلت به مباشرة.

- مرحباً أبي، كيفك حالك؟
- بخير يا ابني، ما دمتم بخير.

- لقد عدنا تواً من العمل، أخبرتني ميلا أن اتصل بك.

- صحيح ... اسمع يا دارو، سأرسل لك رسالة تتضمن رقم هاتف صديقي وهو يعيش في نفس مدينتكم، لقد أرسلت مبلغاً قدره واحد وعشرون ألفاً ... تكلم مع الرجل أولاً ثم اذهب انت وماد لاستلام المال، لا تذهب لوحدك، أيضاً لا تنسى أن تتأكدوا من كمال المبلغ لحظة الاستلام.

- مفهوم، لكن هذا المبلغ زائد عن حاجتنا، نحن بحاجة إلى ستة عشر ألف فقط.

- الباقي احتياط، لا تدري ربما احتجتم له.

- صدقني لن يلزم.

- لا يمكن، أنتم بحاجة إليها ... لكن تذكروا أني ببيع بيتنا وإرسال كل المال قد قمت بكل ما أستطيع فعله لكم.

- هل تقصد أنك قمت ببيع بيتنا؟

- أجل قمت بذلك من أجلكم، اضطررت أن أختلق قصة الدين حتى لا تعودوا معي إلى مكان لا مستقبل فيه لكم ... هيا اذهبوا واستلموا المبلغ ومن ثم سارعوا بالسفر.

- ما كان عليك فعل ذلك، وماذا عنك الأن، اين ستسكن؟

- لا وقت لهذا الكلام الآن، هيا اسعوا في سبيل حياة جديدة، وأنا سأدعو لكم بالتوفيق، والدعاء كل ما تبقى لدي.

ومن ثم أغلق الهاتف، كانت ميلا واقفة على مقربة مني لحظة المكالمة، حينما أغلقت الهاتف قالت:

- حتى تدركوا أي أب لديكم.

ومن ثم أضافت:

- إذن حان وقت الرحيل!

- لقد حان.

خلال هذا اليوم استلمنا المبلغ من الرجل، ومن ثم عقدنا إجتماعاً في العرزال أنا وماد وسالي، واتفقنا أن ننظر في جميع الطرق المتوفرة وأن نختار أنسبها، خلال الأشهر الماضية اكتسبنا العديد من الفوائد، والتي من شأنها أن تساعدنا في الرحلة المقبلة، أولاً تعلمنا لغة هذه البلاد، ثانياً اكتسبنا الكثير من الصداقات في العمل، بالإضافة إلى بقائنا على اطلاع بأخر أخبار رحلات اللجوء، وفيما كنا في العرزال، جاء إلينا زوج ميلا وجلس إلى جانب ماد على الأريكة، وسأل:

- ماذا قررتم؟

- مازلنا ننتظر أن نلتقي بعدد من السماسرة والمهربين خلال هذه المدة.

نظر إلي وابتسم ثم سحب نفساً من لفافة التبغ وقال:

- ما رأيكم بطريق رخيص ومضمون؟

- أين وكيف؟

- صديقي في العمل وعدني أن يأخذكم إلى سمسار موثوق ... ما رأيكم أن نذهب إليه؟

- هيا بنا.

وبعد أن أنهى تدخين لفافته نهضنا وذهبنا إلى صديقه، في الطريق انضم الصديق إلينا، ثم اتجهنا نحن الأربعة للقاء هذا السمسار الموثوق، ومكان اللقاء كان في إحدى الحدائق، من الصعب أن يشك عناصر الشرطة بأن تكون الحديقة مكاناً لعقد اجتماع عملية تهريب، رأيناه يجلس على إحدى المقاعد وهو يراقب من في الحديقة وكأنه انسان بريء، وبعد السلام والكلام عن نية السفر، دخلنا إلى صلب الموضوع مباشرة، وقد سألته:

- لقد أخبرنا أنه لديك أكثر من طريق مضمون للوصول إلى هيلاس؟

- هذا صحيح، لكن أخبرني، هل أنتم فعلاً عازمين على السفر؟

- بالطبع، لكن هلَ أخبرتنا أكثر عن تلك الطرق؟

هنا بدأ الجد، انتبه الجميع إليه باهتمام، فقال:

- تكلفة الطريق الأول خمسة آلاف للشخص الواحد.

- سعر معقول.

- نعم رخيص.

- وكيف سنعبر إلى هيلاس؟ هذا المهم.

- عن طريق المنجنيق.

قالها ومن ثم صمت، نظرت إلى ماد ومن ثم إلى البقية وأنا ابتسم باستغراب، عدت وسألت السمسار:

- المنجنيق! وكيف هذا؟

- نعم المنجنيق، لكن ليست كالتي في الحروب القديمة، دعني اشرح لك.

- تفضل.

- كما تعلمون أنه هناك جزر جداً متقاربة بين هيلاس والأناضول.

- هذا صحيح.

- والمنجنيق أداة قام أحدهم بصنعها، وهي ستقذفك من الجزيرة الأناضولية إلى المياه الإقليمية لهيلاس، وحينها ستكمل طريقك إلى هيلاس سباحة، حيث ستقبض عليك الشرطة، وبعد تحقيق سريع سيخلون سبيلك لتكمل الرحلة.

- لكنا لا نجيد السباحة.

- ستصل تقريباً إلى مكان بين المياه العميقة والشاطئ، ستتكمن من الخروج من الماء إلى الجزيرة ... أيضاً ربما يجدك أحدهم تتخبط في الماء لتخرج، حينها سيأتي ويساعدك في الخروج.

- وإذا أخطأوا تقدير المسافة لحظة القذف من المنجنيق؟

- لن يخطأ أحد منهم فهذا عملهم، ثانياً الكثير قد وصل بهذه الطريقة من قبلك.

سألت ماد عن رأيه، فاتجه إلى الرجل وقال:

- دعنا نسمع عن الطريق الثاني؟

نظر إلينا السمسار متفحصاً وجوهنا ومن ثم قال:

- لا أعتقد أن هذا الطريق معد لأناس مثلكم.

- لماذا؟

- لأن وجوهكم ليست وجوه سياح.

- لم أفهم.

- الطريقة الثانية بواسطة المظلة، فالكثير من الجزر ذات الطبيعة الجبلية فيها رحلات قصيرة بواسطة المظلات، وذلك بالإستفادة من التيارات الهوائية التي تتوفر بين الجبال ... المسألة سهلة، بدلاً من الهبوط في نفس الجزيرة ستكملون الطريق إلى أقرب جزيرة لهيلاس.

- هذه خطيرة.

- لا بالعكس سهلة، لكنها غير مناسبة لكم، أقولها بكل صراحة، فوجوهكم شرقية أضف إليها أنها متعبة.

- هل مازال هناك من طرق؟

- لا، هذا كل ما عندي.

- طيب سنتصل بك في حال اعتمادنا إحدى هذه الطرق.

- وأنا جاهز لأي مساعدة، بإمكانكم أيضاً الاتصال لمجرد الاستفسار.

- شكراً لك.

وحينما عدنا إلى البيت سألت ميلا متلهفة:

- هل قابلتم الرجل؟

فأجابها ماد مستاءاً:

- نعم، ليتنا لم نقابل هذا التمساح الساذج.

- لماذا؟

- لماذا! سيرسلنا بالمنجنيق أو المظلات.

- هذا انتحار، يا إلهي أول مرة اسمع بهذه الأشياء، دعكم منها ... اسمعوا، لقد أخبرتني صديقتي أن أخاها يعمل صياداً، بإمكانه مساعدتكم.

- كم يريد؟

- مجاناً، فقط مجرد مساعدة.

- لا أصدق ذلك.

- صدقاً هي مساعدة دون مقابل، أنا أعرف هذه العائلة جيداً، أناس طيبون.

- اتصلِ بها، واستفسري كيف يمكنه مساعدتنا.

- قالت إن أخاها سيحدد الزمان والمكان.

- جيد، سننتظره.

في اليوم التالي وحينما كنت وماد في الدكان القريب من البيت لشراء بعض الخضار، وعندما انتهينا من الشراء نريد الخروج قال صاحب الدكان وهو شاب صغير:

- ماذا قررتم؟

- بخصوص ماذا؟ سألته.

- إلى الشمال. وهو يشير بإصبعه نحو جهة الشمال.

استدرت إلى ماد وقلت باستياء:

- أراك قد أخبرت الجميع!

- هذا فقط، ثم أن جارنا ليس بغريب.

عدت إليه وأجبت:

- ليس بعد.

- عمي، والد زوجتي، قد ساعد الكثير في الوصول، ما رأيكم أن تتكلموا معه، ربما طرقه كانت الأنسب لكم.

- اتصل به لأتكلم معه.

- لا يجوز الكلام في هذا الموضوع على الهاتف كما تعلم، هو في البيت، والبيت قريب.

- إذن فليأتي.

اتصل به، وبعد عشر دقائق كان عمه في الدكان، ما إن رأيته حتى عرفت أنه رجل نصاب، رجل ستيني له شارب وشعر رأس أبيضان تماماً، هادئ في كل شيء غير أن عيناه ترقصان أثناء التحديق في الشخص، وبعد أن عرفنا جارنا البائع على عمه، قال له:

- يا عم، هل لديك طريق مضمون لهؤلاء الشباب؟ وقد وضع يده على كتف ماد.

- ليس لدي طريق مضمون وأخر غير مضمون، فأنا أعمل بشكل قانوني.

فأجبته:

- جميل، وكيف ذلك؟

- المسألة واضحة، سأستخرج لكم جوازات سفر وفيزيا سياحية إلى هيلاس، ستسافرون كما الأمراء يفعلون، بواسطة سيارة واسعة ومريحة فيها مضيفات.

- تأشيرة قانونية!

- مئة في المئة، وأنا أضمن وصولكم، ستعبرون الحدود من خلال منفذ حدودي، ستكمل السيارة بكم إلى أن تصلوا إلى العاصمة، وفي وسطها ستتوقف لتنزلوا منها إلى الشارع بثياب نظيفة وربطات عنق والسترة مطوية فوق اليد.

- كم تكلفة هذا الطريق؟

- سبعة آلاف للشخص.

- سندفعها بعد الوصول طبعاً.

- ألفان كدفعة أولى، سأستخرج بهذا المال جوازات السفر.

- لا يجوز، سندفع المبلغ كاملاً بعد الوصول.

- المبلغ الذي طلبته من أجل الجوازات وليس من أجلي، أظن أن الكلام مفهوم ", كان يتكلم بكل ثقة وحزم.

- انظر يا عم، لا مكان للمجاملة هنا.

- صحيح.

- كيف سنضمن أن الجوازات قانونية وليست مزورة؟

- سأعطيك أسماء أشخاص قد سافروا بهذه الطريقة، اتصل بهم واسألهم.

- طيب سنخبرك إذا ما قررنا ذلك.

- كما تشاؤون.

وأثناء العودة إلى البيت سألني ماد عن رأيي في كلام العم، فأجبته:

- يريد أن يرسلنا إلى منفذ حدودي بأوراق مزورة، تعلم ماذا سيحل بنا لحظة كشفنا؟

- السجن.

- سجن وغرامة وترحيل.

عندما عدنا إلى البيت اتجه ماد إلى غرفة الجلوس، فيما أخذت الأكياس إلى المطبخ، فوجدت ميلا مشغولة بغسل الصحون، وضعت الأكياس جانباً وقبل أن أخرج تكلمت دون أن تنظر إليَّ، فجأة أغلقت صنبور الماء وقالت:

- لدي أخبار غير سارة.

- ماذا هناك؟

- لقد عدل أخو صديقتي عن كلامه ... قال إنه يخشى نقلكم بقاربه إلى إحدى جزر هيلاس.

- لقد توقعت ذلك، فالمسألة ليست بهذه السهولة.

- بالطبع.

- أيضاً لو قبض عليه وهو يقوم بنقلنا، سيسجن لعشر سنوات على الأقل بتهمة الإتجار بالبشر.
- إذا كان الأمر بهذه الخطورة، فلا حاجة لنا في ذلك ... أخبرني ماذا قررتم في نهاية المطاف؟
- لا شيء بعد.
- عليكم التريث قليلاً، ودراسة كل الطرق المتوفرة.
- ونحن نعمل على ذلك.

عدت إلى غرفة الجلوس وأخبرت ماد بما قالته ميلا، فأجابني بعد تفكير:

- علينا لقاء جاد مجدداً في الميناء.
- فكرة معقولة، سأتصل به اليوم لأخذ موعداً منه.

في اليوم التالي وبينما ألاعب سالي رن هاتفي، وإذا بأبي هو المتصل:

- كيف حالك يا دارو.
- بخير يا أبي.
- هل اهتديتم إلى طريق ما؟
- ليس بعد، ما زلنا نلتقي بهم، أتوقع أن نبدأ الرحلة خلال السبوع القادم.
- لقد تكلمت مع جارنا الخياط الأعرج " سام " هل تذكرته؟
- نعم تذكرت، ماذا به؟
- هو الآن في إحدى دول الشمال، سألته عن كيفية وصوله إلى هناك، وقد أعطاني رقم المهرب الذي أوصله إلى هناك.
- جيد.

سأرسل لك الرقم، وهو يسكن في مدينة الميناء، تواصلوا معه عن طريق الهاتف، لعله ما يزال يعمل في هذا المجال.

- تمام، سأتصل به اليوم.

- لا تنسى أن تخبرني عن نتيجة اللقاء.

- فوراً بعد اللقاء.

- مع السلامة.

قال ماد معقباً على اتصال أبي:

- هل سنلتقي به؟

- نعم، لن نخسر شيئاً.

- باعتقادي أن الحل عند المهرب جاد.

- ربما، ذلك لا يمنع من سماع كلام هذا المهرب أيضاً.

دقائق ووصلت الرسالة، على الفور اتصلت بالرقم، حدد لنا المهرب موعداً وقد كان في عصر يوم الغد، دون أن نتكلم أي شيء أخر على الهاتف، بعدها اتصلت على جاد والذي أعطى موعداً في الساعة الثامنة مساءاً، تماماً نفس زمان ومكان الموعد القديم، في اليوم التالي انطلقنا نقصد بيت المهرب وهو يقع على أطراف المدينة، مشينا عدة كيلومترات بعد أخر موقف للحافلة، سألت ماد:

- هل تعبت؟

- لا أبداً، لكن هل أنت متأكد من العنوان؟ لقد أصبحنا خارج المدينة!

- نعم متأكد.

- إني أرى بساتيناً وحقولاً! ... علينا ألا نمكث طويلاً عنده، حتى نتمكن من لحاق الموعد الثاني، فكلاهما قريبان في الزمان بعيدان في المكان.

وصلنا أخيراً إلى البيت وقد كان أمامه رجل يجلس على كرسي ومن وراءه أشجار البرتقال، اقتربنا منه أكثر وهو ينظر إلينا:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام، أهلاً بكم ... أنت من اتصل البارحة بي؟

- هو تماماً.

- أهلاً بكم، تفضلوا إلى الداخل ... تفضلوا ... تفضلوا ... يا أهلاً وسهلاً.

لم يكن في البيت أحد سواه، كانت هناك غرفة وحيدة بداخلها أثاث قديم متناثر من سجاد وفرش النوم ووسائد، فهذا البيت مخصص للإجتماعات وإيواء اللاجئين ممن دخلوا لتوهم إلى الأناضول ولا مكان لديهم قبل أن يكملوا طريقهم نحو العاصمة، وبعد البداية المعهودة بالسؤال عن الصحة والأحوال، افتتحت الموضوع قائلاً:

- لقد مدحك كثيراً ... وقد نصحنا أن نسلك ما تختاره من طريق.

- من هو؟

- جارنا الخياط " سام " رجل قصير أعرج في الستين من العمر.

حاول أن يتذكر لكنه سرعان ما حرك رأسه بعد وقال:

- لا أتذكره ... لقد أوصلت الكثيرين فيما سبق ... وإلى اليوم، وقد مرَ عليَ الكثير من الوجوه، لهذا أعذرني إذا لم أتذكره.

- لا مشكلة في ذلك، لكن هلَ أخبرتنا عما لديك من طرق؟

- لدي طريق واحد فقط .... الشاحنات.

- مضمون؟

- وهل سيغامر السائق بشاحنته في سبيل مبلغ صغير سيحصل عليه من لاجئ!

- كم التكلفة؟

- عشرة آلاف للشخص الواحد.

تحمس ماد لذلك، أخذ يسأل وأنا أرى في عيونه كل الرضا عن هذا الطريق.

- جميل، هلَ أعطيتنا تفاصيل أكثر؟

- المسألة واضحة، ستنطلق بكم الشاحنة من العاصمة إلى دول الشمال، بإمكانكم النزول في أي دولة ترغبون بها أثناء المرور بها.

كان كلامه مختصراً ولا تفاصيل فيه، فسألته مستفسراً:

- أين مكان الاختباء في الشاحنة؟
- في الغرفة الصغيرة أو داخل الشاحنة.
- تقصد بالغرفة الصغيرة ذلك القفص الحديدي الذي يقع بين الإطارات الخلفية للشاحنة.
- هي بالضبط، إذا كنت تعرف لماذا تسأل؟
- لماذا لا تعطي مثل هذه التفاصيل؟
- لإنه من غير المعقول أن تجلس إلى جانب السائق وأنت تسافر بطريقة غير قانونية.
- كم تستغرق الرحلة؟
- من عشرة إلى عشرين يوماً.
- الدفع بعد الوصول؟
- على دفعات، بعد كل دولة ستدفعون مبلغاً معيناً.
- سنخبرك إذا قررنا ذلك.
- الشاحنات ليست متوفرة دائماً، عليكم معرفة ذلك.
- دعنا ندرس الموضوع.
- أنتم أعلم.
- مع السلامة.

وفي طريق العودة شعرت أن ماد مقتنع بهذا الطريق، فسألته لأتأكد من ذلك:

- ما رأيك في كلامه.
- لا أدري، لكنه معقول إلى حد ما.

- لا، ليس معقولاً.

- لماذا؟

- لإنه طلب المال على دفعات، ولم يتكلم عن كيفية العبور من المنافذ الحدودية متخطياً أجهزة الكشف الحديثة فيها، وهناك العديد من الأمور قد أخفاها عنا.

- يبدو عليه أنه واثق من نفسه، لاحظت ذلك أثناء كلامه.

- يجب عليه أن يُظهر ذلك للزبون ... المسألة ليست بحاجة إلى ذكاء، سيقامر هو والسائق بنا، سيضعوننا داخل الشاحنة، إن وصلنا قد كسبوا، وإن كشف أمرنا وألقي القبض علينا، سيستبرئ السائق منا، بل سيتهمنا أننا صعدنا إلى شاحنته دون علمه.

- وماذا عن القفص الحديدي بين الإطارات الخلفية؟ هل قام اللاجئ بصنعه وتركيبه دون علم السائق؟

- لم يعد هناك قفص ... إنما ستقف على المحور الواصل للإطارات الخلفية، أي ذلك الأنبوب الذي يربط إطارات الجهتين، كل ذلك أثناء تفتيش الشاحنة في المنفذ الحدودي، وإذا لم يكتشف أمر اللاجئ، توقفت الشاحنة بعد المنفذ الحدودي مسافة بعيدة ليعود السائق ويخبئك داخل الشاحنة فترة الطريق.

- كل الطرق صعبة وبحاجة إلى أن يغامر الإنسان بحياته.

- بالتأكيد ... دعنا نرى ماذا عند جاد من طرق، ومن ثم سنفكر ألف مرة قبل أن نختار طريقاً سنسير فيه.

لم نذهب إلى الميناء مباشرة، بل عدنا أولاً إلى البيت حيث استبدلنا ثيابنا بأخرى كانت مخصصة للعمل، وعلى الفور انطلقنا إلى الموعد، رغم إننا نحمل هويات لاجئين وتعلمنا لغة هذا البلد، إلا أننا عدنا وسلكنا طريق الأزقة، فذلك أضمن وفي الطريق سأل ماد:

- إذن كم طريق أمامنا إلى الأن؟

- المنجنيق – المظلات – سيارة بمضيفات – الشاحنة.

- لنرى ماذا لدى جاد.

- أتدري فيما أفكر؟

- بما؟

- أن يطلب أكثر من عشرة آلاف للشخص الواحد ... ففي أخر لقاء لنا طلب ثمانية آلاف، وقد كان ذلك في بداية العام، فما بالك الآن؟

- لا أعتقد ذلك، فالصعوبات ظلت كما هي ولم يزداد أي شيء جديد، على العكس يجب ألا يطلب أكثر من المبلغ القديم.

- آمل ذلك.

وفي الزقاق المطل على الشارع الرئيسي دخلت امرأة تجاوزت الخمسين من العمر أو هكذا كانت تظهر على الأقل، تلبس أسمالاً بالية غاية في الانتساخ، تجر خلفها عربة تجمع فيه عبوات المياه البلاستيكية، وقفت بالقرب من حاوية قمامة فضية، أوقفت العربة خلفها ودنت بنصفها الأعلى على الحاوية وأخذت تفتش بيدها العاريتين عن تلك العبوات، وحينما مررنا بالقرب منها أخرجت ثلاث منها، ومن ثم وضعتها في العربة، أمسكت مقابض العربة ورفعت المقدمة، أكملت باتجاه الحاوية التالية، أشار ماد إلى البوابة:

- انظر، هناك حارسان.

- لا يهم.

- وإذا سألنا أحدهم إلى أين؟

- إلى المقهى للقاء عامل أخر.

لم يسأل الحارسان شيئاً، بل لم ينتبهوا إلينا لحظة المرور، وحينما اقتربنا أكثر من المقهى، زاد حماس ماد، فضرب بقبضته على بوابة المخزن التي تحمل لوحة تحذر من كلب شرس، ارتفع عواء الكلب بعد تلك الضربة على الباب وجنَ جنونه في الداخل، وقد رأيت الحبور على وجه ماد وهو يبتسم وقال " معنا هوية لاجئ وبإمكاننا التكلم مع الشرطة بلغتهم، والأهم أصبح موعد السفر قريب.

لم تكن الشاحنة الزرقاء هذه المرة أمام المقهى، فالشارع فارغ تماماً، إنما هناك عدد من الطاولات على الرصيف المقابل للمقهى ومن حولها عمال منشغلين باللعب، جلسنا مقابل جاد، استقبلنا بابتسامة وحينما جلس بقي مبتسماً وقال: أراكم عدتم مجدداً!

- لا بد من ذلك.
- أحسنتم صنعاً، وحتى أنا سأسافر يوماً مثلكم ...وذلك اليوم ليس ببعيد.
- أريد أن اسألك ...
- قبل أن تسأل، هل أنتم عازمين فعلاً على السفر؟
- بالتأكيد.
- أكيد؟
- نعم أكيد!
- كم معكم الآن؟
- معنا المبلغ المطلوب هذه المرة.
- اسأل لا لشيء، فقط لأجد لكم طريقاً بقدر مالكم.
- ماهي الطرق التي لديك؟
- بر وبحر ... الأولى بتسعة والثانية بسبعة.
- أيهما أفضل؟
- كلاهما.
- لكن الأولى أغلى من الثانية!
- هذا طبيعي، فالأولى تحتاج إلى سيارات وأدلاء كثر.
- الدفع؟
- على دفعات، حينما تصلون – بإذن الله – إلى هيلاس سيدفع الواحد منكم ثلاثة آلاف، إذا كان الطريق البري، وألف فقط في حال العبور عن طريق البحر.

قال ماد متعجباً:

- فرق كبير في السعر!

- طريق البحر لن يكلفنا سوى قارب مطاطي والقليل من الوقود، والانطلاق من مدينة قريبة من هنا، أما الثانية ستقطعون آلاف الأميال ونحن المسؤولين عن كل شيء طيلة كل تلك المسافة.

سألته وأنا على يقين أنه لن يجيب بشكل صادق:

- لقد قلت إنك ستسافر مثلنا يوماً ما ... أي طريق ستختار حينها؟
- كلا الطريقين آمنين، ولا فرق بينهما.
- أعرف ذلك، لكن أيهما ستختار؟
- إذا كان هناك المال الكافي ... البري.
- دعنا نفكر في الموضوع ومن ثم نجيبك.
- أريد أن أقول لكم شيئاً واحداً.
- تفضل.
- لا وقت للتأخير، فالظروف قد تتغير بين عشية وضحاها، إذا كنتم تريدون السفر فعلاً ... أعلموني بذلك، هناك مجموعتان ستنطلقان خلال الأيام القليلة، واحدة من البحر والأخرى خلال الطريق البري.
- نعم نحن عازمون على ذلك، سأتصل بك غداً أو بعد غد لأخبرك ماذا قررنا.
- لا تتأخروا.
- لن أتأخر.
- بالتوفيق.
- مع السلامة.

ما جعلنا أن نثق بهذا التمساح أنه أوصل صديقنا من قبل، نعم هناك الكثير من السماسرة والمهربين، إلا أن هذا معروف وصاحب تجربة، أما البقية فلا نعرف شيء عنهم، وبعد الأخذ والرد في العرزال بعيداً عن ميلا وتفكيرها العاطفي، قررنا أن نعتمد على جاد، لكن بأي الطريقين سنذهب، البر أم البحر؟ أصر ماد على البحري وقال:

- البحر أسرع وأقصر، سنوفر أربعة آلاف، قد يلزمنا المبلغ لاحقاً لما بعد هيلاس، وإذا لا، سنعيده إلى أبي فهو بأمس الحاجة إليه.

- الطريق البري أفضل، نعم سندفع أكثر ونتعب أضعاف الطريق البحري، غير أنه أكثر أماناً، فالبحر لا يرحم، ونحن لا نجيد السباحة، ناهيك أننا سُنحتجز في مخيم الجزيرة لمدة لا نعرف قدرها، أما الطريق البري، سندخل هيلاس ونخرج منها باتجاه الشمال خلال عدة أيام كأبعد تقدير.

لم يقتنع ماد بكلامي كثيراً، لكن مع ذلك أبدى موافقته على كلامي وقال:

- لكن في حال الفشل، سنجرب العبور من خلال البحر.

- موافق.

في اليوم التالي اتصلت على جاد وأخبرته إننا جاهزون، وقد اتخذنا قرارنا ... الطريق البري، وقد دعانا أن نكون جاهزين خلال الأيام القادمة للانطلاق نحو العاصمة، وعلى الفور بدأنا التحضير للسفر، في البداية طلبت من ماد أن يرافقني، فسأل:

- إلى أين؟

- إلى السوق.

- سنذهب غداً عصراً.

- غداً لشراء الثياب ... ألا تريد أن تودع المدينة!

- موافق، لكن لن نذهب بعيداً

- إذن هيا بنا.

وبعد أقل من ساعة كنا في السوق الذي يقع في وسط المدينة، سألت أحد الباعة عن أماكن بيع التجهيزات العسكرية، وأشار إلى إحداها، تفاجئ ماد ووقف في مكانه وسأل:

- وماذا تريد أن تشتري من هناك وأنت ستعبر الحدود عن طريق التهريب!

- الأن ستعرف ... تعال معي.

كان دكاناً صغيراً يحتوي على معدات وثياب عسكرية، يقصدها الصيادون بكثرة، سألت صاحبة الدكان وقد كانت فتاة شابة:

- هل لديكم صفيحة الجندي التعريفية؟
- بالطبع، بإمكاننا كتابة أي شيء تريده عليها.
- ذلك ما نريد.

وفيما تخرج الفتاة ورقة وقلم لكتابة ما نريد من معلومات على تلك القطعة المعدنية الصغيرة التي تعلق حول الرقبة، سأل ماد مستفسراً:

- وماذا ستكتب عليها؟
- الاسم – المدينة – الدولة – رقم هاتف للطوارئ.
- ولماذا ذلك؟
- حتى لا تصبح جثة مجهولة الهوية.
- لا أريدها، اصنع واحدة لنفسك.
- لا يجوز، يجب عليك اقتناء واحدة منها.

رفض ماد، أعطيت المعلومات التي أريدها وطلبت أن يصنعوا لي قطعتين وأن يزودوني بسلسة متينة، وبعد قليل كان كل شيء جاهز، وما أن خرجنا حتى قصدت مكتبة حيث اشتريت دفتراً صغيراً بحجم الكف، له غلاف فضي سميك متين وقلم رصاص، ومن ثم قصدنا دكاناً يبيع كاميرات تصوير، كل ذلك وماد صامت، سألت البائع:

- أريد كاميرا تصوير صغيرة " كاميرا تسع الجيب " ... أريد أرخصها.

جاء بواحدة صغيرة كحلية اللون، طلبت أيضاً بطارية احتياط، فلبى ذلك، وفي طريق العودة لامني ماد على هذا " التبذير " غير الضروري!

- ليس تبذيراً يا أخي.
- هاتفك مزود بكاميرا تصوير! ثانياً ما حاجتك أصلاً للكاميرا؟

- الهاتف للتواصل فقط، أما الكاميرا فهي ضرورية لتصوير سير الرحلة كلها ... سيلزم ذلك لاحقاً، والدفتر لتدوين اليوميات.
- وماذا ستفعل في النهاية بتلك اليوميات المكتوبة والصور والمقاطع التي قمت بالتقاطها؟
- لاحقاً ستعرف.

لم ننتظر لليوم التالي لشراء ما تبقى من احتياجات السفر، ففي نفس اليوم ليلاً عدنا للسوق مجدداً لكن برفقة ميلا وزوجها هذه المرة، فقد أصرت على المجيء معنا كونها " تفهم أكثر منا في هذا المجال " ولم تتعدى تلك الاحتياجات سوى الثياب الضرورية وحقائب ظهر كبيرة كوننا سنحمل فيها طعاماً لاحقاً، وأحذية مناسبة للمشي، مع الأخذ بالحسبان أننا سنمشي لمسافات طويلة، اخترت حذاءاً رياضياً، فرفضت ميلا وقالت عليك بتلك السوداء، وقد أشارت إلى حذاء كبير الحجم رفضت شراءه عندما عرفت سعرها، أصرت ميلا أن آخذها لإنها الأنسب للطريق، ولم تخطأ ميلا في كلامها، أثبتت التجارب لاحقاً أنها فعلاً قوية، وقد اسميتها " السفينة المرسينية " لقد رافقتني هذه المرسينية لآلاف الأميال، وهي ماتزال معي حتى لحظة كتابة هذه السطور.

عندما عدنا إلى البيت سألت ميلا:

- هل لديك خيط وإبرة؟
- طبعاً ... لماذا؟
- أريد أن أخيط جيباً صغيراً للسراويل الداخلية التي اشتريناها.
- لتضع بداخلها المال؟
- صحيح.
- أنا سأقوم بذلك.
- سيحمل كل واحد منا مبلغاً صغيراً يكفي للحاجات الضرورية.
- وما تبقى من المال؟

- سيبقى لديك في البيت، سأتصل بك لاحقاً لأحدد لك المبلغ الذي يجب أن تضعيه في مكتب التأمين.

ومكتب التأمين ليس سوى محل صرافة يأخذ دور الوسيط، فبعد الاتفاق بين اللاجئ والمهرب على مبلغ معين، يقوم اللاجئ بوضع ذلك المبلغ في " مكتب التأمين " أي لدى الصيرفي، على أن يأخذ هذا الأخير من اللاجئ مبلغ التأمين وهو ما يساوي عشرة بالمئة من مجموع المبلغ المودع لديه لقاء دور الوساطة والاحتفاظ بالمال، في حال وصول اللاجئ إلى المكان الذي تم الاتفاق عليه، سيتصل بالصيرفي ويأذن له بإعطاء المال للمهرب، أما في حال فشل الرحلة أو أن اللاجئ قد غير رأيه ويريد أن يستعيد ماله، حينها عليه أن يقصد مكتب التأمين شخصياً ليستعيد المال، مع خسارة مبلغ التأمين.

في صباح اليوم التالي اتصل جاد:

- مرحباً، كيف حالك؟

- بخير، هل من أخبار جديدة؟

- كونوا على أتم الاستعداد فاليوم يوم الانطلاق.

- نحن جاهزون.

- أكيد؟

- أجل، لقد وضعت المبلغ الذي اتفقنا عليه في مكتب التأمين، سأرسل لك رقم المكتب للتواصل معه وتتأكد من وجود المبلغ.

- بانتظار الرقم ... بالتوفيق.

- آمل أن نعبر بسلام.

- إن شاء الله ... مع السلامة.

في الساعة التاسعة والنصف ليلاً، اتصل بي شخص لا أعرفه وقال باقتضاب:

- كونوا متواجدين عند الثانوية البحرية خلال نصف ساعة، سننطلق نحو العاصمة.

على الفور ارتدينا ثيابنا الجديدة ومن ثم تأكدت من محتويات الحقيبة، وقبل أن نخرج من البيت كان لا بد لي من توديع سالي، نظرت حولي باحثاً عنها لكني لم أجدها، بحثت في

الغرف إلى أن وجدتها مستلقية على سرير ميلا، قبلتها عدة قبل ومن ثم ودعنا ميلا وزوجها وانطلقنا إلى المكان المحدد عن طريق الأزقة، تجنبنا الشارع الرئيسي، إلى أن وصلنا إلى جانب الثانوية البحرية الملاصقة للميناء، لقد كان الشارع مظلماً تقريباً، سوى من إضاءة صفراء خافتة مصدرها عمود إنارة يقع في مقدمة الشارع، وقفت حافلة ڤان سوداء إلى جانب رصيف المدرسة، وعندما اقتربنا منها نزل السائق الأربعيني ووقف ينتظرنا، إلى أن أصبحنا على بعد خطوات، حينها فتح الباب الخلفي للحافلة وقبل أن ندخل قال:

- متأسف، عليَّ تفتيشكم وحقائبكم أيضاً، فإذا ما احتوت مواداً ممنوعة وألقت الشرطة القبض علينا – لا سمح الله – حينها سيحاسبني القضاء معكم.

- لا مشكلة في ذلك، فتش كما تريد.

تحسس بيده جيوبنا وفتش الحقائب، بعدها طلب منا الصعود، جلسنا في المقعد الأخير المزدوج أنا وماد، وبذلك تكون الحافلة قد امتلأت تماماً، عاد السائق بنا إلى وسط المدينة وتوقف بالقرب من إحدى البيوت، كان هناك شاب يقف أمام البيت ومعه حقيبة كبيرة، فتح السائق الباب الخلفي وطلب من الشاب الدخول، ما إن نظر الشاب إلى الداخل فوجد المقاعد ممتلئة حتى انتفض ورفض الصعود:

- ليس هناك أي مقعد شاغر!

أجابه السائق ببرود:

- اجلس بالقرب من الباب.

- ماذا تريد مني أن أقطع حوالي ألف ميل في هذا المكان!

- اجلس على حقيبتك، فهي أفضل من الكرسي.

- هل تمزح؟

- لا، ستدفع نصف الأجرة.

لم يفكر الشاب طويلاً ودخل إلى الحافلة، وضع الحقيبة بالقرب من الباب وجلس فوقها على سبيل التجربة، ومن مكانه قال:

- اتفقنا.

- ألم أقل لك أنها مريحة ومناسبة.

- إذن سأدفع لك مئة وخمسين.

هز السائق رأسه موافقاً وأغلق الباب الخلفي، وما أن جلس على مقعد القيادة حتى بدأ بقراءة الأدعية وهو يقود إلى خارج المدينة.

كنا أنا وماد نجلس على كرسي مزدوج وإلى جانبي من الجهة الثانية وعلى كرسي مستقل كان هناك شاب لم يتجاوز العشرين من العمر، له وجه مليء بالحبوب الحمراء، حينما صعدنا إلى الحافلة وجدته قد خلع حذاءه وجلس على الكرسي وكأنه يجلس على أريكة في بيته، ما أن اتجهنا إلى أماكننا حتى انزل رجله ولبس الحذاء وهو يتكلم في اتصال هاتفي مع صديق له، كانت مفردات المحادثة قمة في القذارة.

توقفت الحافلة على أطراف المدينة عند محطة وقود قديمة تبدو وكأنها مهجورة، فلم تكن هناك أي مركبة أو أشخاص غيرنا هناك، وقبل أن ينزل السائق من الحافلة قال بصوت متوتر:

- النزول ممنوع ... مفهوم.

خرج عامل شاب من مبنى المحطة وقام بتعبئة الوقود و استلم المال من السائق أثناء ذلك، حصل كل ذلك خلال دقائق معدودة، وعلى الفور عادت الحافلة مجدداً إلى الطريق العام ومنها اتجهت بنا إلى طريق أخر أقل أهمية، اتخذ السائق قد المستطاع الطرق الضيقة التي تربط بين المدن والبلدات ببعضها وذلك ليتجنب دوريات وحواجز الشرطة والدرك التي إذا أوقفتنا ستسألنا عن أذونات السفر.

لم يكن أياً منا يحمل " إذن سفر " سوى السائق، وهذه عبارة عن ورقة يستخرجها اللاجئ لدى إحدى المراكز الأمنية، ليتمكن من السفر إلى المدينة التي يقصدها بشكل قانوني، غير أن الحصول على إذن السفر بحاجة إلى سبب مقنع حتى يُعطى للاجئ، تنحصر الأسباب المقنعة في المرض أو الدراسة في الجامعة فقط، أما عدا ذلك فلا، ومن يخالف ذلك، يغرم ويعاد إلى مدينته، ومن يكرر المخالفة يرحل إلى بلده.

على مقربة من مداخل إحدى المدن توقفت الحافلة إلى جانب سيارة على يمين الطريق، نزل من الحافلة رجل وزوجته، وعلى الفور جلس مكانهم الشاب الذي يجلس على حقيبته، فيما أبقى حقيبته الكبيرة في مكانها، لكن هذا النعيم لم يدم طويلاً، بعد أقل من ربع ساعة عادت الحافلة وتوقفت إلى جانب سيارة أخرى فضية، نزل من السيارة شاب يساعد

أخراً مريضاً، وعندما دخلوا من الباب الجانبي كان المريض يرتجف بشكل كبير، نعم هناك برد، لكن ليس إلى ذلك الحد الذي يجعل الإنسان يرتجف! الشاب الذي بجانبي أخذ يضحك محاولاً كتم صوته، نظر إليه مرافق المريض نظرات غاضبة، قام الشاب صاحب الحقيبة الكبيرة من مكانه مفسحاً المجال للمريض ومرافقه.

- اجلسوا مكانه على الكرسي. قال السائق، نهض الشاب من الكرسي وعاد للجلوس على حقيبته، وفيما يغلق السائق الباب سمعته يقول:

- مئة وخمسون والجلوس على مقعد ... مستحيل. طيلة ربع الساعة تلك وهو يتحرق ألماً كيف لراكب أن يدفع نصف الأجرة أن يجلس على مقعد، وقد وجد في صعود المريض ومرافقه بلسماً لذلك الألم.

كانت الحرارة داخل الحافلة معتدلة، وخاصة أن النوافذ لا يمكن فتحها، فهي مغلقة بشكل تام، ومن يريد أن يتقيء عليه أن يحضر سلفاً كيساً لذلك، بقي المريض يرتجف! وهو محط أنظار الجميع، وكذلك مرافقه، قال المريض لصديقه المرافق له:

- لقد خدمنا الرجل كثيراً. يقصد سائق السيارة الذي أتى بهم إلى الطريق.

- نعم لدرجة أنه أحرجنا بكرمه ولطفه.

- إني أدعو له طوال الوقت بالتوفيق .... لقد عرض علينا أن يوصلنا إلى المستشفى الحكومي في العاصمة، لكني رفضت.

هنا تدخل السائق وسأل المرافق:

- ماذا أصاب الأخ؟ قالها وهو يراقب المريض من المرآة الصغيرة العاكسة.

- إنه مريض، بحاجة إلى معالجة فيزيائية.

- لماذا يرتجف؟

- إنها من تبعات المرض ... نحن الأن في طريقنا إلى طبيب مختص، يقال إنه سيساعد على تحسين حالة صديقي.

- عفواً ما هو هذا المرض؟

هنا تدخل المريض وسرد القصة:

- هو نوع من الشلل، ترافقه الرجفة إذا ما كان الجو بارداً.

هنا خف الارتجاف قليلاً وأكمل المريض يسرد وصوته أصبح أكثر وضوحاً:

- في بداية العام قررت المجيء إلى الأناضول، وبعد رحلة استمرت ليومين تخللها النوم في إحدى الغابات، جاء الدليل وطلب منا الاستعداد للنزول إلى طريق حيث تنتظرنا سيارة ستنقلنا إلى إحدى المدن، كان ذلك ليلاً حينما وصلت السيارة الحمراء، وعلى وجه السرعة صعدنا إليها وانطلقت بسرعة أقل ما يقال عنها أنها جنونية، وكأن السائق يخوض سباقاً، كنت أجلس إلى جانب السائق، أما أصدقائي الثلاثة فقد جلسوا في الخلف، وأثناء اجتياز السائق للسيارات الأقل سرعة على الطريق، اصطدم بإحداها، ففقد سائقنا السيطرة على السيارة بتلك السرعة، وراحت تنقلب بنا على جانب الطريق، لا أتذكر كم مرة انقلبت بنا لأني فقدت الوعي حينها، لأرى نفسي في المستشفى في اليوم التالي لا أقوى على الحركة، وقد أخبروني أني بت مشلولاً وأصدقائي الثلاثة قد ماتوا في الحادث، والسائق مصاب إصابات بالغة ... لا أدري هل أبكي كوني بت مقعداً إلى الأبد أم أشكر ربي كوني نجوت من الموت.

- الحمدالله على كل شيء، هذا قدرك.

- نعم يا أخي ولا اعتراض على ذلك.

أضاف المرافق:

- حالته أفضل من قبل، وقد دلنا أحدهم على طبيب ماهر في العاصمة.

- آمل ذلك، سأوصلكم إلى المكان الذي تقصدونه داخل العاصمة.

- جزاك الله خيراً.

أنزلنا السائق في مكان مظلم جانب محطة وقود للاستراحة، كنا في أمس الحاجة إليها لنحرك أجسامنا قليلاً، فقد باتت متخشبة من الجلوس في مكان ضيق طيلة الطريق، ثم قاد الحافلة وحيداً إلى مكان تعبئة الوقود، بقينا في مكاننا ما بين مدخنٍ أو من يمشي قليلاً طلباً للحركة، بعد تلك الاستراحة بمسافة قريبة، فجأة ظهرت عربة زرقاء على جانب الطريق، أشار جندي بيده للسائق أن يتوقف، لا أدري من أين خرج لنا هذا الحاجز، لكن يبدو أنه حاجز طيار مؤقت، طلب الجندي من السائق الهوية وإذن السفر، فأخرج له ما

طلب، نظر الشرطي إلى الخلف وبعد تفكير أعاد أوراق السائق وطلب منه المغادرة، نجونا إذن من الغرامة والعودة للمدينة، ارتفع فجأة صوت أحدهم وقال للسائق:

- يا أخي كيف لك أن تسلك طريقاً من الممكن أن يكون فيه حاجز!

- لا أدري من أين خرج لنا هذا الشيطان... رغم أني أسافر أسبوعيا من نفس الطريق ... لقد مضى الأمر على خير.

في إحدى ساعات الليل المتأخرة، سمعت السائق يقوم بإجراء اتصالات ويرسل رسائل صوتية إلى عدد من الأشخاص يسألهم عن " حالة الطريق " فقد أرسل رسالة صوتية إلى أحد أصدقاءه يقول فيها:

- إذا عبرت بأمان، أعلمني بذلك سواء برسالة أو اتصال.

وبعد نصف ساعة اتصل به صديقه، فأجاب السائق:

- نعم ... جيد ... كم شرطي هناك؟ ... خمسة ... طيب.

قلل السائق من سرعة الحافلة حتى أصبحت بطيئة نسبياً، حينها كنا نسير على طريق سريع من قسمين ذهاب وإياب، ومن بعيد ظهرت أضواء حمراء وأخرى حمراء وزرقاء بالإضافة إلى أخرى بيضاء قوية تنير جزءاً من الطريق، إذن نحن على مقربة من الحاجز الرئيسي والأقوى، وهو أكبر الحواجز وأكثرها تدقيقاً، التنصل منه بدون تفتيش أمر صعب للغاية، عاد واتصل السائق بصديقه، وقد فهمت من كلامه أنه يطلب من سائقنا أن يتريث قليلاً، بقي السائق على نفس السرعة وهو يراقب حركة السيارات والشاحنات المتجهة إلى الحاجز، وقد كانت كثيرة، تجاوزتنا حافلة بيضاء كبيرة متجهة إلى الحاجز، أخذ يراقبها السائق بكل اهتمام ومن بعدها توالت السيارات، مرت شاحنة نقل طويلة، زاد سائقنا من سرعة الحافلة واتجه إلى يسار الشاحنة، وبنفس سرعتها أكمل القيادة، خلال ذلك أوقف عناصر الحاجز تلك الحافلة التي مرت منذ قليل، إضافة إلى ذلك كانت هناك ثلاث حافلات أخرى قيد التفتيش، مررنا مستترين بالشاحنة، ومن حسن حظنا أن عناصر الحاجز لم يوقفوا الشاحنة، ولم يلحظوا أن حافلتنا مستترة بها ذلك لكثرة السيارات والعربات من حولنا، حينها تنفس السائق ورفع من صوته قائلاً:

- لقد نجونا، الحمدالله ... إلى العاصمة مباشرة.

شعر من كان مستيقظاً بارتياح، أصبح المريض أقل رجفاناً، أما الشاب الذي بجانبي عاد وخلع حذائه وجلس على كرسيه، رحت أبدل وضعية الجلوس حتى أتمكن من الحركة قليلاً داخل ذلك المكان الضيق، جلست على المقعد تارة وأخرى جعلت ماد يتمدد قدر المتاح في مكانه ومكاني على المقعد، فيما دنوت مستلقياً على طرفي الأيمن في المكان المخصص لوضع الأرجل أسفل المقعد، تبادلنا أنا وماد الأماكن، زاد الصداع من صعوبة الأمر بينما الشاب صاحب الحقيبة أخذ يتقلب حول وفوق حقيبته وهو متقوس الظهر.

خلال ساعات الظهر من اليوم التالي وصلنا مشارف العاصمة، سرعان ما اجتزنا قسمها الأول، بقي أن نعبر الجسر الكبير لندخل القسم الثاني من العاصمة حيث مكان السكن، إذن لقد اقتربنا من الوصول أخيراً.

كانت حركة المرور على الجسر كثيفة للغاية سيارات وحافلات وشاحنات، كل أنواع المركبات تقريباً، اتخذت حافلتنا الجانب الأيمن من الطريق، توجه الشاب بسؤال السائق وهو مستلق على حقيبته وكان صوته ضعيف للغاية من التعب:

- كم تبقى؟

- أقل من ساعة.

- وأخيراً.

- لقد وصلنا تقريباً.

حدث ما لم يكن في الحسبان، ففي منتصف الجسر انطفأت فجأة الحافلة**!**

- ماذا حصل؟ " سأل أحدهم.

لم يجيبه السائق، حاول تشغيل الحافلة، لكنه لم يفلح، نزل منها وهو يكاد يريد أن ينفجر من الغضب ثم راح يتفحصها، فتح الشاب الباب الجانبي وعندما نزل بعض الركاب، صاح السائق بجنون:

- عودوا بسرعة إلى مقاعدكم.

أجابه رجل:

- ماذا حل بالحافلة؟

- تعطلت.

- ماذا! بهذه البساطة!

- لم أتوقع أن تتعطل ثانية.

- دعنا ندفعها ... لعلها تعمل.

نزلنا نحن الشبان من أجل دفعها، كانت السيارات من حولنا تطلق زماميرها لما قمنا به من إرباك في ذلك المكان الحساس، دفعناها لكن دون فائدة، فلم تعمل، قال السائق فجأة:

- ادخلوا بسرعة إلى الحافلة، لقد وصلوا.

- من هم؟ ثم رحنا نراقب المكان من حولنا.

- الشرطة والمرور.

حينها شعرت بالاستسلام، لقد بات الأمر سيان لدي، فكرت وقلت على الأقل إذا ألقت الشرطة القبض علينا ونحن دون أوراق إذن السفر، سيقومون بإعادتنا إلى مدينة الميناء، وبالتأكيد سيكون طريق العودة أسرع كونه سيسلك الطرق الرئيسية، جلس السائق على كرسيه منتظراً قدوم الشرطة مستسلماً بدوره، وقال لنا:

- إذا سألوا عن وجهتنا ... اجيبوا إننا أقرباء ونحن في طريقنا إلى عرس في العاصمة.

وصلت عربة المرور دون الشرطة، يبدو أن عناصر عربة الشرطة قد ظنوا أنها حافلة تابعة للعاصمة، لهذا لم يرافقوا عربة المرور، سأل أحد عناصر المرور السائق عن العطل، أخذ يشرح لهم السبب وهو يبتسم حتى يبعد الشبهات ومن ثم أضاف: إننا في طريقنا إلى عرس، فأجابه عنصر المرور:

- ستقوم عربة المرور بقطر حافلتك إلى المكان المخصص لوقوف العربات المعطلة، ومن هناك تدبر أمرك في إصلاح الحافلة.

حرك السائق رأسه موافقاً ومتشكراً، قطرتنا العربة إلى داخل العاصمة وفي إحدى الساحات توقفت، قام عنصر المرور بفك العربة عن الحافلة، ومن ثم غادر المكان، اتصل السائق بصديقه الذي بدوره وصل إلينا بعد نصف ساعة بسيارة تحمل عدة تصليح، وبسرعة أصلحها بشكل مؤقت بحسب وصفه، ومن ثم انطلقنا إلى وسط العاصمة، وفي

شارع فرعي توقفت الحافلة معلنة انتهاء الرحلة، دفعنا الأجرة وهي ثلاثة أضعاف أجرة الحافلات المتجهة إلى العاصمة. وذلك بسبب " مخاطرة " السائق في السفر بنا دون إذن للسفر، لهذا دفعنا دون كلام، لتكمل الحافلة بالمريض ومرافقه، نظر إلينا الشاب الذي جلس إلى جانبنا وسأل:

- هل لديكم سكن؟
- نعم ... كل شيء جاهز. أجبته.
- كم طلب صاحبه من أجر؟
- ثلاثمئة.
- أنا أسكن مع شبان وندفع خمسون فقط ... ما رأيكم؟

نظرت إلى ماد، فأجاب:

- دعنا نرى.

عدت وسألت الشاب:

- كم يبعد من هنا؟
- نصف ساعة.

وبعد ساعة ونصف من الوقوف داخل ثلاث حافلات في العاصمة وصلنا إلى مسكن الشاب قليل الأدب، الذي بدوره لم يكن أكثر من دكان، تم تغطية الواجهة الزجاجية بالجرائد حتى تحجب رؤية الداخل، حينما فتح صديقنا الباب، دعانا أن ندخل قبله وذلك من باب الاحترام لكن وبعد أول خطوة توقفنا في مكاننا.

كان في وسط ذلك الإسطبل سجادة كبيرة وهي مائلة للون الفضي من شدة قذارتها، يبدو أنها كانت حمراء في الأصل أو شيء من هذا القبيل، أيضاً في الوسط والأطراف تناثرت أكثر من عشر فرش للنوم بأحجام متفاوتة، ومن بينها الوسائد والبطانيات بألوان مختلفة، باب أبيض يؤدي إلى الحمام، وإلى جانبه ثلاجة بيضاء كبيرة، وعلى مقربة من الباب وضع مشبك عليه في تلك اللحظة ثلاثة قمصان مغسولة، اثنتان سوداء وواحدة زرقاء، ثلاثة عشرة شاباً في الداخل ومعنا أصبحنا ستة عشرة، كان الوقت عصراً، أي لابد أن يكون هناك من هو في العمل ولم يرجع بعد إلى هذا المكان، أخذت تلك العيون الستة

والعشرين تنظر إلينا متفحصة، أعمارهم ما بين الخامسة عشرة حتى الثلاثين تقريباً، كان المكان مكتظاً وهو أشبه بالمعتقل أيضاً، قال الشاب الذي جاء بنا إلى هنا:

- تفضلوا، لماذا تقفون عند الباب!

كرر بعض الجالسين نفس العبارة وهم يحاولون أن يفسحوا مجالاً لندخل ونجلس، لكننا لم نتحرك، ومن مكاني سألت الشاب:

- كيف يتسع الجميع هنا!

- المكان واسع ... إنما هو بحاجة إلى بعض الترتيب.

لم أرتح لهذا المكان وساكنيه، فالعدد كبير للغاية وبعض الوجوه لها سحنات غير بريئة لهذا قررنا مغادرته، قلت متحججاً:

- لابد أن نذهب ونأكل شيئاً.

توجه صديقنا إلى أكبر الجالسين سناً وسأله:

- هل هناك طعام؟

وعلى الفور أجاب ذلك الشاب:

- لا.

ومن ثم اتجه إلى صديقنا صاحب الوجه المعطوب وقال:

- تفضلوا واجلسوا، وأنا سأذهب لأجلب شيء ما لنأكله.

- لا داعي لذلك، سنذهب ونتدبر أمرنا.

- كما تشاؤون ... هل ستعودون إلى هنا؟

- لا أدري.

خرجت وماد ومن ذلك المكان، وفي الخارج سأل ماد:

- كيف لهم أن يعيشوا في مكان كهذا!

- منذ أن سمعت أن الأجرة هي خمسون فقط ... عرفت أنه هناك خطب ما.

- أجل، قمة في الازدحام.

- المشكلة ليست في قذارة المكان وازدحامه، بل أبعد من ذلك ... آمل أن يكون السكن التالي أفضل.

- لست متفائلاً مع هذه البدايات السيئة.

صعدنا إلى أول سيارة اجرة رأيناها وتوجهنا مباشرة إلى العنوان الذي أعطانا إياه جاد، وهو يقع في حي يدعى " الكرزي " وعلى الفور دخلنا البناية المقصودة، صعدنا إلى جميع طوابقه الخمسة وطرقنا كل أبوابه، فلم نعثر على بيت يضم عمالاً أو لاجئين! كنا في تعب كبير حتى بتنا في حركة بطيئة من شدة الإعياء، عدنا إلى الشارع مجدداً، اتصلت على جاد، وإذا بهاتفه مغلق، جلس ماد على الرصيف وقال:

- افتح الهاتف وتأكد من العنوان، ربما تكون قد أخطأت في شيء ما!

عدت وتأكدت ولم أجد أي خطأ، أجبته بعد ذلك:

- انهض من مكانك، علينا أن نقف في مدخل البناية، حتى لا تعثر علينا أي دورية للشرطة.

- دعني أستريح قليلاً، فلا أقوى على الوقوف.

عدت واتصلت بالتمساح جاد، لم يكن هاتفه مغلقاً هذه المرة:

- إنه يتصل. قات لماد وأنا أشير إلى الهاتف بحماس.

- جيد. أجاب ماد ومن ثم نهض من مكانه لندخل إلى البناية:

- مرحباً أخي.

- أهلاً دارو.

- أريد أن أسألك عن عنوان البيت ... هو في أي طابق؟

- في القبو ... بدلاً من الصعود انزلوا إلى القبو، فهو هناك.

- طيب مع السلامة. أغلق الهاتف بسرعة حتى دون أن يقول شيء.

كان الدرج نحو الأسفل مظلماً تماماً، فقمت بتشغيل ضوء الهاتف، وعليه بدأنا النزول، إلى أن رأيت باباً أسوداً، طرقنا الباب مراراً وتكراراً، لكن أحداً لم يستجب، نظرت إلى جانب الباب فوجدت علبة كهرباء صغيرة، يخرج منها سلكان رفيعان، قلت في نفسي، إما هو لمصباح ينير هذا المكان أو جرس للقبو، قمت بإضاءة مكان العلبة، فيما قام ماد بإيصال السلكين ببعضهما، رن جرس مزعج داخل القبو، لكن دون أي نتيجة، أعاد ماد العملية حوالي خمس مرات إلى أن فتح الباب شاب أسمر له شعر طويل أخذ يتفحصنا بذعر وصمت، من خلفه ظهر ممر جيد الإضاءة توزعت الأبواب على جانبيه وفي نهايته باب أسود، قلت للشاب:

- لقد أرسلنا جاد إلى هذا المكان.

- لا أعلم من هو جاد، لكن تفضلوا إلى الداخل بما أنكم وصلتم إلى هذا المكان.

وأشار إلى أخر غرفة من الجهة اليمنى من الممر وأضاف:

- ليس هناك من أحد في تلك الغرفة، بإمكانكم أن تستريحوا فيها ريثما يأتي صاحب البيت.

كان في الغرفة أربعة أسرة، بدورين أي سرير فوق الأخر، الأول إلى جانب الباب حيث اتخذ ماد السرير الذي في الأسفل مكاناً له، والثاني في أخر الغرفة وعندما قصدته وجدت أن السرير السفلي مكسور غير صالح، مما اضطررت إلى تسلق الذي في الأعلى، أقول تسلق لإنه ليس هناك أي وسيلة تساعد في الصعود، إلى جانب سريري كان هناك شباك صغير عرضه نصف متر وارتفاعه حوالي عشرة سنتيمات، وهو يقع على ارتفاع رصيف الشارع، ويمكن من خلاله مشاهدة أقدام المارة وإطارات المركبات التي تعبر، وضعت حقيبتي كوسادة وتلحفت ببطانية زرقاء كانت هناك والتي يبدو أنها لم تغسل أبداً، ولم يكن هناك أياً من الفراش على الأسرة سوى خشبة السرير، حينما أغمضت عيني لأنام أخيراً سمعت وقع فتح باب القبو وإغلاقه ثم تتالت الخطوات إلى أن فتح أحدهم باب غرفتنا دون أن يطرقه، استدرت لأرى من هو هذا الزائر الذي رفع الكلفة و دخل بدون استئذان! وإذا بشاب له ذقن قصيرة وتقاطيع غاضبة، أو كان يتظاهر الغضب، وهذا أمر ضروري في اللقاء الأول حتى لا يكون هناك تفاوض على الأجر، لقد توقعت أن يكون صاحب المكان أو المسؤول عن أخذ الإيجارات.

- السلام عليكم.

- وعليك السلام.
- أنتم المستأجرين الجدد؟
- نعم، لقد أرسلنا جاد إلى هنا.
- جيد، هل أخبركم كم هي أجرة الشخص الواحد؟
- ثلاثمئة.
- لا، هي أربعمئة في الشهر.
- لكننا لن نبقى لشهر كامل هنا، سنغادر خلال الأيام القليلة المقبلة.
- الأجرة هنا شهرية حصراً، ثانياً من قال لك أنك ستغادر خلال أيام ... جاد؟
- نعم هو.
- قد تستأجر شهراً أخراً.
- مستحيل، سننتظر حتى اسبوع واحد لا أكثر.
- كما أقول لك، المسألة بحاجة إلى بعض الصبر.
- سأتصل به بعد قليل، لأستفسر عن المدة.
- أنت أدرى بذلك .... هل ستبقون هنا أم لا؟
- سنبقى طبعاً.
- إذن الأجرة.
- لكننا جئنا على أساس أن الأجرة ثلاثمئة!
- بإمكانكم المغادرة إذا لم يعجبكم السعر.
- ألا يوجد مجال للتخفيض من السعر قليلاً؟
- لا أبداً، ثانياً هذا المكان آمن للغاية من الشرطة والأمن، معظم قاطنيه إما لاجئين بدون إذن سفر أو مطلوبين للترحيل.

وجدت أنه لا مجال للنقاش، وعلى الفور أعطيته ثمانمائة من عملة الأناضول، ومن ثم سألت:

- هل كل شيء متوفر هنا؟

- نعم كل شيء، هناك الماء الساخن في الحمام وغاز للطبخ.

- أولاً نريد فرش للنوم وأغطية أخرى، فالمكان بارد.

- بعد ساعة ستكون لديكم، سيأتي بها صبي صغير.

قام بعد المال والتأكد من المبلغ، ومن ثم غادر القبو، وإلى هذه اللحظة لم يصل الصبي الصغير مع الأغطية.

بعد نوم دام حوالي خمسة عشرة ساعة، استيقظت وأنا أعاني من ألم شديد في الرأس، جلست على السرير وأنا أفكر في هذا الألم الذي لا يطاق، قلت في نفسي لابد من حمام وفنجان قهوة أن يقلل من هذا التعب والألم، وبعد أن خلعت ثيابي في الحمام، فتحت الصنبور ولم أجد سوى الماء البارد، اضطررت أن استحم به رغم برودة الطقس في العاصمة، أما القهوة فلم يكن هناك غازاً أو طباخاً أصلاً في المطبخ حتى اصنع به، اتجهت إلى غرفة الشاب الذي استقبلنا أول مرة، وقد وجدته مشغولاً بشتم أحدهم على الهاتف، طلبت منه رقم صاحب القبو، فأعطاني إياه، فاتصلت عدة مرات لكنه دون لم يرد على اتصالاتي، اعدت الاتصال بجاد، كان هاتفه مقفلاً مثل العادة، في اليوم التالي رد صاحب القبو فبادرته سائلاً:

- أخي لماذا لا ترد؟

- لأني مشغول ولا وقت للمكالمات ... ماذا تريد الآن؟

- لقد دفعنا لك أضعاف السكن في الفندق، والمكان يفتقر لأقل الخدمات!

- سآتي غداً لأنظر في الأمر، أما الآن فأنا مشغول.

- بانتظارك ... مع السلامة.

لم يأتي وكانت تلك أخر مكالمة بيننا إلى لحظة الخروج من السكن، عدت واتصلت على التمساح جاد، كالعادة كان هاتفه مقفلاً، قال ماد مقترحاً:

- ما رأيك في العودة إلى مدينة الميناء، هناك سنحاول أن نجد مهرباً للطريق البحري؟

- مستحيل، بعد كل الذي دفعناه من مال! علينا أن نجد مهرباً أخر للطريق البري ... فحدود هيلاس ليست بعيدة من هنا، علينا أن نجرب ولو لمرة واحدة.

تواصل ماد مع صديق له، وقد أعطانا أرقام ثلاثة مهربين " موثوقين " تمكنت من التواصل معهم، بدورهم طلبوا منا " التريث قليلاً " أو " سنتصل بكم لاحقاً " قضينا تلك الأيام الثلاثة والعشرين بانتظار اتصال أحد من هؤلاء المهربين بما فيهم جاد.

خلال هذه الفترة، كنت وماد نتناوب في الخروج لشراء الطعام والشراب وذلك بحذر يفوق الوصف وكأننا لصوص هاربين من السجن، أما بقية الوقت كنا نقضيه على الهاتف أو نجلس على سريري حيث التخطيط لمرحلة ما بعد هيلاس والكلام عن المشاريع التي سنقوم بها حينما نصل أرض الأحلام الأرض التي تدر كرامة وحرية، كل ذلك ونحن نراقب ما يظهره لنا الشارع من أقدام وإطارات.

اتصل جاد في اليوم الرابع والعشرين:

- مرحباً ... كيف حالكم؟

- بخير ... ماذا فعلت بنا؟

- أنا متأسف على التأخير، لا أدري ماذا أقول لكم!

- ظننا أنك نسيتنا.

- لم أنساكم، كل ما في الأمر أن المجموعة قد تأخرت في التشكل.

- وماذا الآن؟

- كل شيء جاهز، والانطلاق غداً في السادسة عصراً قرب السوق الكبير، عند المقهى السلطاني ... سيكون هناك رجل كبير في انتظاركم.

- مفهوم، غداً سنكون هناك.

- لا تتأخروا عن الموعد، حتى لا تغادر المجموعة دونكم.

لقد ارتفعت معنوياتنا، فغداً موعد الخلاص، في اليوم التالي استقلينا سيارة أجرة فأوصلتنا إلى المكان المحدد، فعلاً كان هناك رجل في الستين من العمر يلبس قميصاً أبيضاً وبنطالاً أسوداً يجلس على كرسي من كراسي المقهى الخارجية التي على الرصيف، حينما اقتربنا منه انتبه إلينا، نهض من مكانه واتجه إلينا، القى التحية دون مصافحة، وعلى الفور طلب منا أن نتبعه إلى مكان العربة، لم تكن العربة تبعد كثيراً عن ذلك المكان، حوالي مئة متر تقريباً، خلال تلك المسافة حاول هذا الأشيب أن يبدو طبيعياً، رسم ابتسامة مصطنعة وهو يتكلم معنا، غير أن عيناه كانتا تراقب كل شيء من حولنا، وبدلاً من أسئلته التي لا فائدة منها كالسؤال عن الصحة والحالة النفسية، سألته مستفسراً:

- هل من صعوبات في الطريق؟
- لا أبداً، سهلة للغاية.
- وماذا عن النهر؟
- ليس هناك نهر!
- أقصد إفروس.
- أه، تقصد تلك الساقية، ستعبرونها سيراً على الأقدام، لا تفكر في هذه الأمور، فكر في الأهم.
- وما هو الأهم؟
- أنتم شبان، معكم العديد من العائلات ... حاولوا مساعدتهم قدر الإمكان.
- الأمر لا يحتاج إلى طلب ... متى سندخل هيلاس؟
- اليوم ليلاً.
- هل الأمر بسيط إلى هذا الحد!
- بل أكثر، لا يتعدى الأمر كونه سوى القليل من الجهد البسيط والصبر.

دخلنا إلى إحدى الشوارع الضيقة، وفي منتصفها كانت تقف عربة صغيرة، صفراء اللون تحمل كتابات بأحرف زرقاء كبيرة على أطرافها، كانت تتبع لشركة شحن الطرود أو

ربما كان تمويهاً، سحب الباب الجانبي للعربة، وما أن فتح الباب حتى رأيت خمسة عشرة شخصاً محشورين في ذلك المكان الضيق!

- ادخلوا بسرعة، قبل أن يرانا أحدهم وينكشف الأمر.

هكذا نادى بنا ذلك الأشيب المتوتر، أخفضنا نصفنا الأعلى ودخلنا بسرعة، ومن ثم أغلق الباب وراءنا مباشرة، في البداية بقينا واقفين، فلا مكان للجلوس، وعلى الفور بدأ البعض بتجميع نفسه حتى يوسعوا لنا مكاناً للجلوس فيه، وكانت الزاوية اليمنى في مؤخرة العربة هو ذلك المكان، جلست وإلى جانبي كيس أسود طوله نصف متر، حاولت أن أتبين ما بداخله، لكني لم أهتدي، إلى يميني شاب في أواسط الثلاثينات، يقرأ في كتيب ديني بيده وهو يعتقد في ذلك زيادة في فرص النجاح، وإلى جانبه شاب أخر يجلس شارداً مفكراً، أمامي ماد وأربعة شبان، خلفهم امرأة مسنة ترتدي فستاناً وحذاءاً رياضياً أبيضاً، كان مظهراً غير مألوفاً بالنسبة لي! لكن الأغرب هو ماذا تفعل امرأة بهذا العمر هنا !على يسارها امرأة حامل في شهورها الأخيرة، جلست وقد أفردت قدميها جانباً وامرأة أخرى تحمل طفلاً بعمر السنة أو أكثر بقليل، وأمامهم رجل هو والد الطفل، وإلى جانب المرأة عائلة مكونة من أب وأم في العقد الخامس من العمر معهم فتاة شابة وأخرى صغيرة ذات الخمس أو الست سنوات، ألقيت نظرة على الجميع فرأيتهم مشغولين في التفكير، وبعد قليل فتح الباب مجدداً، ألقى الأشيب عشرة عبوات ماء ذات الحجم الصغير دون أن يتكلم ثم أغلق الباب بقوة، قام الشاب الذي يجلس إلى جانب الباب بتوزيع الماء، فكانت إحداها من نصيبي فأعطيتها لماد، صعد السائق إلى مقصورة القيادة وقام بتشغيل العربة، انطلق بنا بسرعة طبيعية بين شوارع العاصمة وكأنه يقصد عناوين تسليم الطرود، وعندما أصبحنا خارجها، زاد من السرعة بشكل كبير، كان الوقت حينها أول المغرب، في البداية بدأ السائق بالقيادة على الطريق السريع، وبعد ساعة اتخذ بدلاً عنها الطرق التي تصل بين القرى والتي كانت ذات تعبيد سيء، مما تسبب في القليل من الاهتزاز للعربة، توجه أحد الشبان بالكلام إلى الذي يجلس بالقرب من باب العربة وقال بصوت مرتفع:

- أخبر السائق أن يتوقف ... أريد أن أقضي حاجة.

نظر إليه الشاب باستغراب وأجاب:

- الآن!

- نعم ... لا أستطيع التحمل، أخبره لعله يستجيب.

نهض الشاب بعد تردد ومن فتحة صغيرة تطل على السائق قال:

- يريد أحدهم أن يتبول. ومن ثم أنتظر في مكانه إجابة السائق.

فنادى هذا الأخير بصوت مرتفع وبشكل هستيري وهو يقود متوتراً:

- لا يمكن ... لا يمكن ... مستحيل ... لا يمكن!

- يقول إنه لا يستطيع التحمل.

- ليتبول على نفسه ... ارجع إلى مكانك ولا تسأل مرة أخرى عن أي شيء.

عاد الشاب غاضباً وقال:

- تدبر أمرك، فلا أمل في التوقف.

توقف الذي بجانبي عن قراءة ذلك الكتيب وقال:

- تبول بإحدى عبوات المياه الفارغة ... وأنتم افسحوا له مجالاً وغطوه.

تحرك الشاب من مكانه وقد أصبح أمامي، أدار ظهره علينا ومن خلفه بقية الشبان وماد، فتح زر بنطاله وأخذ يتبول في العبوة، بعدها أخذت يده اليسرى تتحرك لتنزل ما تبقى من البول، وضع العبوة إلى جانبه وهي ممتلئة حتى النصف بسائل أصفر فاتح، قلت له:

- عليك بتركيب غطاء العبوة، إذا انقلبت جانباً ستملئني بالبول، فالطريق كثير الحفر وغير مستوي.

- تمهل يا رجل حتى أرفع بنطالي.

بعدها عاد الكل إلى مكانه مبقياً العبوة مفتوحة، أخرج لفافة تبغ من علبة كانت في جيب بنطاله وأشعل واحدة، بأقل من دقيقة صاح الشاب الذي يجلس بالقرب من الباب وهو زوج المرأة الحامل:

- اطفئها يا هذا، فهنالك الحامل والمسنة والأطفال.

وعلى الفور رمى اللفافة داخل عبوة البول، ثم أحكم إغلاق الغطاء وأخيراً ووضعها جانباً، قال زوج الحامل وهو يتوجه بالكلام إلى الثلاثيني المؤمن:

- ما كان عليك أن تجد له حلاً، من المفترض أن يبقى مشغولاً بألم الحاجة إلى التبول.

- والله ما كان قصدي إلا المساعدة.

التفت إليه الرجل وبيده ابنه ذي السنة وقال:

- الله! تقصد الذي جعل منك لاجئاً مشرداً! وغيرك مستقراً في بيته! منذ أن رأيت ذلك الكتيب الذي تحمله وأنا متيقن أننا سنفشل اليوم.

- لا لا اسمح بهذا الكلام. اسمع ...

تدخل الرجل صاحب الأسرة وقال:

- هذا يكفي ... من منكم لديه كيس؟ ابنتي الصغيرة تريد أن تتقيء.

فتحت أم الطفل الصغير حقيبتها وأفرغت شيئاً ما داخل الحقيبة ومن ثم أخرجت كيساً أبيضاً صغيراً، تأكدت أولاً أنه فارغ ومن ثم أعطته لأم الطفلة، انتقلت العربة إلى السير على طريق ترابي مليء بحجارة صغيرة، زاد اهتزاز العربة وزاد معه الشعور بالدوار، أخذت الفتاة بالتقيؤ على دفعات، وفي كل دفعة يتبعه صوت تألم وكأنه يخرج من جوفها، استمرت العربة في التخبط على ذلك الطريق، توقف المؤمن عن متابعة قراءة ذلك الكتيب، فالوجوه أصبحت صفراء متعبة، استمرت العربة في السير وكأنها في طريق لا نهاية له، نظرت إلى ساعة الهاتف فوجدتها في التاسعة والنصف تقريباً، وبعد قليل توقفت العربة، نزل السائق من مكانه، استدار وفتح الباب الجانبي وقال:

- هيا اخرجوا بسرعة ... هيا.

لم يكن النهوض والنزول امراً يسيراً بعد ذلك الجلوس المتعب لساعات عديدة، كانت عملية النزول بطيئة بعض الشيء وخاصة النساء، ازداد غضب السائق وبدأ يتكلم ويشتم بأقبح العبارات، كان متوتراً وخائفاً، وما أن نزلنا حتى أغلق الباب بقوة وصعد إلى العربة وانطلق بعيداً عنا، وجدنا شاباً في العشرين يلبس سترة سوداء وحقيبة ظهر أمامنا ينتظرنا، لقد كان الدليل، قال:

- هيا بسرعة ... لا أحد يتوقف.

- انتظر قليلاً يا أخي، فإني لا أشعر بساقاي. قال الرجل صاحب العائلة.

- علينا أن نخرج من هذا المكان غير الآمن، على مسافة غير بعيدة من هنا ستجلسون في أول استراحة.

كانت السماء داكنة وصافية للغاية، نجومها لامعة، فلا مدن أو بلدات قريبة من هذا المكان حتى تعكرها بأضوائها، شعرنا ببرد أكثر منه في العاصمة، وعلى الفور وبدون سؤال الدليل بدأنا ارتداء ثياب إضافية، أنزلت حقيبتي من ظهري، وأخرجت قميصاً كحلياً من الصوف، ارتديته فوق القميص الكاكي الرقيق، ومن ثم أعدت الحقيبة إلى ظهري وأكملت السير، أما المؤمن فقد حمل ذلك الكيس الأسود على كتفه، رغم تلك الوقفة إلا أن النساء مازلن في المؤخرة، كانت حركتهم أبطأ، وبعد مشي مسافة قصيرة، انعطف الدليل عن يمين الطريق، وبدأنا نسير وسط أرض مزروعة بنبات متوسط الطول، أصبح الطريق المعبد خلفنا، وبعد نصف ساعة ارتفع من خلفنا اصوات كلاب! لقد كانوا على ذلك الطريق الذي سرنا عليه حينما نزلنا من العربة، بدأت الأصوات تصبح أعلى، فالكلاب أخذت تقترب منا، بدأ الطفل والفتاة الصغيرة بالبكاء خوفاً، خاصة بعد زيادة سرعتنا وسط تلك الأرض المزروعة، فجأة أضاء مصباحان أبيضان قويان مصدرهما الطريق المعبد حيث كانت الكلاب أيضاً، وبدأت تلك المصابيح بالبحث، نادى الدليل أن ننبطح أرضاً، ففعلنا وبذلك أصبحنا مختفين وسط الزرع، أصبحت تلك الأضواء فوقنا مباشرة ومن ثم انتقلت إلى اليمين واليسار إلى أن انطفأت، نهضنا حينها وأكملنا التقدم، ونحن نحمل بأيدينا حجارة للتصدي للكلاب في حال وصولها إلينا، غير أن أصواتها أصبحت أضعف من ذي قبل إلى أن اختفت تدريجياً، وبعد مسير ساعة طلب منا الدليل أن نجلس في استراحة قصيرة، حينها كنا نحن الشبان في المقدمة بينما لزم البقية حوالي عشرة دقائق حتى يصلوا إلينا للاستراحة، كانت المسنة أخر الواصلين وما أن وصلت حتى جلست في مكانها وقالت بلسان مثقل وحلق جاف:

- أريد ماءاً ... ولو قطرات.

لم يكن أحداً يحمل الماء، لقد شرب الجميع تلك العبوات التي جاء بها الأشيب، عادت أم الطفل وساعدتها فأعطتها القليل من الماء المخصص لحليب ابنها، رغم أنه ماء فاتر، إلا أنها شربت بعض الرشفات، ما أن جلس الدليل حتى نهض فجأة وكأنه تذكر شي، سأل بصوت منخفض:

- هل أغلقتم هواتفكم؟

- لا، أجبنا.

- بسرعة أغلقوها ... كيف نسيت أن أطلب منكم ذلك!

ضغطت على زر الإيقاف ومن ثم وضعت الهاتف في الجيب الأيمن للبنطال وكذلك الكاميرا في الطرف الثاني، ومن ثم جلس الدليل وفتح هاتفه بإضاءة منخفضة راح ينظر في خريطة يظهر أنها للطريق الذي سنسلكه، لقد أثار خوفي تلك الحركة، كيف لدليل أن يستخدم الخرائط! من المفترض أن يكون حافظاً للطريق، بعد عشر دقائق نهضنا بأمر من الدليل وأكملنا المسير في شكل مجموعة، سرنا على مقربة من إحدى القرى الصغيرة، لم يكن يظهر منها سوى القليل من الأضواء الصفراء، وليس ببعيد عن تلك القرية بدأنا نسمع أصوات عربات وجرارات تسير على طريق كان يقع أمامنا، لم نكن نرى سوى أضواءها البيضاء الأمامية والحمراء الخلفية، وعندما أصبحنا على مسافة قصيرة من الطريق، قال الدليل:

- انبطحوا.. هيا انبطحوا، لا أريد أن أرى من أحد يقف.

فانبطحنا مباشرة على بطوننا، نراقب الطريق وننتظر الأوامر التالية، مرت عربة مسرعة، تبعتها واحدة أخرى، كانت أضواءهم الأمامية تغطي مساحة واسعة من طرفي الطريق بما فيه مكاننا على يسار الطريق، تلك الأضواء ولدقيقة كانت تغطينا، كاشفة موقعنا، حتى أني وضعت يدي اليمنى لأغطي بها عدسات النظارة، حتى لا يعكس زجاجها الضوء، مع ذلك كانت تلك العربات تمر دون أن تنتبه لنا، أو ربما قد كشف أحدهم أمرنا وهو في طريقه ليخبر عنا أحد المراصد العسكرية التي تقع على مسافة ليست ببعيدة منا، وما أن مرت تلك العربات ولم تعد تظهر أي واحدة أخرى على الطريق، نهض الدليل وأشار إلى شابين والعائلة والمؤمن حامل الكيس الأسود، ثم قال لهم:

- انهضوا بسرعة واعبروا إلى الجهة الثانية من الطريق ... مقابلنا تماماً، وأنت أيها الشاب احمل الفتاة الصغيرة حتى يصل الجميع بوقت واحد إلى المكان.

نهضوا وبدؤوا الركض مجتازين ذلك الطريق، وبعد وصولهم وقف الدليل وهو يرصد قدوم أي عربة من الطريق، فأشار إلي وماد والعائلة ذات الطفل وأمرنا باجتياز الطريق، حملت حقيبة العائلة، فيما تولى الأب حمل طفله، ثم انطلقنا , كان سباقاً أكثر من شيء أخر، إلى أن وصلنا إلى مكان المجموعة الأولى، وقد كانوا مجتمعين بشكل متقارب وسط أرض مزروعة، كان الشبان الذي تبول في العبوة يدخن بحذر، وقد أغلق يده نصف إغلاقة وضع بداخلها معظم أجزاء اللفافة بما فيها الجمرة، أما البقية فكانوا مستلقين

صامتين، مر جرار بطيء الحركة، وحينما أصبح بعيداً، انتظرنا قدوم من تبقى في تلك الجهة، لكن أحداً لم يأتي، وقد تأخروا! سمعت صوت حديث قصير بين أب وأم الطفل الصغير، ومن ثم فتحت الأم حقيبتها وبدأت بإعداد الحليب لطفلها، مر جرار ثم تلاه واحد أخر بعد عشرة دقائق، لا بد أن الدليل كان يتريث قدر الإمكان في الاجتياز، فهذه المرة معه المرأة الحامل وأخرى مسنة، بعد قليل سمعنا أصوات خطاهم، فنهضت من بين الزرع ورأيتهم يتقدمون صوبنا، لكن في بطء شديد، وعندما وصلوا ارتموا أرضاً وهم يتنفسون بعمق، انتظرنا ربع ساعة أخرى حتى تستريح المجموعة الأخيرة، أزالت هذه الاستراحة بعض التعب البدني الذي أصابنا، غير أن المشكلة كانت تكمن مع العطش، فلا ماء معنا، وهنا لا مصدر له مثل النبع أو الماء التي تستخرجه المولدات لسقاية الأراضي الزراعية، سمعت المسنة تقول للدليل:

- ليس بإمكاني أن أكمل ... فقد تعبت كثيراً.

- استريحِ يا خالة ... فأنت الأن مجهدة.. سننطلق حينما تعود لك القوة.

عندما نهضنا لنكمل المسير، رافقتنا المسنة لكنها كانت تمشي ببطء وصعوبة، بدأنا السير في طريق ترابي وسط حقول مزروعة بنبات قصير مغمور تقريباً بالماء، وعلى الفور اقتربنا من إحداها وبدأنا نشرب من ذلك الماء الساكن، بعد أن نملئ كفنا منه، شربنا رغم تحذير الدليل من أن الماء غير نظيف وأن النهر بات قريباً منا، لقد أعاد الماء لنا الحيوية، سرنا عدة ساعات أخرى على ذلك الطريق، فجأة سقطت المرأة الحامل من التعب، فهرع زوجها لمساعدتها، توقفت المسنة وجلست على الأرض، عاد إليها الدليل، فيما توقفنا ننتظرها تنهض، فقال لها:

- هذا المكان خطر، سنستريح بعد قليل في مكان أكثر أماناً.

- هذا المكان الخطير خير لي.

- لم أفهم!

- أنتم أكملوا طريقكم، أما أنا سأجلس هنا حتى تعثر عليَّ أي دورية للجيش أو أحد المزارعين.

- لقد وصلنا تقريباً ... لم يتبقى سوى القليل.

- لا يمكن، لقد وصلت إلى درجة أني لا أقوى فيها على النهوض.

- يا خالة يا عمة يا أمي ... انهض فلا وقت لذلك الآن.

- طيب سألحق بكم بعد قليل، أنتم أكملوا طريقكم.

لم يناقشها الدليل طويلاً فتركها في مكانها وتقدمنا وهو مسرع، وأشار لنا أن نكمل السير إلى أن وصلنا إلى بداية غابة حينها طلب فيه الدليل منا أن نجلس خلف مجموعة من الأشجار وعلى بعد عشرين متر كانت هناك غرفة تقف وحيدة وسط ذلك المكان!
وبصوت منخفض قال الدليل:

- علينا أن نكون هنا حذرين قدر المستطاع، ومن ثم كل شيء سيكون سهلاً ... عليكم بالسرعة والحذر أثناء المرور أمام هذه الغرفة، حتى لا يستيقظ الجندي أو يشعر بوجودنا ... مفهوم؟

- مفهوم.

حمل المؤمن الكيس الأسود على كتفه ورافقه ثلاثة شبان وماد، مشوا بسرعة من مكان جلوسنا مروراً أمام الغرفة وصولاً إلى إحدى الأشجار التي حددها الدليل ومن ثم الانعطاف نحو اليمين، وبعد عبور المجموعة الأولى بأمان، حان دوري مع العائلة، بدأنا في البداية المشي وحينما اقتربت من الغرفة بدأت في الركض وأنا أضغط على المرسينية حتى لا تصدر صوتاً، نظرت إلى يميني حيث باب الغرفة كان مفتوحاً، فوجدت جندياً نائماً على سرير عسكري، وقد تلحف ببطانية فضية، دققت النظر إلى وجهه فوجدته مغمض العينين، اسفل الحائط الذي خلف سريره اسند بندقيته السوداء وإلى جانبها درع وخوذة، قلت في سري هل هو نائم فعلاً أم يمثل دور النائم حتى نعبر بسلام، وذلك كمساعدة منه ! كانت أصوات الأقدام مسموعة وهي تسير بسرعة بل لا إرادياً تتحول إلى ركض أمام الغرفة فكل واحد منا يريد أن ينتهي من هذه العقبة بأسرع وقت، انعطفت إلى اليمين عند الشجرة المحددة، فوجدت ماد والبقية يقفون بانتظارنا، وبعد قليل وصلت المجموعة الأخيرة بسلام ومن ثم أكملنا المشي وسط مكان كثيف الأشجار تكثر فيه أصوات الحيوانات، حتى أن حيواناً بحجم الكلب قد مر بسرعة على مقربة منا، غير أن الظلام حال دون معرفة نوعه، أجلسنا الدليل تحت مجموعة من الأشجار في مكان يُسمع فيه صوت نقيق الضفادع وجريان الماء ثم طلب منا الانتظار، قام فتح ذلك الكيس الأسود وإذا بقارب مطاطي صغير مطوي بداخله، مع أدوات النفخ، حمل الدليل والمؤمن ذلك القارب وأدواته وابتعدوا عنا، سمعنا صوت عملية ملء القارب بالهواء، جاء الدليل وقال:

- أريد ثلاثة شبان بسرعة.

قمت أنا وثلاثة شبان وماد، طلبت من ماد أن يجلس ويعبر النهر مع المجموعة التالية، حتى إذا ما حصل شيء أثناء العبور تكون الخسارة لشخص واحد من عائلتنا، فجلس دون كلام، انطلقنا أنا والشاب الذي قضى حاجته في العربة وثالث أحد أبناء العائلة، كان القارب موضوع على شاطئ النهر، يجلس المؤمن إلى جانبه منتظراً، دفع الدليل القارب إلى بداية النهر ومن ثم طلب من حامل القارب أن يجلس في المقدمة، جلس وبيده المجداف، ثم جلستُ خلفه ومن بعدي الشابين، أشرف الدليل على جلوسنا وقد أختار الوضعية التي يراها أنها الأنسب، حيث جلسنا خلف بعضنا، كانت الركبة حتى مقدمة القدم ملتصقة بقاع القارب واليدان على كتف الشخص المقابل، ومن ثم دفع الدليل القارب إلى النهر وبدأ المؤمن في التجديف.

أخذ تيار النهر يدفع القارب بقوة ... أصوات التجديف، حركة القارب، رائحة العفن القابع على حجارة وصخور ضفة النهر ... أغمضت عيني مسترجعاً ذلك اليوم، لم أركب في حياتي القارب سوى مرتين، هذه هي المرة الثانية، أما الأولى فكانت في الصيف الثالث من الحرب، فبعد أن أنهيت الامتحانات في مدينة القلعة قررنا أنا وأبي وأمي وأختي الكبيرة أن نعود إلى بيتنا في مدينة المحطة، حينها امتنع ماد عن مرافقتنا لخطورة الطريق، فمدينة المحطة كانت حينها محاصرة تماماً من قبل قوات القمصان السود ولا سبيل للوصول إليها سوى عن طريق اجتياز النهر بواسطة القارب لكن دون أن تعلم قوات القمصان السود بذلك وإلا أطلقوا النار دون رحمة.

اتفق أبي مع مهرب يعمل في هذا الأمر، وفي صباح إحدى الأيام نقلنا المهرب نحن الأربعة بسيارة سوداء من داخل مدينة القلعة إلى إحدى القرى الملاصقة للنهر، جلسنا في إحدى بيوتها بانتظار موعد انطلاق القارب، بعد ربع ساعة جاء شاب وقال إنه سيقود القارب بنا إلى الجهة الثانية من النهر، فنهضنا وتبعناه خلال شوارع القرية إلى ضفة النهر، وفي الطريق شاهدنا رجل مسن يرتدي ثوباً أسوداً فقال للشاب:

- كن حذراً ... منذ قليل مرت دورية للقوات بالقرب من القرية وهي تتجه إلى قرية المقابر.

- أعرف ذلك، لقد ابتعدوا عن هذه المنطقة، أظن أنهم يقصدون السد.

- كما تشاء. ومن ثم أكمل الرجل طريقه.

أسرعنا نحو القارب وقد كان هناك شاب أخر بالقرب منه يحرسه، حينما شاهدنا قام بدفع القارب قليلاً للنهر فأصبح نصفه الأول في الماء والأخر على اليابسة، صعد الشاب الذي رافقنا أولاً إلى القارب وأمسك بمجدافين خشبيين مثبتين على أطراف القارب الخشبي، ثم جلس أبي أمامه وأمي وأختي، وعندما صعدت أخيراً قام الشاب الحارس بدفع القارب إلى النهر ووقف يراقبنا، فيما بدأ الشاب بالتجديف مبتعداً قدر السرعة نحو الضفة الثانية.

حينما أصبحنا وسط النهر تقريباً شاهدت قدوم عربة سوداء لقوات القمصان السود لتقف في نفس المكان الذي انطلقنا منه، أي إلى جانب الشاب الحارس، نزل ثلاثة مقاتلين بلباس أسود وهم يحملون البنادق فيما انطلقت العربة مسرعة نحو إحدى التلال القريبة والتي تشرف على النهر، في البداية أشاروا بيدهم يطلبون منا العودة، أخذ الشاب في التجديف أسرع من ذي قبل وقال بذعر:

- إذا أمسكونا سيقومون بقتلنا فوراً.

لم ينتظروا طويلاً، وبدؤوا بإطلاق النار نحونا، تمددنا في القارب قد الإمكان فيما بقي الشاب جالس وهو يجدف بكل صعوبة وخوف، تداخل أصوات صفير الرصاصات الذي تمر من فوقنا مع الأخرى التي تصيب الماء من حولنا، علت صيحات الخوف مع كل رصاصة تقترب من القارب، أخذت أمي بالدعاء وبعد قليل أصبح الرصاص يمر بعيداً عن القارب إلى أن توقف تماماً بعدما أصبحنا خارج مدى بنادقهم، فجأة جاء صوت إطلاق نار من أعلى التلة، تبعه مرور رصاصة كان لها صفير قوي، أكمل قناص التلة الرمي تجاهنا، لم يطلق سوى أربع رصاصات إحداها أصابت أمي في عنقها وقتلتها على الفور، كل ما اتذكره بعدها أني استدرت لأرى ما الذي جعل أختي وأبي يصرخون بذلك الشكل، رأيت أمي تنظر إلي بعينين مفتوحتين وهي مستلقية دون حراك، لقد سقطت نظارتها عنها إلى قعر القارب حيث اختلطت هناك مع الدماء، حينما وصلنا إلى الضفة الثانية من النهر، قدم لنا أهالي القرية العون، جاء أحدهم بعربته وساعدنا في وضع الجثمان خلفها، جلسنا كلنا إلى جانب أمي، نظرت إلى الضفة التي انطلقنا منها فلم أجد المقاتلين، لقد غادروا وقد أخذوا معهم الشاب الحارس، بعد عدة ساعات من وصولنا إلى المدينة، اتجهنا في جمع إلى المقبرة، حينها كان أبي في حالة انهيار، كنت أنا من أنزل أمي إلى القبر، وقبل أن أخرج وضعت نظارتها المضرجة بالدماء إلى جانبها ومن ثم إنهال عليها التراب.

لقد وجد المؤمن صعوبة في التجديف، كان جريان النهر قوي للغاية، إلى أن توقف القارب على مقربة من الضفة الثانية من النهر، لم نجد مكاناً نقف فيه حيث تعمد جنود هيلاس إلى قطع الأشجار المطلة على النهر ورمي نصفها الأعلى إلى داخل النهر، أما الجذع فقد كان على الشاطئ، وبذلك شكلت حاجز يمنع وصول القوارب المطاطية إلى الضفة الثانية، فتلك الأغصان قد تحولت إلى أشبه ما يكون بالحراب والرماح، والاقتراب منها بقارب مطاطي مغامرة كبيرة.

قرر القبطان تغيير اتجاه القارب نحو الغرب، أي بشكل معاكس تماماً لجريان النهر بحثاً عن موطئ للنزول، لكنه لم يهتدي إلى شيء، حاول أن يدخل بين أغصان شجرتين، كادت إحدى الغصون أن تثقب القارب، وفي نهاية المطاف عاد بنا إلى المكان الذي انطلقنا منه أول مرة، كان الدليل يقف بانتظار وصولنا، وما كاد أن يصل القارب إلى اليابسة، حتى مشى الدليل صوبنا وهو يشير للمؤمن بيده أن يقف في مكانه، وعندما وصل قال بكل غضب:

- لماذا رجعت؟

- لم أجد مكاناً أقف فيه ... أليس كذلك يا شباب. وهو يلتفت إلينا.

- كنت أعلم أنك لا تصلح لشيء ... انزل.

ثم صعد هو بدلاً منه، انطلق بنا وبسرعة إلى المكان المناسب، وهو فراغ بين شجرتين وعلى الفور أنزلنا وطلب منا أن نجلس صامتين، ثم عاد بالقارب ليأتي بالبقية، وعندما وصل الجميع شعرنا بنوع من الحماس والفرح بعدما اجتزنا المرحلة الأصعب على الإطلاق، تكلم الدليل بصوت منخفض وسط ذلك الظلام وقال:

- نحن الأن في هيلاس ولم يتبقى سوى القليل، سنمشي إلى أول قرية حيث العربة بانتظارنا ... كل ما هو عليكم فعله الآن هو الإسراع قدر الإمكان.

وتحسباً لأي طارئ أخرجت الكاميرا من جيب بنطالي وثبته عن طريق الجورب بساقي، أما الهاتف فقد بقي في جيب البنطال، ومن ثم انطلقنا واجتزنا الأشجار الكثيفة، تلاها أراض مزروعة بالقرب منها سكة حديد، ومن بعيد ظهرت مصابيح بيضاء وأصوات كلاب، إذن أصبحنا على مقربة من القرية والتي منها وبواسطة العربة سنكمل إلى عاصمة هيلاس، اقتربت من ماد وقلت له:

- اخرج هوية اللاجئ وارمها، سأفعل ذلك الآن.

- لماذا؟

- إذا وجدوها معنا سيعيدوننا إلى الأناضول، هكذا سمعت.

رميت هويتي في الحقل ومن ثم رمى ماد هويته أيضاً، اتخذ الدليل الذي يسير أمامنا طريقاً من بين الأشجار، أصبحت الرؤية معدومة تقريباً وقد زاد الليل الحالك من ذلك مما اضطررنا أن نمشي في رتل متقارب يكاد أن يلتصق فيه الشخص بالذي أمامه، كانت بعض أضواء القرية تظهر من بين الأشجار بين الفينة والأخرى، أما أصوات الكلاب فقد أخذت ترتفع كلما تقدمنا أكثر، فجأة سمعنا صوت تلقيم سلاح ثم أضاء مصباح يدوي بضوء أبيض قوي وقد سلط علينا، نادى علينا شخص غاضب بكلمات لم أفهم منها شيء، ثم اقترب من الدليل وأخذ الهاتف من يده ولكمه على وجهه، وقال بلغة إنجليزية ركيكة:

- اجلسوا في مكانكم. وهو يشير بمسدسه نحو الأرض لنجلس، ثم كرر كلمة اجلسوا بعدة لغات أخرى من بينها لغة الأناضول.

أبقى ضوء ذلك المصباح علينا، وقد كان قوياً لدرجة أني وضعت يدي أمام عيني متجنباً إياه، كان يرانا ولا نراه وهو يقول بصوت منخفض جمل قصيرة يبدو من نغمتها أنه تمكن بمفرده من الإمساك بالمجموعة، ارتفع صوت تحريك المسدس وهو يضعه في غمده إلى جانبه ومن ثم أخرج جهاز الاتصال اللاسلكي، وبدأ يتكلم مع أحدهم بصوت منفعل وكأنه اصطاد صيداً ثميناً، وحينما أنهى الاتصال عاد مجدداً ليحرك الضوء بيننا وكأنه يبحث عن شيء وهو يتكلم، لم يستمر الأمر طويلاً بعد ذلك الاتصال حتى سمعنا أصوات خطا مسرعة نحونا، وعندما أصبحوا بالقرب منا حتى قاموا بدورهم بتشغيل مصابيحهم اليدوية، كانا جنديين اثنين مسلحين ببنادق رشاشة، بدآ بتفتيش المكان من حولنا وقد ابتعدا قليلاً إلى أن عادا، تكلم أحد ذلك الجنديين مع الجندي الذي ألقى القبض علينا بجمل قصيرة وكأنه أعطاه تقريراً عن عملية البحث التي قاما بها ومن ثم توقفا بصمت إلى جانبنا، اتجه إلينا الجندي وأخذ يتكلم معنا وهو يحرك المصباح، لم نفهم منه شيء، حينما وجد أنه لا نتيجة من ذلك، طلب منا أن ننهض ونتبعه وذلك عن طريق الإشارة باليد، فنهضنا وتبعناه ومن خلفنا الجنديان المسلحان.

لا صوت غير أصوات المشي على الطين وبكاء بعض النساء وكلاب القرية، إحداهن كانت تبكي بشكل يدعو للأسى، إلى أن وصلنا إلى مدخل القرية، والتي كان من المفترض أن نصلها دون أن يلقى القبض علينا، لنكمل طريقنا إلى العاصمة ومنها إلى

الدولة التالية، وفي أول شارع معبد وأمام عربة بيضاء أجلسنا الجندي على الأرض في مجموعتين، الشبان والرجال إلى اليمين والنساء والأطفال في مجموعة بالقرب منا، وقف الجنود الثلاثة أمام تلك العربة ذات الدفع الرباعي وعلى بابها الأيمن شعار دائري بالأزرق والأبيض بداخله كتابات بلغة هذا البلاد، عن طريق مصابيح إضاءة الشارع تمكنت من رؤية الجنود الثلاثة والملفت أنهم كانوا في العقد الرابع من العمر، أما الذي ألقى القبض علينا كان يرتدي جزمة سوداء وبذلة زرقاء، أما الجنديان فكانا يرتديان بذلة الجيش مع بنادق رشاشة خضراء داكنة.

بقي الجنود يتكلمون فيما بينهم ومصابيحهم موجهة إلينا، إلى أن جاءت عربة ثانية ترافقها شاحنة صغيرة زرقاء، وهي مغلقة من الخلف بصندوق مربع من الحديد محكم الإغلاق، نزل من العربة الثانية جندي طويل للغاية، يرتدي بذلة سوداء وقناعاً يغطي كامل رأسه سوى فتحتي العين، لم تكن تحمل بذلته أي إشارة أو رتبة، نزل وبيده اليمنى هراوة سوداء واليسرى جهاز اتصال لاسلكي أسود، تقدم نحونا وسأل بلغة إنجليزية مفهومة:

- من منكم يجيد الإنجليزية؟ قالها وهو غاضب.

رفعت يدي، ولابد أن أفعل ذلك، فحينما ينعدم التواصل بين اللاجئ والجندي، يصبح هذا الأخير أكثر عنفاً، أشار بواسطة الهراوة أن أنهض واتجه إليه، وحينما وقفت إلى جانبه قال لي:

- اسمع، عليك أن ترجم كل ما أطلبه منك.
- حاضر.
- على الجميع أن يسلم أجهزة الهاتف.

ومن ثم اتجه إلى الجندي صاحب البذلة الزرقاء وقال له شيئاً ما، مما جعله يدخل العربة ويخرج منها كيساً أسوداً صغيراً، اقترب منا الجندي مع الكيس وبدأنا بوضع الهواتف بداخلها، ابقيت الكاميرا في مكانها ولم اسلمها، عندما انتهى الجميع من التسليم، طلب المقنع من مجموعة الشباب والرجال أن ينهضوا من مكانهم وأن يبقوا واقفين، ومن ثم اقترب صاحب البذلة الزرقاء وبدأ في تفتيشنا بشكل سريع، وقد كنت أول من فتش، لحسن حظي أنه لم يعثر على الكاميرا، وحينما أنتهى من التفتيش عاد للعربة مجدداً وأخرج جهازاً أسوداً بحجم المسطرة المدرسية، طولها حوالي ثلاثين سنتيماً، وطلب

الجندي المقنع من النساء أن ينهضن، فترجمت ذلك، ومن ثم بدأ يفتشهن عن طريق ذلك الجهاز وذلك بتمريره أمام أجسادهن، حينما مرره أمام المرأة أم الطفل الصغير أصدر الجهاز طنيناً، فأشارت إلى قلادة ترتديها، فأكمل الجندي التفتيش دون أن يعير اهتماما لذلك، وحينما انتهى تفتيش الجميع وقف الجندي المقنع ينظر إلينا وهو يفكر في شيء ما، لفت نظره المرأة الحامل والتي كانت تبكي بنفس الشدة لحظة إلقاء القبض علينا، اتجه الجندي إلي وقال:

- اسألها لماذا كل هذا البكاء؟

أجبته مباشرة:

- إنها خائفة.
- أها ... خائفة! قالها بنوع من السخرية.

اتجه صوبها وقد ثبت جهاز الاتصال على نطاقه، وعندما أصبحت يده اليمنى فارغة أخذ يرسم بأصابع السبابة والوسطى صورة شخص يمشي وقال:

- مشيتي كل تلك المسافة، وقد تجاوزت نقاط تفتيش الجيش والغابة بحيواناتها والنهر، لم تخافِ! وحينما أصبحت بين يدي جنود مسالمين بدأت تبكين من الخوف!

أخبرت المرأة بذلك، لكنها استمرت بالبكاء، عاد والتفت إلي الجندي وقال:

- ضع أنت وأحد الشبان حقائبكم خلف العربة المرافقة للشاحنة.

ففعلنا، ومن ثم طلب منا الجلوس مع المجموعة، أشار صاحب البذلة الزرقاء إلى الدليل ومن ثم قال كلاماً للجندي المقنع، طلب هذا الأخير من الدليل أن ينهض من مكانه ويأتي إليه، نهض الدليل وهو يدري أن شيئاً ما سيحدث له، وعندما وقف بالقرب منه بذعر، عاد الجندي صاحب البذلة الزرقاء بالتكلم مع المقنع، والذي بدوره أخذ ينظر إلى الدليل وهو يحرك الهراوة، في تلك اللحظة زاد خوف الدليل وهو ينظر إلى عيون الجنود بذعر كبير، رسم له الجندي المقنع إشارة تفهمه أن يأتي بحقيبته من خلف العربة، فذهب وأتى بها، أخذها صاحب البذلة الزرقاء وفتحها وأخرج منها علبتي بسكويت وعبوة معدنية سوداء تحتوي على مشروب للطاقة، وقال كلمات للمقنع وهو يشير إلى تلك الأطعمة ومن ثم قام بتوزيعها على النساء، وقد أعطى

المرأة التي تبكي علبة بسكويت، يبدو أنه أفهم قائده أن هذا الشاب هو الدليل، وهذه الأطعمة كانت مخصصة لطريق عودته حينما يقوم بتسليمنا إلى العربة التي ستنقلنا إلى العاصمة، ومن ثم يعود من نفس الطريق الذي جاء منه.

فجأة وجه الجندي المقنع ست ضربات من تلك الهراوة إلى ظهر و كتف و ذراع الدليل ، وقد نادى هذا الأخير متألماً، أتى صاحب البذلة الزرقاء بعصا يصل طولها لمتر تقريباً، وأكمل ضرب الدليل، صاح بكل طاقته متألماً، أنا متأكد أن كل أهل القرية قد سمعوا صوته ذلك، حينما تأكد المقنع أن الدليل قد نال نصيبه من الضرب، أشار للجندي الأخر أن يتوقف عن الضرب ومن ثم طلب من الدليل أن يعود ويجلس في مكانه، نهض من الأرض بصعوبة بالغة وهو يئن من الألم، عاد ببطء إلى المجموعة، اقترب المقنع من مجموعتنا وأشار إلى أصحاب الذقون أي المؤمن ووالد الطفل والشاب الذي قضى حاجته في العربة أن ينهضوا ويقفوا إلى جانب العربة الثانية، ففعلوا ذلك وهم خائفين أن ينالهم ما أصاب الدليل، أخرج الجندي المقنع من العربة هاتفاً أبيضاً، وبدأ بتصوير وجوههم، صورة من الأمام وأخرى للجهة اليمنى من الوجه، ومن ثم أمرهم بالعودة و الجلوس بيننا دون أن يفعل بهم شيئاً.

قام صاحب البذلة الزرقاء وبأمر من المقنع بفتح الباب الخلفي لعربة النقل الزرقاء، وأمرنا بالصعود إليها، وقد سلط ضوء مصباحه إلى داخل العربة، صعدنا إلى داخلها عن طريق تسلقها، لم تكن مرتفعة، لهذا كان الأمر مقدور عليه حتى على النساء، كان في الداخل صفين من المقاعد الخشبية المثبتة على الجهة اليمنى واليسرى من ذلك الصندوق الحديدي، وحينما جلست على الجهة اليسرى مع الشبان والرجال، أردت أن أضع قدمي تحت المقعد، اصطدمت قدماي بشيء صلب، دنوت برأسي لأرى ما هو ذلك الشيء، وعلى ضوء المصباح المسلط إلى الداخل وجدت أربعة عبوات مياه، واحدة من الحجم الكبير وثلاثة متوسطة الحجم وهي ممتلئة بسائل بني اللون، يبدو أن الحجز داخل هذه العربة قد طال ببعضهم حتى أنهم لم يتحملوا الانتظار لقضاء حاجتهم في الخارج. أغلق الجندي الباب الخلفي، فأظلم الداخل حتى انعدمت الرؤية تماماً، قال الدليل بصوت ضعيف:

- الأن سينقلونكم إلى إحدى المخيمات، هناك وبعد أخذ المعلومات سيعيدون لكم الهواتف والحقائب ومن ثم التوزيع على المخيم.

أخذ الجنود يتكلمون فيما بينهم، تخلل ذلك اتصال عن طريق الجهاز اللاسلكي، حيث تكلم المقنع مع أحدهم حول موضوع ما، ابتعد الجنود لكنهم مازالوا يتكلمون بين الفينة والأخرى، وبعد حوالي ساعة من ذلك، قاموا بتشغيل جميع العربات، واتجهوا بنا إلى مكان ما، سرعان ما سلكوا طريقاً ترابياً اهتزت معه العربة بعنف ومن ثم توقفت، فتح أحد الجنود المسلحين بالبنادق الباب، وطلب منا أن ننزل، نزلت النساء أولاً ومن ثم تبعناهم، خارج العربة كان هناك أربعة جنود معهم صاحب البذلة الزرقاء وبيده عصاه الطويلة، وإذا بالمكان هو ضفة النهر، كان يقف هناك قارب مطاطي أسود اللون مزود بمحرك يعمل بالوقود بداخله يجلس جنديان، الأول لقيادة القارب والثاني حارس له، كان صاحب البذلة الزرقاء المشرف على كل شيء، طلب منا أن نجلس إلى جانب بعضنا على الشاطئ، سحب الجندي حبلاً رفيعاً من محرك القارب، فأقلع مصدراً صوتاً قوياً، كنا حينها في بداية الصباح والطقس بارد للغاية، لقد طلب أولاً من النساء حمل حقائبهن من العربة ومن ثم الجلوس في القارب، قاد الجندي القارب إلى الجهة الثانية من النهر، أي من حيث انطلقنا أول مرة، وبعد إعادة مجموعة النساء إلى أرض الأناضول عاد القارب فارغاً، طلب منا كذلك أن نأتي بحقائبنا، ونصعد القارب، ففعلنا وقبل أن يصعد الدليل، وجه له الجندي مجدداً حوالي خمسة ضربات من عصاه، أخذ يصيح فعاد وضربه واحدة إضافية داعياً إياه إلى صعود القارب وقد أعطى الكيس الأسود الذي بداخله الهواتف للجندي الحارس للقارب، وفيما نحن وسط النهر في طريقنا إلى الجهة الثانية أمسك الجندي الحارس بالكيس ورماه في النهر، لم يكن بإمكاننا قول أو فعل شيء، توقف على مقربة من الشاطئ وأمرنا بالنزول، نزلنا بسرعة وقد امتلأت أحذيتنا بالماء، لننضم إلى حيث النساء يقفن، عاد القارب من حيث جاء، نزل الجنديان من القارب وقد أبقياه على الشاطئ ثم اتجه جميع الجنود نحو العربات، عندما ابتعد الدليل من النهر إلى اليابسة سجد راكعاً ومن ثم نهض وهو يرفع يداه نحو السماء بسعادة ملحوظة وقال:

- الحمدالله لقد نجوت، يا إلهي لا أعرف كيف أشكرك.

لقد كان محظوظاً هذا الغر، عادة إذا ما ألقي القبض على أمثاله يودعون بالسجن لسنوات طويلة بتهمة الإتجار بالبشر، لعل الشيء الذي تستفاد منه هيلاس من سجنهم هي التقليل من حركة اللاجئين وذلك بسجن أكبر عدد ممكن من الأدلاء، فجأة أخذه المؤمن من تلابيبه، فصاح متألماً:

- هون عليك يا أخي ... ماذا تريد مني؟

- أنت السبب فيما جرى لنا.

- اتركني أولاً حتى أتمكن من الكلام.

تركه المؤمن، وقال:

- يا إلهي ... كيف لك أن تستخدم هاتفاً أثناء الطريق!

- هذا صحيح ... لقد كان الليل حالكاً واختلط عليَّ الطريق.

- عذر أقبح من الذنب ... لقد جعلتني أرزح تحت ذلك الكيس الثقيل طيلة الطريق.

- مقابل أن أخرجك من هيلاس إلى الدولة التالية.

- وماذا سنفعل الآن؟

- سنمشي إلى الطريق العام، لنرى إذا ما وافق أحدهم على نقلنا إلى العاصمة لقاء المال.

بهذه السهولة قد أرسلنا جاد مع دليل غر لا يعلم أساسيات عمل الدليل، ناهيك عن طول الانتظار وقطع تلك المسافة من الميناء إلى العاصمة، ومن العاصمة إلى قرب الحدود، ومشي تلك المسافة!

سرنا في مجموعة بمحاذة الأشجار المطلة على النهر، ومن ثم انتقلنا إلى طريق ترابي عليه أثار عجلات، حينها كنا في ساعات الصباح الأولى وهو موعد عمل المزارعين، مر جرار يقوده رجل كبير في السن، وقد كان الجرار يقطر خلفه عربة فارغة كبيرة رفعنا يدنا طلباً للمساعدة، مر الجرار بالقرب منا والسائق ينظر إلينا ويبتسم، أشار الدليل أن ننعطف يساراً، وما إن انعطفنا وإذا ببرج دائري الشكل مبني من الإسمنت تابع لجيش الأناضول، كان يبعد عنا حوالي مئة متر، سرنا إليه مستسلمين فلا مجال للهرب، عندما أصبحنا على مقربة منه خرج منه جندي مسلح ببندقية وهو يعدو صوبنا، تلاه جنديان أخران، وحينما وصل الجندي الأول سأل:

- لقد أرجعوكم؟

أجاب الرجل صاحب الأسرة:

- نعم، منذ ساعة تقريباً.

- هل هناك أحد سواكم؟

- لا، فقط نحن.

يبدو أنه لم يصدق ذلك، أخذ يعدو مجدداً في الطريق الذي سلكناه بينما رافقنا الجنديان إلى المرصد دون أن يظهروا أي تعابير سواء أكانت غضباً أو تعاطفاً، طلبوا منا الجلوس أسفل المرصد ثم وقفوا في حراستنا، إلى أن جاءت عربة نقل عسكرية بداخلها أربعة جنود وكلب بني ضخم من نوع " الراعي " نقلتنا العربة العسكرية إلى إحدى مراكز الاحتجاز داخل معسكر صغير للجيش، ففي وسط المعسكر كانت هناك غرفة بيضاء مصنوعة من الحديد طولها سبعة أمتار وبعرض مترين، وبعد تفتيش سريع وأخذ للمعلومات وضعنا بداخلها، وقد أصبح عددنا داخل ذلك المكان حوالي الأربعين، بقينا أسبوعا واحداً في الحجز دون أي مبرر لذلك، نأكل مما نشتريه بمالنا، وفي بعض الأحيان يأتي الجنود بطعام قد زاد من غدائهم، لا شيء خلال تلك الفترة يستحق الذكر سوى حادثة واحدة، ففي إحدى الأيام فتح جندي الباب وطلب منا نحن الشبان والرجال أن نخرج إلى الساحة، حيث قائد المعسكر وهو برتبة نقيب كان ينتظرنا مع عدد من الجنود، بدا لطيفاً للغاية في تعامله معنا، سأل عن أحوالنا وهل نحن راضين عن سلوك جنود المعسكر، ثم سأل عن عمل كل واحد فينا، ولماذا لا نستثمر هذه الأموال المخصصة للهجرة لفتح مشاريع في الأناضول، لم يهتم كثيراً للإجابات، إنما اكتفى بالابتسامة و حرك رأسه موافقاً، من ثم قال:

- بإمكاني أن أجد لكم عملاً جيداً.

- ما هو؟ قال الجميع بصوت واحد.

- أن تنضموا إلى " القوات الحليفة " لنا. وهذه القوة تضم شباباً من بلادكم ...ما رأيكم؟

تململ أغلبنا لهذا الاقتراح وأجاب المؤمن قائلاً:

- لقد قاتلت قوات الطاغية لسنوات كثيرة وأظن هناك من الحاصرين قد فعل مثلي، أليس ذلك كافياً!

- لماذا لم تكمل القتال؟

- لقد مالت الكفة لصالحه، حتى بات من الخطر التواجد في البلاد.

- اسمعوا أيها الأخوة، الانتساب لا يعني فقط حمل السلاح والقتال، إنما هناك أعمال غير قتالية قد تناسبكم، ناهيك عن التسهيلات التي ستحصلون عليها في الأناضول.

حينما لم يسمع إجابات تعجبه، قرر المغادرة، وقبل أن يغادر قال:

- فكروا ملياً بالأمر، ومن أراد الانتساب فليأتي إلى مكتبي.

وقد أشار إلى غرفة تقع في شمال المعسكر، في اليوم السابع جاءت حافلة بيضاء يقودها سائق شاب بثياب مدنية إلى المعسكر وقد توقفت بالقرب من غرفتنا، جاء جندي وبيده قائمة تضم أسماءنا، وقال:

- كل من يسمع اسمه عليه الصعود إلى الحافلة.

وبدأ يقرأ الأسماء، صعد أغلب المتواجدين، فيما أبقوا على مجموعة من الشبان، تم نقلنا إلى مركز أمني مخصص لقضايا اللاجئين في مدينة " أدنا " القريبة من المعسكر، للمركز ساحة واسعة محاطة بجدران مرتفعة عليها أسلاك شائكة تماماً مثل السجون، وعلى اليمين مجموعة من الغرف، توقفت الحافلة وسط الساحة دون أن يفتح أبوابها إلى أن جاء رجل بلباس مدني مسلح برشاش أسود قصير من إحدى تلك الغرف، طلب منا النزول والوقوف في صف واحد خلف بعضنا، جاء رجل بدين أصلع يحمل كاميرا تصوير بيده، بدأ في تصويرنا بسرعة صوراً شخصية وحينما انتهى أخبر بذلك المسلح، الذي قال لنا بدوره:

- الآن ستدخلون لتبصموا على تعهد أنكم لن تعيدوا محاولة الخروج من البلاد بطريقة غير شرعية، علماً أنه من يكرر المحاولة ويلقى القبض عليه، سيتم ترحيله مباشرة إلى بلاده.

أدخلنا إلى غرفة بها حاسوب وإلى جانبه جهاز أبيض مربع الشكل، خلف الحاسوب رجل مسؤول عن أخذ بصمة إبهام اليد اليسرى، بعد أخذ البصمات تجمعنا مجدداً في الساحة وقال المسلح:

- الآن أنتم أحرار، هذه الحافلة ستنقلكم إلى العاصمة، لكن عليكم أن تدفعوا ثمن الرحلة.

الدفع ومن ثم الصعود، وبعد عدة ساعات عدنا مجدداً إلى العاصمة، خلال فترة التواجد في الحجز، تعرفت أكثر إلى " نادو " وهو نفسه الشاب الذي قضى حاجته في عبوة المياه داخل العربة، قضيت معظم فترة الحجز بالكلام معه وبشكل أقل مع البقية، فبعد أن توقفت الحافلة وسط العاصمة، استلقينا سيارة أجرة نقلتنا أنا وماد ونادو إلى المسكن الذي يقطنه صديقنا هذا إذ لم يعد بإمكاننا العودة إلى القبو فقد انقضى الشهر.

جلس نادو إلى جانب السائق وبدأ يرشده إلى مكان سكنه:

- إلى شارع الوطن .... ذلك الشارع الذي في أوله دكان لبيع الأسماك ... إلى اليسار ... الشارع الثاني ... انعطف يميناً ... هل التدخين مسموح في سيارتك؟

- نعم مسموح.

- توقف مقابل ذلك المطعم الصغير ... كم الحساب؟

نظر السائق إلى العداد وقال: " خمسون كما هو ظاهر على العداد.

دفع صديقنا الأجرة ومن ثم نزلنا مقابل ذلك المطعم لنشتري طعاماً منه، كان الحي بأبنية قاتمة وشوارع متفاوتة، منها العريضة وأخرى أضيق منها، بدا وكأنه مبني على تلة، فالشوارع تأخذ منحاً مرتفعاً، معظم سكان هذا الجزء من الحي بلباس العمل وهناك حركة كثيفة للدراجات الهوائية و النارية بعضها مزودة بصندوق خلفي لنقل الطعام، حينما دخلنا المطعم لشراء الطعام، أثار مظهرنا انتباه البائع والزبائن الجالسين، ولم يكن مستغرباً ردة الفعل تلك، فلم نستحم منذ أن كنا في القبو، والأكثر من ذلك أن ثيابنا ما تزال متسخة رغم محاولتنا إزالة ما علق بها أثناء الرحلة، بعد شراء الطعام خرجنا من المطعم واتجهنا نحو بناية مبنية من الطوب البني لها نوافذ مزودة بمشابك من الحديد الأسود الصدأ، قال نادو محذراً:

- هيا بنا إلى الداخل، قبل أن تمر دورية للدبابير الحمر.

والدبابير الحمر مصطلح يطلق على نوع من الدوريات الخاصة التابعة للدرك، يرتدي أفرادها ثياباً ما بين الاحمر والأسود، يستقلون دراجات نارية سوداء، عادة تتألف الدورية من ثلاث دراجات، كل دراجة عليها عنصران يرتديان الخوذ السوداء وهي لا تكشف شيئاً عن وجوههم، والويل لمن يقبضون عليه مخالفاً، سواء أكان من سكان البلاد أو لاجئاً، حيث لهم طرقهم السادية في التعامل مع المخالفين ... لم نعد أنا وماد نحمل هوية

اللاجئ بعدما قمنا برميها في إحدى حقول هيلاس، لم يكن معنا سوى جوازات السفر وهي لا تحمل أي ختم لدخول البلاد.

صعدنا درج تلك البناية، كالعادة لا مصابيح هناك ولا هواتف معنا، كانت أبواب الطابق الثاني كلها مفتوحة وظهرت منها ماكينات الخياطة وقطع من الأقمشة، كانت الإضاءة قوية بالإضافة إلى أصوات أغان مرتفعة للغاية، قال نادو بعدما تجاوزنا ذلك الصخب:

- هذه بناية عمالية، شققها عبارة عن ورشات خياطة والطابق الرابع للسكن، يسكن فيه بعضاً من عمال هذه الورشات والبعض يأتي من أماكن أخرى.

كذلك كان الأمر مع الطابق الثالث، وفي الرابع توقفنا أمام من الحديد، لم نكن نرى شيئاً تقريباً إنما نسير خلف نادو وهو يعتمد على الذاكرة، طرق الباب، فلم يستجب أحد أعاد طرق الباب بقوة وبشكل متواصل، وحينما توقف، قال:

- آمل أن يكون هناك أحد في الداخل. بعد عشر دقائق من المحاولات المستمرة فتح الباب شاب قد استيقظ لتوه من النوم، نظر إلى صديقه متعجباً صامتاً، ومن ثم قال:

- أراك هنا! ... ألم تسافر؟

- سافرت وعدت ... القصة طويلة.

- تفضلوا ادخلوا.

- هل الغرفة مازالت شاغرة؟

- نعم، ليس هناك أي مستأجر جديد.

- جيد.

- تعالوا معي، علينا أن نبقى في غرفة واحدة ... ذلك أفضل.

أخذنا إلى غرفة بالقرب من باب البيت، وهي تضم أربعة أسرة من النوع المزدوج، أي سريرٌ فوقه أخر، وفي صدر الغرفة رف يحتوي على علب يبدو أنها توابل وأشياء أخرى وطباخ يعمل عن طريق الكهرباء موضوع على الأرض، أما الجدار المقابل لباب الغرفة فهو يحتوي على شباك متوسط الحجم يشرف على الشارع، ومن بعيد تظهر تلال تقع خارج العاصمة.

لقد طار النوم من عيني ذلك الشاب فدخل معنا إلى الغرفة وجلس على السرير السفلي الذي يقع على يسار الباب وأخذ يقول لصديقه:

- أخبرني يا أخي ماذا حدث معكم؟
- الآن أنا متعب، سأخبرك لاحقاً، قل لي هل هناك شيء نشربه مع هذه الشطائر؟
- سأعد لكم شاياً.
- أعده بعد أن انتهي من الاستحمام.
- تمام.

ومن ثم نظر إلينا الشاب وقال:

- استحموا بعده مباشرة، لقد اقترب موعد عودة العمال، لن يبقى هناك ماء ساخن حينها.

أكلنا في صمت وبسرعة وبعد الطعام حان وقت النوم، تمددت على السرير، نعم كان بأغطية قذرة لكن على الأقل صار بإمكاني النوم بالشكل الذي أرتاح فيه، أمد ساقي أو أثنيها، أستدير بالاتجاه الذي أريد، هذا ما كنا لا نجده داخل تلك علبة السردين خلال فترة الحجز، أغلق ماد الباب والشباك ومن ثم أطفأ المصباح، عمَ الهدوء المكان فقد حان وقت النوم، كنا متعبين من السفر ومحطمين من الداخل بعد الدخول لهيلاس وإخراجنا منها.

فُتح باب البيت، وارتفعت معه جلبة العمال العائدين لتوهم من العمل، حاولت أن أتغلب على تلك الضجة بوضع رأسي تحت الوسادة، لعلي أستطيع بذلك النوم لكن فجاءة فُتح باب الغرفة، دخل ضوء الممر إلى الداخل، ضغط أحدهم على زر تشغيل المصباح، لم يعد هناك مجال للنوم، ارتفع صوت أحدهم:

- نادو ... عدت مجدداً إلينا.

تبعه المعزون والشامتون، جميع العمال دخلوا إلى الغرفة ليفهموا ماذا جرى لنادو ولماذا عاد!

- قم يا أخي، لا تمثل دور النائم.
- انظر إليه كم هو ذابل الوجه.

- تريد أن تترك هذا النعيم وتسافر؟

- أخبرتك أنه لا طريق الآن، لكنك لم تسمع.

- يكفي يا أخوان ... نريد أن ننام. صاح نادو.

- جئنا لنطمئنا عليك ... هل ضربك الجنود بعنف؟

أجابهم نادو متأففاً:

- يا إلهي لقد عدت مجدداً لرؤية هذه الوجوه ... رجاءاً اخرجوا من الغرفة، اريد وأصدقائي أن ننام، هم أيضاً كانوا معي في الرحلة.

استدار البعض منهم ونظر إلينا، قال أحدهم:

- الحمدالله على السلامة.

حينما رأوا الغضب على وجوهنا، بدؤوا بالخروج من الغرفة وقد وعدهم نادو أن يسرد لهم غداً كل ما حصل بالتفصيل، أغلق خلفهم الباب ومن ثم أطفأ المصباح لننام.

في صباح اليوم التالي وفيما يرتدي ماد لباسه سألني:

- هل هناك شيء أخر أشتريه من الدكان؟

- لا، فقط هاتف واحد لنتدبر به أمرنا.

ومن ثم اتجهت بالكلام إلى نادو والذي بدوره كان جالساً على السرير منتظراً أخي أن يجهز:

- هل دكان الاتصالات بعيد من هنا؟

- قرب دكان السمك ... مئة متر.

- أنا جاهز. قال ماد.

- ما إن تشتري الهاتف، اتصل مباشرة بمكتب التأمين وأخبره إننا عدنا للأناضول، على أن تذهب إليه ميلا لتستعيد المبلغ المودع لديه.

ومن ثم أخرجت الصفيحة المعدنية المعلقة حول عنقي وقلت لماد:

- انظر إلى رقم ميلا واحفظه، حتى تتصل بها وتطمئنها.

اقترب مني ونظر إليها ليحفظ رقم الهاتف، ومن ثم قال:

- لقد حفظته.
- إذا نسيت أي رقم منه تذكر ما يلي: عدد أيام السنة الكبيسة – تاريخ أخر هزيمة لبلادنا – مجموع سنوات حكم الديكتاتور الأب. اجمع هذه الأرقام والتواريخ ستحصل على رقم ميلا.
- تمام.

بعد أقل من ساعة عادوا وقد اشترى ماد هاتفاً أسوداً قديماً بعض الشيء وقال:

- هذا أرخص ما وجدت ... لقد اتصلت بميلا وأخبرتها أننا فشلنا في الوصول لهيلاس، كانت المسكينة تبكي وقالت إن القلق لم يفارقها طوال الفترة الماضية، وكلما اتصلت هي على جاد، كان يخبرها إننا في إحدى مخيمات هيلاس.
- هل اتصلتَ به؟
- نعم، لقد أشفيت غليلي وشتمته قدر المستطاع، وبعد المكالمة أرسلت له رسائل الشتم، حتى صرفت على ذلك نصف الرصيد.
- ومكتب التأمين؟
- أخبرته أننا ما نزال في الأناضول، لقد أجابني أن المال مازال محفوظ لديه.
- جيد ... اين نادو؟
- في الورشة التي في الأسفل، يتكلم مع صديقه ... ماذا قررت؟
- أن نعيد التجربة، لعلنا نصل هذه المرة.
- يا أخي اسمعني، دعنا نجرب عن طريق البحر.
- البحر بعيد من هنا، سنجرب من هنا لأخر مرة.
- لقد بصمنا على تعهد ألا نعيد المحاولة، ثانياً الحدود البرية مراقبة بشكل كبير وفرص الفشل أكبر من الوصول على عكس البحر.

- دعنا نفكر في الموضوع ومن ثم نقرر.

- لست مطمئناً لهذا الطريق.

دخل نادو إلى الغرفة وهو يتكلم مع أحدهم بالهاتف، وعندما انتهى سألته:

- ماذا عنك؟ ماذا قررت؟

- لم أقرر بعد، دعنا ننتظر عودة أحد أصدقائي من العمل وهو على معرفة بأغلب السماسرة والمهربين في العاصمة.

- يسكن في هذه الشقة؟

- نعم، لقد زارنا البارحة، حينما يعود من العمل سأطلب منه أن يجلس معنا ويخبرنا بما لديه.

جلس كل واحد منا على سريره، أنا على السرير الأسفل وماد على الذي فوقي وذلك على يمين باب الغرفة، أما نادو فجلس على السرير الأسفل المقابل لسريري، يراسل أحدهم عن طريق الهاتف، وأمامه طاولة عليها صحن صغير بداخله رماد لفائف التبغ، كذلك الأمر بالنسبة لماد فالهاتف لم يفارق يده، أخرجت الدفتر الفضي الصغير وقلم الرصاص وقمت بتسجيل أهم الأحداث التي جرت معنا، حينما انتهيت من ذلك اتكأت على وسادة ورحت أفكر في الخطوة القادمة، انظر إلى الباب بانتظار عودة العامل صاحب العلاقات الواسعة مع شبكات التهريب، بعد أن تجاوزت الساعة السابعة بقليل، بدأ العمال يتوافدون إلى البيت وأثار التعب ظاهرة عليهم، بعد نصف ساعة نهض نادو واتجه إلى البهو ومن ثم عاد وقال:

- قال إنه سيأتي بعد قليل، علينا أن ننتظر.

دخل رجل خمسيني متوسط الطول، يرتدي قميصاً فضياً يظهر خلفه قميصه الأبيض الداخلي مثقوب بثقب كبير وأخر أصغر منه، كذلك يرتدي بنطالاً وجورباً أسوداً، الجورب الذي في القدم الأيمن مثقوب من الأمام يظهر منه جزء من إصبعه الكبير، ألقى التحية مبتسماً ثم قال:

- اسف على الإزعاج ... ليس هناك رصيد في هاتفي، عليَّ أن أجري مكالمة ضرورية، أعطاه ماد الهاتف، قلب الرجل في هاتفه واستخرج الرقم المطلوب

ومن ثم بدأ الاتصال، لم يستجيب الشخص المتصل به، كرر الاتصال لكن دون نتيجة، سألني:

- هل جاء أحدهم بعلبة دواء اليوم؟
- لم يأتي أحد بشيء، فأنا لم اتحرك من البيت.
- غريب، والآن لا يستجيب.
- عليك الانتظار قليلاً ومن ثم المحاولة مجدداً.

جلس على طرف سرير نادو والذي نهض بعد أن كان مستلقياً، فجلس مفسحاً مكاناً للرجل، الذي أبقى الهاتفان في يده وقال:

- أنتم رفاق نادو في الرحلة الأخير؟
- هذا صحيح، كنا سوية من بداية الرحلة إلى أن جئنا إلى هنا.
- لو كان معي المال الكافي، لذهبت معكم ... لكن الأمر بحاجة إلى الكثير من المال.
- نعم، على المرء العمل لسنوات طويلة حتى يجمع ما يلزم من المال، أو أن يبيع بيته أو جزء من جسمه كالخصية أو الكلية حتى يتمكن من السفر.
- لقد حاولت مرة أن أعبر إلى هيلاس لكن المحاولة قد فشلت.
- متى ذلك؟
- منذ سنة أو أكثر بقليل، اسمع القصة ... في إحدى الأيام قررت وصديق لي أن نحاول العبور إلى هيلاس حيث عائلتي في إحدى المخيمات، لكننا عزمنا الذهاب دون الاستعانة بدليل، حتى نوفر قدر المستطاع من المال، اتفقنا مع سائق ليوصلنا إلى إحدى القرى القريبة من الحدود، فعلاً كان السائق صادقاً وماهراً فأوصلنا إلى حيث نريد بسعر مقبول، مشينا إلى النهر، هناك خلعنا ملابسنا ووضعناها في أكياس وربطناها عن طريق حبل حول الرقبة، سبحنا إلى الضفة الأخرى من النهر بدون أي مشاكل، هناك أعدنا ارتداء ملابسنا، حينها أصبحنا في هيلاس، اخترنا مكاناً كثيفاً بالأشجار لنختبئ فيه، ومن ثم اتصلنا بسائق السيارة التي ستنقلنا إلى العاصمة، لكنه لم يرد على الاتصالات في ذلك اليوم، كان هاتفه مغلقاً، بقينا

نحاول إلى عصر اليوم التالي، حيث رد على الاتصال وأخبرنا أنه سينتظرنا غداً صباحاً، لكنه كان كاذباً، عاد وأقفل هاتفه مجدداً ولم يفتحه مطلقاً، وحينما يأسنا من الانتظار والجوع، قررنا الذهاب إلى أول قرية نجدها في طريقنا، لعل أحدهم يأخذنا إلى العاصمة مقابل ما لدينا من مال، حينما اقتربنا من القرية لاحظت رؤية عدد من الفلاحين لنا وهم يعملون في أرضهم، بمجرد أن أصبحنا في القرية حتى توقفت سيارة حمراء، نزل منها ثلاثة عناصر من الجيش بأيديهم هراوات، لقد ضربونا ضرباً مبرحاً حتى أني لم أقوى على النهوض، حملوني ووضعوني في السيارة، التي نقلتنا إلى القارب المطاطي حيث ارجعنا إلى الأناضول.

- ضربوك بعنف، طبعاً ليس هناك احتراما للسن.

- بكل وحشية ... ليس لديهم احترام لشيء ما دمت لاجئاً.

عاد واتصل بالرقم، كذلك لم يرد هذا الشخص على اتصاله، فقال مستسلماً:

- سأعاود الاتصال لاحقاً، عليَّ أن أذهب وأرى ماذا حل بالبطاطا التي أقليها ... تعالوا وتناولوا معي الطعام.

- لا شكراً.

أعاد الهاتف لماد ومن ثم خرج متجهاً إلى البهو، وجدت نادو منشغلاً في الهاتف فألحت عليه أن يذهب ويتكلم مع صديقه صاحب العلاقات الواسعة، نهض وذهب إلى إحدى الغرف وبعد عشرة دقائق عاد ومعه شاب في أواسط العشرينات، يظهر على وجهه أثار التعب والغضب، جلس إلى جانب نادو على السرير، نزل ماد وجلس جانبي، نظر إلينا الضيف متفحصاً وقال:

- صدقاً لو كان معي ربع ما لديكم لما بقيت ساعة هنا.

- أدرك ذلك، عمل طويل وأجر قليل.

- أنا خياط، أعمل في إحدى ورش الخياطة، اليوم ظهراً جاء مدير العمل وطلب منا أن نتوقف عن العمل ونذهب معه، جاءت السيارات وحملتنا، طبعاً نحن لا نعلم إلى أين نذهب وليس من حقنا السؤال حتى، وإذا بنا نقف بالقرب من حقل مزروع بأشجار الزيتون، والمدير يطلب منا أن نبدأ العمل، البعض منا راح يقطف والأخر عليه ان ينقل صناديق الزيتون ... سألت نفسي حينها، هل أنا خياط أم فلاح!

- ألم تدخر شيئاً من أجل السفر؟

- نعم لدي بعض المال وسأعمل عاماً أخراً ... لم يتبقى الكثير.

- لقد أخبرنا نادو أنك على معرفة بأغلب سماسرة مهربي العاصمة.

- ليس أغلبهم ... إنما جميعهم ربما، فمنذ عام وأنا استفسر عن كل الطرق المتاحة وذلك بحثاً عن طريق رخيص.

- هل أخبرك نادو عن محاولتنا السابقة؟

- نعم لقد سمعت القصة بكاملها ... لقد كان دليلكم غير مؤهل.

- بماذا تنصحنا؟

- علي أن أوضح لكم شيئاً، أنا لا أعمل لصالح أي مهرب ولا أروج لهم مقابل المال، كل ما في الأمر أني على اطلاع لأخر أخبار اللجوء وأتواصل معهم لأستفسر عن الأسعار.

- هل برأيك أن نعيد التجربة من الطريق البري أم نجرب عبور البحر، مع الأخذ بالحسبان أننا بصمنا على تعهد بعدم المحاولة مجدداً.

- هنا تكمن الخطورة، فالتجربة القادمة لا تحتمل الخطأ.

- لو كنت مكاني وأردت السفر، فماذا تختار؟

- سأختار طريقاً مازال جديداً، جميع من ساروا فيه وصلوا إلى هيلاس، أخرهم صديق لي قد وصل منذ اسبوع تقريباً ... فما رأيكم؟

بقي ماد صامتاً، وفي صمته أرى عدم قناعته المطلقة بالطريق البري، أما نادو فهو مشغول باللعب بالقداحة الحمراء التي في يده وهو يستمع لكلام الضيف.

- نادو ... ماذا قلت؟

دون أن يرفع بصره أجاب:

- أرى أن نفكر ومن ثم نقرر.

وعلى الفور أجاب الضيف:

- كلام لا غبار عليه ... أما أنا سأذهب إلى غرفتي لأنام ... غداً مساءاً سآتي إليكم مرة أخرى.

في بهو البيت تمدد العمال على فراشهم للنوم، كان المكان مظلم تقريباً سوى من أجهزة الهواتف التي بأيديهم، مما أعطى نوعاً من الإضاءة الخفيفة للمكان، وضعوا فراشهم على تلك الأرض السوداء المتسخة، والتي كان عليها طبقة لزجة سوداء من شدة القذارة، تمدد حوالي عشرة أشخاص في ذلك المكان، بالإضافة إلى عدد أكبر من ذلك داخل الغرف الثلاثة التي كانت أبوابها على الجهة اليمنى من البهو، حينها كنت متجهاً إلى المرحاض، فحتى الوصول إلى هناك فأنت بحاجة أن تمر فوق أغلب العمال، كون المرحاض يقع أقصى البهو، مشيت وقفزت وصولاً للحمام، غير أن أحدهم كان في الداخل، قال لي الشاب الذي فراشه بالقرب من الباب:

- انتظر.. الآن سيخرج ... فقد توقفت جميع الأصوات وهو يغسل يده. قالها ومن ثم أكمل مكالمته الهاتفية، نظرت إلى يساري حيث كان الطباخ وعليه قدر اسود، بداخله مقلاة فيه زيت وعلى أطراف الزيت قطع صغيرة، وهي بقايا من البطاطا المقلية، لم يكن أغلب العمال قد ناموا بعد، راقبت الشاب الذي نصحني بالانتظار فوجدته يتكلم مع عشيقته أو زوجته بصوت منخفض للغاية، حتى لا يسمعه البقية، وهو يستخدم السماعات في ذلك، وثد ضع إلى جانبه جهاز الهاتف، كانت الشاشة مضاءة وكتب في وسطها " حبيب قلب " وفي أسفل ذلك مدة الاتصال، وقد اقتربت من نصف ساعة.

- أنت صاحب النظارة ... الواقف هناك.

نظرت خلفي لأرى من المنادي، حرك شاشة هاتفه المضاءة حتى أجد مكانه، فأجبته:

- نعم أراك.

- هل أنت مثقف؟ ... أقصد هل تجيد الكتابة جيداً؟

- ماذا تريد؟

- أيهما الكلمة الصحيحة، تفضلوا أم تفظلوا؟

- الأولى هي الصحيحة.

- متأكد؟ أريد أن أكتبها في رسالة لشخص محترم.

- نعم متأكد.

فجأة فُتح باب المرحاض بهدوء إلى أن وصل إلى فراش الشاب صاحب المكالمة، خرج الذي كان في الداخل ومن ثم قفز، فابتعدت عدة خطوات إلى اليمين مفسحاً له المجال، وقفت في مكانه وقفزت إلى مدخل المرحاض، وعندما انتهيت وفيما أنا وسط البهو متجهاً إلى الغرفة، سمعت أحدهم يتكلم بغضب:

- لماذا أنت غاضبة هكذا يا حبيبتي؟ لا يليق ذلك بإنسان رقيق مثلك، إنما الغضب من صفات الحمير والكلاب، فهل أنت منهم؟ ... نعم ... لن يطول الشيء، قريباً إن شاء الله.

وقبل أن أصل لنهاية البهو خرج صوت من وسط تلك الكتلة من العمال وسألني:

- هل وجدت مهرباً؟

- لم أتخذ قراراً بعد.

- أنا أعرف طريقاً سهلاً ومضموناً.

ومن ثم رفع عن نفسه الغطاء ونهض قائلاً:

- سآتي إلى غرفتكم حالاً.. انتظرني.

وبعد دقائق دخل الغرفة وبيده جواز سفر، جلس إلى جانبي وقال:

- حينما رأيتك لأول مرة تذكرت ابن خالي، فهو يشبهك كثيراً، وهذا جواز سفره.

وقد ناولني جوازاً أحمر اللون تابع لإحدى دول الشمال، فعلاً كان الجواز سارياً يحمل أختام دخول وخروج لعدة دول، لم يهتم أخي ونادو بالأمر مطلقاً، بل ولم يرفعوا أعينهم عن الهواتف، قلبت في صفحاته وسألته:

- كم تريد عليه؟

- أحد عشرة ألف.

- لماذا لم تستخدمه أنت؟

- ومن أين سآتي بهذا المبلغ لابن خالي؟

- اين هو الآن ... ابن خالك؟

- عاد إلى قريته، لم تعجبه الحياة في الشمال ولا هنا، وقد أوصاني أن أبيع له هذا الجواز.

أعدت الجواز له وقلت:

- سأخبرك غداً بالقرار.

- والله فرصة ذهبية لك.

- فعلاً، لكن عليَّ أن أفكر قليلاً، فالموضوع حساس ... كما تدرك مدى التشديد في المطارات.

- فكر وأخبرني.

ومن ثم غادر الغرفة، أطفأت خلفه المصباح لأستطيع النوم، حينما استلقيت على السرير رحت أفكر في هذا البائس، كيف حولته الظروف التي يمر بها إلى تمساح، يريد أن يبعث بي إلى مطار العاصمة الدولي المشدد بجاوز سفر ليس لي، إنما لشخص يشبهني، وهذا الشبيه الأصلع بشارب كثيف قد تجاوز العقد الرابع من العمر تقريباً**!** يدرك جيداً أن فرص النجاة من هذه المحاولة قليلة، لكن الأمر سيان لديه، لن يخسر شيئاً إذا قبض عليَّ وإذا نجحت وعبرت بسلام، سيجني ما قدره أربع سنوات من العمل هنا.

- دارو ... هل نمت؟ " نادى عليَّ نادو.

- ليس بعد.

- إياك وأن تسافر بهذا الجواز المزور.

- لست بهذه السذاجة.

- لقد عرض عليَّ الجواز فيما سبق، وهو يفعل ذلك مع أي شخص ينوي اللجوء.

- كيف تطاوعه نفسه على الكذب، بل هذا أكثر من الكذب ... هل تعلم عقوبة استخدام جواز سفر مزور؟

- السجن لستة أشهر ... غرامة مالية وترحيل.

- مصيبة.

- دمار.

في اليوم التالي تواصلنا مع المهرب الذي أوصانا عليه صديق نادو البارحة، وقد أخبرنا أن نكون مستعدين خلال الأيام المقبلة للانطلاق، قد أجمعنا على اختيار هذا الطريق رغم إحساسي بعدم رضا أخي ماد به، فهو يريد أن يسلك الطريق البحري، لكن إلحاح أبي أن نبقى سوية وأنه " لن يسامح " ماد في حال ابتعاده عن أخاه الكبير ليجازف بنفسه عن طريق البحر، هذا ما جعل ماد أن يجرب الطريق البري معي لأخر مرة، عصراً وفيما أحاول أن أغفو قليلاً، ارتفعت أصوات من الشارع، قفز ماد من السرير واتجه نحو النافذة، ألقى نظرة ومن ثم قال لي:

- يبيعون سترات شتوية، وقد تجمهر الكثير من الأشخاص هناك ... ما رأيك أن ننزل ونرى ما لديهم ... فالطقس قد أصبح أبرد من ذي قبل وأكثر برودة على الحدود.

- موافق هيا بنا.

ثلاث طاولات فضية من الحديد وضعت إلى جانب بعضها، وقف خلفها رجلان في العقد السادس من العمر، أحدهم له لحية بيضاء طويلة، يبدو أنه شيخ، وعلى الطاولات بضع عشرات من السترات الشتوية الخفيفة بألوان مختلفة غير أنها بنفس التصميم، راح حوالي عشرين شخصاً يتفحصون تلك السترات بأيديهم أو يقيسونها، اخترت واحدة سوداء، وحينما أردت أن أسأل ماد عن رأيه بها وجدته منهمكاً هو أيضاً في البحث عن واحدة، وقبل أن أقيس هذه التي بيدي سألت التاجر:

- كم سعر هذه؟

- خمسة وثلاثون ... كل السترات بنفس السعر.

حينما لبستها وجدتها فضفاضة، رأى البائع علامات عدم الرضا فقال:

- بسم الله وما شاء الله، لقد زادتك هيبة.

- كأنها واسعة بعض الشيء!

- مناسبة تماماً ... لا تنسى أنها بخمسة وثلاثين، بينما في دكاكين الثياب لا يقل سعرها عن المئة وخمسين.

- أها، بها عذر ما!

- صحيح، لهذا تبيعه ورشة التصنيع بسعر زهيد.

تفحصت داخل السترة، فوجدت ثقباً بحجم رأس الأصبع في منطقة الظهر، مع ذلك فهذه فرصة جيدة لشراء سترة رخيصة تحمينا من البرد طيلة فترة الطريق، سترة ماد كانت مناسبة عليه وهي سوداء أيضاً، دفعنا للرجل المال وفيما نصعد درج البناية رن الهاتف الوحيد الذي معنا، وقد كان مع ماد، فأخرجه من جيب البنطال وردَّ على المكالمة:

- بخير ... اليوم في أي ساعة؟ ... نعم مستعدين ... تكفي ليوم أو يومين ... تمام ... مع السلامة.

- من المتصل؟

- المهرب ... يقول إن موعد الانطلاق اليوم ليلاً.

- في أي ساعة؟

- لم يحدد ... لقد طلب منا أن نشتري طعاماً يكفينا لمدة يومين كحد أقصى.

- دعنا نخبر نادو، حتى نذهب سوية إلى السوق.

حينما وصلنا البيت، وجدت نادو العاشق مشغولاً بالهاتف، فأخبرته:

- لقد اتصل السمسار بنا منذ قليل.

- كذلك معي.

- إذن قم وارتدي ملابسك حتى نذهب إلى السوق.

- انتظروا قليلاً حتى انهي مراسلة صديقي ... أو بإمكانكم الذهاب وحدكم ... حتى لا تنتظروا.

جلسنا ننتظره حتى أنهى مراسلة " الصديق " ومن ثم ذهبنا إلى السوق بواسطة سيارة أجرة، وليس مشياً، تفادياً من الشرطة، اشترينا أنا وماد أربعة علب من اللحم المحفوظ،

وهو لحم مطبوخ منكَّه بالتوابل، أيضاً كمية من الخبز ما يكفي ليومين وست لترات من الماء موزعة على أربعة عبوات، فيما فضل نادو أن يشتري علب البسكويت والعصائر على الطعام المحفوظ، أيضاً اشترى عبوتي مياه، وفي طريق العودة وجدنا أحدهم يبيع قبعات من الصوف فأوقفنا السيارة واشترينا أنا وماد قبعتين، كلاهما كحلية اللون، في البيت وضعت الماء في حقيبتي، فيما حمل ماد اللحم والخبز، خلال الساعات المتبقية، قمت بدفع جرة السريرين الذي شغلناه خلال الأيام الماضية، أما صاحب جواز السفر فلم أخبره بما قررت فيما يخص السفر عن طريق المطار، سيجد في مغادرتنا للبيت الجواب، وفي الساعة الثامنة مساءاً، اتصل شاب عرف عن نفسه أنه تابع للمهرب ومن ثم طلب منا التواجد قرب متجر يدعى " توريا " وهو قريب من المكان الذي انطلقنا منه في المرة الماضية، لم يكن نادو في البيت لحظتها، أما حقيبته فهي ماتزال على السرير، طلبت من ماد أن يتصل به، وعندما ضغط على زر الاتصال، طلبت أن أتكلم أنا معه:

- أين أنت؟
- في بيت أحد أصدقائي.
- لقد اتصل بنا وطلب منا التواجد حالاً.
- أعلم ذلك، اذهبوا وسألحق بكم بعد قليل.
- كما تشاء.

ومن ثم أغلقت الهاتف، عدنا وتأكدنا أننا لم ننسى شيئاً ومن ثم لبسنا الحقائب وخرجنا من البيت، نقلتنا أول سيارة أجرة وجدناها إلى المكان المحدد، اتصل به ماد مجدداً وسأل عن مكانه حتى نذهب إليه، فطلب منا " التريث قليلاً.

كنت وماد بسترات واسعة، قبعات كحلية وبناطيل مجعدة بها عدد من الثقوب نتيجة الرحلة السابقة، أحذية مغبرة رغم محاولتنا تنظيفها جيداً، هكذا كانت هيئتنا، ولا أعتقد أنه ما من أحد بهذه الهيئة في هذا المكان المعتبر من المدينة، قلت لماد:

- علينا أن نجد مكاناً بعيداً من هنا نجلس فيه.
- فكرة صائبة، أعرف مكاناً مناسباً رأيته المرة الماضية أثناء تواجهنا إلى مكان العربة التي نقلتنا في المرة السابقة.
- أين المكان؟

- تعال معي.

مشينا إلى إحدى الشوارع الفرعية، حيث تقع هناك حديقة صغيرة فيها عدد من المقاعد الخشبية، جلسنا على إحداها ووضعنا الحقائب أسفل المقعد ننتظر مكالمة من الشاب، وبعد ربع ساعة اتصل مستفسراً عن مكاننا ليأخذنا بسيارته إلى نقطة الانطلاق، حدد له ماد المكان، غير أنه لم يستدل عليه، فطلب منا أن نقف بالقرب من مدخل المترو ليأتي إلى هناك، لم يكن ذلك المكان ببعيد، حوالي ربع ساعة من المشي، فانطلقنا إليه بسرعة، وفيما نسير على الرصيف المؤدي إلى المدخل، رأيت أضواءاً حمراء وزرقاء خلفنا وقد انعكست على عدسة نظارتي، طلبت من ماد أن نخفف من سرعتنا قليلاً، وأضف:

- حتى يكون كلامنا واحداً، لقد جئنا من مدينة الميناء إلى هنا بقصد العمل في ورشة خياطة.

أصبحت سيارة الشرطة على يميننا مباشرة أشار الشرطي الذي يقود أن نقف في مكاننا، توقفنا كذلك سيارتهم ونزل من الباب الثاني شرطي يرتدي بذلة كحلية، حينما وصل إلينا سألني:

- الهويات؟

- معنا جوازات سفر.

- أعطوني الجوازات حتى أراها.

أخرج مصباحاً صغيراً وراح بضوءه يقرأ المعلومات الموجودة على الجواز، ومن ثم سلمها للشرطي السائق، الذي بدوره راح يدقق فيها، عاد وطلب منا أن ننزل الحقائب ليفتشها، وقد بدأ بحقيبتي، فوجد فيها عبوات الماء وبعض الثياب وفي حقيبة ماد الطعام، نظر إليَّ وسأل:

- من أين جئتم؟

- مدينة الميناء.

- لماذا؟

- للعمل في إحدى ورشات الخياطة.

- أرى طعاماً معكم!

- اشتريناها قبل قليل حتى نأخذها معنا إلى البيت.

بدأ في تفتيش جيوب البنطال والسترة، لقد تحسس الكاميرا، يبدو أنه ظنها هاتفي، وعندما انتهى من التفتيش ذهب إلى السائق والذي يبدو أنه أعلى منه مرتبة، فسأله:

- ماذا تقول يا سيدي؟

أعاد له السيدي جوازات السفر وبحركة من رأسه دعاه أن نكمل طريقنا، أخذنا جوازات السفر وأكملنا السير بشكل أبطئ من ذي قبل، ابتعدت سيارة الشرطة عنا، وقفنا في المكان المحدد، وفيما أطلب من ماد أن يتصل بالشاب وقفت سيارة أجرة بالقرب منا دعانا سائقها أن نصعد بسرعة، وعلى الفور فتحت الباب وجلسنا في المقعد الخلفي، وانطلقت مسرعة، كان هناك شاب يجلس إلى جانب السائق، سأل السائق:

- ماذا كانوا يريدون منكم؟

- فتشوا وسألوا عن كل شيء.

- لإنهم شكوا بكم.

- لو جئت إلى الحديقة لما حدث ما حدث.

- هناك الكثير من الحدائق هنا، لم استدل على مكانكم.

- إلى أين ستذهب الآن؟

- إلى نقطة الانطلاق ... هل وضعتم المال في مكتب التأمين؟

- نعم فعلنا، ستة آلاف في مكتب تار.

- جيد، الآن ستجلسون في إحدى الحدائق، حينما تأتي الحافلة عليكم الصعود إليها بأسرع ما يكون.

- تمام.

أنزلنا السائق بالقرب من الحديقة ومن ثم غادر، جلسنا على إحدى المقاعد والحقائب أسفل المقعد، كان كل شيء يبدو طبيعياً من حولنا، شبان وعائلات يجلسون على المقاعد، أمهات يلعبن أطفالهن على المراجيح أو أدوات اللعب الأخرى المخصصة للأطفال، ثلاثة

شبان يمشون ببطء ويتكلمون، بقيت أراقب حولي بحثاً عن دوريات الشرطة الراجلة أو التي بالسيارات.

- أتدري ... لقد نجونا من الشرطة قبل قليل. قال ماد.

- أدرك ذلك، لم تكن معنا هوية لاجئ والجوازات ليس عليها ختم الدخول إلى الأناضول، لم يستفسر قائد الدورية عن ذلك.

- كنت أحدث نفسي في تلك اللحظة قائلاً: هل من المعقول أن نرَحل بهذه البساطة! لكننا نجونا.

- لقد تذكرت.. اتصل على نادو واسأله أين هو الآن.. أني أخشى أن يكون قد سمع خبر ما وغيَر رأيه وورطنا بهذا الطريق.

أخرج ماد الهاتف من جيبه واتصل مباشرة:

- مرحباً ... أين أنت؟ ... في السيارة ... طيب نحن في انتظارك.

- يقول إنه في السيارة، ولا يعرف إلى أين يتجه به السائق!

وقفت حافلة بيضاء صغيرة أمام مدخل الحديقة، فتح أحدهم الباب الخلفي، وأعطى إشارة بيده يدعونا إلى الصعود، فجأة أوقفن الأمهات تلعيب أطفالهن، مسكن أيديهم واتجهن بهم إلى مقاعد الحديقة حيث الحقائب، هناك نهض الشبان والرجال وأخرجوا الحقائب المخفية تحت المقاعد، ركض الشبان الثلاثة إلى إحدى الأشجار وحملوا حقائبهم، وبسرعة اتجه كل من في الحديقة إلى الحافلة، لقد سبقناهم أنا وماد ووقفنا خلف كرسي السائق، وصلت الموجة البشرية إلى بوابة الحافلة وبدؤوا الدخول متدافعين، جلسن الأمهات مع أطفالهن على المقاعد فيما الرجال الكبار في السن جلسوا متراصين إلى جانب السائق، أما البقية فجلسنا على أرضية الحافلة حول المقاعد، قمت بالعد فوجدت أننا واحد وأربعين شخصاً ولم يكن هناك سوى خمسة عشرة مقعد، بدا السائق متوتراً منذ بداية الرحلة، اتخذ طريقاً فرعياً، وقد تجنب المرور بالطرق الرئيسية قد المستطاع، قاد خلال تلك الشوارع حوالي ساعة من الزمن، لكننا وجدنا أنفسنا مجدداً أمام الحديقة التي انطلقنا منها، اتصل عن طريق الهاتف بأحدهم وأخذ هذا الأخير يدله على الشوارع التي يجب عليه القيادة خلالها، ومن ثم أنهى الاتصال ورمى الهاتف الأسود الصغير أمامه، حينما اقتربنا من نهاية العاصمة نظرت إلى ساعة رقمية صغيرة بالقرب من مقود الحافلة وقد أصبحت حينها الساعة العاشرة والنصف ليلاً، ظهرت أمامنا حافلتان خلف بعضهما، انضمت إليها

حافلتنا وأصبحت الأخيرة في الترتيب، اتصل السائق بأحدهم وأخبره " لقد انضممت إليهم ".

نظرت إلى بقية الحافلات وقلت في نفسي " ثلاث حافلات، الواحدة منها تحمل ما يقارب الأربعين أو الخمسين شخصاً! لم أكن مقتنعاً أننا سننجح في العبور بهذا العدد الكبير إلى هيلاس دون أن نُكتشف، ففي المرة الماضية كنا مع الدليل سبعة عشر شخصاً فقط ومع ذلك اكتشف أمرنا، فما بالك مع مجموعة يقترب عددها من المئة وخمسين!" لقد ابتعدنا كثيراً عن العاصمة ونحن نتجه نحو الشمال، وفي إحدى مفارق الطرق التي تؤدي إلى بلدة صغيرة حدث مالم يكن متوقعاً، فقد توقفت جميع الحافلات فجأة، لم ينزل السائق ولم يتلقى أو يتصل بأحدهم، لقد كشفت إحدى دوريات الشرطة أمرنا بالصدفة أو عن طريق كمين، طلبوا من الحافلة الأولى أن تتوقف ومن ثم أضاءت مصابيحهم الحمراء والزرقاء الطريق المظلم، لم نكن ندري ماذا يحصل هناك، فالحافلة الثانية تحجب الرؤية، بقي السائق مصدوماً صامتاً، ويداه ما تزالان على المقود، لا يستجيب لأسئلة الرجال إلى جانبه، وقفت أراقب الموقف وأنا مستسلم، لم يبالي البقية لما يحدث في الخارج، بدأت الحافلات تسير خلف سيارة الشرطة، رن هاتف السائق:

- نعم اسمعك ... وماهي النتيجة؟ هل تمزح! ... فقط.. عظيم ... عظيم.

ومن ثم أقفل الهاتف وهو يضحك، حينما سأله رجل ستيني يرتدي نظارة لها عدستان كبيرتان عما يحدث، أجاب:

- لقد دفعوا رشوة قدرها آلفان لعناصر الدورية ... لا أصدق ذلك.

- غريب!

- وأنا أقول كذلك، من الصعب رشوة دوريات الشرطة.

رافقت تلك الدورية المكونة من سيارتي شرطة الحافلات الثلاثة إلى إحدى المفارق ومن ثم توقفت إلى جانب الطريق، فيما أكملت الحافلات طريقها، بعد أقل من ساعة بدأت الحافلة تصدر صوتاً مما جعل السائق يتوتر مجدداً، يبدو أن شيئاً يشغل باله، أمسك المقود ويداه ترتجفان، أخرج مسبحة وأمسكها بيده اليسرى وراح يسبح وهو يقود، توقفت فجأة حافلتنا، فيما أكملت البقية تقدمها، نادى السائق بشكل جنوني:

- لقد تعطلت الحافلة ... انزلوا بسرعة.

نزلنا ونحن لانعرف ماذا نفعل، ثم نزل السائق من الحافلة وقادنا إلى مكان يقع على يمين الطريق بعيداً عن الحافلة المتوقفة وأمرنا أن نستلقي على تلك الأرض الزراعية الطينية ومن ثم عاد إلى حافلته، كان المكان مظلماً وبارداً وعلى الطريق كانت تسير الشاحنات مسرعة رغم قوة مصابيحها إلا أنها لم تكن تصل إلى حيث نجتمع، بعد حوالي نصف ساعة جاءت حافلة فارغة وحملتنا مجدداً إلى حيث مضت تلك الحافلات قبلنا، توقفت الحافلة وأمرنا السائق بالنزول، حينها كان البقية مستلقين على الأرض وهم ينتظرون وصولنا، وما أن نزلنا من الحافلة حتى نهضوا من مكانهم، قام الأدلاء الثلاثة بتنظيمنا على عجل في رتل، ومن ثم بدأنا السير بسرعة مبتعدين عن الطريق قبل أن يكتشف أمرنا من قبل سائقي الشاحنات.

في البداية اجتزنا حقول قد حصدت منذ عهد قريب، يتخللها القليل من الأشجار هنا وهناك وهي غالباً ما تكون مزروعة من قبل الفلاحين ليستظلو بها أثناء الاستراحة، سمعت دليل يقول لأخر:

- لن نتمكن هذه الليلة.

- سنحاول جهدنا ... علينا الانتهاء بأسرع وقت.

بعدها بدؤوا من الإكثار من حثنا بضرورة الإسراع في المشي، أحد الأدلاء وهو الأصغر بينهم، كان لجوجاً، يقترب منا نحن الشبان ويدعونا أن نساعد العائلات في حمل حقائبهم وأطفالهم كونهم سبب التأخير، مساعدة العائلات كان واجباً لدى أغلب الشبان أثناء الرحلة، لكن ما يؤخر وصولنا هو التعب السريع الذي يصيب الجميع، فما أن يسيروا ساعتين أو أقل حتى تصبح سرعتهم أقل، حتى وبعد الاستراحة التي لا تتجاوز عشرة دقائق أو ربع ساعة من الجلوس، فسرعان ما يشعر الشخص بالتعب حينما يبدأ المشي، كون أجسامهم لم تعتد مسبقاً على هذا النوع من التعب البدني المستمر لساعات طويلة، قادونا إلى داخل غابة كانت ذات أشجار مجردة تماماً من الأوراق والتي سقطت وملأت الأرض، سرنا بعيداً في عمقها، دليل يسير أمام الرتل وأخر إلى يسارنا والثالث في المؤخرة، وما أن يسمع هذا الثاني أن أحدهم قد داس على غصن جاف فصدر عن ذلك صوت ناتج عن تحطمه حتى يهرول غاضباً نحو الشخص وهو يطلب منه الحذر قدر المستطاع وعدم إصدار الأصوات، بعد أن أصبحنا بعيداً عن مدخل الغابة طلب منا الأدلاء أن نتوقف، قاموا بتجميعنا في مكان واحد لنجلس في استراحة، نزعت الحقيبة من ظهري لإخراج عبوة ماء، أما ماد فقد أبقى حقيبته على ظهره، استعدادا للنهوض

ومواصلة المشي، فتحت أول عبوة ماء، شربت منها رشفة صغيرة، بللت فيها فمي وحلقي الجافتين، ومن ثم أعطيتها لماد، فشرب كمية متوسطة وأعاد لي العبوة , فهو يعلم أني لم أشرب كفايتي بعد، بدأ الأدلاء المرور على الجالسين والتكلم معهم بصوت منخفض في كلمات سريعات، وحينما اقتربوا من مجموعة شبان مكونة من ثلاثة أشخاص، سمعته يقول : " استراحة حتى مساء الغد "وقبل أن يأتي ويخبرنا، نزع ماد حقيبته ووضعها أمامه، أخرج الخبز وعلبة اللحم، حينها وصل الدليل وأخبرنا ما أخبر به البقية. جلستُ أراقب ماد، سحب مفتاح علبة اللحم الأسطوانية نحو الأعلى، فانتزع غطاءها الدائري وقد كشف ذلك عن دائرة اللحم، ومن ثم عاد للحقيبة وأخرج رغيف خبز قسمه إلى نصفين، أمسكت بهما بكلتا يدي، وبواسطة غطاء العلبة بدأ بإخراج قطعاً من اللحم ووضعها على الخبز، حينما وجد أن الكمية كافية، أعاد الغطاء إلى العلبة فغاصت نحو الداخل، أعاد وضع العلبة والخبز في حقيبته بشكل منظم، فيما أعطيته نصفه لنبدأ بلفها وأكلها، كانت تلك اللقيمات جافة مما أجبرنا على استهلاك كمية إضافية من الماء حتى نتمكن من بلعها و بعد الانتهاء من تلك الوجبة بدأ الاستعداد للنوم، أبعدت بعض الحجارة من حولي، أخرجت قميص الصوف الكحلي وقمت بلفه حول ساقي إتقاءاً للبرد، اتخذت الحقيبة وسادة لي، فقد سبق وأن قمت بتنظيم عبوات المياه بداخله ليتناسب مع هذا الأمر، أصبح المكان أكثر هدوءاً، سوى من بعض الأصوات هنا وهناك، صوت بكاء طفل صغير يرافقه فتح أمه الحقيبة حيث تجهيز الحليب له، أحدهم يسعل بعيداً، وأخر يخرج من بين الشجر وهو يغلق زر بنطاله بعدما قضى حاجته هناك، حينما أغمضت عيني، سرعان ما غطيت في نوم.

استيقظت ظهراً على اصوات من حولي، بدأت أصوات الحركة والكلام في الارتفاع، مما حدا بالدليل الصغير، أن يتنقل بين هنا وهناك ليحثهم على اخفاض أصواتهم، لكن دون نتيجة، لم يكن ماد إلى جانبي لحظتها أما حقيبته فهي في مكانها، وبعد قليل خرج من بين الأشجار متجهاً إلى المكان الذي نجلس فيه، في الطريق اعترضه رجل أربعيني وقال له شيء ما، ومن ثم عاد الرجل إلى مكانه، وحينما وصل ماد قال:

- لقد اتصلت بميلا وطمأنتها.
- جيد ... ماذا كان يريد ذلك الرجل منك؟
- سألني إذا ما كان هناك مكان فارغ في حقيبتي، فقلت له لا، ربما لدى أخي ... سيأتي الآن ليسألك.

- هناك مكان عبوة الماء التي شربناها ... هل أخبرت ميلا أن تتصل بأبي وتطمئنه هو أيضاً، لابد أن يكون باله مشغول علينا.

- نعم قلت لها.

جاء الرجل وبيده غطاء أبيض صغير يستخدم في تغطية الأطفال، بعد السلام سألني:

- لا يوجد مكان كاف في حقائبنا ... وقد حملت أنا وزوجتي قدر المستطاع ... هل بإمكانك وضع هذه في حقيبتك؟

- دعني أرى إذا ما كانت تتسع أم لا.

أخرجت عبوات المياه ومن ثم قمت بوضع ذلك الغطاء في أسفل الحقيبة ومن ثم أعدت العبوات وأغلقت الجيب، وقد ابتسم الرجل لتلك النتيجة، ثم غادر ممتناً، على أن يعود ويطلبها لاحقاً، رمى أحدهم حجرة صغيرة إلي بحثت عن مصدرها، وإذا بنادو يرفع يده اليمنى وهو يبتسم، كان يجلس مع ثلاثة شبان، قال:

- تعال واجلس معنا.

- أنا مرتاح هنا.

- كما تريد.

لكن ماد نهض وذهب إليهم فيما أبقى حقيبته إلى جانبي، على الفور أخرجت الدفتر الفضي وبدأت الكتابة، بعدها ابتعدت نحو الأشجار لأتبول، وفي طريق العودة أخرجت الكاميرا وقمت بتصوير ذلك الجمع.

وعند حلول المساء أمرنا دليلين بالنهوض لاستئناف الرحلة، أما الدليل الثالث وهو الأكبر بينهم فقد كان غائباً، يبدو أنه في مهمة استطلاعية، وقفنا في رتل واحد طويل، تماماً لحظة وصولنا للغابة، انتظرنا عودة الدليل الثالث للانطلاق، فهو رئيس المجموعة، وعندما عاد تفحص المكان وقال:

- ما هذه الأوساخ؟ ... لن نغادر والمكان بهذه القذارة.

أخرج من حقيبته ثلاثة أكياس سوداء، قام بفتحها فازداد حجمها، رماها على الأرض وقال:

- على كل واحد منكم أن يضع ما ترك من أوساخ داخل هذه الأكياس.

لم يتحرك أحد، بدأ يرغي ويزبد ويشتم، لكن ذلك لم ينفع مطلقاً، فكل واحد ينتظر من الأخر أن يتحرك، نظرت إلى نادو ومن ثم سلمت حقيبتي لماد، حمل كل واحد منا كيس وبدأنا بوضع الأوساخ بداخلها، انضم إلينا خمسة شبان أخرين، لم يستغرق تنظيف المكان أقل من عشرة دقائق، تركنا الأكياس في مكانها على أن يتخلص منها الأدلاء لاحقاً، لم يكن طلب تنظيف المكان حفاظاً على البيئة أو نتيجة وعي بالنظافة، إنما خوفاً من إن يكتشف هذا المكان من قبل دوريات حرس الحدود أو القرويين، فهذه نقطة مهمة لديهم، لقد سبق وأن جاؤوا بمجموعات أخرى إلى هنا قبلنا، فأثار بعض أغطية العبوات والأكياس الصغيرة كانت تدل على ذلك، قام الدليل الأول وهو يقف على رأس الرتل بتشغيل هاتفه، بعدها أمرنا بالسير وهو ما يزال ثابت في مكانه، كنا نسير من أمامه وهو يصور الجميع، حتى يرسل هذا المقطع إلى المهرب الكبير أو رأس الخلية ليتأكد من الأشخاص وأعدادهم.

أصبح الطريق أكثر وعورة من ذي قبل، لأول مرة نجتاز تلال كثيفة الأشجار، نصعد وننزل، البعض منها حاد لدرجة أن النزول منها يتطلب حذر شديد، فأي خطأ في التقدير يعني التدحرج لمسافة طويلة، ناهيك عن النباتات وأغصان الأشجار، كلما تقدمنا في السير ارتفعت اصوات انفجارات وإطلاقات كثيفة لنيران رشاشات ثقيلة!

كان الأمر يدعو للاستغراب فعلاً، إلى أي نقطة من الحدود قد جاؤوا بنا! بعد قليل كان يمكن سماع صوت طائرة مروحية، وإن كان الصوت بعيد بعض الشيء، استمر الأدلاء بقيادة الرتل والمشي والركض حولها لإعادة تنظيمها في حال تباطؤ البعض أو ابتعادهم قليلاً، تماماً كانوا ككلاب الرعاة حول القطيع، لم يشعر أحد منهم بقلق من تلك الانفجارات ولم تثير فيهم أي ردة فعل لحظة وقوعها، يبدو أنهم قد غامروا بنا وبأنفسهم، لقد ذهبوا في ذلك إلى أبعد حد حينما اختاروا طريقاً قريباً من إحدى النقاط العسكرية ... فمن سيشك أن لاجئين سيقتربون من ميدان تدريب للجيش!

وصلنا إلى أرض لا زرع فيه ولا أشجار ولا حقول قريبة منها، إنما أرض خالية سوى من اسلاك شائكة، وقفنا أمام تلك الأسلاك وهي ترتفع عن الأرض بمقدار متر، تقدم الدليل الأول إلى السلك ومن ثم فتح ثقباً في الأسلاك، فتلك الفتحة معدة مسبقاً، فقط قام بحل عقدتين كانتا مربوطتين بشكل مؤقت، لكن الفتحة منخفضة، فالشخص بحاجة إلى أن ينحني حتى يعبر إلى الجهة الثانية، تماماً كما تمشي الحيوانات على أربعة، كان الرجل

الذي أبقى الغطاء في حقيبتي هو أول العابرين مع عائلته، أولاً نزع عنه الحقيبة ومن ثم انخفض ومشى وهو يتكئ على يديه وركبته إلى الجهة الثانية، ومن ثم ناولته زوجته الطفل والحقيبة لتبدأ بعدها الإنحناء والمشي، إحدى النساء وقد كانت بدينة بعض الشيء حينما وصلت إلى نصف الطريق امسكت ثيابها إحدى الأسنان الخارجة من السلك الذي يعلوها، يبدو أنها قد غرست بقوة في ظهرها، فنادت متألمة، رفع الدليل ذلك السلك قدر المستطاع، حتى تمكنت أن تكمل السير لكن ببطء شديد، استمرت العملية بعض الوقت، تمكن صغار السن من العبور بسهولة، غير أن المشكلة كانت مع الكبار، أما الرجل الستيني الذي يلبس نظارات طبية بعدسات كبيرة، استغرق وقتاً في العبور وحينما وصل إلى الجهة الثانية لم ينهض، بل جلس يلتقط أنفاسه، طلب منه الدليل أن يبتعد قليلاً عن الطريق، فأجابه:

- انتظر يا ولدي، فأنا أعاني من مرض في القلب.

فيما نقف منتظرين أن يكمل البقية العبور، اقترب شاب منا وهو أحد أفراد المجموعة التي يرافقها نادو، شاب أسمر بذقن وشعر شديد العناية، له نظرات حادة، يحمل على ظهره حقيبة أطفال سوداء صغيرة عليها رسومات أشكال هندسية من مربع ودوائر ومثلث بألوان زاهية، توجه بالكلام إلى ماد وقال:

- هل لي بشرب القليل من ماء؟ فأنا عطشان.

نظر إليَّ ماد متسائلاً هل يعطيه أم لا، أومأت برأسي موافقاً، أخرج ماد العبوة من تحت سترته وأعطاها للشاب حتى يشرب، لم يكن طماعاً، فقد شرب القليل، غير إنه أضاف:

- بقية رفاقي أيضاً بحاجة للقليل من الماء ... إذا تكرمتم.

نظرنا إليهم حيث كانوا يجلسون على الأرض، عددهم ثلاثة مع نادو، رفعوا أيديهم محيّن، نظرت إلى العبوة فوجدت أنها تحتوي على أقل من النصف، سألت ماد:

- ما رأيك أن نعطيهم إياها؟

- كما تريد.

لكن الشاب سأل:

- هل أنتم متأكدين من ذلك"

- نعم، خذها.

انطلق بها إلى رفاقه، انزلت الحقيبة وأخرجت العبوة الثانية، شربنا القليل منها، أنا وماد ومن ثم عاد ماد وخبأها تحت سترته، حتى نشرب متى ما عطشنا وبصورة سرية حتى لا يراها البقية ويطلبوا " بضعة قطرات " لإنها سرعان ما ستنتقل بين الأيدي إلى أن تنتهي، حينها عبر الجميع من تحت الأسلاك وعاودنا السير مجدداً لندخل مكاناً فيه الكثير من الأشجار، بدأت السماء تمطر، استمرت أصوات التدريبات العسكرية، انفجارات وأصوات رصاص , أقدام تدوس الأعشاب وأصوات الإحتكاك بالأشجار والمطر المتساقط على تلك الأشجار , المكان مظلم , ولا سبيل سوى المشي بمسافات قريبة جداً من بعضنا، حتى لا يفقد الواحد منا الاتصال البصري مع البقية ويتيه وسط الغابة، بعد ساعات من السير لا أعلم كانت مدتها بالضبط، لكنها كانت كفيلة أن تجعلنا نجلس في استراحات قصيرة كل ساعة تقريباً، صوت حبات المطر وهي تتساقط على النهر قد أخبرتنا أننا أصبحنا في المرحلة الأخيرة والحاسمة من الرحلة، طلب منا الأدلاء ان نجتمع ونجلس بالقرب من بعض , ومن ثم مشوا واختفوا عنا، جلوسنا تحت الشجر لم يمنع المطر من الوصول إلينا، بدأت ثيابنا تصبح مبللة، وهذه السترة التي " زادتني هيبة " حسب وصف البائع بدأت تمتص الماء بدلاً أن تكون مانعة لذلك.

- أريد اثنا عشرة شخصاً ... هيا بسرعة.

نادى الدليل الصغير، تردد الجميع في تلبية النداء، فالكل يريد أن يرى وصول أول دفعة بسلام إلى الجهة الثانية من النهر حتى يطمئن وعليه بإمكانهم ركوب القارب، حينما لم يسمع الدليل إجابة، أخذ العدد المطلوب ممن يجلسون في المقدمة عنوة، فلبوا راضخين ومن ثم تتابعت الدفعات، ابتعدت عن ماد حتى لا نصعد سوية على القارب، صعدت مع مجموعة مكونة من ثلاث عوائل، جلست في نهاية ذلك القارب الأبيض المطاطي، وهو أكبر من تلك التي استخدمناها في المرة الأولى، حمل الدليلين المجادف وجلسوا بعد منتصف القارب وعلى الأطراف، صعدت العوائل أولاً وأنا جلست في نهاية القارب تماماً، إحدى الفتيات كانت خائفة فوضعت كلتا يديها على وجهها حتى لا ترى مشهد قطع النهر!

دفع الدليل الثالث القارب إلى داخل النهر والدليلان أخذا في التجديف، اختفت الرمال من اسفل القارب وحل السواد، بدؤوا التجديف بكل بطء وروية ، فمقدمة القارب في الاتجاه المعاكس لتيار النهر، زاد المطر من صعوبة الشيء وحينما ظهر الرمل أسفل القارب أي

زوال خطر الغرق، أخبرت إحداهن تلك الفتاة أن ترفع يدها عن وجهها، وعلى الفور أبعدتها وهي تراقب من خلفها النهر، حينما طلب منا النزول بدؤوا في القفز بغير نظام، تحرك القارب المطاطي يميناً ويساراً، مما أثار غضب الدليلين، دعاهم أن ينزلوا بهدوء وإلا ضربهم بالمجداف، وأضاف أحدهم:

- سيروا إلى الأمام مجتازين تلك الأشجار، واجلسوا مع البقية هناك.

وصلنا إلى المكان وهو عبارة عن خمسين متراً مربعاً من أرض خالية تحيط بها الأشجار من كافة الجهات، وعلى يسار المكان تم بناء غرفة كبيرة من الأغصان، لحظة وصولنا وجدنا أن الجميع قد دخل تلك الغرفة إحتماءاً من المطر، جلست في إحدى الزوايا وحاولت أن أنام قليلاً وأنا جالس، لكن ذلك لم يدم طويلاً، مع وصول المزيد من العائلات، اضطررنا نحن الشبان أن نخرج من الغرفة وانتشرنا بين الأشجار لعلنا نجد منها ما تحمي من المطر لكن دون جدوى، جميعها أشجار هزيلة، يتسرب منها المطر وكأنها غير موجودة، اضطررت أن أجلس مستسلماً مع البقية، وصل ماد مع الدفعة الأخيرة، وقد جلس على مقربة مني، كانت ثيابنا مبللة تماماً، فلم تعد هناك حاجة إلى البحث عن مكان أفضل، زاد البرد وخاصة في الساعات الأخيرة من الليل، استحال النوم حينها، جلست أفكر وآمل أن تأتي العربات غداً لتنقلنا إلى العاصمة، في الصباح توقف المطر، لكن السماء بقيت متراصة بغيوم فضية مائلة للسواد، أخرج ماد الطعام من حقيبته لنأكل، فلم نتناول منذ البارحة ظهراً و وبعد الطعام انتقلنا إلى حيث يجلس نادو ورفاقه الثلاثة تحت إحدى الأشجار المقابلة للغرفة المصنوعة من الأغصان والتي تكدس بداخلها النساء والأطفال، لاحظت أن الشاب الذي طلب منا الماء البارحة، مازال يحتفظ بالعبوة في حقيبته! نصفها الأعلى ظاهر من جيب الحقيبة، مر الدليل الصغير من أمامنا أثناء قيامه بجولة تفقدية، فسأله نادو:

- هل سنغادر اليوم؟

أجاب وهو يكمل طريقه:

- إن شاء الله ... أو غداً.

لم يكن هناك شيء نفعله سوى الجلوس والتخطيط وأحاديث " ماذا سأفعل حينما أصل " وغيرها من الأحلام الوردية، بدأ الدليل بالمرور على الجميع وهو يقول شيئاً ما، لم نكن

نسمع صوته حتى نعرف تلك الكلمات القليلة التي يقولها، اقترب منا، قال وكأنه يتكلم من حلقه:

- ممنوع إشعال النار والتكلم بصوت مرتفع والاقتراب من النهر ... مفهوم.

أجبناه نحن الستة بكلمة " مفهوم " تماماً مثله، أي جعلنا جميع حروف كلمة " مفهوم " حروفاً حلقية.

- ما رأيكم بالقليل من الطعام؟ قال الشاب الذي طلب منا الماء، وضع حقيبته الصغيرة أمامه وأخرج عبوة المياه الفارغة ووضعها جانباً، ومن ثم أخرج كيساً شفافاً بداخله تمر، وزع على كل واحد منا ثلاث حبات، لا شيء مجاني هنا، إذا ما أردنا أن نحافظ على هذا التقارب علينا أن نوازن في الأمور المادية مهما بدت بسيطة، فتحت حقيبتي وأخرجت عبوة الماء الثالثة، وأدرتها على الجميع حتى بقي منها ربعها فقط خاصة بعد تناول هذا الطعام الحلو، أخرج ماد العبوة التي معه وأضافها إلى العبوة الثالثة، فأصبح بداخلها كمية نصف عبوة، حينما أراد أن يرمي العبوة الفارغة، صاح نادو:

- لا ... أعطيني إياها.

أعطاه ماد إياها مستغرباً، أجاب نادو:

- سأعبئها من النهر ... لا تدري قد يطول مكوثنا هنا.

ابقيت حقيبتي لدى ماد وانطلقت بعيداً عن هذا المكان لأكتب اليومية، مشيت شمالاً حوالي مئتي متر وإذا بي أمام فرع رفيع من النهر يقدر عرضه بخمسة أمتار يفصل المكان الذي نحن فيه عن يابسة هيلاس، إذن نحن في جزيرة صغيرة على النهر، يمكن سماع أصوات مرور عربات وشاحنات بوضوح وهي تسير عن طريق غير بعيد من هنا، عدت إلى مقربة من مكان الاجتماع وتحت شجرة كتبت، وحينما انتهيت عدت أدراجي إلى مكان تواجد الجميع.

حل الليل ولم نتحرك بعد، كان الدليل يجلس في مكان قريب منا وفي كل مرة نسأله فيها عن موعد المغادرة، أعاد الإجابة نفسها:

- حتى يأتي بقية الأدلاء.

تجاوز الوقت منتصف الليل ولا أمل بالتحرك، قررنا النوم، ومن حسن حظنا أنها لم تمطر، اقتربنا من بعضنا البعض، ألصقنا أنا وماد ظهرنا ببعض حتى نشعر بالدفء، تذكرت أني ما أزال أحمل الغطاء الأبيض في حقيبتي، أخرجتها ومن ثم قمت بتغطية ساقنا، وضعت فوقها ما لدي من ثياب موجودة في الحقيبة، رغم ذلك استيقظت في الساعات الأخيرة من الليل من شدة البرد ولم استطع النوم، لطالما كان البرد يؤرقني , فإذا ما توقفت أو غابت الأصوات من حولي بقي البرد وحيداً مكانهم، ذلك البرد الذي ينخر في العظام، برد المعسكر التدريبي في الصحراء أثناء الانتشار في النقاط، برد الفندق بغرفته الرطبة، برد حقول الليمون والبرتقال، والآن برد الغابة، وفيما أفكر بذلك وقف فجأة أحدهم أمامي، لم أستطع أن أرى وجهه لكني خمنت أنه الرجل صاحب الأمانة، حينما اقترب لكي يوقظني بادرته قائلاً:

- لست نائماً.

- أسف على الإزعاج، لكني بحاجة إلى الغطاء الذي أبقيته لديك أمانة.

- صحيح. نهضت فانفصل ظهري عن ظهر ماد، سرعان ما تسلل إليه البرد، رفعت كومة الثياب واستخرجت الغطاء الأبيض من أسفلها، بقي الرجل يراقب العملية وهو صامت، جمعت الغطاء على شكل كرة وأعطيته إياها، أخذها وقال بعد أن أحس بنوع من الخجل:

- لو لم تكن غطاءاً لطفلي لما أخذتها منك.

- خذها يا أخي فدفء طفلك أهم من أي شيء.

حرك رأسه موافقاً ومن غادر.

في الصباح أشرقت الشمس، قمنا بنشر ثيابنا وتمددنا على الشاطئ الرملي للنهر طلباً للدفء تماماً مثل ما يفعل السياح وأصحاب العطل الصيفية على البحر، رغم أن ذلك ممنوع، فعلى حد زعم أحدهم أنه رأى البارحة دورية لحرس الحدود التابع للأناضول تفتش المكان الذي انطلقنا منه على القارب، خلال هذا اليوم تناولنا ما تبقى لدينا من الطعام، بقي الماء فقط، عبوة واحدة قررنا أن نقتصد قدر الإمكان في شربها، فيما تطوع ثلاثة شبان بأخذ عبوات المياه الفارغة إلى النهر لكي يملؤونها ومن ثم يعيدوها لأصحابها، فالغالبية قد استهلكت ما جاءت به من ماء نظيف، نهضت من مكاني واتجهت إلى المكان الجديد الذي خصصته للجلوس وحيداً وكتابة اليومية، رافقني نادو وقال:

- إلى أين؟

- أريد أن أجلس في مكان قريب من هنا.

- هيا نذهب سوية.

لم يكن بمقدوري أن أمنعه أو أرفض طلبه، وحينما ابتعدنا عن مكان الاجتماع، قال لي نادو:

- لن نغادر هذا المكان قبل يومين أخرين.

- من قال ذلك؟

- زاك ... يعلم كل شيء.

- تقصد الشاب الأسمر الذي لا يتكلم أبداً.

- نعم هو، أولئك الأدلاء الثلاثة أعز أصدقائه.

- لكن الطعام نفذ لدينا ولديكم، أظن أن العائلات أيضاً مقبلة على نفس الأمر.

- هذا صحيح.

عندما وصلنا المكان جلسنا على جذع شجرة، أكمل نادو كلامه:

- زاك دليل سابق، والآن يريد أن يهرب بأي ثمن من الأناضول.

- لماذا الهروب؟

- لقد أغرق قارباً في البحر ومات سبعة ممن كان عليه، والأهالي يبحثون عنه.

- متى هذا الكلام؟

- الصيف الماضي.

- لهذا أراه صامتاً لا يتكلم ... فقط يجلس ويفكر.

- أريد أن أمشي قليلاً في هذه الأرجاء.. أنت اكتب ما تريد كتابته.

أخرجت الدفتر الفضي وقد كان غلافه رطباً وبعض الأوراق الأولى , وما تبقى منه مازال جافاً، بحثت عن قلم الرصاص وقد وجدته في جيب السترة الداخلي، فيما ابتعد نادو متوغلاً بين الأشجار بدأت الكتابة بسرعة وبعد أن انتهيت تمددت على جذع الشجرة، نظرت إلى السماء فوجدتها عادت وأصبحت رمادية من جديد وبعد تفكير استدرت وتأملت حولي، لقد كان مكاناً للعطل، على مقربة مني هناك رماد ومن حوله بقايا أغصان كانت معدة لنار الموقد، وعلى بعد عدة أمتار صندوق مشروبات أحمر مغبر عليه كتابات بأحرف سوداء ما بين السيريلية واللاتينية، حاولت أن أفهم ما معنى تلك الكتابات لكني لم أفلح، لابد أنهم كانوا يضحكون ويمزحون أثناء تناولهم تلك المشروبات بعد وجبة من اللحم المشوي على هذا الموقد، لكن ذلك لم يمنعهم من التكلم ولو قليلاً عن أمور باتت تقض مضاجعهم في الآونة الأخيرة، كالعمل لمدة ثماني ساعات في اليوم، أو أن فلانة وفلان قد افترقا، وقد أصيب هذا الأخير جراء ذلك بصدمة نفسية عميقة جعلته حبيس غرفته الدافئة بل لم يعد بمقدوره أن يضع الطعام لحيوانه الأليف.

هذه الجزيرة عبارة عن جنة صغيرة، ماء وشجر ولا بشر في الأيام العادية، لو كنت من سكان هذا البلد ولدي المال، لقمت ببناء صومعة هنا لأعيش فيها بصحبة الكتب والقرطاس والقلم، هبت ريح فحركت الأشجار من حولي، مما جعل نادو يعود مسرعاً من الجهة التي مشى منها، ارتفعت أصوات خطاه وهي تحطم بعض الأغصان في طريقها، نهضت وجلست في مكاني، حينما أصبح بالقرب مني قال:

- أريد أن أعود ... هل ستذهب معي؟
- نعم هيا بنا. ثم أخرجت الكاميرا وقمت بتصوير المكان.
- لقد بحثت عن شيء يؤكل، لم أجد شيئاً، مجرد أعشاب برية لا تصلح للأكل.
- آمل أن ننطلق اليوم مساءاً ... لا تدري.
- ربما.

عندما اقتربنا من مكان مجموعتنا، وجدنا أنهم قد جمعوا الحقائب بالقرب من بعضها، وزاك يقوم ببناء شيء ما، فيما انشغل البقية في جمع الأغصان.

- ماذا تصنع؟ سألته عما يقوم به من عمل.
- غرفة ... مثل تلك الكبيرة لكن بحجم أصغر.

- فكرة رائعة ... من المفترض أننا قمنا بها منذ البارحة.

- هيا ساعدنا بدلاً من الكلام.. اجلب اغصاناً تكون مليئة بالأوراق.

على الفور انضممنا أنا ونادو إلى البقية في جمع الأغصان، أما زاك فقد كان البنَاء، بعد عدة ساعات من العمل كانت الغرفة جاهزة، ارتفاعها عن الأرض متر واحد وعرضها متر ونصف تقريباً، أُستخدمت الأغصان القوية في صنع الدعامات وتشابكت الأغصان الرفيعة المليئة بالأوراق لتشكل الجدران والسقف، وضع كل واحد منا حقيبته كوسادة للرأس ومن ثم تمددنا في الداخل على سبيل التجربة، كانت تفي بالغرض إلى حد جيد، رغم أن ساقنا وأقدامنا تبقى في الخارج، في الليل بدأت السماء تمطر مجدداً، لكنها كانت أقل وطأة، حيث حمتنا الغرفة من الماء، أما البرد فلم نجد له حلاً سوى أن نلصق ظهورنا ببعض، أما لتدفئة القسم السفلي من الجسد، نقوم بتقريب القدم والساق من الجذع ومن ثم تغطيتها، والنوم بهذا الشكل، على أن يبقى الشخص بهذه الوضعية، دون حركة طوال الليل، فأقل حركة ستجعل البرد يدخل إلى المكان الذي تم تدفئته بل سيلحق الضرر بالشخص الذي يلتصق بظهرك، في صباح اليوم الرابع بدأ أغلب المتواجدين ببناء غرف، خاصة قبل نفاذ الطعام لديهم، فنفاذه يعني غياب الطاقة، خرجنا نحن الستة لنبحث عن نباتات يمكن أن تؤكل، وبعد بحث شمل المنطقة المحيطة بمكان الاجتماع لم نعثر على شيء، قال زاك:

- سأتولى أنا ونادو مهمة البحث في أماكن أبعد من هنا، لكن عليكم أن تعودوا إلى الغرفة، عددنا كبير ومن الممكن أن يُكتشف أمرنا إذا اقتربنا من الطريق السريع.

عدنا أدراجنا فيما أكمل زاك ونادو السير بعيداً وعلى مقربة من مكان الاجتماع أو المستعمرة الجديدة، طلبت من ماد أن يبقى معي وألا يعود، وأخبرت البقية أننا سنذهب ونجلس في المكان الذي خصصته للكتابة، عادوا إلى الغرفة، فيما قلت لماد:

- علينا أن نبحث عن الطعام بأنفسنا.

- موافق، لكن عما نبحث؟

- لا أدري ... دعنا نجرب لعلنا نجد ثماراً برية، أو شيئاً ما على الأشجار.

كنا حينها على مقربة من المستعمرة، طلبت من ماد أن يبتعد عدة أمتار مني، وأن نبدأ البحث ونحن نسير بموازاة بعض، بحثنا بصمت ولم نعثر على شيء، لم تكن هناك سوى أشجار دون أن تحمل أي ثمار وأعشاب برية، لا ندري إذا ما كانت صالحة للأكل أم لا،

لهذا لم نأكل شيئاً، قررنا مواصلة البحث وصولاً إلى الماء، أي ذلك الفرع الرفيع من النهر الذي يفصل الجزيرة عن اليابسة، وبعد قليل أشار ماد بيده لأتوقف، حينما اقتربت منه وجدته يعاين مجموعة من الأكياس السوداء والبيضاء بينها عبوات وعلب وهويات لاجئين أيضاً! كانت قمامة إحدى المجموعات السابقة التي جاءت قبلنا، قال ماد بصوت أقرب للهمس:

- تعال نبحث، لعلنا نجد بينها شيئاً ما يؤكل.

- سنجرب، رغم أني استبعد أن نجد شيئاً صالحاً.

- لن نخسر شيء.

كسرت غصناً من شجرة ورحت اقلب تلك القمامة وماد يفتش معي بنظره، لم نجد شيئاً بعدما قلبنا عاليها سافلها، قلت:

- هيا بنا نعود، فلا أمل هنا.

حرَك ماد رأسه موافقاً، حينما كنا ما نزال مقربة من ذلك المكان، أنزل ماد نفسه وحمل كيساً أسوداً موضوعاً بالقرب من شجرة قريبة من مكان القمامة وقال:

- يبدو أن شيئاً طرياً بداخلها.

- أعدها إلى الأرض، ومن ثم أفتحها.

حاول فتح عقدة الكيس لكنه لم يستطع، ففتح بأصبعه فتحة صغيرة من الجانب.

- ماذا وجدت؟ سألت بلهفة.

- خبز ... يبدو عليه الكثير من العفونة، أظنها من المطر.

- افتح الكيس جيداً.

ومن ثم دنوت لأرى إذا ما كان فيه شيء صالح للأكل، فقال ماد:

- انظر إلى هذه الأجزاء، فهي مازالت سليمة، إلا أنها رطبة!

- دعنا نقتطع تلك الأجزاء منها، ونترك العفن جانباً.

كان داخل الكيس ثلاث قطع من الخبز، الواحدة بحجم كف اليد، كان هذا الكيس بالإضافة إلى القمامة هي من بقايا إحدى المجموعات، تم وضع الخبز بعيداً عن القمامة لإنها " نعمة " لا يجوز أن ترمى، لعل حيواناً ما يستفيد منها.

بعد اقتطاع الأجزاء التي تبدو صالحة للأكل، أصبح لدينا سبعة قطع صغيرة من الخبز بحجم الأصبع، أكلنا أربعة منها فقط، أما الثلاثة المتبقية أعطيتها لماد وقلت:

- ضعها في جيب سترتك الداخلي، حتى نأكلها غداً في حال لم ننطلق اليوم مساءاً.

- وحينما أصل الغرفة سأضعها في الحقيبة، أفضل.

مشينا عائدين إلى الغرفة، قلت:

- هل صدقت أنهم سيبحثون عن الطعام!

- ربما جاؤوا بشيء يؤكل.

- لا أعتقد، إذا ما وجدوا شيئاً، أكلوه دون أن يخبرونا، بل لن يكشفوا عن مكان تواجد الطعام أو الأعشاب الصالحة للأكل.

- ربما.

حينما اقتربنا من مكان الاجتماع، سمعنا أصوات تكسير أغصان وكلام بصوت مسموع! وإذا بالمكان قد تحول إلى ورشة نجارة، تم بناء أكثر من عشرة غرف صغيرة بالإضافة إلى عدد من الشبان يقومون بمحاولات لتصفية مياه النهر، جلسنا إلى جانب مجموعتنا أمام الغرفة، نراقب بناء تلك الغرف، وعلى يسارنا ثلاثة شبان قد قاموا بتعبئة إحدى عبوات المياه الكبيرة بحجارة سوداء وبيضاء بالإضافة إلى الرمل، وعلى فم العبوة وضعوا قطعة قماش ومن ثم بدؤوا بصب الماء من عبوة أخرى وذلك للحصول على ماء نقي، بعد قليل بدأت القطرات بالنزول من ثقب أسفل العبوة، بدأت تنزل بداخل علبة معدنية كانت مخصصة للحوم، يبدو أنه غلسها جيداً قبل أن تتحول إلى كأس، وصل زاك ونادو، كانوا يتكلمون إلى أن أصبحوا على مقربة منا وفجأة صمتوا، قال زاك:

- لم نعثر على شيء يؤكل، مجرد تعب بدون نتيجة.

ومن ثم جلسوا وهم يراقبون عمليات البناء، قبيل الليل اكتملت عملية بناء الغرف، وقد اختلفت في متانتها إلا أن جميعها كان يفي للحماية من المطر، بعدها بدأ البعض بصنع

مصافي الماء، جلسنا ننتظر عودة أي من الأدلاء الثلاثة، لكن أحداً لم يأتي خلال هذا اليوم.

في عصر اليوم الخامس ذهبت وماد إلى مكان الكتابة، هناك أكلنا قطع الخبز الثلاثة المتبقية، شربنا معها ماءاً قد جئنا به من النهر، لم يكن صافياً، إنما فيه بعض الأتربة السابحة، وبعد الطعام سأل ماد:

- لقد انتهى ما لدينا من طعام ... ما رأيك أن نعيد عملية البحث مجدداً، لعلنا نجد شيئاً كالخبز الذي أكلناه.
- غداً صباحاً.
- لماذا ليس الأن؟
- لقد تأخر الوقت، لا تنسى أننا سنضطر أن نبتعد قليلاً عن هذا المكان، فقد تكون قمامات الدفعات الأخرى موضوعة في جهات أخرى.

فجأة سمعنا أصوات أقدام تقترب من مكان جلوسنا، سكتنا مستسلمين، فكل الذي نخشاه أن تكون دورية لحرس الحدود، حينها سيظنون أننا أدلاء قد عدنا تواً من إيصال مجموعة ما إلى داخل هيلاس، سنعاني كثيراً أثناء الضرب لنشرح لهم أننا مجرد لاجئين، ظهر نادو وبقية المجموعة من بين الأشجار، فتنفسنا الصعداء، حينما رآنا نادو قال وهو يبتسم:

- لقد جاءكم ضيوف، فماذا ستقدمون لهم من ضيافة؟ ... ماذا تخبئون؟
- أهلاً وسهلاً بالضيوف، لدينا ماء النهر، ألا يكفي ذلك!
- طيب انظر ماذا جلبنا لكم.

أفسحنا المجال لجلوس الجميع على جذع الشجرة، أخرج نادو قداحته من جيب سترته بالإضافة إلى عبوة ماء صغيرة فارغة بيده , وقف زاك وأدخل يده في جيب بنطاله وقد أخرج شيئاً صغيراً بحجم رأس السبابة، كان عشباً أخضراً موضوع في كيس شفاف، وقد تم ربط الكيس وقد أصبح مثل كرة صغيرة، فتح الكيس بعناية تامة، فيما أخذ نادو يثقب تلك العبوة الفارغة من الأسفل ثقبين إثنين ومن ثم انتظر زاك، الذي لف القليل من ذلك العشب الأخضر داخل ورقة صغيرة وأضاف إليها القليل من تبغ لفافة قام بفرطها، ومن ثم قام بخلط المادة الخضراء والتبغ ولفها بإحكام داخل الورقة فأصبح لديه كرة بيضاء صغيرة، مرر بداخلها سلك رفيع، فأصبح مثل سيخ الشواء ومن ثم أشعلها ومررها إلى

داخل العبوة من خلال إحدى الثقبين وحينما أصبحت الكرة في الوسط قام بتثبيت ذلك السلك بواسطة ذلك الثقبين، بدأت تلك الكرة تنفث دخاناً إلى أن امتلأت العبوة، حينها رفع زاك غطاء العبوة وتنشق القليل من الدخان من خلال فمه ومرر العبوة إلى الذي يجلس بجانبه، إلى أن وصلت إليّ، رفضت أن أفعل مثلهم، نظر إلي زاك وقال:

- هذا ليس بتبغ .... جربه ومن ثم أخبرني بما سينتابك من شعور جميل.

- لا شكراً.

حتى ماد أخذ يشاركهم تدخين ذلك الحشيش، نهضت من مكاني، نظر إليّ نادو وقال:

- هل كتبت دروسك على الدفتر الفضي؟

- دروسي! ... أه نعم، قبل مجيئكم.

تدخل زاك وسأل:

- وما فائدة ذلك؟

- للذكرى لا أكثر.

- تعال وخذ نفساً للذكرى قبل أن تذهب، حينها ستكتب الأعاجيب.

- ماد، ألا تريد أن تذهب؟

- انتظر سأذهب معك.

أخذ نفساً عميقاً أخيراً ومن ثم قام من مكانه ومشى معي باتجاه مكان الاجتماع، حينما ابتعدنا عن ذلك المجلس سألته باستغراب:

- لماذا شاركتهم ذلك الشيء؟

- مجرد تجربة لا أكثر، ثانياً لم أشعر بأي نشوة أو تغيير!

- علينا الابتعاد عنهم قدر المستطاع.. أتدري إذا ما ألقى حرس الحدود القبض عليهم ومعهم تلك الأداة وبجيب زاك كرة الحشيش؟

- ستكون العواقب وخيمة.

- تدرك أنها وخيمة! مع ذلك تشاركهم؟

- قد أخبرتك لمجرد الفضول.

بعد نصف ساعة عادوا إلى الجلوس أمام الغرفة، لم ألحظ أي سلوك غير طبيعي عليهم، يبدو أنهم قد أخذوا جرعة صغيرة هذه المرة.

صباح اليوم السادس انطلقنا أنا وماد بحثاً عن شيء يؤكل، أمضينا عدة ساعات في البحث، حيث بدأنا من المكان المخصص للكتابة، ذهبنا بعيداً عن ذلك المكان، لكنا لم نعثر على شيء، بل أصبحت الأعشاب أكثر كثافة، يستحيل أن يكون أحداً قد جاء إلى هنا من قبل، لهذا عدنا أدراجنا إلى المستعمرة، ومنها اتجهنا شرقاً، مع ذلك لم نعثر على شيء يؤكل، عندما اقتربنا مجدداً من المستعمرة، سمعنا صوت رجل يتكلم بصوت مرتفع وكأنه يريد أن يكشف المكان لأي دورية قريبة من المستعمرة، عدنا بسرعة لنرى ماذا يحدث هناك، وإذا بالعشرات قد تجمعوا حول شخص وراحوا يتكلمون معه بصوت مرتفع، سألت أحدهم عن ذلك الشخص فقيل أنه الدليل الصغير، لقد وصل لتوه إلى المكان.

- لقد أتيتم بنا إلى هذا المكان ومن ثم اختفيتم!

- المشكلة ليست عندنا، إنما مع الأطفال، فالجو بارد هنا، بل تمنعون إشعال النار، إلى متى؟

- معك حتى الغد ... سنذهب إلى الطريق السريع لنسلم أنفسنا.

- منذ يومين ولا طعام هنا، نشرب مياه غير نظيفة.

أجابهم الدليل بعدما استمع بصبر إلى كلامهم:

- كل هذا التأخير من أجلكم ... دوريات الشرطة وحرس الحدود والمخبرين من القرويين تملأ المكان، فكيف لنا أن نغامر بكم؟

- نمهلك حتى الغد.

- غداً مساءاً سننطلق ... أعدكم بذلك.

- سننتظر حتى مساء الغد؟

- هذه هي الحقيقة.. عليكم أن تستحملوا.

بعد ذلك بقليل قد اختفى الدليل مجدداً، قام بعمل إحصاء سريع للمجموعة ومن ثم غادر المكان، لا استبعد أنه يتواجد في مكان ما في الجزيرة مع بقية رفاقه، ينتظرون إشارة البدء من " الاستطلاع " وهي سيارة أو سيارات مهمتها مراقبة الطرق التي ستسلكها العربات التي ستنقلنا إلى العاصمة، أما سبب ابتعادهم عنا، ذلك لأنهم يعلمون أن مجموعة كبيرة مثلنا معرضة للكشف في أي لحظة، لهذا يتحاشون التواجد حتى لا يقبض عليهم حينما تكتشف أي دورية أمرنا، لم يأتي أحد منهم في اليوم السابع، مساء اليوم الثامن، وذلك بعد منتصف الليل كان الطقس ماطراً كالعادة سمعنا صوت جلبة رافقه انتشار أشخاص في المستعمرة، استيقظنا لنرى ماذا يحدث هناك وإذا بدفعة مكونة من حوالي عشرة أشخاص قد وصلوا المكان، استضفنا أحدهم بحجة الحماية من المطر، وقد كان شاباً من إحدى دول جنوب الصحراء الكبرى، تواصلت معه بالإنجليزية ومن ثم ترجمت ما يقوله للبقية، وقد قال:

- هناك ما يقارب الخمسين بانتظار عبور النهر والمجيء إلى هنا.

تملكني القلق قلت في نفسي بذلك سنكون حوالي مئتي شخص – غير الأطفال – كيف سنعبر بهذا العدد دون أن يكتشف أمرنا!

قال لي زاك:

- اسأله أن يعطينا طعاماً، من المؤكد أنه يحمل بعض الطعام.

أولاً جعلناه يتمدد بيننا في الغرفة تمهيداً لطلب الطعام، وبعد قليل قلت له:

- صديق.

- نعم.

- نريد منك طعاماً، مهما كان قليلاً، فلم نأكل منذ عدة أيام.

صمت ولم يتحدث!

- أراك لم تجيب؟

- لا أحمل شيئاً يؤكل.

- يا شباب يقول لا طعام معه.

هنا صاح الكل بصوت ما بين التذمر والبكاء تمثيلاً:

- لا لا.

نهض الضيف من مكانه وجلس، ثم قال:

- يا ملاعين سأعطيكم بعضاً من البسكويت الذي معي.

فتح الحقيبة، لم يكن يظهر شيء من وجهه في ذلك الظلام، سوى جسم يتحرك، فتح علبة البسكويت وأعطى كل واحد منا قطعة واحدة، وقد بدأ بأكل الباقي، فقال وهو يمضغ البسكويت:

- هذا كل ما كان لدي، أظن أني دفعت أجار الغرفة.

- عد واستلق يا صديق.

وقفت عائلة أمام غرفتنا اقترب رجل والماء يتساقط من سترته وقال:

- هلَ تبرعتم لنا بالجلوس في غرفتكم، نحن عائلة ومعنا شاب معاق جسدياً.

على الفور نهضنا وأخرجنا معنا حقائبنا إلى تحت المطر، دخلت العائلة المكونة من أب وأم وثلاثة أطفال وشاب صغير معاق، حمله والده على ظهره إلى داخل الغرفة، وقد كانت ثيابهم مبللة تماماً، بعدما جلسوا في الداخل رحنا ننظر إلى الداخل، سألت الأب:

- أنت والده؟

- نعم.

- كيف جئت به إلى هنا؟

- حملته على ظهري طيلة الطريق.

- طيلة ذلك الطريق الوعر!

- نعم، إنه ابني، كل هذا التعب من أجل أن نعالجه في إحدى دول الشمال.

- الطب في الأناضول متقدم!

- أعرف ذلك، لكن المستشفيات الحكومية المجانية للاجئين لا تعالج حالة ابني، أما المستشفيات الخاصة، فهي بحاجة إلى مال أكثر من طاقتنا.

اخرجت الكاميرا وقمت بتصوير المعاق مع العائلة دون أن يعلموا، عدنا إلى الجلوس تحت الأشجار، بعد ساعة من ذلك وصلت أخر مجموعة كان يرافقهم أربعة أدلاء، ثلاثة منهم أولئك الذين أوصلونا إلى الجزيرة، اما الرابع فهو جديد، وقفوا وسط المستعمرة ونادى أحدهم:

- هيا انهضوا، لقد حان وقت المغادرة.

تجمعنا وسط المستعمرة، عدد كبير للغاية، قال الدليل الرابع الجديد:

- على العائلات أن تقف في مجموعة على اليسار، أما الشبان والرجال ابقوا في مكانك.

وبعد انتهاء الفرز، أكمل وقال:

- يمنع اصطحاب الحقائب، هيا ارموها أمامي، لا أريد أن أرى أحداً يحمل حقيبة على ظهره.

وشرع بإخراج عدة أكياس سوداء كبيرة كانت في حقيبته ومن ثم فتحها وطلب وضع الحقائب بداخلها، حملت ما هو ضروري معي، دفتر اليوميات، المحفظة، والكاميرا لكني أزلت بطاقة الذاكرة منها تحسباً أن يصادرها الجنود في حال إلقاء القبض علينا، رميت بطاقة الذاكرة وهي سوداء صغيرة في ذلك الثقب الذي بداخل سترتي، هناك يستحيل على احد أن يكتشف أمرها، حيث سقطت إلى داخل وأسفل السترة، وضعت أنا وماد حقائبنا داخل الكيس الكبير، وقد امتلأت تقريباً، أما الكيس الثاني فقد امتلأ لنصفه، تواردت الحقائب إلى تلك الأكياس إلى أن انتهى الجميع، حينها طلب الدليل الرابع من شبان أن يحملوا تلك الأكياس الثلاثة، اثنتان ممتلئتان والثالثة قد امتلأت للنصف، بعدها مشى أمامهم نحو النهر حيث رموا تلك الأكياس في الماء، حينما عاد الدليل الرابع مع بقية الشبان، أعطى إشارة الانطلاق للدليلين وقد انطلقوا بالعائلات نحو شرق المستعمرة، وقف الدليل الرابع ومعه الدليل الصغير أمامنا وقال:

- اصطفوا في رتل أحادي، خلف بعضكم البعض، إياكم والتباطؤ أثناء السير، فلم يعد معكم ما يعيق سرعة وصولكم إلى نقطة الانطلاق.

ومن ثم تقدم أمامنا لنبدأ السير نحو الجهة الغربية.

لابد من الانتباه جيداً أثناء السير، فالطقس ماطر ومظلم والسير سريع بدون استراحات، ناهيك عن عدم التزام الجميع بالصف، أي أن النشيط السريع سرعان ما يتخطى من أمامه مادام ذلك يسير بسرعة يجدها هذا بطيئة ومزعجة، مررنا بالقرب من المكان الذي كنت أكتب فيه، نظرة خاطفة إلى جهة اليسار، رأيت جذع الشجرة التي كنت أجلس عليها، أكملنا السير إلى أن أصبحت الأعشاب أكثر كثافة وطولاً، لدرجة أن الرتل أصبح أقل سرعة من قبل، حيث اضطر الدليلين ومن يسير في المقدمة أن يحطموا تلك الأعشاب بأقدامهم، ولابد أنهم عانوا بعض الشيء في ذلك وخاصة أن أغلبهم لم يتناول الطعام منذ عدة أيام، توقف الشاب الذي أمامي، فتوقفت، وفعل ذلك ماد من بعدي حتى نهاية الرتل، سمعت الدليل يتكلم بصوت منخفض، ولم أفهم ماذا كان يقول، سرعان ما انتشر الخبر، سنعبر الآن النهر، أي تلك الأمتار القليلة من الماء التي تفصل الجزيرة عن اليابسة، كنت أفكر كيف سنعبرها! يصعب أن يكون هناك قارب، لضيق المسافة كذلك السباحة مستحيلة لبرودة الطقس بل كون الكثير ومنهم أنا وماد لا نعرف السباحة، ثالثاً يستبعد أن يكون هناك جسر، إلا لما توقفنا ننتظر! سرتُ بخطى صغيرة منتظراً الوصول إلى حافة الماء، كانت الأعشاب الطويلة تمنع الرؤية من حولنا، أمسك الدليل الصغير بكتفي الأيمن ومن ثم جعلني أتقدم بسرعة عدة خطوات، فعل كذلك مع الجميع وذلك لحثنا على السرعة في تنفيذ الخطوة التالية.

أُسند جذع شجرة ضخم بين ضفتي النهر، فصار أشبه بجسر، لكن اجتيازه لا يكون سيراً أو ركضاً إنما عن طريق الجلوس! فتحت ساقاي فوق الجذع، ومددتها على طرفيه، ومن ثم وضعت يدي أمامي وبدأت أرفع جسدي بهما خطوة واحدة نحو الأمام، هنا سرعة الاجتياز متوقفة على الأشخاص الذين أمامي، وهي بالمجمل بطيئة كون العملية ليست بتلك السهولة، سمعت صوت تنفس مرتفع، رافقه تأوه أحدهم وتوقف في التقدم، نظرت خلفي وجدت ماد ينظر إلي وسأل:

- ماذا يجري هناك؟ لماذا توقفوا!

- ألا تسمع ذلك الصوت!

كان المطر غزيراً، تتساقط حباته الكبيرة على ذلك الماء الآسن المغطى بأوراق الشجر وأوساخ كعبوات المياه والأكياس، تفحصت هذا الشيء الذي يجلس عليه الآن حوالي عشرين شخصاً وتساءلت عن مدى قوته وقدرته على التحمل! ارتفع مجدداً ذلك الصوت

وبشكل متقطع، خمس أو ست صيحات متألمة إلى أن سكت تماماً، بعدها أصبحت حركة التنقل أسرع، تقدمتُ إلى أن انتهيت من ذلك السيرك، نهضت لأنضم إلى المجموعة التي وصلت قبلنا، وقد كانوا جالسين على بعد عشرة أمتار في شكل مجموعة، أمامهم رجل ممد على الأرض ومن حوله ثلاثة شبان يعتنون به، أحدهم مد ساقه اليمنى جاعلاً منها وسادة يسند عليها ذلك المريض رأسه، حينما مررت بالقرب منهم دققت النظر لأرى من هو ذلك المريض وإذا بالرجل الستيني صاحب النظارة وهو نفسه الذي لاقى صعوبة في اجتياز الأسلاك الشائكة ونادى أنه مريض بالقلب، استغربت كيف لهم أن يأتوا بشخص مريض كمثله من هذا الطريق، كان من المفترض أن يرافق العائلات بما فيهم المعاق، على الأغلب قد وصلوا إلى اليابسة عن طريق القارب، اكتمل وصول الجميع، أصبح المريض بحال أفضل بعد الاستراحة وشرب الماء، نهضنا وبدأنا السير في شكل مجموعة مجتازين مجموعة أشجار، وبعد عشرة دقائق من السير بين الأشجار أو هذا المكان الشبيه بالدغل، وجدنا مجموعة العائلات جالسين بانتظار وصولنا وما أن أصبحنا بالقرب منهم، أمرهم الدليل بالنهوض لمواصلة المسير.

- أنت أيها الشاب. لمس كتفي أحدهم، حينما استدرت برأسي وجدت رجل بدين يرتدي لباس رياضة من بنطال وسترة لونها فضي أو شيء كهذا، وهو من ضمن المجموعة التي وصلت هذه الليلة إلى المستعمرة.
- اريد أن أطلب منك طلب.
- تفضل.
- هلَ حملت ابنتي الصغيرة.
- بالطبع.

ناولني ابنته ذات العام وهي نائمة، وقد لفها ببطانية بيضاء ناعمة، فيما حملت زوجته طفل رضيع! وهو حمل حقيبة يبدو بداخلها أشياء تخص الأطفال كالحليب والملابس، وإلا كان الدليل قد منعه من حملها، سرنا في مؤخرة الرتل الطويل، كون الرجل وزوجته كانا يسيران ببطء شديد، طيلة الطريق وهو يدعو الرب أن يكلل تعبنا هذا بالنجاح وغيرها من الأدعية، أصبحنا في نهاية الغابة، ظهر الطريق السريع والذي كان يبعد عنا حوالي مئتي متر، وهو مضاء بمصابيح صفراء قوية مثبتة على أعمدة طويلة، بينما كانت السيارات والشاحنات تمر على ذلك الطريق بكثرة، طلب منا الأدلاء الأربعة أن نجلس في مكاننا،

سلمت الطفلة لأبيها، الذي بالغ في الشكر والدعاء لي بالتوفيق، يبدو عليه طيبة القلب والبساطة، لكنني لم استطع في ذلك المكان أن اسأله:

- أنت تعيش في بلاد مشتعلة بحرب منذ سنوات طويلة، لماذا تنجب أطفالاً في هكذا ظروف؟

لكنه ليس وقت هذا الكلام ولا فائدة منه أصلاً، بحثت عن ماد فوجدته يجلس في المقدمة، جلست إلى جانبه، وقف الأدلاء الأربعة أمامنا وقال رابعهم والذي يبدو عليه أنه الزعيم:

- بعد قليل ستأتي شاحنة لتنقلكم إلى العاصمة، لكن هناك أمور يجب أن تعرفوها قبل الصعود إليها، وهي:

أولاً سيقف الشبان في الداخل والعائلات ستجلس في الوسط ومن ثم أيضاً صف من الشبان عند الباب، ثانياً الصمت، عليكم ألا تفتحوا فمكم أبداً طيلة الطريق، ثالثاً سأعطي رقم السائق لشاب منكم حتى يتواصل معه، لإن السائق وقبل الوصول للعاصمة سيأمر بنزول أول مجموعة، والمجموعة ستكون مكونة من عشرين شخص، ستقفزون من الباب الخلفي للشاحنة، طبعاً لن تتوقف الشاحنة أبداً، لهذا لا تخافوا فلن يتأذى أحد، سوى بعض الآلام.

ثم طلب من أربعة شبان النهوض والوقوف خلف بعضهم بشكل متلاصق تماماً، وقال:

- أريد منكم أن تقفوا مثل هذه الوضعية، لإن المكان في الداخل ضيق ولا يتسع للجلوس.

عاد وأمر الشبان بالعودة إلى أماكنهم ومن ثم أخرج من حقيبته التي على الأرض علبة دواء، وبدأ يمرر العلبة على الأطفال الصغار، حيث أعطى كل واحد منهم عدة قطرات من مادة منومة.

كنت أتوقع أن يتم نقلنا في شكل مجموعات بواسطة أكثر من عربة، فذلك أفضل، أما أن ينتقل قرابة المائتي شخص في شاحنة واحدة، لم أكن مطمئناً لهذه العملية، تقدم الدليل الرابع حتى أصبح بيننا جميعاً وقال:

- اسمعوا ما سيقوله لكم السائق الآن.

اتصل بالسائق وقال له:

- إنهم يسمعونك الآن.

قام برفع صوت الهاتف حتى أصبح صوت السائق مسموعاً، بدأ هذا السائق الكلام بسيل واسع من الشتائم، انتظرنا عدة دقائق حتى انتهى من كلامه ذلك وأضاف:

- إياكم والكلام في الطريق، خاصة عند الوقوف لدى الحواجز، وحينما أخبر الشخص الذي سيتواصل معي أن تقفز المجموعة، حينها إياكم الخوف والتردد، عليكم القفز بسرعة ... بعد دقائق سأكون بالقرب منكم.

خرجت شاحنة حفظ لحوم بيضاء وطويلة من الطريق السريع واتجهت بسرعة كبيرة إلى حيث نجتمع، وعندما أصبحت على مقربة منا استدارت إلى اليسار بحركة دائرية ومن ثم بدأت الرجوع إلى الخلف إلى أن أصبحت أمامنا مباشرة، كان لها بابين محكمي الإغلاق، قام أحد الأدلاء بفتح البابين ومن ثم طلب منا الصعود وعلى الفور بدأنا التسلق إلى داخلها بسرعة وبإلحاح من قبل الأدلاء حتى نسرع قد الإمكان، وقفت وماد مع المجموعة الأولى التي في الداخل، ملتصقين بالجدار الأيمن للشاحنة، وقد اخترت هذا المكان بسرعة حتى نستطيع الاتكاء على الجدار، سرعان ما توافد المزيد من الشبان والرجال إلى مكان وقوف المجموعة الأولى، ووقف عدد منهم بالقرب منا مما جعلنا نبتعد قليلاً عن الجدار، لكن مازال باستطاعتنا أن نسند أيدينا عليه، من ثم بدأ أفراد العائلات في الصعود، وقد ساعدهم في ذلك الأدلاء ومن تبقى من الشبان، جلسوا وسط المكان تبعهم بقية الشبان، شرح الدليل الرابع لزاك كيفية فتح أبواب الشاحنة حينما يحين وقت القفز منها، وزاك يتابعه بانتباه وحقيبته على ظهره! زوده برقم السائق، وأغلقوا بعد ذلك الأبواب، وعلى الفور انطلقت شاحنة حفظ اللحوم بسرعة، كان من السهل بعض الشيء أن نحافظ على ثباتنا أثناء سيرها على الطريق الترابي، لكن ما أن استدارت بقوة لتدخل في الطريق السريع المعبد حتى تساقط معظمنا إلى الجهة اليمنى، رافقه صوت الضحك والسخرية، أصبحت الشاحنة أكثر استقراراً في سيرها على الطريق المعبد السريع بدا الأمر مقبولاً، حاول البعض العودة والوقوف بالشكل الذي حدده الدليل الرابع أي متراصين خلف بعض، لكن الأمر لم ينجح، فحافظ كل واحد على وضعيته الحالية.

يبلغ طول البراد الذي نحن بداخله حوالي عشرة أمتار أما العرض فهي ثلاثة أمتار كأبعد تقدي، وهو مزود بعدد من مصابيح صفراء خافتة موزعة على طول السقف وبين تلك المصابيح ثلاث فتحات للتهوية، الفتحة الواحدة بطول أربعين سنتيماً وعرض ثلاث سنتيمات تقريباً، ذلك هو مقاس الفتحة الواحدة، وللبراد بابين محكمي الأغلاق، لا يدخل

منه الهواء، تم تعديل هذا الباب ليفتح من الداخل أيضاً، بعد حوالي ربع ساعة من ركوب الشاحنة البراد بدأ البعض في نزع سترته الشتوية، ارتفعت حرارة الداخل بشكل ملحوظ، وبعد قليل انضممت للبقية ونزعت سترتي، أدركت أن الأمور ستصبح أكثر صعوبة بعد قليل، وعلى الفور أخرجت الكاميرا وقمت بتصوير مقطع قصير لداخل البراد وقد حفظ المقطع على الذاكرة الداخلية للكاميرا، كوني نزعت بطاقة الذاكرة منها، ومن ثم أعدت الكاميرا إلى جيب بنطالي، نظرت إلى ماد فوجدته متعرقاً، أسندت يدي اليسرى إلى الجدار وأمسكت السترة باليد اليمنى، أما قدماي فلا أستطيع تحريكها، فهي محاصرة تماماً بالأقدام من حولها، بعد عشر دقائق أصبح الداخل أشبه بالفرن فالحرارة مرتفعة، تذمر البعض متمنياً أن نصل بسرعة قبل أن تسوء الأمور أكثر من ذلك، توقفت الشاحنة أمام حاجز، سكت الجميع، سمعنا السائق يتكلم مع الجندي بضع كلمات ومن ثم انطلقت مجدداً، شعرنا براحة كبيرة لذلك، ها نحن نجتاز أول حاجز، خلع ماد قميص الصوف وقد فعل ذلك عدد من الرجال والشبان من قبله، تتابعت عمليات خلع الثياب، شعرت أن الهواء أصبح أقل في الداخل، أصبحت عملية الشهيق بحاجة إلى جهد أكبر من ذي قبل، بدأت استنشق كمية أكبر من الهواء الساخن عن طريق أنفي وفمي في الشهيق الواحد، رافق ذلك ضيق في صدري، سقط رجل في منتصف العمر يقف إلى جانبي وقد اسند ظهره على الجدار، ركله شاب وقال:

- انهض أيها الكاذب، تريد أن تمثل دور المغمى عليه حتى تجلس قليلاً.

رد ذلك الرجل بلسان ثقيل:

- لا أمثل ... أنا مريض ... مريض.

ومن ثم أخرج من جيبه بخاخاً أزرق اللون، بخ في فمه عدة بخات، أسرع ماد إليه وأمسك من يده ذلك الدواء ليبخ هو أيضاً في فمه ثلاث بخات، سألته:

- ماذا تفعل؟

- بداخله هواء منعش.

رفع الرجل يده بصعوبة وقال:

- اعد لي الدواء يا أخي ... سأموت بدونه.

أعاد له ماد البخاخ، فوضعه في جيبه، نادى أحد الشبان:

- اتصل بالسائق، أخبره أننا سنموت اختناقا إذا استمر الأمر، لم يستجب زاك لذلك.

في الوسط حيث العائلات بدأ الرجل المريض بالقلب في نزع ثيابه، صاحت أم المعاق، وابنها المعاق يجلس إلى يمينها يراقب الرجل:

- ماذا تفعل يا رجل؟ هناك بنات ونساء حولك، استح.

- أنتم من عليه أن يستحي.

ومن ثم أكمل نزع ملابسه حتى بقي بالسروال الداخلي القصير وهو أبيض واسع، وحينما انتهى من ذلك بدأ يتكلم كلاماً أقرب منه للهلوسة:

- لن يوفقكم الله، لإنكم أنانيين وأشرار... حينما نصل الحاجز التالي، سأطرق على الجدار حتى يسمع الجنود ذلك ويلقون القبض عليكم.

لم يعير أحد اهتماما لكلامه، بدأ يتساقط البعض مغمياً عليه لضيق التنفس، نادى أحدهم:

- أنت هناك، اتصل بالسائق بسرعة.

توقفت الشاحنة عند الحاجز الثاني، سكت الجميع، نزل السائق من الشاحنة ومن ثم عاد وصعد إليها وانطلق، اخرج زاك هاتفه واتصل بالسائق:

- أخي أصبح الداخل خانقاً ... نعم ... حالاً.

بعد ان أنهي الاتصال اتجه زاك إلينا وقال:

- يقول عليكم أن توسعوا فتحات التهوية حتى يدخل المزيد من الهواء.

حاول البعض القيام بما اقترحه السائق، لكنهم فشلوا، فالحديد أقسى من أن تغير الأيدي المتعرّقة من شكله، سقط أحد الشبان على مقربة مني، فتحرك لسقوطه من كان حوله، أصاب كتف أحدهم وجهي فالتصقت عدسات النظارة بعيني شعرت بحرقة بها وحينما أبعدتها عن عيني انطبع عليها ذلك العرق الذي كان حول عيني، غاب تفاصيل المكان خلف طبقة دهنية بيضاء غطت أجزاء واسعة من العدسة، اتكأ ماد بيده اليمنى على جدار الشاحنة، ومازال المريض صاحب البخاخ يجلس في مكانه، صاح مريض القلب بصوت أخفض من ذي قبل:

- الشبان يجلسون والرجال يقفون ... أين العدالة؟ ... ثم تسألون الله عن التوفيق!

بدأت اسمع صوت تنفسي العميق، استنشق هواءاً ساخناً والعرق يتصبب مني، ارتفع صوتٌ من المجموعة التي تقف بالقرب من باب البراد، بدأ يقرأ نصاً دينياً عن يوم الحساب بصوته الأجش، حاول أن يحسن صوته، لكنه سرعان ما استسلم وعاد يكمل القراءة بصوته الطبيعي، اتصل زاك من تلقاء نفسه بالسائق وسأله عن موعد الوصول، فأجابه أنه لم يتبقى الكثير! بدأ العديد من الشبان بطرق جدران الشاحنة حتى يسمع السائق نداءاتهم، لعله يقف جانباً ويفتح الأبواب قليلاً حتى يدخل هواء جديد إلى الداخل، لكن دون فائدة، نادت بصعوبة إحدى النساء الجالسات:

- عليكم بالصمود يا ابنائي، استحملوا قليلاً، فلم يبقى سوى القليل، اصبروا قليلاً حتى لا يذهب تعبنا هذا ومن قبله في الغابات سدى.

عن أي صمود تتكلمين يا عمة! فكل ما نطلبه هو القليل من الهواء، لم يتوقف السائق ولم يستجب للنداءات بعد مضي حوالي ساعة على الانطلاق , أصبح الداخل هادئاً، استسلم الجميع، الأطفال نيام، الكثير قد فقدوا الوعي، توقف الشاب عن متابعة قراءة النص الديني، صمت مريض القلب ولم نعد نسمع هلوساته والكلام عن الصمود، توقفت الشاحنة عند الحاجز الثالث، تكلم السائق مع جنود في نقاش استمر عدة دقائق انتهى بإطفاء الشاحنة، بات كلامهم أكثر وضوحاً، لكني لم أفهم شيئاً، بعد النقاش نزل السائق من مكانه ومن ثم قام إغلاق باب مقصورة القيادة خلفه، سمعنا أصوات خطوات تسير من مقدمة الشاحنة وصولاً لأبوابها الخلفية، بدأ الضرب بمطرقة على الباب ومن ثم فتح الباب الأيمن، صاح جندي بصوت مرتفع:

- أوه.

وبسرعة لفحنا هواء منعش، تلاه أصوات خطى مسرعة إليه، نادوا بدورهم مدهوشين ثم بدؤوا الكلام بنبرات منفعلة، ترافق مع ذلك أصوات التقاط صور عن طريق هواتفهم.

لقد فشلنا مجدداً، وصلت سيارة شرطة، توقفت خلف الشاحنة ومصابيحها الحمراء والزرقاء تضيء بقوة، صعد جنديان إلى مقصورة القيادة، كانت أصواتهم وهم يتكلمون بلغة هيلاس مسموعة، قام أحدهم بتشغيل الشاحنة وقد ابقوا إحدى الأبواب الخلفية مفتوحة ليدخل الهواء وذلك بعد أن ابعدوا من كان قريباً منه ومن ثم انطلقوا بنا إلى حيث لا ندري.

وصلنا إلى إحدى المخافر، نزل جندي من مقصورة الشاحنة، يرتدي بذلة عسكرية دون أي رتبة، وهو في العقد الخامس أصلع له لحية طويلة، وهو أقرب لرجل الدين منه لعسكري، نادى بالإنجليزية:

- على العائلات أن تنزل ... العائلات فقط.

وحينما رأى الجندي صعوبة نزولهم، طلب من زاك أن ينزل بعدما أبقى حقيبته في الداخل نزل وقد تبعه شابان ممن جاء مع الدفعة الثانية إلى المستعمرة، ومن ثم أفسح البقية المجال لعبور العائلات نحو الباب، لقد ساعدهم زاك ورفاقه في النزول، حينما بدأت أماكنهم تصبح شاغرة، تهافتنا إليها، أسندت ظهري إلى الجدار الأيمن وإلى جانبي ماد، زد على ذلك أن الباب المفتوح يدخل الهواء البارد للداخل، لأول مرة أشعر بالرضا لإلقاء الجنود القبض علينا، فمن حسن حظنا أنهم اكتشفوا أمرنا مبكراً لإن السائق لم يكن ينوي التوقف حتى العاصمة، غير آبه إذا مات أحد أو لا، حينما انتهت عملية إنزال العائلات صعد الشبان وزاك ومن ثم انطلقت بنا الشاحنة مجدداً ومن وراءها سيارة الشرطة، راقبت الجميع فوجدتهم بخير، عاد مريض القلب لارتداء ثيابه، وصاحب البخاخ عاد طبيعياً، توقفت الشاحنة قرب إحدى السجون في بلدة صغيرة ذات بيوت سقوفها من القرميد وشوارعها مليئة بالأشجار، ومن ثم بدأت تعود للوراء وهي تدخل إلى ساحة السجن إلى أن توقف، اقترب أربعة عناصر من الشرطة بلباسهم الأزرق من الشاحنة متفحصين الزوار الجدد ومن ثم تراجعوا مسافة عشرة أمتار وأعطوا إشارة للجندي صاحب اللحية ورفيقه السائق، اقترب الأول ورسم بأصابعه الرقم أربعة، أي أن ينزل أربعة أشخاص ومن ثم أشار إلى أن يتجهوا إلى عناصر الشرطة الأربعة والذين بدورهم بدؤوا ارتداء قفازات بيضاء وهم مصطفين إلى جانب بعضهم، اتجهت أول دفعة من الشبان إليهم، ومن بينهم زاك، استلم كل شرطي شاب من أجل التفتيش، رمى الشرطي حقيبة زاك الصغيرة بعدما أخرج منها كل ما بداخلها، من بينها عبوة الماء التي أعطيناه إياها، جلسنا نشاهد عمليات التفتيش الدقيقة تلك يشاركنا الجنديان في ذلك، اللذان صار عملهم محصوراً في النداء علينا حتى ينزل أربعة، ومن ثم يتابعون عملية التفتيش وهم صامتين أو يتكلمون في بعض الأحيان معلقين على شيء ما، انتهى تفتيش زاك دون أن يعثروا معه على الحشيش، يبدو أنه تخلص منها قبل أن نصعد للشاحنة، اقتربت أكثر من الباب حتى أذهب للتفتيش وأنتهي من الجلوس والانتظار، إلى أن أشار إلي صاحب اللحية مع ثلاثة شبان اختارهم لكونهم الأقرب للباب، نزلت متجهاً إلى أول شرطي.

انتشرت أبواب السجون حول المكان خلف عناصر التفتيش، وعلى بعد عشرة أمتار تقع الإدارة، جلس أمامها ثلاثة ضباط كبار في السن، ومن خلفهم باب الإدارة مفتوح تظهر خلاله أيقونات ذهبية وهي معلقة على الجدار، بادرني المفتش السؤال بلغة إنجليزية جيدة قبل أن يبدأ التفتيش:

- أين هاتفك؟

- لا أملك هاتفاً.

- لماذا؟

- لقد قمت ببيعه.

بدأ التفتيش بإزالة القبعة من رأسي وتفتيشها جيداً ومن ثم مد يده إلى داخل الجيب الأيمن للبنطال، قطب حاجبيه وأخرج الكاميرا وسأل وهو يحركها:

- ما هذا ... لقد قلت أنك لا تملك هاتفاً؟

- إنها كاميرا.

- كاميرا! ... برافو ... قم بتشغيلها.

فعلت ما طلب وأضاف:

- هل هي في وضعية الفيديو أم الصور؟

- الفيديو.

- قم بتحويلها إلى الصور.

قمت بتغيير الإعدادات إلى التقاط الصور وأعدتها له، أمسكها وصور بها رفاقه أثناء تفتيشهم للشبان، ومن ثم انطلق نحو الضباط الجالسين أمام الإدارة، قام بتصويرهم أيضاً وهو يتكلم ويضحك، استغربت وما أزال إلى الآن عن سبب ذلك السلوك! عاد إلي مجدداً وفي الطريق قام برمي الكاميرا فوق كومة الهواتف والأشياء المصادرة دون أن يطفأها، أكمل التفتيش، أخرج الدفتر والقلم من الجيب الثاني، قلب في صفحات الدفتر، ومن ثم أعادها بينما رمى قلم الرصاص بين الأشياء المصادرة، أخرج المحفظة وجواز السفر وبحث بداخلهم جيداً، عندما انتهى منهم ناولني إياها وقال:

- ابقها في يدك إلى جانب الدفتر.

فتش جيب السترة ومن ثم تحسس أسفلها بدقة وقال:

- ما الذي تخفيه داخل السترة بهذا الشكل؟

- إنها بطاقة ذاكرة الكاميرا.

- لماذا أخفيتها في مكان مثل هذا؟

- لإنها تحتوي على صور ومقاطع خاصة.

- مثل؟

- العائلة، ولا أريد لشخص غريب أن يراها.

أخرج مشرطاً من جيبه وفتح ثقباً أسفل السترة، مد أصابعه وأمسك بالبطاقة وأخرجها، راح يتفحصها وهو يفكر، أعادها إلى جيب السترة الخارجي الأيمن وقال:

- لقد أعدت لك البطاقة، وهذا ممنوع طبعاً.

- شكراً لك.

تنفست الصعداء، لقد أعاد لي دفتر اليوميات وبطاقة ذاكرة تحتوي صور ومقاطع لكل مراحل الرحلة.

- انزع بناطلك.

- ماذا!

- أقول لك انزع البنطال.

قالها وهو غاضب لم أعتد على هذا الشيء من قبل، لقد شعرت بالإهانة والخجل، فتحت زر البنطال بتردد ومن ثم قام هو بإنزال البنطال بقوة، بقيت بالسروال الداخلي الفضي، راح برؤوس أصابعه يضرب ويفتش المرتفعات والمنخفضات، والضرب يكون بشكل خفيف حتى تسقط الأشياء التي قد تكون مخفية هنا أو هناك، لم يقترب من الجيب الصغير الداخلي، والذي يحتوي على ورقتين من فئة المئة قمت بلفهم داخل الجيب، ربما ظنها جزء من العضو أو كان يدرك أنه جيب مخصص للمال فتقصد عدم الاقتراب منه.

- ارفع بناطلك واخلع حذاءك.

حان دور المرسينية، رفع الفردة اليمنى، طواها بصعوبة ومن ثم عصرها، أخرج الإسفنجة من داخلها، وبحث بداخلها عن طريق مصباح صغير، فعل نفس الشيء مع الفردة الثانية، ومن ثم رماها على الأرض، وفيما أرتدي حذائي أشار إلى باب السجن الذي خلفي وقال:

- اذهب وقف هناك.

وقفت إلى جانب حوالي خمسة عشرة شخصاً هناك، وحينما بتنا حوالي الثلاثين شخصاً بما فيهم ماد، جاء أحد الضباط ممن يجلسون أمام الإدارة وهو يحمل هراوة سوداء بيده، انتقى المفتاح المناسب من بين مجموعة مفاتيح يحملها، وأمرنا بالدخول وهو يتكلم بعبارات وكلمات وهو غاضب، واللافت أن كل عناصر الجيش والشرطة يكثرون من استخدام كلمة " مالاكا " كأداة نداء للاجئ، حفظتها جيداً وعندما يتوفر لدي هاتف سأبحث عن دلالة هذه الكلمة.

كنا في بداية الصباح حينما دخلنا السجن، على الجدار الأيمن هناك مدخل حمام، أنطلق إليه أول من دخل إلى السجن، انتظرت حتى خف الازدحام، حينما دخلت ذلك الحمام وجدته معتماً بعض الشيء، فلا مصابيح هناك، غير نافذة صغيرة في الأعلى يدخل منها ضوء النهار وهي مسيجة بشبك من الحديد، مكان قضاء الحاجة ثلاث غرف صغيرة بدون أبواب كانت من القذارة ما يستحيل الدخول إليها، لهذا كان علينا أن نتبول ونحن واقفين أمام ذلك المرحاض، على الفور فتحت زر البنطال وأنزلت ما كان خلفه وبدأت التبول، سرعان ما سال بولٌ له لون ما بين البرتقالي والبني على أرضية المرحاض المتعرجة من القذارات الصلبة والسائلة، ذهب البول بعيداً منتشراً في المكان وعندما شعرت بالاكتفاء رفعت وأغلقت، بعد ذلك حان دور شرب الماء، كانت هناك مغسلتان مقابل تلك الغرف الصغيرة، وهي بصنابير معطلة، يسيل منها الماء بغزارة ودون توقف، امتلأت المغاسل بالماء ومن ثم راح الماء يتساقط نحو الأرض من أطراف المغسلة، لا يمكن شرب الماء بتقريب الرأس من الصنبور لبعدها و أيضاً بسبب الماء النازل من المغسلة، ليس من الحكمة أن يبلل الشخص ثيابه في ذلك البرد، ولا أقول أن يتجنب إصابتها بالقذارة فنحن حينها كنا عبارة عن كتلة من القذارة، ابتعدت قليلاً عن المغسلة شمرت عن ساعدي الأيمن، مددت يدي اليمنى إلى أسفل الصنبور وغسلتها بالماء، كونها لم تغسل منذ أحد عشر يوماً، جمعت أصابعي إلى بعضها، ملأت كفي بالماء ومن ثم

سحبتها بسرعة لأشرب ما بداخلها، لا أدري مقدار الماء الذي شربته، لكني أكثرت الشرب، وهذا طبيعي لسببين، الأول كوننا تعرقنا كثيراً داخل البراد والثاني أني أكثر دائماً من شرب الماء وذلك من طبيعة جسمي فسرعان ما أشعر بالعطش، عدت إلى السجن وإذا بالجميع مستلق على الأرض، يتكلمون بلغات ولهجات مختلفة، كذلك الأمر بالنسبة إلى جدار السجن حيث امتلأت بكتابات وتواريخ مختلفة، تمددت على الأرض المغبرة الباردة، لقد خسرت وسادة بخسارة الحقيبة، ولا مجال لاستبدالها بحذائي، فهذه أصبحت رطبة إلى حد كبير من ماء المغسلة، زد على ذلك رائحتها بما علق عليها من الأقذار، جعلت من ذراعي وسادة ونمت.

انتفضنا فجأة مستيقظين من النوم، أخذ أحد الضباط بضرب الباب بالهراوة وركله بقدمه بشكل مستفز , مصدراً أكبر قدر ممكن من الإزعاج , يرافق ذلك سيل من الكلمات يبدو أنها شتائم، أمام باب غرفة السجن توقفت عربة زرقاء تماماً مثل التي أعادتنا إلى النهر بعد المحاولة الأولى مع المهرب جاد، فتح الضابط أبوابها الخلفية ومن ثم باب السجن وهو يقف ويشير بالهراوة أن نصعد، وعلى الفور صعدنا إليها لكنها لم تكون مزودة بمقاعد مثل المرة السابقة، كنت من أوائل الأشخاص الذين يصعدون إلى داخل العربة، جلست في الزاوية اليسرى ومن ثم تتابع دخول البقية وقد تلاصقنا إلى أخر حد ممكن، لكن الضابط لم يغلق باب العربة، أبقاها مفتوحة، كنا نسمع أصوات خروج بقية اللاجئين إلى العربات، كانت هناك عدة عربات، كنا نسمع أصوات بقية أبواب السجون وهي تفتح، يليه صعود الأشخاص إلى العربات، أغلق الضابط الباب علينا، أصبح الداخل مظلماً، كانت هناك نافذة مربعة الشكل صغيرة الحجم على الجدار الملاصق لمقصورة قيادة العربة، بالصدفة وفيما أعدل من وضعية الجلوس وجدت نقطة مضاءة صغيرة للغاية، وهي ثقب بين نقاط اللحام الواصل بين الجدار المطل على المقصورة والجدار اليسار.

بعد حوالي نصف ساعة انطلقت جميع العربات، صار بإمكاني من خلال هذه النقطة الصغيرة أن أراقب المكان من حول العربة وأنا اعلم أننا في الطريق إلى النهر، سارت العربة في شوارع البلدة التي شاهدناها من الشاحنة، بدأ أحدهم يتكلم بلهجة إحدى الدول التي لا حرب فيها، إنما جاء لينتحل صفة لاجئ، وقال:

- أغلب الظن أننا نتجه إلى مخيم اللاجئين، لهذا إذا سألوكم هناك من أي دولة أنتم، أجيبوهم باسم أي دولة مازالت الحرب فيها قائمة.

مازال يأمل أن تكون الأمور تتجه نحو الأفضل، يعتقد أننا في الطريق إلى المخيم حيث الشوربة والخبز وبعد استراحة قصيرة تبدأ مرحلة أخذ معلوماتهم وتسجيلهم كلاجئين وحصولهم على أوراق ثبوتية مبنية على معلومات كاذبة، حيث سيتكمنون لاحقاً من التنقل والسفر بها كيفما شاؤوا، قلت لهم:

- اسمعوا حتى اختصر عليكم الطريق، إذا بقيت العربة تسير على طريق معبد إذن نحن بخير، أما إذا انتقلت إلى طريق ترابي، بذلك يكون الأمر قد انتهى.

أكمل نفس الشخص كلامه دون أن يعير انتباهاً لما قلته وأكمل:

- هناك ثلاث دول مازالت الحرب فيها قائمة، سأعطيكم مجموعة من المعلومات عليكم حفظها جيداً، وهي تشمل: اسم الدولة – العاصمة – أهم المدن – العملة.

ومن ثم بدأ بإعطاء التفاصيل، أكملت مشاهدة الطريق الذي تسير عليه العربة ومن حوله السيارات والشاحنات التي في طريقها نحو البلدة، راح يكرر الشخص الذي بجانبي ما يمليه عليه ذلك " المعلم " من معلومات حتى لا ينساها لحظة أخذ المعلومات منه في المخيم، خففت العربة من سرعتها وانعطفت إلى طريق ترابي، انقطع معها الأصوات داخل العربة من المعلم ومن يكرر معلوماته حتى يحفظها، توقفت العربة وانطفأ محركها، وبعد وصول بقية العربات لف صمت مطبق المكان، بدأنا نسمع أصوات النزول ومشيها على الطين، لم أرى من الثقب سوى الأشجار، بينما صوت النهر يسمع بوضوح، فتح فجأة باب عربتنا، وضع نفس الضابط الذي أيقظنا في السجن سبابته اليمنى أمام فمه، في إشارة أن نسكت ومن ثم بدأ بإنزالنا واحداً تلو الأخر، وكل شخص ينزل، يقوم الضابط بخفض رأسه إلى الأسفل، أي أن ينظر إلى الأرض وأن يتقدم إلى الأمام، وقبل أن أخفض رأسي رأيت على مقربة منا ثلاث عربات مدرعة مدولبة كحلية اللون أمامها حوالي عشرة جنود ملثمين يرتدون بذلات سوداء و يحملون بنادق سوداء، تقدمت متجهاً نحو صف ثنائي طويل، الكل فيه يجثو على ركبتيه ينظر إلى الأسفل ويضع يده اليمنى على كتف الشخص الذي أمامه، ثم بدأ الجنود الملثمين المسلحين ببنادق المشي إلى جانبنا، فجأة سمعت أصوات قيام البعض في المقدمة يرافقه صيحات مرتفعة أغلب الأحيان، تناقصت الأعداد من أمامي، وقف جندي بالقرب مني راح يراقب شيء ما، لم أرى من الجندي سوى حذاءه العسكري الأسود وقد كان نظيفاً لماعاً به القليل من التجاعيد في المقدمة، تحديداً على أطراف الأصابع، بعد توقف دام لدقيقة تقريباً، أكمل سيره نحو مؤخرة الصف، تلمست قبعتي بعدها رقبتي، وجدت شيئاً قاسياً على مؤخرة

الرقبة، لمستها برؤوس أصابع يدي اليسرى وإذا هي بجرح جاف، متى وأين جرح هذا المكان، لا أتذكر، أمرنا الضابط أن ننهض، كنا حوالي خمسة عشرة شخصاً، نهضنا من تلك الوضعية المتعبة واتجهنا حيث وقف ثلاثة عناصر من الشرطة على سكة حديد وهم يحملون عصياً بأيديهم وعلى مقربة منهم كان قارباً مطاطياً فضياً يقف بانتظارنا، حينما بدأنا السير أبقينا رؤوسنا نحو الأسفل، وجه عدد من حاملي العصي الضرب لأربعة أو خمسة شبان، فالضرب كان مزاجياً ومن الجيد أني لم أتلقى منها شيئاً، عندما مررت من أمامهم فقط كانوا يهزون عصاهم وكأنهم سيضربون في أي لحظة، صعدنا القارب، ومن ثم قام جندي ملثم بقيادة القارب إلى الضفة الأخرى من النهر حيث الأناضول، نزلنا منها ومن ثم عاد مجدداً لينقل دفعة أخرى.

ما إن يقوم القارب بإيصال دفعة إلى الضفة الثانية حتى يبدأ أولئك الأشخاص الواصلين لتوهم بشتم الجنود بأعلى أصواتهم، شربنا قليلاً من ماء النهر، بللت عدسات النظارة ومن ثم مسحتها بجزء من القميص الأبيض الداخلي، أصبحت الرؤية بعد ذلك أفضل، تجمعنا مجدداً، أنا وماد ونادو ومجموعته بما فيه زاك، أي ستة أشخاص، أوصل القارب المجموعة الأخيرة وفيما يعود توقف فجأة وسط النهر، حمل كيساً أسوداً مليئاً بالهواتف والأشياء التي صادروها منا، ومن بينها الكاميرا ومن ثم رماها في النهر، وأضاف بعدها بالإنجليزية بلغة متحدية:

- عودوا ثانية.

حينها بدأ الجميع يكيل الشتائم بأصوات مرتفعة، أحدهم قام بتحريك نصفه الأسفل إلى الأمام والخلف عدة مرات وهو يتوعد، كان يريد أن يفهم الجنود في الطرف الأخر أنه يريد أن يضاجعهم يوماً ما، استمرت الشتائم والصيحات، صاح أحد الشبان على الجنود:

- سنعود إليكم مجدداً يا " مالاكا "

أها كلمة مالاكا مجدداً، لكن بشكل معاكس هذه المرة، ابتعد الجنود والشرطة عن المكان فلم يبقى أحد منهم على ضفة النهر سوى القارب، انشغل أغلب الموجودين بشرب الماء من النهر أو الوقوف وهم لا يعرفون ماذا سيفعلون، نادى مريض القلب:

- أرأيتم ... لقد أخبرتكم أن الله لن يوفقكم!

ثم ابتعد بعدها قليلاً وراح يتبول أسفل إحدى الأشجار.

قيد وصمت

التفت زاك حوله وقال:

- علينا أن نغادر هذا المكان بأسرع وقت ممكن.

سمع ذلك الكلام عدد من الشبان كانوا يقفون على مقربة منا، اتجه أحدهم إلينا وهو شاب قزم له وجه مليء بأثار الحروق فقال:

- سنرافقكم أيضاً، نحن ثلاثة فقط.

لم يفكر زاك طويلاً وأجاب: " طيب ... هيا بنا ".

بذلك أصبحت مجموعتنا من تسعة شبان، كان زاك يدرك جيداً أن زيادة العدد تعني تخفيفاً من أعباء اجرة العربة الخصوصية التي ستنقلنا للعاصمة، لكن في المقابل يعرضنا ذلك لخطر الكشف من قبل الدوريات، على العموم بات مصيرنا معلقاً بيد زاك، فهو الآن قائد المجموعة، كونه يعرف تفاصيل هذه المنطقة جيداً، والآن سيقودنا لنصل إلى العاصمة بأمان.

بدأ جمع الرجال والشبان بالتفرق، وقد انقسمنا إلى مجموعات، البعض قد غادر والبعض يتناقش في كيفية الوصول إلى العاصمة، تقدمنا زاك وقال بقلق:

- لن نمشي ... بل سنركض قدر ما نستطيع من سرعة، هذا المكان مرصود من قبل دوريات حرس الحدود وكذلك القرويين الذين سيشون بنا في حال رؤيتهم لنا.

بدأ المارثون , أصوات الطين المتطاير من أسفل الأحذية الرياضية، الأكمام وهي تحتك بجسم السترات، أصوات التنفس تصبح أعلى وأعمق، تجاوزنا الأشجار المطلة على النهر، لنصبح على طريق ترابي ضيق، و على الجهة الأخرى من الطريق كان هناك

الكثير من شجيرات التوت البري، امتلأت تلك الشجيرات بحبات حمراء داكنة، على الفور توقفنا لعدة دقائق لأكل القليل من التوت، لولا الجوع لما خاطرنا بذلك، دققت النظر على الطريق الذي نقف عليه وإذ قد ارتسمت عليه أثار إطارات عريضة تتبع لعربات قوات حرس الحدود، كنت أمضغ الحبة مضغة واحدة ومن ثم أبتلعها مباشرة، خلال هذه العملية تكون اليدان قد جهزتا حبتين جديدتين، لكني غيرت الخطة، خصصت اليد اليمنى لوضع الثمرات في الجيب الخارجي للسترة حيث ستكون زاداً لبقية الطريق أما اليد اليسرى أكملت عملها في تزويد الفم بالتوت، والعيون تراقب المكان من حولنا، قال الدليل زاك :

- انتهى وقت الطعام، لننطلق.

ركضنا عدة مئات من الأمتار على نفس الطريق، وما إن انتهت تلك الشجيرات ذات الكثافة التي يستحيل اجتيازها حتى انعطفنا إلى حقل قد تم حرثه منذ وقت قريب، تظهر في نهايته مجموعة أشجار، نزلنا إلى الحقل وبدأنا في اجتيازه بأقصى سرعة، لقد أخذ اجتياز تلك الأرض الطينية المتموجة بعض الوقت، وحين وصولنا إلى نهايته راقبنا المكان على عجل ومن ثم عاودنا نفس الأمر مع ثلاثة حقول أخرى، وأمام الحقل الرابع تمددنا تحت الأشجار، لنلتقط أنفاسنا.

كان قلبي يخفق بقوة، شعرت بجفاف في الفم والحلق، على الفور أخرجت من جيبي تلك الحبات التي احتفظت بها، لعلها تساعدني ولو قليلاً في ترطيب حلقي الجاف، وضعت كل الكمية التي أحملها وهي في حدود الأربع حبات دفعة واحدة في فمي وبدأت أمضغها، كانت أفضل من لا شيء، تذكرت أني أحمل أكثر من أربع حبات! عدت ووضعت يدي في جيبي، وجدت عدة حبات محشورة أسفل الجيب، حاولت اخراجها، لكن رؤوس أصابعي لم تساعدني في الوصول إليها، اضطررت أن أخرج بطانة الجيب إلى الخارج حتى تمكنت من الوصول إلى تلك الحبات الثلاثة.

نهض زاك منتفضاً من مكانه، قال وهو يراقب المكان من حولنا:

- هذا يكفي، هيا بنا.

على الفور أكلت الحبات المتبقية ومن ثم أعدت الجيب إلى الداخل لألحق بالبقية، بدت تلك الحقول وكأن لا نهاية لها، البعض منها تعمل الجرارات على حرثها، تجاوزنا الحقل دون أن نلتفت لسائق الجرار، فبعد عدد لا أذكره من تلك الحقول، نادى زاك بصوت متقطع:

- لقد اقتربنا، أسرعوا أكثر.

ظهر من بعيد طريق سريع تسير عليها السيارات والعربات بأعداد كبيرة، ومن خلف الطريق تظهر بعض المصانع والمعامل، وعند الحقل الأخير رفع زاك يده بعد أن خفف سرعته وتحول للمشي فقال:

- انتهى خطر الدوريات ... علينا أن نظهر أنفسنا وكأننا من سكان إحدى هذه القرى.

مرَ جرار على الطريق الذي نسير على جانبه، حملق السائق فينا إلى أن تجاوزنا، وما إن ابتعد قليلاً حتى اتجهنا إلى خرطوم ماء كبير يصب في ساقية مخصصة لري إحدى الحقول القريبة، اجتمعنا عليه وبدأنا الشرب وتنظيف ثيابنا عن طريق المسح عليه لإزالة أكبر قدر ممكن من الأتربة، تلاه غسل للوجه، لإبعاد أثر التعب عليه، لكني عدت وشربت الماء مجدداً، نظر إلي ماد وقال معقباً على ذلك:

- لقد أكثرت من شرب الماء!

- لم أرتوي من المرة الأولى.

- قد نضطر أن نركض مرة أخرى، حينها ستجد صعوبة بالغة في ذلك.

- لا أعتقد ذلك، لقد وصلنا تقريباً.

وما إن انتهينا من عملية الشرب والتنظيف، قال زاك:

- أنا أعرف هذا المكان بشكل جيد، سنتجه إلى الطريق السريع، ثم سنصعد إلى أول حافلة تتجه إلى مدينة " أدنا " ومنها إلى العاصمة، لهذا علينا أن نظهر الثقة بأنفسنا ونسير وكأننا من سكان المنطقة.

انفصلنا في مجموعتين بناءاً على طلب من زاك، الأولى من أربعة وهي تضم زاك ومجموعته مع نادو، أما المجموعة الثانية فكنت أنا وماد والشبان الثلاثة الذين انضموا إلينا بعد النهر، ابتعدنا عن المجموعة الأولى مسافة عشرين متراً، إلى أن أصبحوا على الطريق السريع، أما مجموعتنا فقد بقيت بالقرب من أشجار قريبة من الطريق، توقفت حافلة بيضاء أمام المجموعة الأولى وفتحت بابها الجانبي، أشار لنا زاك بيده، خرجنا من بين الأشجار، تباطئ زاك ورفاقه في الصعود ريثما نصل إليهم، تبعناهم في الصعود،

انتبه جميع ركاب إلينا الحافلة لحظة صعودنا وراحوا يحملقون فينا، حاولنا أن نظهر لهم وكأننا لا نكترث لهم.

من حسن الحظ أن نادو مازال يحتفظ ببعض نقود الأناضول، دفع أجرة الجميع، على أن يخصم ذلك من أجرة العربة التي ستنقلنا إلى العاصمة، وقفت أنا وأحد الشبان وسط الحافلة أما البقية فقد جلسوا على المقاعد، بقيت نظرات الريبة تلاحقنا، كان أحدهم رجل مسن يجلس على مقربة من السائق، يتكلمان في موضوع ما، حينما أصبحنا داخل الحافلة، صمتوا، وبعد قليل سمعت المسن يقول للسائق:

- لابد أنهم قادمون من الحدود.

هز السائق رأسه موافقاً وأجابه بشيء ما بصوت منخفض، لم اسمع إجابة السائق، إذن مصيرنا متوقف على السائق وركاب الحافلة، بإمكان السائق وبكل سهولة أن يقف عند إحدى الحواجز ويخبر عنا أو يتصل بالشرطة ليحدد لهم مكان وقوفه، نفس الأمر بالنسبة للركاب، إذن المسألة متوقفة على ضمير الشخص ومدى خوفه، فهو الآن يرى شخصاً غريباً متعباً، وهو أمام خيارين، أن يسلمه للشرطة لإنه قد يكون هارباً أو مطلوباً أو يتركه في حال سبيله لأنه لاجئ!

تكلمت إحدى الفتيات والتي تبدو أنها طالبة جامعة بالهاتف مع صديقتها، تكلمت بشكل طبيعي وكلامها لا يتضمن أي رموز أو إشارات، رحت أراقبها بحذر، فمن يدري! قد تمثل دور الإنسان الطبيعي في كلامها مع صديقتها وهي في الحقيقة تخابر الشرطة! ربما لا تريد الإفصاح عن ذلك حتى لا نهرب، توقفت الحافلة عدة مرات وصعد ركاب جدد، ابتعدنا عنهم قدر الإمكان حتى لا تصلهم روائحنا، راقبت السائق طيلة الوقت، لم يستخدم الهاتف لكنه استمر بالحديث مع المسن وهذا الأخير ينظر إلينا!

لم أرى جمالاً كهذا من قبل! حتى إنها تفوق العاصمة جمالاً، شوارع واسعة مزينة بالأشجار أما الشوارع الفرعية فهي مرصوفة بالحجارة، لبيوتها تصميم فريد تشبه فيه القلاع قديمة، تماثيل لأبطال يمتطون الخيول مشهرين سيوفاً وغيرها من الأمور غير المألوفة، سأعود لأزور هذه المدينة " أدنا " مرة أخرى، حينما أكون إنساناً بكرامة، لدي هوية معتبرة وجواز سفر عليه ختم دخول، لا لاجئاً مطارداً منبوذاً.

سأسير وحيداً متباطئاً

في الأزقة الضيقة ليلاً والطرق البعيدة

من أمام حارس المنارة وحراس الميناء

والثكنات وسجون الاحتجاز ومراكز الترحيل

من أمام الدوريات وأبراج المراقبة والكاميرات الحرارية

سأبحر من أمام بنادق البحارة وتحت الطائرات المسيرة

فهذه هويتي الجديدة

يا صاحب الحقل لم يعد بإمكانك طردي وسلب أجرتي

ولا إهانتي في الشارع يا شرطي

لن تستطيع أن تحطم أسناني يا جندي بعد اليوم

فأنا مثلكم إنسان.

وقفت الحافلة في إحدى المواقف داخل المدينة، نهض زاك ونزل، إذن حان وقت النزول، فتبعناه وعيون السائق تلاحقنا، أما المسن الذي كان يتكلم مع السائق فقد نزل منذ عشر دقائق في بداية المدينة، عدنا للمشي في مجموعتين، تعمد ماد التباطؤ في المشي وقال لي حينما تقدمنا الشبان الثلاثة:

- علينا أن نسير بعيداً عن المجموعة الثانية.

- لماذا؟

- ذلك القزم سيفتضح أمرنا، انظر إلى وجوه المارة كيف تراقبه.

- ناهيك عن رجال الشرطة! سيوقفنا ليدققوا في معلومتنا.

- بدون أدنى شك، لهذا دعهم يبتعدون مسافة آمنة عنا.

أصبحت المجموعة الثانية بعيدة عنا، لكننا مازلنا نراهم، أما الأولى فقد اختفت بين المارة، قال ماد مقترحاً:

- بما إننا أصبحنا في المدينة، ما رأيك أن نطلب من سيارة أجرة أن تنقلنا إلى العاصمة؟

- هذا مكلف للغاية، إن وافق أحدهم على السفر معنا أصلاً.

- طيب دعنا ننتظر ماذا سيقرر البقية، رغم أني لست متفائلاً كثيراً.

بعد صمت عاد وقال ماد:

- المهم أن نبتعد عنهم، على الأقل سيعتقد الناس أو رجال الشرطة أننا عمال عاديون أو عمال نظافة في طريق العودة إلى البيت .... والجميل أن الوقت عصراً.

في إحدى الساحات المكتظة بالناس حيث يجلس البعض على المقاعد وآخرون يطعمون الحمام أو يأكلون شيئاً، اجتمعنا نحن التسعة لنقرر كيف سنعود للعاصمة.

- المسألة ليست بحاجة إلى تفكير، بالقرب من محطة الوقود تصطف عربات وسيارات اجرة، سأحاول أن آتي بعربة لتنقلنا جميعاً إلى العاصمة، وفي حال تعذر ذلك، سآتي بسيارتي أجرة " قال زاك.

هز البعض رأسه موافقاً، لم يكن أمامنا خيار أخر، فوافقنا على الفور، وعليه أضاف زاك:

- إذن ابقوا هنا، لن نتأخر.

لم يذهب لوحده بل اصطحب معه نادو، سرعان ما اختفيا بين الزحام، راقبت المكان من حولي، لاحظ ماد ذلك وسألني:

- كن طبيعياً يا أخي.

- ماد ... إني بحاجة للذهاب إلى الحمام قبل أن نسافر للعاصمة ... يبدو أني أكثرت من شرب الماء قرب ذلك الحقل.

- ليس بوقته الآن، تحمل حتى العاصمة.

- مستحيل، لا أستطيع التحمل كل تلك المسافة.

- لا أدري ماذا أقول ... طيب كما تريد، لكن بحذر وسرعة.

- خمسة دقائق.

اخترقت تلك الجماعات وصولاً إلى شمال الساحة، حيث ضم المكان صفاً طويلاً من المطاعم ومحلات متنوعة، لم أجد أي حمام عمومي، ولم أشأ أن استخدم حمامات المطاعم الراقية، أكملت البحث وسألت عدة أشخاص وأصحاب المحلات حتى دلني أحدهم في النهاية على إحداها، وقال:

- هناك مطعم صغير في نهاية الصف ستجد عنده حماماً بالأجرة.

قصدت المكان فوراً وحينما خرجت منه بعد أن قضيت حاجتي وجدت شرطياً يقف أمام بابه، تحاشيت النظر في عينه وأكملت طريقي، وحينما مررت بجانبه قال:

- إلى أين تذهب؟

توقفت ونظرت إليه لأرى ماذا يريد، حاولت أن أبدو طبيعياً قدر الإمكان، أضاف:

- بطاقة الهوية؟

- ليست معي.

- لماذا؟

- لقد أضعتها منذ خمسة أيام.

اقترب مني وبدأ يفتشني، أخرج جواز السفر وقلب صفحاته ومن ثم أعاده، وضع يده في الجيب الأيمن للسترة حركه في داخله مفتشاً، وعندما أخرجه تلون يده باللون الأحمر، نظر إلى يده وقال:

- ما هذا! اعطيني منديلاً.

- لا أحمل مناديل.

نظر حوله، فتش في جيب بنطاله الكحلي فوجد واحدة، راح ينظف يده وهو يقول:

- توت بري ها ... لقد ألقوا القبض على معظم رفاقك، هل تدري؟

سكتُ ولم أتكلم، بقيت أراقبه وهو ينظف أصابع يده بوجه مليء بالكره، أضاف:

- لن اقيدك الآن، ستمشي معي بكل هدوء، إياك ومحاولة الهروب، هيا.

اتجه بي نحو الطريق المطل على الساحة، التقى بشرطي أخر وسط الساحة، وقال ذلك الشرطي:

- بحثت جيداً في الأرجاء، لم أجد أحداً.
- امسكت بواحد فقط.

سألني الشرطي الثاني:

- اين بقية رفاقك؟
- لقد امسكتموهم، كما قال حضرة الشرطي.
- هذا صحيح، لكن أين كان مكان الاجتماع؟
- عند أول موقف للحافلات القادمة من الريف.
- وماذا كنت تفعل هنا؟
- جئت لأشتري شيئاً نأكله.

قال الشرطي الثاني مقترحاً:

- علينا أن نبحث في ذلك المكان أيضاً.
- سنذهب بعد أن أسلم هذا لحافلة الموقوفين.

كان كل همي وتفكيري حينها هو ألا يكونوا قد قبضوا على أخي أيضاً، رُكنت حافلة بيضاء كبيرة إلى جانب الطريق الملاصق للساحة، وعلى الفور رحت اتفحص تلك الرؤوس التي تظهر من نوافذها، لم أجد أياً منها عليها قبعة كحلية من الصوف، حينما وصلنا إلى الحافلة، كانت ما تزال تهدر منتظرة صعود ضيوف جدد لتنطلق بهم إلى المحطة التالية، ومن خلفها تقف سيارة الشرطة، وقف الشرطيين أمام الباب الأمامي للحافلة ولم يتحركوا من أمامها إلا أن أصبحتً داخل الحافلة، كان هناك شرطي ثالث يقف بالقرب من السائق وأشار أن أجلس في الداخل، سمعته يسأل الشرطيين:

- واحد فقط؟
- هذا ما عثرنا عليه. أجاب الشرطي الذي ألقى القبض عليَ بتأفف.

- مازال هناك مكان للمزيد في الداخل

- أعرف ذلك ... طيب سنذهب ونبحث في مكان أخير.

هز الشرطي داخل الحافلة رأسه موافقاً وطلب من السائق أن يغلق الباب ويكمل مرافقة سيارة الشرطة، جلست على إحدى المقاعد الأخيرة وتنفست الصعداء، لم يكن ماد بينهم، كانوا خمسة عشرة موقوفاً، أغلبهم ممن كنا سوية في البراد، وبعض الوجوه كانت جديدة علي، ربما أيضاً كانوا معنا، لم أعد أتذكر كل وجوه الشبان والتي كانت تزيد عن المئة، بدأت الحافلة تسير ببطء خلف سيارة الشرطة في شوارع تلك المدينة الجميلة، لقد تأكدت من شيئين الأول أن ماد وبقية تلك المجموعة قد نجوا من الاعتقال إلى حد هذه اللحظة، الثاني أن الأمور لن تكون لصالحي بعد الآن خاصة أني بصمت على تعهد سابق بعدم تكرار محاولة الخروج من البلاد بطريقة غير شرعية، لكن مازال هناك أمل صغير، فمن يدري ربما لن يقوموا بترحيلنا إلى بلادنا، بل سيعيدوننا إلى العاصمة كما المرة السابقة.

توقفت الحافلة وسيارة الشرطة على بعد أمتار من الموقف الأول للحافلات القادمة من الريف، انتظرنا حوالي نصف ساعة، بحث خلالها الشرطيين عن اللاجئين، لكنهم لم يعثروا على أحد، رفع الشرطي الذي ألقى القبض على يده اليمنى، أمر الشرطي الذي في الداخل السائق أن ينطلق، لم يستغرق الأمر طويلاً، بعد ربع ساعة كنا في المركز الأمني الخاص باللاجئين، وهي المرة الثانية التي اقتاد إليها.

توزع في المكان العشرات من اللاجئين من شبان وعائلات، توقفت حافلتين متوسطة الحجم وسط الساحة بالقرب من بعضها، طلب منا الشرطي أن نتبعه إلى الداخل، توقفنا في صف واحد خلف بعضنا، بدا الأمر طبيعياً لحظة الدخول إلى مكتب أخذ البصمة فبعد أن يبصم كل شخص على الجهاز الماسح للبصمات كان الموظف الذي يجلس خلف الحاسوب يحدد للشرطي الذي يقف بالقرب من الباب إلى أي حافلة أن يصعد عليه الشخص، لم يكن هناك سوى إثنين، الحافلة الأولى أو الثانية، حينما بصمت، دقق الموظف في المعلومات وصمت، بعدها قال : الحافلة الثانية، أشار الشرطي إلى الحافلة الثانية وقال:

- توقف بالقرب من تلك الحافلة التي في الوسط ولا تتحرك بعيداً عنها.

حركت رأسي موافقاً، وأنا آمل في العودة إلى العاصمة كما في المرة السابقة وإن كان الأمل ضعيفاً، توافدت المزيد من حافلات الموقوفين إلى المركز وسرعان ما تم فرزهم،

إلى أن أصبح عددنا حوالي العشرين، صعد سائق متقدم في السن إلى الحافلة وقام بتشغيلها وفي نفس اللحظة تقدم عنصران من الدرك بلباس مدني، وفوق القميص لبسوا واحدة أخرى بدون أكمام، نصفها الأعلى أحمر والأخر أزرق، وقد كتب في الخلف " الدرك " حمل كل واحد منهم بندقية قصيرة سوداء، بالإضافة إلى أن أحدهم يحمل أصفاد بلاستيكية بيضاء، نادى العنصر الأول وهو طويل بوجه شاحب يبدو أنه أعلى رتبة من الثاني :

- قفوا في صف واحد أمام باب الحافلة.

فتح باب الحافلة بشكل آلي، قام العنصر الثاني بتثبيت بندقيته إلى ظهره وأمسك القيود بكلتا يديه، كنت في أول الصف، فقال لي:

- قم بتقريب يديك إلى بعضهما.

ومن ثم لف حول المعصمين ذلك الصفد وشدها بقوة حتى التصقت اليدان ببعضهما تماماً، وأردف:

- اصعد إلى الحافلة بسرعة.

جلست في المقعد الثاني من الجهة اليمنى، بدأت أشعر بألم فظيع في المعصم، حينها تلاشت كل الآمال في العودة إلى العاصمة، تتابع صعود البقية إلى الحافلة إلى أن امتلأت تقريباً، ثم صعد العنصران وقال الأول:

- لا أريد أن اسمع صوتاً أو أرى حركة، التزموا الهدوء.

أغلق السائق الباب ومن ثم انطلق إلى خارج المركز، جلس الدركي الأول إلى يمين السائق وهو يطل بوجهه إلينا أما الثاني جلس على المقعد الأول من الصف الذي خلف السائق، خلال ساعات الليل ايقظني صوت حركة في الحافلة، حينما فتحت عيني وجدت إحدى السيارات تقف بجانب الحافلة فيما الدركي الطويل قد نزل إليها لشيء ما، أما الثاني بقي واقفاً أمام الباب، بعد قليل صعد الأول وبيده صندوق، قام بتسليمه لرفيقه فيما عاد هو وجلس يراقبنا، وضع الدركي الثاني بندقيته على كتفه ويده اليسرى اسفل الصندوق وباليمنى بدأ بتوزيع أكياس بيضاء صغيرة علينا، أعطاني إحداها فوضعتها على ركبتي و برؤوس أصابعي بدأت فتح العقدة التي تربطها من الأعلى لكنها كانت مربوطة بإحكام، فقد غدت العقدة أشبه بكتلة صلبة، اخترقت بأصابع يدي إحدى أطراف الكيس ومزقته ومن ثم رحت أتمعن ما بداخله، علبة بسكويت خضراء اللون وأخرى أصغرى منها

تحتوي على ست قطع مزدوجة، بالإضافة إلى علبة عصير برتقال صغيرة بحجم الكف عليه صورة طفل يبتسم، بأقل من عشر دقائق كانت أصوات الأكل قد توقفت تماماً في الحافلة، أما أنا فقد انهيت وجبتي بأقل من تلك المدة، قمت بإعادة الأوساخ إلى نفس الكيس ومن ثم تعليقه على شبك يقع أسفل الكرسي المقابل لي، والدركيان كانا يراقبان الوضع بكل رضا، في إحدى محطات الوقود توقفت الحافلة نزل منها الدركي الأول إلى الداخل ومن ثم بدؤوا في انزالنا على شكل مجموعات، كل مجموعة مكونة من خمسة شبان, دركي يحرس باب الحمام وأخر أمام باب الحافلة، وبعد الانتهاء انطلقت الحافلة إلى أقصى الجنوب حتى وصلنا صباحاُ إلى إحدى المخيمات، لم نبتعد كثيراً عن بوابة المخيم، ففي الداخل بمسافة خمسين متر كانت هناك عربة كرافان، اي غرفة متنقلة، وبإجراءات شكلية تم ارغامنا بداخلها على البصم على ورقة بسرعة ومن ثم الخروج من تلك الغرفة والصعود مجدداً إلى الحافلة، عندما انتهى الجميع قامت الحافلة بنقلنا إلى بوابة حدودية، قرب مدخل شبيه بالرواق تم صفنا في رتل واحد، انتظرنا حوالي ربع ساعة خلالها جاء الدركي الطويل وأخذ يمعن النظر فينا ثم أضاف ابتسامة لذلك الوجه الشاحب وقال:

- بلادكم بحاجة إليكم ... الآن ستعودون إليها.

رسم بيديه شكل رشاش وأضاف:

- القتال القتال ... عودوا وقاتلوا. ثم اخرج من جيبه مشرطاً حيث قام بتقطيع القيد بواسطتها ليتقدم بعدها الصف خلال ذلك الرواق، إلى أن أصبح الجميع في الجهة الثانية هناك استقبلنا رجل أربعيني يرتدي بذلة عسكرية زيتونية له لحية متوسطة الطول يشوبها الشيب، وقال: " أهلاً وسهلاً بكم في وطنكم.

تقدمت حافلة خضراء، صعد إليها ذلك الجندي من الباب الأمامي، فيما فتح لنا الباب الخلفي فصعدنا إليها، نقلتنا إلى إحدى المراكز الأمنية التابعة للمعبر، وبعد أخذ المعلومات تم تسليمنا ورقة مختومة من المعبر تفيد أننا من المرحلين، بعدها قال الجندي لنا:

- الآن بإمكانكم اجتياز الحواجز بكل أمان والعودة لبيوتكم.

كان المرأب قريباً من المعبر، وهو عبارة عن قطعة أرض مفتوحة، تصطف عليها ست حافلات صغيرة إلى جانب بعضها، وعلى الجهة اليسرى عشر دكاكين بسقوف وواجهات

من الصفيح، إحداها قد فتحت لتوها، حينما اتجهت إلى الدكان وجدت البائع في الداخل يقوم بإعادة ترتيب بعض الصناديق، فبادرته بالكلام:

- السلام عليكم.

استدار ونظر خلفه، ألقى نظرة عليَ ومن ثم عاد لعمله:

- وعليكم السلام.
- هل تقوم بصرف العملات الأجنبية إلى العملة المحلية؟
- لا، عليك انتظار الصراف.
- متى سيفتح؟
- في التاسعة ... أو بعد ذلك.
- سأشتري من عندك بعض الطعام، لكني سأدفع لك بعد أن أقوم بصرف المال.
- لا مشكلة.

اشتريت بعضاً من البسكويت وعبوة ماء صغيرة، خرجت بهم إلى جانب الدكان وجلست على الأرض، بعد قليل خرج البائع من الدكان والتفت حوله كمن يبحث عن شيء، بعدها اقترب مني وقال:

- أنت من المرحلين، أليس كذلك؟
- صحيح، كيف عرفت!
- لهذا افتح الدكان كل يوم في مثل هذا الوقت المبكر ... كل يوم تصل دفعة جديدة أو عدة دفعات.
- كيف هي أخبار العبور إلى الأناضول من هذه المناطق في هذه الأيام؟
- إذا كنت محظوظاً ستصل، أما لا فستقتل.
- لقد سمعت الأخبار التي تتحدث عن تشديد الرقابة على الحدود.

- ليس مجرد تشديد، إنما محاولة لوقفها بكل السبل، بما فيها القتل، لقد قتلوا العشرات خلال الفترة الماضية.

- لاجئين مساكين ومهربين بلا ضمير.

- منذ اسبوع تقريباً جاءني شاب من المرحلين، يقول أنه في طريق العودة من العمل إلى البيت قد أوقفته دورية للشرطة في العاصمة، وحينما سألوه عن هوية اللاجئ، أجاب أنه لا يحملها الآن، فهي في البيت، لكنهم لم يصدقوه بل قاموا في نفس اليوم بترحيله مع مجموعة من الشبان، جاءني يريد أن يشتري الماء، وقد لاحظت عليه علامات الغضب، وحينما سألته عن السبب، قص علي الحادثة، حاول خلال مساء نفس اليوم أن يدخل إلى الأناضول لكن قوات حرس الحدود قد قتلته، شاهدت صورته وهو مسجى على طاولة الموتى في مستشفى البلدة ذلك بعد أن وافقت قوات حرس الحدود على سحب جثته من بين الأشجار وإعادتها للبلدة.

" هناك الكثير من قصص المآسي التي حدثت على الحدود ".

- لكن ماذا عنك؟ ماذا قررت، هل ستعود للبيت أم ماذا؟

- أنا بين خيارين، إما أن اجازف بحياتي وأعبر الحدود كما قصة الشاب قبل قليل أو ان اتجه إلى فارس حيث العبور أكثر أماناً.

- فارس بعيدة!

- معظم من وصل الأناضول في الآونة الأخيرة قد سلكوا هذا الطريق.

- لأول مرة اسمع بهذا الطريق.

- حينما كنت في السجن قد تعرفت على أناس جاؤوا عن طريق فارس، فالمسألة بحسب كلامهم لا يتعدى سوى التعب الجسدي، فلا أحد يقتل هناك.

- إذا كان الأمر كذلك فهو أكثر أماناً لكنه بعيد للغاية، أما من هنا فالمسافة قصيرة لكن هناك خطر القتل.

- المشكلة أنه ليس لدي الكثير من المجال للتفكير.

- أنت أعلم ... سأعود إلى دكاني الآن.

عاد الرجل إلى عمله في الدكان فيما جلست منتظراً إلى أن بدأ أصحاب الدكاكين في القدوم، كذلك الأمر بالنسبة للسائقين والحافلات، بعد ساعة أصبح المكان يعج بالحركة، وصل الصراف متأخراً عن البقية، اتجهت إلى دكانه، وقد كان على واجهة الدكان صور للهواتف والعملات.

فبعد السلام اتجهت إلى خزانة صغيرة ومن خلال واجهتها الزجاجية أخذت أعاين الهواتف الموضوعة بداخلها، توقف الصراف عن مسح الطاولة ونظر إليَ قائلاً:

- هل أنت بحاجة إلى هاتف؟
- نعم، لكني أريد الأرخص من بينهم.
- تلك البيضاء، التي في الأسفل.
- كم سعرها؟
- مئتا ألف.
- مئتا ألف! أريد أن اصرف ورقة من فئة المئة إلى العملة المحلية، فكم تساوي؟
- تساوي ثلاثمئة ألف.
- ما هذه الأرقام الفلكية!
- الوضع يزداد سوءاً ... الآن كيف أستطيع أن أساعدك؟
- أريد هذا الهاتف وكذلك صرافة مئتين إلى العملة المحلية.

على الفور ترك ما كان بيده واتجه إلى الخزنة، وفيما يخرج المال قال:

- لإنك صرفت هكذا مبلغ واشتريت هاتفاً، سأعطيك خط اتصال مجاناً.
- شكراً لك.

وبعد الانتهاء من الصرف وشراء الهاتف، أخرجت الصفيحة التعريفية ونقلت منها رقم ميلا إلى الهاتف، لقد كانت أول من تواصلت معه وقد صدمت حينما عرفت أني عدت " للوطن " بعدها أضافت:

- وماذا تريد أن تفعل الآن ... ما هو الحل؟

- الحل ما أراه مناسباً.
- حاول أن تدخل إلى الأناضول من نفس الطريق الذي سلكته مع أبي وماد.
- لا أدري، لم أقرر بعد ... هل اتصل بك ماد؟
- نعم لقد تكلم معي البارحة وقال " إننا بخير" لم يخبرني أنهم ألقوا القبض عليك.
- لإنه مازال يأمل أن يتم الإفراج عني ... ارسلِ لي رقم هاتفه.
- حاضر، لكن لا تبخل علي بالرسائل.
- سأخبرك بكل جديد، سلام.

منذ أن قيّد الدركي يدي في مركز اللاجئين وأنا أعلم أن الاحتمال الأكبر هو أني أصبحت من عداد المرحلين، لقد فكرت ملياً خلال رحلة نقلنا إلى المخيم ومن ثم المعبر، فوصلت إلى نتيجة آثرت فيها الأمان على التعب، وعليه عزمت العودة إلى الأناضول عن طريق فارس، فهذا الطريق أكثر أماناً وإن كان صعباً، حتى أن الرجل وزوجته الحامل وكذلك العائلة التي تضم شابين وفتاتين ممن كنا سوية خلال الرحلة الأولى قد سلكوا هذا الطريق ووصلوا إلى الأناضول.

دفعت لصاحب الدكان ثمن الطعام والماء الذي اشتريته منه وقد تمنى لي التوفيق في رحلتي المقبلة ومن ثم اتجهت إلى مجموعة من الرجال كانوا جالسين بالقرب من حافلة صغيرة سوداء مغبرة.

- السلام عليكم.

اتجهت تلك الوجوه الستة إلي وأجابت:

- وعليك السلام.
- أريد أن اسأل عن الحافلة التي ستنطلق إلى حدود نينوى.

فجأة ضحك الجميع، وقد بالغوا في ذلك، بدا وكأنه من صميم قلبهم، وقفت انتظر حتى ينتهوا حينها قال أحدهم وهو يرتدي ثوباً فضياً كان صوته يرتجف من الضحك وقد استفزني ذلك كثيراً:

- ماذا تريد أن تفعل هناك؟

- اريد أن أذهب إلى بيتي، اليوم تم ترحيلي من الأناضول.

- هل تدري كم هي المسافة من هنا إلى حدود نينوى؟

- مئات الأميال؟

- صحيح، بالإضافة إلى ذلك أنها مليئة بمدن وقرى مشتعلة بالمعارك.

- ما العمل إذن؟

- اسمع، أقصى نقطة من الممكن أن تصل إليها انطلاقاً من هذا المرآب هي حتى مدينة " منج " بالقرب منها معبرٌ يفصل بين القوات الحرة وقوات الزملاء، أما بعد ذلك فعليك أن تتدبر أمرك.

- من هو صاحب الحافلة المتجهة إلى المعبر؟

- أنا، قالها شاب في العقد الثاني من العمر، يرتدي ثوباً أسوداً.

- أريد أن أتكلم معك على حدة.

نظر إلى رفاقه مستغرباً، ثم نهض من مكانه ومشى إلى جانبي، وحينما أصبحنا بعيدين عن تلك الجماعة سألته:

- هل بإمكانك أن تساعدني في الوصول إلى نينوى؟

- فقط حتى المعبر، بعدها ستدخل بسهولة من المعبر إلى منطقة سيطرة الزملاء، كونك من سكان إحدى تلك المدن، بعد ذلك عليك أن تجد مهرباً يدخلك إلى نينوى، وذلك سهل أيضاً.

- لا أستطيع فعل ذلك، فأنا مطلوب للزملاء، أريد مهرباً يأخذني من هنا إلى داخل نينوى.

فكر السائق الشاب قليلاً ومن ثم قال:

- ليس من عملي أن أذهب أبعد من المعبر، لكني سآخذك إلى رجل أظن أنه ساعد الكثير من الشبان المرحلين في الوصول إلى نينوى.

- وهذا ما أريد، خذني إليه الآن.

- سأتواصل معه، لكن عليك الآن أن تأتي وتجلس معنا ريثما يصل.

عدنا أنا والسائق إلى تلك الحلقة، حينما وصلنا إليهم توقفوا عن الكلام مفسحين المجال لننضم لمجلسهم، سأل أحدهم:

- لماذا كل هذه السرية! تكلموا أمامنا.

أضاف أخر:

- ربما نستطيع مساعدتك.

أجابه السائق وهو يراسل أحدهم عن طريق الهاتف:

- يريد أن يصل إلى نينوى، وهذا كل ما في الأمر.

لم يعقبوا على ذلك، ظلوا صامتين إلى أن سألني أحدهم:

- لماذا تم ترحيلك من الأناضول؟
- لأني سافرت إلى العاصمة بدون إذن سفر.
- لهذا السبب!
- نعم لهذا السبب.
- طيب تكلم لنا بالتفصيل عما جرى لك.
- لاحقاً، عليَ إجراء اتصال الآن.

نهضت من بين أولئك الفضوليين بحجة الاتصال وجلست مستنداً إلى إطار حافلة لا تبعد كثيراً عنهم، ومن ثم أخرجت هاتفي حتى يصدقوا كلامي، تذكرت أن أراسل ماد حتى استفسر عما يخطط له، ريثما يصل المهرب، لكن ماد لم يستجب للرسائل التي أرسلت له، فكرت بالعودة إلى مجلس السائقين، لكنني ترددت في ذلك، فأنا لا أدري أي واحد منهم سائقاً أو سائقاً وقاطع طريق، رن الهاتف معلناً وصول رسالة، وقد كانت من ماد، وعلى الفور بدأت مراسلته:

- كيف حالك يا ماد؟
- بخير، أين أنت الآن؟

- في المستنقع مجدداً.
- لقد توقعت ذلك، حينما ذهبت أنت إلى الحمام جاء زاك ونادو بعربة صغيرة لتنقلنا إلى العاصمة، لقد طلبوا مني أن ألحق بك لتأتي بسرعة، حينما وصلت شاهدت شرطياً يقوم بتفتيشك، غادرت المكان بسرعة متجهاً إلى العربة حيث طلبت من السائق أن يقف على بعد مسافة آمنة من سيارة الشرطة التي كانت بالقرب من الساحة، حينما رأيت الشرطي يطلب منك الصعود إلى الحافلة عندها انطلقت بنا العربة إلى العاصمة.
- إذن كنت الوحيد الخاسر.
- للأسف يا أخي.
- هل عدت إلى المسكن العمالي مجدداً؟
- أنا الآن في الطريق إلى مدينة " مير " أريد أن أجرب العبور عن طريق البحر.
- بالتوفيق، لكن لا تنسى أن تشتري بذلة نجاة.
- بالطبع سأشتري، كذلك طوق نجاة احتياط.
- مع السلامة.

وقف رجل في أواسط العقد الرابع من العمر بالقرب من مجلس السائقين، يلبس ثوباً أسوداً وشماغاً مخططاً بالأبيض والأحمر يثبته عقالاً فوق رأسه له وجه أسمر بذقن بيضاء قصيرة، نهض السائق الشاب وتقدم مع ذلك الرجل نحوي، نهضت من مكاني ومشيت إليهم لنلتقي في وسط الطريق، مد الرجل يده مصافحاً:

- مرحباً، كيف حالك. بصوت هادئ واثق.
- بخير، أهلاً بك.

قال السائق الشاب وهو يشير إلي:

- أيها العم، هذا هو الشخص الذي تكلمت معك بشأنه.

نظر إليَ متفرساً وأضاف العم:

- لقد أخبرني ابن أخي أنك تريد الوصول إلى نينوى.
- هذا صحيح.
- تفضل معي إلى بيتي حتى نتكلم في التفاصيل.
- المسألة لا تحتاج إلى محادثات طويلة، علينا أن نتفق هنا.
- من الأفضل أن نتكلم في سيارتي على الأقل بدلاً من الوقوف هنا.
- موافق، أين السيارة؟
- تلك هي. استدار واشار إلى عربة بيك أب فضية تقف إلى جانب الدكان الأول.
- لنذهب إليها.

عاد السائق الشاب للجلوس بين رفاقه، بينما مشينا أنا والعم إلى السيارة صامتين، إلى أن جلسنا بداخلها، حينها قال:

- يا بني الوصول إلى نينوى ليست بتلك السهولة.
- أعلم ذلك.
- فالمسافة طويلة وخطرة للغاية، كوني لن أسلك الشريط الحدودي بشكل مباشر، إنما سأقود خلال طرق صحراوية.
- كم تريد لقاء ذلك؟
- قبل الكلام عن المال، لقد أخبرني ابن أخي أنك مطلوب للزملاء.
- مطلوب للتجنيد الإلزامي لا بسبب جريمة سرقة أو قتل.
- أعذرني على الصراحة، لكني لا أعرف مدى صحة كلامك، لهذا ستكون مغامرة كبيرة أن أقوم بتهريب مطلوب، أليس كذلك؟
- اتفق معك.
- لهذا سنتعاون فيما بيننا حتى تتمكن من الوصول بسلام.
- أكيد، وأنا جاهز.

- لقد أوصلت قبلك العديد من الشبان والعائلات إلى هناك، وكنت أطلب مقابل ذلك ثلاثة آلاف وخمسمئة.

- هذا كثير، ساعدني قليلاً واخفض من الرقم.

- الكل دفع هذا المبلغ من قبلك.

- إذن لا مجال للمساعدة! هذا السعر النهائي؟

صمت قليلاً وقال بعدها:

- طيب ثلاثة آلاف، كلام نهائي، ولا تحاول أن تفاوض أكثر.

- اتفقنا، متى موعد الانطلاق؟

- متى ما أردت.

- الآن.

- وماذا عن المال!

- سأتصل بهم الآن ليضعوا المبلغ في مكتب التأمين.

- حسناً هيا بنا.

قام بتشغيل السيارة وانطلق خارج ذلك المرأب، وفي الطريق سألني:

- هل لديك أخ؟

- أجل.

- كم هو فارق السن بينكم؟

- أكبره بعامين.

- مطلوب؟

- لا.

- راسله الآن واطلب منه أن يرسل لك صورة عن هويته الشخصية.

- حتى استخدمها!

- أجل، سنقوم باستخراج صورة عنها ... راسله بسرعة.

لم يتأخر ماد في الاستجابة لطلب الصورة، قام بتصوير وجهي الهوية وأرسلها برسالة.

- لقد أرسلها.

- دعني أرى .... جيد، إنه يشبهك.

- لقد طلبت منهم أن يضعوا المبلغ في مكتب التأمين، بعد ساعة أو ساعتين سيكون جاهزاً.

- جيد، لن ندخل منطقة سيطرة الزملاء إلا بعد أن أتأكد من وجود المال في المكتب.

- اطمئن من هذه الناحية.

لقد تذكرت أن ابحث عن معنى كلمة " مالاكا " والتي استخدمها جنود وشرطة هيلاس كأداة للنداء، فتحت الهاتف ووضعت الكلمة في خانة البحث، وإذا بالنتائج تشير إلى أنها شتيمة مشهورة لديهم، لها عدة معان، أبسطها " الحقير "، يا لهم من مالاكا وبالأخص ذلك الجندي صاحب اللحية الطويلة، يا له من مالاكا عنصري، كان الكل مالاكا معنا باستثناء شخص وحيد، عاملني بنوع من الإنسانية وهو الشرطي الذي فتشني في ساحة السجن، على الأقل أعاد لي بطاقة الذاكرة.

فتحت الغطاء الخلفي للهاتف لأرى شكل مدخل بطاقة الذاكرة، وإذا هو مطابق لحجم بطاقة ذاكرة الكاميرا، مددت يدي إلى جيبي لأخرج البطاقة، لكني لم أعثر على شيء، عدت وكررت البحث، اخرجت بطانة جيوب السترة إلى خارجها، دون أي نتيجة سوى بعض الحمرة على رؤوس أصابع يدي اليسرى، نزعت السترة وبحثت في الشق الذي أحدثه الشرطي، والجيب الداخلي، لم تكن هناك البطاقة، أثار ذلك السائق وقال:

- هل أضعت أو نسيت شيئاً؟ بإمكاني العودة للمرأب لتبحث هناك.

- لا شيء لا شيء.

شعرت بحرقة في قلبي، هل من المعقول أني أضعتها! بحثت في جيوب البنطال، لكنها لم تكن هناك، لقد ضاعت وضاع معها عشرات المقاطع والصور بدءاً من تصوير داخل الحافلة التي نقلتنا من مدينة الميناء إلى العاصمة انتهاءاً بصورة العائلة مع ابنهم المعاق

داخل غرفتنا الصغيرة في المستعمرة، أنا متأكد أن البطاقة قد سقطت مني أثناء استخراجي لأخر حبتي التوت البري من جيب السترة، لم يتبقى من تلك الأيام سوى دفتر اليوميات وهو ما يزال معي. توقفنا أمام مكتبة لبيع القرطاسية في بلدة صغيرة، قال السائق:

- اذهب واستخرج صورة عن هوية أخيك، ومن ثم اطلب من صاحب المكتبة أن يقوم بتجليدها تجليداً حرارياً ... حينما تنتهي من ذلك انتظرني حتى أعود.

- كم يلزمك من الوقت حتى تعود؟

- عشرة دقائق.

لقد أتقن صاحب المكتبة في استخراج صورة مطابقة في الشكل للهوية الحقيقية، الفارق الوحيد بين النسخة المصورة والحقيقية أن هذه الأخيرة أثخن وأثقل وزناً، اشتريت أيضاً قلم حبر أزرق لأكمل تدوين اليوميات بعدما صادر الشرطي قلم الرصاص أثناء التفتيش، دفعت لصاحب المكتبة ما طلبه ومن ثم خرجت إلى الشارع منتظراً عودة السائق، والذي عاد بعد ربع ساعة ومعه شاب يجلس إلى جانبه، حينما توقفت السيارة لأصعد إليها، حاول الشاب أن يوسع مكاناً يكفيني وذلك بعد أن أزاح نفسه قليلاً نحو السائق، أصبح المكان ضيقاً لكن ما العمل، نظر السائق إلينا وقال:

- تحملوا قليلاً فهي بضع ساعات لا أكثر.

سألت السائق:

- ما وظيفة الأخ؟

- سيعود لاحقاً بالسيارة إلى هذه المدينة، إذا أزعجك ضيق المكان بإمكاني أن أجلسه في الخلف مكان الأغنام.

- ليس إلى تلك الدرجة.

الحواجز مجدداً ... أوقفنا حاجز يقع على مخرج البلدة، ثلاثة مسلحين مقنعين بأقنعة سوداء تظهر من تحتها لحاهم الطويلة، اقترب أحدهم ووقف إلى جانب النافذة وسأل السائق:

- إلى أين؟

- أريد أن أخذ الإخوة إلى المعبر.

توجه المسلح بالكلام إلينا وسأل:

- لماذا لم تسافروا بالحافلة المخصصة للمعبر؟

أجبته على الفور:

- لإننا على عجلة من أمرنا.

- مع ذلك ستتأخرون في الوصول، أين هي ورقة الإجازة؟

- لست في إجازة، تم ترحيلي من الأناضول.

ومن ثم ناولته الورقة التي زودنا بها المركز الأمني للمعبر والتي تثبت أني مرحل، قرأها بتمعن ومن ثم أعادها لي وسأل الشاب الذي يجلس بجانبي:

- أين ورقة الترحيل؟

- أنا من سكان البلدة، أريد أن آتي بأمي من المعبر، فهي تنتظر الآن هناك.

- كم طلب منكم السائق لقاء ايصالكم للمعبر؟

لم أتوقع هذا السؤال ولم أكن أعرف ماهي الأسعار المعتمدة، أعطيته رقماً تقريبياً من عندي لعلي أكون مصيباً في ذلك:

- خمسون ألف، قمنا بدفعها مناصفة.

- بإمكانكم المغادرة، مع السلامة.

ابتعدنا عن الحاجز مسافة عشرين متراً ليتوقف السائق فجأة إلى يمين الطريق، ومن المرآة العاكسة شاهدت عناصر الحاجز وقد استداروا صوبنا، نزل السائق واتجه إلى صبي دون العاشرة من العمر يرتدي بنطالاً أزرقاً وسترة سوداء، لكن كل شيء فيه بما فيه وجهه قد اكتسى بالسواد، كان بائع وقود على جانب الطريق حيث صف ثلاثة براميل واحدة زرقاء واثنتان حمراء، أمامهم خمسة عبوات بلاستكية بيضاء تحتوي على عدة أنواع من الوقود، أشار السائق إلى إحدى العبوات وهي تحتوي على سائل شفاف مائل للصفرة، جاء الصبي أولاً بأداة التعبئة وهي النصف الأعلى من عبوة ماء تم قصها من النصف، وضع رأس العبوة في فتحة الوقود بعدها فتح غطاء عبوة الوقود وثبت فتحة

عبوة الوقود داخل الأداة، ليبدأ بضخ الوقود بكل هدوء داخل السيارة، تنفس ببطء وراح يرفع مؤخرة عبوة الوقود إلى أن أفرغها كلها داخل السيارة، أعاد عبوة الوقود الفارغة إلى الأرض وتنفس بعمق، علق بعض الطين على ثيابه مما كان ملتصقاً على أسفل عبوة الوقود، حرك الأداة قليلاً حتى ينزل ما تبقى بداخلها من وقود ومن ثم أغلق الفتحة، استلم عدة أوراق نقدية من السائق، حدث كل ذلك دون أن ينطق أياً منهما أي كلمة، بعد أن قام بتعبئة الوقود، بدا على السائق الارتياح، أخرج لفافة تبغ وبدأ يدخن وقال:

- اسمعني أيها الأخ، لا أريد أن أعرف اسمك الحقيقي، حتى لا يختلط عليَ بينه وبين اسم اخيك لاحقاً، ستقوم باستخدام اسمك الحقيقي حتى المعبر، أما بعد ذلك ستستخدم اسم وهوية أخيك.

- مفهوم.

- هناك شيء أخر، من الآن فصاعداً سنواجه حواجز لا حصر لها، كلها عبارة عن عصابات سرقة تدعي أنها تتبع للقوات الحرة، لهذا أنا من سيدفع لها طيلة الطريق، فقط اغلق فمك.

- كما تريد.

- كما الوضع يريد لا أنا.

- وماذا عن قوات القمصان السود؟

- لقد باتوا في عمق الصحراء، لن تجد في الطريق الذي سأقود خلاله سوى القوات الحرة وبعض حواجز الزملاء.

تكلم أخيراً الشاب الذي يجلس إلى جانبي، وهو قصير للغاية يدخن بشراهة:

- كان من المفترض أن تكون حذراً في العاصمة، انظر مدى التعب الذي تقاسيه وستقاسيه لاحقاً!

- لقد كنت كذلك، يبدو أنه قد كتب عليَ التعب أينما ذهبت.

- انظر إلى هذه القرى وسكانها البؤساء، أي جحيم هذا!

- هل سبق لك أن عشت وعملت في الأناضول؟

- أربع سنوات.

- ما الذي أعادك إلى هنا؟

- عدت مجبراً، لقد استشهد أخي برصاص قناص وهو يعمل في جني الزيتون في إحدى الأراضي المزروعة بالأشجار، لهذا اضطررت إلى العودة لأبقى إلى جانب أمي.

- لابد أنك قد كابدت الصعوبات في الأناضول.

- مشقات يا أخي، لقد عملت في تربية الأبقار والزراعة وقيادة الجرار وغيرها من الأعمال الزراعية، تأخروا في دفع أجرتي وفي مرات كثيرة لم أحصل على شيء منهم، لقد ظلمت هناك كثيراً، لكني كنت مجبراً على البقاء والعمل، حتى أتمكن من العيش وإعالة أهلي.

- أتفهم ذلك، لقد كنتُ هناك ورأيت كل شيء.

بعدها توالت الحواجز وصولاً إلى مدخل مدينة الزيتون والتي تسيطر عليها قوة مختلطة من القوات الحرة وجيش الأناضول الذي دخل المدينة منذ فترة قريبة، وعلى أول حاجز طلب مقاتل من السائق أن يقف إلى يمين الطريق، بعدها اقترب مقاتل أخر وسأل السائق عن الوجهة، أخبرهم أننا نتجه إلى المعبر، دقق المقاتل في الهويات ومن ثم طلب مني النزول، حينها أطفأ السائق السيارة وقال:

- لا تخف من شيء.

- لست خائفاً، لكن لماذا أنا تحديداً!

نزلت واتجهت إلى ذلك المقاتل الشاب الذي يضع شماغاً فوق رأسه، في البداية طلب الهوية وبعد التدقيق فيها سأل:

- إلى أين تتجه؟

- إلى البيت، لقد تم ترحيلي وهذه هي الورقة.

ومن ثم أعطيته الورقة، ألقى نظرة سريعة إليها لكنه أبقاها بيده دون أن يطويها وقال:

- لا، أنت تقصدت العودة بهذا الشكل حتى تستطلع هذه المناطق وتنقل تفاصيلها لقوات الزملاء، لابد أنك تتبع بشكل أو بأخر لقوات الزملاء.

- كنت مجرد عامل في الأناضول، تم ترحيلي والآن في طريق العودة إلى البيت.

- أين هاتفك؟

أعطيته الهاتف، راح يفتش محتوياته وأضاف:

- فارغ! لقد تقصدت حذف المحتويات؟

- اشتريته منذ عدة ساعات، بعد أن بقي هاتفي لدى رفاقي في المسكن دون أن أستطيع جلبه.

فتح برنامج المحادثة، وعلى الفور أدار شاشة الهاتف إلي وهو يشير إلى صورة ميلا، بالصدفة كانت ترتدي قميصاً أخضراً وقال:

- ومن هذه؟ لماذا تلبس بذلة عسكرية تابعة للشرطة؟

- هذه اختي وهي في الأناضول الآن.

بدأ بقراءة الرسائل التي تبادلتها مع ميلا، عندما أعاد قراءتها مجدداً قلت له:

- لقد أخبرتك أنها أختي وهذه رسائلها تطمئن فيها عليَ.

نظر حوله مفكراً ومن ثم بدأ في تفتيشي وأضاف:

- تعال معي.

اقتادني إلى دشمة مبنية من الإسمنت المسلح لها فتحة واحدة صغيرة تشرف على الطريق، دخلنا من باب خلفي وإذا بجندي تابع لجيش الأناضول يرتدي بذلة عسكرية كاملة وكأنه يستعد لخوض معركة، استدار إلى الخلف بعدما كان يراقب الطريق من تلك الفتحة، تكلم معه المقاتل المحلي وقال:

- هذا جاء لتوه من الأناضول يتجه إلى مدينة المحطة حيث سيطرة الزملاء، ماذا أفعل به؟

نظر إليَ الجندي وسأل:

- أين كنت في الأناضول؟

- مدينة الميناء.

- العمل؟

- مصنع لتعبئة الأرز.

- بإمكانك أن تكمل الطريق.

سحبت الهوية وورقة الترحيل من يد ذلك المالاكا وخرجت باتجاه السيارة، سرعان ما انطلق بنا السائق بعيداً عن الحاجز لنرى أنفسنا بعد مئتي متر فقط أمام حاجز أخر، لكنه يتبع للأمن بحسب كلام السائق، قفوا على يمين الطريق! أخذ مقاتل دون العشرين يدقق في الهويات، وعلى بعد عشرة أمتار منه كومة من القمامة بينها جثة قط ميت.

- دارو، انزل انت وحقيبتك.

- ليس لدي حقيبة.

- لماذا ليس معك واحدة!

- لإني لا أملكها.

- انزل إذن.

امسك بيده يدي اليسرى أما الأخرى وضعها فوق كتفي وتقدم بي إلى غرفة تابعة للحاجز! أمام الغرفة تحصين من أكياس الرمل وقد وضع رشاش متوسط فوقه كنوع من الاستعراض، جلس مقاتل أشيب يبلغ حوالي الخمسين من العمر على كرسي أمام الغرفة، أوقفني ذلك المقاتل أمام الأشيب وقال:

- هذا واحد منهم.

نظر إليَ ذلك الأشيب ومن ثم نادى بصوت أجش مصطنع:

- فتشه جيداً.

أدخلني إلى تلك الغرفة وهي فارغة تماماً ومظلمة، أخرج من جيبه قداحة مزودة بضوء صغير، عض عليها مثبت إياها بين أسنانه، وعلى ضوءها أشار أن أتقدم إلى الحائط

وأرفع يدي نحو الأعلى، أخرجت المحفظة وأبقيتها في يدي ومن ثم قمت برفع كلاهما نحو الأعلى، اخرج القداحة من بين اسنانه وقال:

- ما الذي أخرجته؟ وهو يسلط الضوء على المحفظة.

- إنها المحفظة.

بدأ بتفتيش دقيق، أدخل يده في كل الجيوب بما فيه ذلك الشق الذي أحدثه الشرطي في سترتي، أخرج الدفتر وقلب في صفحاته ومن ثم أعاده، تحسس بكلتا يديه كل الأماكن، عندما انتهى ابتعد عني وقال:

- ابق في مكانك، إياك أن تتحرك.

اتجه إلى الخارج فيما بقيت واقفاً متجهاً إلى الحائط ويدي نحو الأعلى، تكلم مع قائده الذي يجلس في الخارج ليعود بعدها ويطلب مني الخروج والتكلم مع القائد، أعدت المحفظة إلى مكانها والدفتر إلى الجيب الداخلي للسترة والمقاتل يراقبني، بعدها خرجت إلى القائد الأشيب والذي سألني:

- ماذا كنت تعمل في الأناضول؟

- كل الأعمال، في القطف والمعامل وغيرها.

- الأجور هناك مجزية، صحيح؟

- ليس تماماً.

- والآن كم ستعطيني؟ كما تعلم لقد اقترب عيد رأس السنة.

أخرجت من المحفظة ورقة من فئة المئتين من العملة المحلية وأعطيته إياها، راح يعاين الورقة، مقلباً إياها، وأضاف:

- فقط مئتان!

- هذا ما أستطيع دفعه.

- قليل.

- دفعت للكثير من الحواجز وسأدفع لغيرها أيضاً.

- طيب ورقة أخرى مثلها.

أصبح مجموع المبلغ الذي أعطيته إياه أربعمئة، حينها أشار أن أنصرف وهو يضع تلك الأوراق في جيب سترته العسكرية وقال:

- هيا عد إلى السيارة ... هيا ... بسرعة.

وجدت السائق والشاب يقفان بالقرب من السيارة وهم يدخنان، عندما رآني السائق العم، دخل إلى السيارة وقام بتشغيلها، حيث انطلقت بنا على الفور، قال العم:

- لقد طلب المال!

- أجل، ابتزاز.

- لا تستغرب، هكذا هي أساليبهم.

- لصوص، ليته قال لي منذ البداية أنه يريد المال ... لماذا كل هذا التمثيل!

- باعتقادهم في الترهيب سيدفع الشخص أكثر.

- هل تبقى هناك الكثير من الحواجز؟

- تقريباً انتهوا ... حوالي ثلاثة إلى أربعة فقط.

- ليتك تقف عند إحدى المطاعم لنأكل شيء ما.

- هناك مطعم محترم على بعد ساعة من هنا.

مررنا بثلاثة حواجز، وفي الحاجز الأخير ناول العم ورقة نقدية من فئة الخمسمئة للمقاتل ومن بعدها أكمل طريق، وقال:

- أخيراً لقد انتهينا من تلك الحواجز.

- ثلاثة عشرة حاجزاً.

- دفعت خلالها خمسة آلاف.

- ماذا تبقى أمامنا؟

- سنأكل وننام وفي الصباح سندخل منطقة سيطرة الزملاء.

حل الليل، بعد ساعة وصلنا إلى دكان على جانب الطريق، وهو الوحيد هناك، من حوله أراض غير مزروعة ومن أمامه الطريق السريع، ذلك المطعم المحترم لم يكن أكثر من غرفة واسعة بعض الشيء، جدرانها مبنية من الحجارة وسقفها من الصفيح، أطفأ العم السيارة ومن ثم دخلنا إلى المطعم، حينها كان العاملين مشغولين بغسل أرضية المطعم، لم نكمل الدخول، حتى لا نلوث المطعم مجدداً بالطين، حينما شاهدونا توقفوا عن عملهم، قال لهم العم:

- يبدوا أننا وصلنا متأخرين.

- أنتم محظوظين، لقد بقيت دجاجة واحدة، تفضلوا إلى الداخل.

نظر العم إلى المكان وقد كان غارقاً بالماء، أما الطاولات والكراسي فهي موضوعة جانباً فقال:

- سنأكلها في الخارج، أفضل.

بالقرب من السيارة وعلى الأرض وضعنا الطبق الورقي الأبيض وفوقه دجاجة مشوية باردة بالإضافة إلى الخبز وعبوة ماء لكل واحد، تحلقنا حول تلك المائدة وأكلنا بصمت وعجلة، أكمل العمال غسل المطعم، فيما أخذ كلب أبيض متوسط الحجم بالنظر إلينا وهو يقف على مسافة قريبة منا، لم نرمي له شيئاً من الطعام كونه لا يكفينا أصلاً، حينما انتهت الدجاجة نهض الشاب، لكني والعم أكملنا أكل ما تبقى من الخبز مع الماء إلى أن انتهى كل شيء، قدم العم ما تبقى من العظام للكلب، الذي اكتفى بشمها دون أن يأكل منها، يبدو أن أصحاب المطعم قد علموه على أكل اللحم فقط، ابتعدت عن المكان قليلاً وأدرت ظهري للطريق، تبولت واقفاً ومن ثم عدت إلى السيارة، عاد العم بعد أن دفع الحساب وقال لنا:

- سننام اليوم هنا وفي الصباح سنكمل طريقنا، عليك أن تنام داخل السيارة، فيما سأنام وابن أخي في خلف السيارة.

- لا، أنا والشاب سننام في الخلف، وأنت في الداخل.

- لا يجوز، أنت الضيف.

- وأنا لا أقبل أن ينام رجل أكبر مني سناً في مكان مثل ذلك وأنا أنعم بالنوم في مكان مريح.

بعد أخذ ورد اقتنع أن ينام العم في الداخل ونحن الشبان في الخلف وقبل أن ينام زودته برقم مكتب التأمين ليتأكد من وجود المبلغ المتفق عليه هناك، حيث مد قطع من الورق المقوى على أرضية حوض السيارة، تمددنا إلى جانب بعضنا، نظرت إلى النجوم في السماء، أخذت أفكر بالذي حصل معي وفيما سيحصل خلال الفترة القادمة، سألت نفسي " هل الأمر يحتاج إلى كل هذا التعب؟ " لم أفكر بالإجابة طويلاً، نعم يحتاج وسأبقى محاولاً حتى أصل إلى حياة أفضل، لقد تبقى معي سبعة آلاف بإمكاني أن أصل إلى بر الأمان شريطة أن أعبر من خلال البحر، رحت أفكر أكثر في الرحلة القادمة، راسماً معالم الرحلة استناداً إلى الكلام الذي سمعته من اشخاص خلال فترة السجن، ممن سلكوا هذا الطريق، غطيت في نوم لم يستغرق طويلاً حيث استيقظت بعد منتصف الليل، فقد استحال النوم في ذلك البرد، لا أحد هنا سوى السيارة والمطعم، من بعيد تسمع أصوات بعض الكلاب فيما انقطعت تماماً أصوات مرور المركبات على الطريق السريع والتي كانت نادراً ما تسير عليه، لا شيء سوى البرد والهدوء، ترددت في ايقاظ العم وطلب الجلوس في الداخل اتقاءاً للبرد، لكني عدلت عن ذلك فلابد له أن ينام بشكل جيد، غداً تبدأ المرحلة الأهم وهي الوصول إلى الجانب الأخر من المعبر واجتياز مئات الأميال دون أن يُكتشف أمري إلى أن أدخل نينوى.

حينما بدأت الشمس بالشروق بدأت أشعر بالدفء، أدرت ظهري لها وأكملت النوم إلى استيقظنا على صوت العم وهو يدعونا إلى أن نصعد إلى المقصورة حتى ننطلق إلى المعبر، تولى الشاب هذه المرة قيادة السيارة فيما انشغل العم بإجراء اتصالات يسأل فيها عن " الوضع " و " حالة الطريق " أصبح متوتراً لم تتوقف اتصالاته إلى أن أصبحنا داخل قرية صغيرة حينها خفف الشاب من سرعة السيارة فيما كانت عيونهم تراقب المكان بحذر شديد، وضع العم يده على ركبتي وقال بهدوء:

- كن مستعداً ... لقد حان وقت الجد.
- مستعد.
- كل ما عليك فعله أن تواصل التقدم، لا تلتفت لنداء أحد ولا تخف من الرصاص.
- حاضر.

اتجه إلى ابن اخيه السائق وقال:

- كالعادة، حينما اتصل بك واخبرك اننا قد عبرنا، حينها بإمكانك العودة إلى البلدة.

- تمام، أنا بانتظار اتصالك.

توقفت السيارة في نهاية القرية، نادى العم عليَ:

- افتح الباب وانزل.

خلال لحظات كنا خارجها، استدارت السيارة وغادرت مسرعة، بدأ العم يسير بخطى سريعة وأنا اتبعه، نزلنا من خلال منحدر قاس إلى مكان منخفض يشبه الوادي وقد كان فيما سبق رافداً من روافد النهر.

عندما انتهينا من النزول أخذنا نركض بأقصى سرعة ممكنة، كان أرض الرافد طينياً وعراً، أمسك العم بأسفل ثوبه ورفعه إلى وسطه، فظهر سرواله الأبيض، وراح يركض بسرعة كبيرة لم أتوقعها لرجل مثل عمره، تطاير الطين من حول أقدامنا، نادى بذعر:

- أسرع أكثر ... لم يتبقى سوى القليل.

ظهر من بعيد جسر إسمنتي مدمر وقد تعرض لأكثر من غارة جوية مما تسبب في قطعه من الوسط، شكل حطامه الهابط على أرض الرافد تلالاً من الكتل الخرسانية، حينما صعدنا المنحدر الثاني وجدنا دراجتين ناريتين بانتظارنا يقودها رجلان يرتديان أثواباً فوقها عباءة بنية، فيما لثموا رؤوسهم بشماغ أبيض، صعدت خلف أحدهم، التفت السائق إلى الخلف وقال: " تشبث جيداً حتى لا تقع " ومن ثم انطلقوا في سرعة تقترب أو تزيد عن المئة، أخفضت رأسي خلف ظهره اتقاء للهواء البارد، كانت يدي تهتز وهي ممسكة بمؤخرة الكرسي الذي أجلس عليه، ظهرت قرية من بعيد، فيما بقت الدراجات تحافظ على سرعتها تلك إلى أن أصبحنا قرب القرية، حيث أخذت تتباطأ إلى أن توقفوا بالقرب من أول بيت، صاح السائق: " انزل هيا انزل " ليختفوا بعدها في القرية اشار العم أن اتبعه، دخلنا بسرعة إلى تلك القرية ومنها اتجه إلى بيت بسيط مبني من الطين دق على باب خشبي قديم بشكل متواصل، سرعان ما فتح شاب الباب مفسحاً المجال لندخل، وفي إحدى الغرف أعطاني العم ثوباً أبيضاً وسروالاً قطنياً أبيضاً كان ذا رائحة فظيعة، نزعت ثيابي ولبست هذه الجديدة، قام هو بوضع ثيابي القديمة في كيس أسود وقال:

- أين ورقة الترحيل؟

- في جيب السترة.

- اخرجها ومزقها.

مزقتها ومن ثم رميت ما تبقى منها على الأرض، حملت كيس الثياب، بعدها خرجنا من البيت، وفي إحدى الشوارع القريبة كانت هناك شاحنة زراعية بمقصورة برتقالية اللون مركونة في وسطها، صعدنا إلى المقصورة وانطلق بها العم بعيداً عن القرية، حمل الهاتف واتصل بالشاب:

- كيف حالك ... نعم بإمكانك المغادرة إلى البيت.

عندما انتهى من المكالمة، قال:

- اعطيني هويتك، أريد أن أبقيها عندي، من الآن فصاعداً ستستخدم اسم أخيك خلال الطريق، ماذا كان الاسم؟

- ماد.

- إذن أنت الآن ماد، إياك أن تتلعثم عند الحاجز أو تتأخر في اعطاء الاسم وتعطيهم اسمك الحقيقي، مصيبة ... عليك وعليَّ أنا.

- لن يحدث شيء من ذلك القبيل، اطمئن.

- سأحاول قدر الإمكان أن أتفادى الحواجز، لكننا سنضطر إلى المرور بالأخيرة منها.

بعد نصف ساعة اتخذ العم الطريق المؤدي إلى مدينة منج، وحينما أصبحنا داخلها أخذ يدور في شوارعها الرئيسية وهو يراقب الدكاكين بحثاً عن شيء ما، إلى أن توقف أمام دكان يبيع الثياب والحقائب الرجالية وقال:

- اذهب واشتري حقيبة ظهر، بسرعة.

اتجهت إلى ذلك الدكان بدون نقاش أو كلام، لم يكن في داخله أحد سوى البائع الذي يجلس على كرسي وهو يستخدم هاتفه.

- اريد تلك الحقيبة. وقد أشرت إلى أول حقيبة رأيتها مناسبة، لم يرفع البائع عينه عن الهاتف، وأجاب:

- قل مرحباً في البداية.

لم يكن هناك مجالاً للمرحبا، اتجهت إلى الحقيبة ورفعتها عن المسمار الذي يعلقها بالحائط، وضعتها على الطاولة وفيما اخرج المحفظة سألته:

- كم سعرها؟

نظر إليَّ نظرات يقول فيها " كيف تتجرأ أن تحرك شيئاً من الدكان دون إذني، ولتفادي أي مشكلة بادرته بطلب مزعج بالنسبة للكثير منهم:

- ستخفض ألف أو ألفان منها، فأنا إنسان فقير.

نظر إلي بعينين وقد اتسعتا وأجاب:

- أيضاً تريد أن تخفض من سعرها!

- كم سعرها أصلاً؟

- عشرة آلاف.

وضعت المبلغ على الطاولة وخرجت مسرعاً إلى الشاحنة، دون أن يتكلم البائع بأي كلمة، قال لي العم وهو يبتعد عن المكان مسرعاً:

- ضع ثيابك داخل الحقيبة.

قمت بتفتيش جيوب البنطال قبل أن أضعها في الحقيبة، لعلي أعثر على بطاقة الذاكرة، لكني لم أجد شيئاً، كانت الحقيبة كبيرة بعض الشي فاتسعت لكل الثياب وكذلك وضعت دفتر اليوميات وشاحن الهاتف، لبست السترة فوق الثوب الأبيض، نظر إلي العم مبتسماً ثم قال: هكذا أفضل.

أجبته مازحاً:

- زادتني هيبة، أليس كذلك؟

ضحك وقال:

- بكل تأكيد، تاجر ... اسمعني جيداً يا ماد.

- تفضل.

- إذا اوقفتنا دورية أو حاجز طيار ... فأنت تاجر مواشي وأنا أعمل سائق لديك، اتفقنا.

- اتفقنا.

- وإذا سألوا عن الوجهة، سنخبرهم أننا نتجه إلى قرية أم الرز.

- تمام، نتجه إلى أم الرز لشراء المواشي.

حرك رأسه موافقاً، بعد ساعة حينما اقتربنا من مطار منطقة الصوامع، أقلعت مروحيتان تحمل على ذيلها علماً يضم اللون الأحمر والأبيض والأزرق، المروحية الأولى للنقل والثانية قتالية مسلحة بصواريخ، أشرت إليهما، انتبه العم لذلك و ألقى نظرة عليهم وسأل:

- نعم مروحيات ... ماذا هناك!

في تلك اللحظة رن الهاتف عدة رنات قصيرات، وصلتني عدة رسائل من رقم مجهول، بعد السلام أخبرني صاحب الرسائل أنه زاك وقد تفاجئت لذلك، ماذا يريد!

- لقد حصلت على رقم هاتفك من أخيك، أريد أن أطلب منك طلب.

- لقد فاجأتني يا زاك، اطلب لكن لا تنسى أني الآن في بلادي.

- أعرف ذلك، لقد رأيتك تصعد إلى حافلة المرحلين حينما كنا في مدينة أدنا، اريد منك رقم هاتف الحافلة التي أوصلتكم من مدينة الميناء إلى العاصمة.

- سأرسله لك بعد قليل، لكن ما حاجتك به!

- لقد قررت أنا وأحد أصدقائي أن نقطع البحر سباحة من إحدى جزر مدينة روم إلى جزيرة قريبة منها تتبع لهيلاس.

- أليس ذلك خطراً!

- بضع مئات من الأمتار، المسألة ليست بتلك الخطورة.

- سأرسل الرقم بعد قليل، بالتوفيق.

- بانتظارك، مع السلامة.

طلبت من ميلا أن ترسل لي رقم سائق الحافلة، فقد سبق أن زودتها برقمه كإجراء احتياطي في حال انقطاع الاتصالات بيني وبين ميلا أثناء السفر إلى العاصمة، لم يستغرق الجواب طويلاً، ارسلت ميلا الرقم وعلى الفور أرسلته في رسالة إلى زاك وطلبت منه أنه أن يخبرني عندما يصل إلى هيلاس، ابتعدت المروحيتان بعيداً عن المطار، عاد وسأل العم:

- ماذا كنت تود أن تقول قبل قليل؟
- لا شيء.
- ماد.
- نعم.
- أريد منك أن تصارحني.
- بماذا؟
- حينما جئتك أنا وابن اخي، وجدتك تجلس مستنداً إلى إطار الحافلة، وجهك شاحب كالأموات وثيابك قذارة فهيئتك لا توحي أنك كنت تعمل في العاصمة وتم ترحيلك ... أخبرني قصتك بالتفصيل فالطريق مازال طويلاً.
- كم ساعة أمامنا؟
- خمس ساعات حتى نصل المدينة التالية.
- اسمع إذن ....

بدأت اسرد للعم القصة بالتفصيل، خلال ذلك رحت أتابع ما تقع عليه عيني على أطراف الطريق، مررنا بعشرات القرى والبلدات الصغيرة ببيوتها البائسة والكثير منها مجرد بقايا قرية، لقد كان موسم التجنيد الإلزامي، ففي إحدى تلك القرى توقفت عدة عربات بيك آب بيضاء تابعة لشرطة الزملاء العسكرية في شوارعها بحثاً عن وقود جديدة للحرب، اخذ مقاتل يرتدي بذلة مموهة وقبعة حمراء يمشي نحو العربة وهو ممسك بشاب قروي مقيد اليدين من الخلف وقد قاموا بتغطية رأسه برفع قميصه المخطط بالفضي والأسود من الأسفل نحو الأعلى، عندما أصبحنا على مشارف المدينة التالية انتهيت من

سرد القصة، استمع العم إلى كلامي جيداً دون أن يقاطعني سوى للاستفسار عن نقاط معينة، لقد شعرت بنوع من الراحة بعد ذلك السرد، هز رأسه متأسفاً، وأضاف:

- لا أدري ماذا أقول لك، لو كنت مكانك لما فعلت ما فعلت.
- وماذا كنت فعلت؟
- أولاً سأتزوج امرأة ثانية وثانياً سأشتري بقراً وأبني لها حظيرة كبيرة، سأشتري بالمال المتبقي مشروبات كحولية، في الصباح أرعى البقر وفي المساء أشرب ومن ثم أنام مع زوجاتي.

تمالكت نفسي بعد أن سمعت إجابته وقلت:

- فكرة مقبولة.
- أليس كذلك.
- لكن الزواج بحاجة إلى الكثير من الأمور وهي غير متوفرة حالياً، ثانياً أين العمل؟ إن وجد فهو بأجر زهيد!
- لا تسأل عن الرزق، فهو على الله، حتماً لن ينساك.

عندما أصبحنا في مدخل مدينة " لي " شعرت بأنه هناك خطب ما، سألت العم متعجباً:

- لماذا هذه الندرة في حركة المركبات!
- باتت المدينة مهددة بالسقوط.
- حينما زرتها أخرة مرة، كانت تعج بالحياة.
- كانت ... هذا في الماضي.

ارتفع الطين في الشوارع وانتشرت عبارات وأقوال مكتوبة بخطوط كبيرة على جدران المؤسسات والمدارس، تدعو فيها الناس للتمسك بالأرض وعدم مغادرتها أو بيعها، توقفت الشاحنة في شارع فرعي أما مدخل فندق من طابقين، عندما نزلنا من الشاحنة أشار العم إلى نهاية الشارع:

- قبل الذهاب إلى الفندق علينا أن نأكل شيئاً.

لم نبتعد كثيراً عن الفندق، سرت معه عدة شوارع وفي إحداها كان هناك دكانين إثنين، بقالة ومطعم، كان المطعم فارغ تقريباً سوى من طاولة يقف خلفها البائع وحيداً مع القليل من الأدوات أمامه بالإضافة إلى علب اللحم المحفوظ والبطاطا المقلية الذابلة والقليل من الخضار، صنع لنا أربع شطائر رفيعة من اللحم المحفوظ، أخذناها معنا إلى الفندق.

في الفندق جلس رجل ستيني وإلى جانبه آخر أربعيني بدين خلف طاولة الاستقبال الطويلة، وقد وزعوا ثلاث شمعات على الطاولة لتضيء المكان، ومن خلفهم أربع ساعات بإطارات دائرية، كل واحدة منها تشير إلى توقيت إحدى العواصم المشهورة، طلب البدين الهويات، حينما أعطيته هوية ماد، قلبها متفحصاً، قلت له:

- هذه صورة عن الهوية، لقد ضاعت الأصلية.

- لا مشكلة.

قام بتسجيل معلوماتنا على دفتر تقويم قد خصصه لهذا الغرض وبعد دفع اجرة ليلة واحدة، أعاد الهويات لنا، بعدها نهض بصعوبة عن الكرسي ليخرج من خلف الطاولة، مشى أمامنا وهو يحمل إحدى تلك الشمعات نحو ممر الغرف إلى أن توقف أمام غرفة تحمل الرقم أربعة، فتح الباب وطلب منا أن ندخل ومن ثم تبعنا فقام بتثبيت الشمعة على طاولة صغيرة تفصل بين السريرين، قال قبل أن يغادر :

- ليس هناك ماء ساخن في الحمام، فمنذ الصباح والمدام كهرباء غائبة عنا ... إذا كنتم بحاجة إلى أي شيء، اتصلوا بي ... الرقم على تلك البطاقة.

وقد أشار بإصبعه إلى بطاقة صغيرة على الطاولة ومن ثم خرج من الغرفة مغلقاً الباب خلفه، بعد تناول الطعام بدأ العم بإجراء الاتصالات تمهيداً للمرحلة المقبلة، قبل النوم راسلت ماد وقد أجابني أنه الآن في إحدى البيوت السرية المخصصة لإيواء اللاجئين، لكنه لا يدري في أي يوم سيكون الانطلاق، انتظرت العم أن ينهي تلك الاتصالات ومن ثم سألته:

- هل سنغادر اليوم؟

- ربما ... قد نغادر في أي لحظة.

- هل مازال هناك الكثير؟

- لا، لقد قطعنا الشوط الأكبر.

أكلنا على عجل ثم نزعت عني تلك السترة وذلك الثوب ووضعتهم فوق الحقيبة على الأرض، كنت متعباً، خاصة أني لم أنم البارحة سوى بضع ساعات، تحسست السرير المريح بأغطيته البيضاء النظيفة وقلت في نفسي " أخيراً سأنام على مكان مريح.

استيقظت على صوت العم وهو يتكلم مع أحدهم، نظرت إلى الساعة وإذا هي في الثانية عشرة والربع ظهراً، نزعت الهاتف من الشاحن وأعدت هذا الأخير إلى الحقيبة، لقد امتلأ الهاتف بالطاقة، يبدو أن الكهرباء قد جاءت في الصباح أو ربما البارحة في الليل، لم أشعر بمجيئها، عندما انتهى العم من الاتصال قال:

- البس ثوبك، علينا أن نغادر الآن.
- سأعبر اليوم؟
- إن شاء الله.

وعلى الفور غادرنا الفندق، حينما خرجنا إلى الشارع كان الطقس ماطراً صعدنا إلى الشاحنة والتي أصدرت صوتاً غير معهود لحظة انطلاقها، احمرَ وجه العم غضباً:

- اسمعُ صوت طقطقة ... عليَ أن أعرضها على مصلح شاحنات حتى لا تتوقف وتسبب لنا مشكلة على الطريق.
- كما تريد، آمل ألا يستغرق ذلك وقتاً طويلاً.
- أقل من ساعة.

وفيما يقود نحو محل التصليح قال:

- البارحة لم تأتي أياً من قوات الأمن إلى الفندق.
- أه بخصوص الاسم.
- صحيح، لابد أن البدين أو المومياء قد أرسل معلوماتنا إلى أمن المدينة، لو كان اسم ماد من ضمن المطلوبين لجاؤوا وأخذوك إلى السجن.
- لا أدري إن كان ماد مطلوباً للخدمة العسكرية أو لا، أما بالنسبة لعدم مجيء الأمن إلى الفندق ربما تكاسلوا عن ارسال معلوماتنا لهم.

- المشكلة أننا سنضطر للوقوف عند الحاجز الحدودي الأخير ليفتشوا عن اسماءنا، حينها لن يكون اسمك ضمن المطلوبين، أنا متأكد أننا سنعبر بسلام.

- ربما.

- بل أكيد ... ماد ليس مطلوباً.

- لا أثق في حظي كثيراً.

- كن متفائلاً.

- إلى اين نتجه الآن؟

- إلى المنطقة الصناعية.

- لكن المدينة شبه مهجورة.

- لابد أن يكون هناك من يفتح دكانه حتى في مثل هذه الظروف .... هل سبق لك أن أكلت في دكان للتصليح؟

- عدة مرات عند صديق لي، شاركته طعامه في دكانه المخصص لتصليح مدافئ تعمل بالوقود.

- أقصد مكاناً نصفه مطعم والأخر للتصليح.

- لا، لم أرى شيئاً كهذا من قبل.

حينما أصبحنا على أطراف المدينة، قاد العم الشاحنة نحو حي قديم، كان عبارة عن دكاكين ذات واجهات مثقلة بالسواد بالإضافة إلى أجزاء من الشاحنات و السيارات مرمية على جوانب شوارعها، كتل من الخردة هنا وهناك، المكان قاتم وقد زاده المطر الغزير كآبة، أخذ العم يبحث عن إحدى أماكن التصليح من خلال تلك المساحة الصغيرة من الزجاج الأمامي التي تقشط عنها الممسحتان ماء المطر، توقف بالقرب من إحداها، أنزل زجاج النافذة وراح يشرح بصوت مرتفع لشاب يجلس داخل دكان تصليح عما تعانيه، أجابه الشاب بنفس مستوى الصوت و دعاه أن يطفئ الشاحنة وننزل منها، اتجهنا إلى داخل الدكان احتماءاً من المطر، فيما جر المصلح جهاز رفع الإطارات إلى اسفل الشاحنة، نظر إلي العم وقال:

- تعال معي لنذهب إلى المطعم الذي وعدتك به.

- ليس بوقته الآن، ألا ترى إن المطر غزير!

- أنت أحوج مني إلى الطعام، لابد أن تأكل، حتى لا تتعب أثناء مسير الليل.

انطلق يركض أمامي وهو يرفع سترته فوق رأسه اتقاءاً من المطر، ركضت خلفه، اجتزنا عدة شوارع، وفي إحداها استدار إليَّ وقال:

- ذلك هو، إنه لا يعرف الحرب أو العطل.

كان الدكان واسعاً بعض الشيء، في مقدمته قد رفعوا سيارة إلى الأعلى عن طريق السلاسل، وقف تحتها عامل ببذلة زرقاء أخذ يصلح فيها، وفي نهاية الدكان طاولتان خشبيتان دون أن يكون حولهما أي كرسي، بالقرب من ذلك هناك طاولة متطاولة عليها أدوات الطعام، فول داخل قدر نحاسي مخصص لذلك وتوابل وسوائل بألوان مختلفة، صحون وملاعق وكؤوس من الحديد، وعلى مقربة منهم صناديق وعلب الزيت والشحم وأجزاء من السيارات، توقف المصلح عن عمله ومن ثم حاول غسل يديه جيداً من ماء الصنبور البارد ليتجه بعدها إلى طاولة المواد وأعد لنا صحنين من الفول إلى جانبهما القليل من الخبز و كأسي ماء، دوت عدة أصوات قوية ومتتالية، لم يهتم المصلح لها وهو يعود إلى السيارة المعلقة، سألت العم مستفسراً:

- اطلاقات مدفعية!

- أجل، لقد تمركز فوج المدفعية على الطرف الثاني من المدينة.

- إذن المعارك ليست بعيدة.

- حوالي عشرة أميال.

عندما انتهينا من الأكل وأثناء خروجنا، توقف العم بالقرب من العامل وسأله:

- الفاتورة؟

- خمسمئة.

أجابه وهو مشغول في فك إحدى القطع، أخرج العم ورقة من فئة الخمسمئة ووضعها في جيبه، عندما عدنا إلى دكان التصليح وجدنا أن الشاحنة جاهزة والمصلح عاد وجلس في الداخل خلف مدفأته، اتجه إليه العم يسأله والقلق ظاهر عليه:

- كم تريد؟

- خمسون ألف.

سرعان ما اختفت تلك التقاضيب وتنفس بارتياح، اخرج ما طلبه المصلح من أجر ومن ثم عدنا إلى الشاحنة، وفي الطريق نحو خارج المدينة قال العم بارتياح:

- لم يتبقى سوى القليل ... لكن إذا أوقفنا حاجز ما، فنحن في الطريق إلى قرية " الغرابية " لنجلب عمال للعمل في حقل مزروع بأشجار الزيتون.

- مفهوم.

تجنب العم الطريق السريع قدر الإمكان، لهذا أخذ يسلك الطرق الواصلة بين القرى رغم وعورتها نتيجة الطين، بعد نصف ساعة قال:

- نحن الآن في الطريق إلى قرية " غرب الوادي " لتصليح مولدة كهرباء ... طبعاً أنت المصلح.

- غرب الوادي، غرب الوادي، غرب الوادي .... حتى لا أنساها.

رغم أننا نسلك طريقاً نادراً ما نشاهد عربات تسير عليها، ظهر فجأة من بعيد رتل من السيارات السوداء الفاخرة قادم صوبنا! رتل وسيارات كهذه في هذا المكان! عندما أصبحوا على مقربة منا، تنحى العم بشاحنته إلى خارج الطريق متوقفاً على أرض غير مزروعة، مرَ الرتل المؤلف من حوالي عشر سيارات من الطراز الحديث للغاية ترافقه ثلاث عربات عسكرية يجلس خلفها جنود ببذلات عسكرية مموهة تابعة للزملاء، راقبنا المشهد باهتمام، قال العم:

- إحدى هذه السيارات تضم شيخاً يعد من كبار القادة في هذه المنطقة، سنمر بقصره بعد قليل.

عادت الشاحنة مجدداً إلى الطريق وأكملت طريقها وبعد عدة أميال انتقلت إلى الطريق السريع حيث توقفنا عند الحاجز الأخير، وهو يضم على جانبيه غرفاً مسبقة الصنع وفي

وسط الطريق وحوله كان هناك خمسة مقاتلين من الزملاء، والعلم الأصفر يرفرف فوق إحدى الغرف، بدأت اشعر بنوع من القلق، اقترب أحدهم من الباب الذي بجانبي، حيث أجلس وسأل:

- إلى أين؟
- غرب الوادي لأصلح مولدة كهرباء.
- انزل ... وانت اركن شاحنتك إلى جانب الطريق.

اقترب مني المقاتل وطلب الهوية ودفتر الخدمة العسكرية، أعطيته صورة الهوية، قلبها وكأنه لم يقتنع بها، عاد وسأل:

- هذه صورة عنها؟
- صحيح.
- أين الأصلية؟
- لقد ضاعت.
- لنفترض أنها ضاعت، لماذا لم تستخرج من جهة رسمية ورقة تثبت هويتك! ثانياً أين دفتر الخدمة؟
- منذ عام وأنا استخدم هذه، لم يعترض أحد عليها ... دفتر الخدمة في البيت.
- لا تتحرك من مكانك وانتظر قليلاً.

دخل إلى إحدى تلك الغرف وبيده صورة هوية ماد، بعد خمس دقائق خرج وعاد إلي:

- من المفترض ألا اسمح لك بالمرور، لكن اسمعني جيداً، بعد أن تنتهي من عملك في القرية وتعود إلى البيت، عليك أن تستخرج ورقة رسمية بدلاً من هذه الصورة، وتحمل دفتر الخدمة، مفهوم؟
- مفهوم.
- حينما تعود من القرية لابد من مرورك من هذا الحاجز، سأذكرك حينها مرة ثانية بهذه الأمور.

- أعدك أني لن أنسى ما طلبته.

صعدت الشاحنة وأنا أقول في نفسي " إذا رأيت وجهي مرة أخرى " ثم انطلقنا، قال العم:

- توقعت أن يدققوا في معلوماتك، إنه من أشد الحواجز وأكثرها صعوبة.

- لقد انتهينا منها، ماذا تبقى أمامي؟

- أن تمشي نصف ساعة.

- هل متأكد أنها نصف ساعة؟

- أو أقل.

أصبح الطريق مقفراً، ليس حوله من القرى إلا ما ندر، ظهرت بعض مضخات نفط عملاقة متوقفة، بدأت السماء تعتم والمطر قد توقف، وفي مكان غير بعيد عن الطريق ظهر قصر يقف وحيداً وسط ذلك المكان له شكل يشبه فيه قصور الشرق القديمة، أحاط به سور مرتفع من كل الجوانب، ظهرت من خلفه أجزاء من أشجار النخيل ومنارتان مزخرفتان تشبهان المآذن في تصميمها وأمام البوابة الحمراء كان هناك ثلاثة مقاتلين من الزملاء مسلحين ببنادق، امتزج القصر بلونه البني مع لون التراب حتى بدا وكأنه جزء من المكان.

وصلنا مع بداية الليل إلى قرية حدودية، توقفت الشاحنة بين بيوتها، قال العم:

- تأكد من محتوى حقيبتك قبل أن تنزل، تأكد من كل شيء.

فتشت الحقيبة ومن ثم نزلنا لندخل إلى إحدى البيوت حتى دون طرق الباب، وفي ممر ذلك البيت توقف العم بالقرب من إحدى غرفه، كان الباب مفتوح ظهر من خلاله حوالي عشرين شخصاً منهم ثلاثة شبان يجلسون بعيداً عن البقية، وقبل أن أدخل إلى الغرفة قال العم:

- لن يلزمك الثوب مجدداً.

- سأعيده لك.

نزعته عني وأعدته للعم مع السروال الأبيض، وبعد أن لبست ثيابي القديمة، صافحني العم مودعاً:

- بالتوفيق يا بني، كن حذراً في رحلتك القادمة.

- شكراً لك يا عم، بفضلك قد وصلت إلى هنا سالماً.

- الفضل لله ... مع السلامة.

ومن ثم غادر إلى خارج البيت تبعه صوت الشاحنة وهي تبتعد عن القرية، دخلت إلى الغرفة وجلست إلى جانب الشبان منتظراً، أنار الغرفة مصباح من الزيت قد وضع في وسطها على الأرض وإلى جانبه إبريق شاي وعدد من الكؤوس الفارغة، كان الكل يراقب بعضه بصمت، لم يكن مع العائلات سوى عدة حقائب وعدد من الأكياس السوداء، يبدو أنها تحمل بداخلها حاجياتهم، جلست امرأة في العقد الخامس من العمر وهي تمد ساقها اليسرى المكسورة أمامها والتي لفت بجبيرة، دخل إلى الغرفة شاب يرتدي ثوباً فضياً وقد لثم نفسه بشماغ أبيض وقال:

- الشبان إلى الخارج.

حينما أصبحنا في الممر نظر إلي وقال:

- متى جئت!

- قبل قليل، كنت برفقة رجل هو من جاء بي إلى هنا.

- تمام ... تعالوا معي.

سرنا خلفه إلى ساحة البيت ومنها صعدنا إلى السطح عن طريق سلم من الحديد، راقب الملثم المكان من حوله وبعد أن تأكد من وصول الجميع قال:

- هل تشاهدون ذلك الضوء؟ وقد أشار إلى ضوء أبيض ساطع بعيد.

- أجل. أجبنا.

- ليس عليكم سوى السير نحوه، تلك أول نقطة عسكرية حدودية تابعة لقوات الفدائيين حيث نينوى.

- هل سترافقنا العائلات؟ سأل أحد الشبان.

- لا، موعدهم بعد منتصف الليل.

عندما أصبحنا خارج البيت اضاف الملثم:

- أسرعوا حتى لا تلقي القبض عليكم دوريات الزملاء فهي كثيرة هذه الأيام.

اتجهنا ركضاً نحو الجهة التي أشار إليها الرجل، لكن الأرض كانت زراعية قد حولها المطر إلى طين يلتصق بالحذاء على شكل كتل ثقيلة، نزعنا الأحذية المثقلة بالطين، حملت المرسينية بيدي وأكملت، سرعان ما علقت الجوارب بالطين، فأصبحت حافياً تماماً، أكملت طريقي دون أن آبه للبرد والضباب والطين والشوك والحجارة، مزقت الهوية المزيفة ورميتها، تسلقنا ساتراً ترابياً يرتفع حوالي مترين عن الأرض، كان ذلك هو الحدود، لحظة النزول منه قد أصبحنا في نينوى، سرنا بصمت وهدوء وسط الضباب نحو مصدر الضوء.

محاولات

أخذ هدير الشاحنة العسكرية الثقيل ينخفض إلى أن اهتزت بحركة قوية ومن ثم صمتت تماماً، لم نكن نرى شيئاً، كنا نسمع فقط بعض الأصوات، نزل جندي من مقصورة القيادة ومن ثم اتجه نحو الباب الخلفي للشاحنة، قال الشاب الذي يجلس بجانبي وكأنه يتكلم مع نفسه:

- لا بد أننا وصلنا.

- أكيد ... لكن أين؟ أجبته.

فتح جندي الباب الخلفي وهو يحمل بيده ظرفاً كبيراً من البلاستيك الشفاف، ظهر من خلفه سياج مرتفعة وخيم بيضاء مبللة بالماء وغارقة في الطين، ثم قال: انزلوا ... لقد وصلنا المخيم.

نزلنا ووقفنا نحن الخمسة تحت المطر ثم نزل جندي ثان من المقصورة، اخرج من جيب بنطاله ورقة مطوية وقال لرفيقه:

- افتح الظرف ... لقد نسيت هذه الورقة.

وعندما انتهى من وضع الورقة، عاد بسرعة إلى مكانه ليبدأ بعدها الجندي الأول في السير أمامنا نحو داخل المخيم ونحن الشبان الأربعة نمشي خلفه، وقف حوالي عشرين شخصاً من سكان المخيم بالقرب من البوابة الرئيسية، البعض منهم أمام شباك غرفة صغيرة لاقتطاع أذونات سفر كما هو مكتوب على ورقة مثبتة من الداخل على الشباك، أما البعض الأخر لمعرفة الوافدين الجدد للمخيم، ربما كانوا بانتظار وصول أقربائهم أو لمجرد الفضول.

سرنا خلف الجندي والعيون من حولنا تتفحص والألسنة تتكلم في أمور وتسأل اسئلة كثيرة، لم انتبه لما يدور حولي، زاد الجندي من سرعته وهو يتجه بنا إلى عنبر أبيض كبير له شكل خيمة يبلغ ارتفاعه حوالي عشرة أمتار، اقتربنا أكثر من الجندي، كان في الظرف الذي يحمله بداخله بطاقات هوياتنا بالإضافة إلى أوراق بيضاء مطوية، كانت هويتي الحقيقية تستقر في زاوية الظرف، انتشرت من حولنا غرف مسبقة الصنع وقد علقت على جدرانها صور بأحجام مختلفة منها جديدة وأخرى قديمة باهتة، إحداها تحمل صورة كبيرة للغم الفراشة و تعليمات تحذيرية من لمس الأجسام الغريبة، أما الثانية فهي توضح أشكال القنابل والقذائف والألغام و العبوات الناسفة، أما بقية الصور فهي لإجراءات النظافة حيث صورة أم تغسل ابنها أو يد مليئة بالرغوة تحت صنبور مياه،

أيضاً صور الأوساخ وهي موضوعة داخل سلة القمامة وأخرى تظهر طرق تجنب الأمراض السارية.

داخل ذلك العنبر توزع حوالي مئة شخص ما بين واقف أو جالس وإلى جانبهم الحقائب أو الصرر والأكياس، وجوه منهكة متعبة، بينما أحذيتهم وأسفل ثيابهم من سراويل أو أثواب كانت ملطخة بالطين.

- اجلسوا في أي مكان، انتظروا حتى ينادي أحدهم بأسمائكم.

قال لنا الجندي ذلك، ومن ثم اتجه إلى طاولة في زاوية العنبر عليها حاسوب وأوراق ومن حولها أربعة موظفين يبدو أنهم المسؤولين عن تسجيل البيانات، أعطاهم ذلك الظرف وبعدها غادر المكان، وضعت إحدى الموظفات الظرف أسفل رزمة من الأوراق ثم أكملت عملها.

تداخلت الأصوات داخل العنبر يتخللها صوت أحد الموظفين وهي ينادي الأسماء، لينطلقوا إلى أمام الطاولة، كنا أربعة شبان، أصغرنا شاب لم يتجاوز العشرين أما الكبير فقد تجاوز الثلاثين وقد تساقط معظم شعر رأسه، لم نجلس إنما بقينا واقفين صامتين، كلنا يفكر في القادم، لكن ذلك الشاب الصغير كان بوجه حزين للغاية، لاحقاً في الخيمة قد عرفت أنه افترق عن الفتاة التي يحبها، وقد وجد في استقبال هذه البلاد للاجئين فرصة ليهرب من قريته بعدما ضاق به العيش هناك.

بعد حوالي ساعة نادى صوت بأسمائنا، توجهنا إلى أمام طاولة التسجيل، قاموا باستخراج الهويات وتسجيل معلوماتها في الحاسوب وعلى عدة أوراق، وفيما يعيد الموظف لنا الهويات قال لرجل يقف بالقرب منه وهو في أواسط العقد الخامس من العمر له شارب رفيع غريب الشكل يرتدي معطفاً أسوداً وقبعة سوداء من الصوف على رأسه:

- خذهم إلى الخيمة سي ثلاثة وعشرين فاصلة خمسة.

نظر إلينا الرجل وهو يدخن لفافة تبغ وقال:

- على أحد منكم أن يحمل صندوقاً من تلك الصناديق " وقد أشار إلى الزاوية اليسرى لمدخل العنبر، حيث وضعت عشرات الصناديق البيضاء فوق بعضها.

اتجه الشاب الصغير وحمل إحداها، أطفأ الرجل لفافته أمام باب العنبر وأشار بيده أن نتبعه، كان المطر غزيراً والرجل يمشي ببطء وسط ذلك الطين، إلى جانب العنبر هناك

ثلاثة أبراج مياه صدئة عالية وهوائي اتصال، فيما انتشرت آلاف الخيم البيضاء من حولهم، مشينا في شارع ضيق بين تلك الخيم، لندخل في أخر أوسع تنتشر على جانبيه خيم بداخلها مواد غذائية وأدوات ضرورية للتنظيف، وعدد من الخيم لبيع الخضروات، من داخل " دكاكينهم القماشية تلك نادى الباعة:

- أهلاً وسهلاً بكم.
- من شرق النهر أم من غربه؟
- تغربيه أليس كذلك.

اكتفى البعض بالمراقبة والبعض الأخر لم يتوقف عن مواصلة كلامه، لقد مشى الرجل مسافة طويلة، تبللنا خلال ذلك بالماء تماماً، نظرت إلى تلك الورقة الملصقة على جانب الصندوق الذي يحمله الشاب فإذا بها تحمل أسماء المواد التي بداخلها: (صابون – سائل جلي – مسحوق غسيل – شامبو – فرشاة ومعجون أسنان – مطهر)

- هات عنك، لابد أنك تعبت قليلاً " قلت للشاب.
- ليست ثقيلة ... انا مرتاح بحملها " أجاب بهدوء.

دخلنا وخرجنا من شوارع كثيرة ومتشابهة، كلها عبارة عن خيم بيضاء وفي الوسط طين على شكل كتل أو سائل ومن حوله برك من ماء بني، إلى أن وصلنا إلى خيمة تقع في نهاية المخيم تقريباً، وقد كتب بخط أزرق على إحدى أطرافها " سي ثلاثة وعشرين فاصلة خمسة " التفت إلينا الرجل وقال:

- لقد وصلنا، هذه هي خيمتكم، بعد قليل ستأتي عربة تحمل معها بطانيات وفرش لكم " وثم غادر المكان عائداً.

أزاح كبيرنا تلك القماشة التي يلعب بها الهواء وقد كانت بمثابة الباب، خلعنا أحذيتنا أمامها ومن ثم دخلنا إلى الخيمة، كانت فارغة تماماً، مجرد صندوق قماشي أبيض لا يستقر، له سقف مخروط الشكل يتدلى من وسطه شريط أبيض قصير في أسفله قمع فارغ مخصص لتثبيت المصباح، وعلى الأرضية أثار خطوات أحذية قد طبعتها بالطين، ما أن جلست على الأرض حتى نهضت مباشرة، كانت باردة للغاية يستحيل الجلوس عليها، وقف الجميع باستثناء الشاب الصغير الذي جلس على صندوق المنظفات ولم يعطي بالاً لانخفاض وسطها.

- لن ننتظر هنا طويلاً، سيأتي صديقنا ليخرجنا إلى المدينة. قال الشاب الكبير وأكمل:

- انظر إلى هذا المكان المقفر إلا من الخيم البائسة، أي إنسان يستطيع العيش هنا!

- لن يطول بقائي هنا كذلك، فالمسألة مسألة وقت حتى أغادر هذا المكان " أجبته.

وصلت شاحنة صغيرة ووقفت أمام باب الخيمة نادى السائق من مكانه اسم " زيز " أي الشاب الصغير، فالخيمة سجلت باسمه، هرع إليهم ليبصم على ورقة استلام المواد، ومن ثم قمنا بإنزال بطانيات وفرش للنوم بالإضافة إلى ثلاثة صناديق، الأولى لمعدات الاكل والمتبقية مواد غذائية، كذلك عدد من أكياس الرز والعدس والطحين، ثم غادرت الشاحنة، صار الجلوس على أرضية الخيمة ممكناً بعد وضع الفرشة وفوقها بطانية واحدة، بدأ الشاب الكبير وصديقه بالتواصل عن طريق الهاتف مع صديق لهم خارج المخيم، الذي راح يشرح لهم طريقة الخروج من المخيم وفي أي ساعة كل ذلك طريق ارسال رسائل صوتية وبعد ساعة تقريباً نهض الشابان ليهربا من المخيم، رافقتهم لأرى كيف سيخرجون من المخيم، اتجهوا إلى السياج القريبة من الخيمة، فخيمتنا كانت قريبة منها، بدأ الشاب الثاني بالسير بحثاً عن ثغرة في السياج إلى أن وجدها، وعلى الفور حمل الشاب الكبير الحقائب، تمنى لي التوفيق في رحلتي القادمة، ومن ثم اتجه نحو الثغرة حيث صديقه بانتظاره، راقبتهم وهم يركضون إلى الطريق المعبد القريب من المخيم حيث سيارة زرقاء بانتظارهم، صعدوا إليها وعلى الفور استدارت إلى الخلف وانطلقت مسرعة.

عدت إلى الخيمة حيث صديقي الشاب، أكلنا عدة معلبات وبعدها استلقى كل واحد منا إلى فراشه، حل الظلام مبكراً، أعتمت الخيمة، لأول مرة سأنام في غرفة بجدران متراقصة، أين كنت وأين أصبحت كيف كانت الأحلام وكيف هو الواقع، وضعت رأسي تحت البطانية ومن ثم بكيت.

في صباح اليوم التالي وجدت عدة رسائل على الهاتف، إحداها من ماد وقد كتب فيه " لقد وصلت " طار بقايا النعاس من عيني وجلست في مكاني، ارسلت رسالة له أخبرته فيها أن يتكلم معي بأسرع وقت، وعلى الفور اجاب:

- لقد وصلت صباح هذا اليوم إلى إحدى جزر هيلاس ... لقد أخبرتك منذ البداية أنه لا وصول لهيلاس سوى من البحر.

- حظ.
- لا، فرص الوصول من البحر أكبر.
- هل كانت الرحلة صعبة؟
- أجل، لقد اتفقت مع مهرب أن ينقلني بواسطة قارب سريع مع مجموعة إلى أية جزيرة في هيلاس، ومن ثم اتجهت إلى مدينة " مير " بناءاً على طلبه، لينقلني بعدها إلى إحدى البيوت وقد كنا هناك حوالي خمسين شخصاً موزعين ما بين شبان وعائلات، البارحة ليلاً وزع علينا أحدهم سترات نجاة وبعدها جاءت حافلة صغيرة ونقلتنا إلى نقطة الانطلاق التي تقع على الشاطئ، حينما وصلنا هناك وإذا بقارب مطاطي ينتظرنا بدلاً من القارب السريع كما، اتفقت معه، لم يكن هناك مجال للنقاش، صعدت مع البقية وأخذ الدليل يقود القارب عن طريق محرك بطيء والبحر هائج، كانت الأمواج تلعب بنا، تارة يرفعنا وطوراً يضربنا بمائه البارد، إلى أن أصبحنا في المياه المحايدة، اقتربت سفينة حراسة من جهة هيلاس صوبنا، وبعد قليل ظهرت أخرى تابعة للأناضول، أخذ كلاهما يحاول أن يصل أولاً إلينا، جلسنا نراقب المشهد بقلق خوفاً من سفينة الأناضول، زاد الدليل من سرعة قاربنا قدر الإمكان، لكن السفينة ذات الشريط الأزرق على عارضتها كانت أسرع في الوصول إلينا منها لسفينة الأناضول، التي سرعان ما غادرت عائدة بعد أن شاهد ربانها ونحن نصعد إلى سفينة أعدائهم.
- متى ستنطلق نحو الدولة التالية؟
- سأنتظرك لنكمل الرحلة سوية.
- لا تنتظرني، عليك أن تكمل طريقك.
- لا يمكن يا أخي ... دعك من هذا الكلام وأخبرني ماذا قررت؟
- من المخيم إلى فارس ومنها إلى الأناضول فالبحر فهيلاس.
- جيد، وعندما تصل إلى هيلاس، سنلتقي في عاصمتها لنكمل الطريق سوية.
- آمل ذلك ... مع السلامة.
- مع السلامة.

لم أنتظر طويلاً، تمكنت من التواصل مع أحد المهربين، الذي قال إنه يستطيع و " بسهولة " أن يصل بي إلى الأناضول، لكن كل ما على فعله الآن أن انتظر اتصالا منه.

اشتد الشتاء خلال هذه الفترة وبلغ ذروته مما أدى إلى تسرب الماء من زوايا الخيمة مما حدا بنا أنا ورفيقي زيز إلى التعاون في تقوية أطراف الخيمة من الخارج، قام هو بمعظم العمل، فهو أعلم مني بهذه الأمور، شدَ أوتاد الخيمة وقام بتغطية الفراغات والفتحات بالطوب والتراب، ومع مرور الأيام تعززت العلاقة بيننا أكثر، وفي إحدى الأيام وجدته كالعادة شارداً يفكر وهو يدخن بشراهة يجلس على فراشه، أمامه إحدى علب الفول الفارغة وقد حولها إلى منفضة، فسألته:

- أنا هنا من أجل السفر ... وماذا عنك؟
- أنا لا انتظر شيئاً. أجاب دون أن يرفع نظره.
- ستبقى في المخيم؟
- لا أدري.
- لا بد أنك كنت تحبها.
- ولا أزال، لكن ما فائدة ذلك! لقد تزوجت.
- هل حاولت أن تطلبها من أهلها؟
- منذ زمن قد أفهمتهم أن ابنتهم لي، كنت أزورهم باستمرار وأساعد أبيها في ري الحقل وإصلاح الغرف وبناء ما يلزمهم كقن الدجاج وغيرها، لكن أمها كانت صاحبة الكلمة في البيت، لقد زوجتها من رجل غني لديه سيارة.
- كان عليك أن تنزل إلى المدينة وتعمل هناك لتجمع من المال ما يكفي لزواجك.
- وماذا أريد أن أفعل في المدينة! لدي قطعة أرض أعمل بها وغرفة ضمن بيت العائلة.
- لا تدري ربما ستكون فتاة أخرى أجمل منها من نصيبك.
- لا أعتقد. ومن ثم أخرج محفظته وفتحها، إذ به يحتفظ بصورة حبيبته، لقد كانت جميلة فعلاً، حاولت أن أقنعه أن يبدأ حياة جديدة وينسى الماضي، لكنه ظل

مشوش التفكير متخبطاً لا يدري ماذا سيفعل، إلى أن عاد لاحقاً إلى قريته ليتطوع في قوات الزملاء ويقتل في إحدى المعارك.

بقيت أتواصل مع ماد، لم تجدي محاولاتي معه نفعاً، أبى أن يسافر دوني، لقد أخبرني أن صديقنا نادو قد وصل إلى إحدى دول الشمال خلال الأيام الماضية، فطلبت منه أن يرسل لي رقم نادو لأبارك له وصوله، وحينما راسلته وجدته فرحاً ومتفائلاً بشكل كبير، وعندما سألته عن صديقنا زاك قال:

- ألا تدري ماذا حصل معه؟
- لا، ماذا هناك؟
- لقد حاول أن يصل إلى إحدى جزر هيلاس عن طريق السباحة، هو ومعه صديق أخر ... لكنهم غرقوا.
- لقد اتصل بي منذ شهر وطلب مني رقم هاتف سائق الحافلة الذي أوصلنا من مدينة الميناء إلى العاصمة.
- يبدو أنه سافر معه من العاصمة إلى مدينة " روم ".
- مسكين يا زاك.
- بل أنهم لم يعثروا على جثمانهم رغم بحث خفر السواحل عنهم ليومين.
- كيف عرفت ذلك؟
- من خلال زوجته.

تمكنت من التواصل مع زوجة زاك والسؤال عن أي أخبار جديدة بخصوص زاك، لكنها في كل مرة كانت تجيب أنه لا جديد عنه، بقي الأمر كذلك إلى أن انقطع التواصل بيننا.

عندما شارف الشتاء على الانتهاء، اتصل بي المهرب:

- لقد بات الطريق سالكاً، هناك مجموعة ستنطلق خلال الأيام المقبلة.
- أنا جاهز، سأنضم إليها.

" إذن كن بانتظار اتصالي ولا تنسى العدة من سترة شتوية جيدة وكفوف وقبعة من الصوف وغيرها من الألبسة التي تقي من البرد، قد تضطروا إلى المكوث في أماكن باردة لعدة أيام.

- والطعام؟

" الطعام هناك وفير "

- تمام، بانتظار اتصالك.

- لن يطول ذلك، مع السلامة.

توجهت إلى البلدة القريبة من المخيم، هناك اشتريت المزيد من الثياب الشتوية والربيعة، فالأولى ستساعدني على اجتياز برد فارس القارس على أن أتخلص منها في الأناضول، أما الربيعية ستلزم لاحقاً في هيلاس، وحينما عدت إلى الخيمة وجدت زيز يجلس مع شاب لم أراه من قبل، كانت ساقه اليمنى مكسورة وعليها جبيرة.

- كيف حالكم يا شباب.

- أهلاً ... أين كنت؟ سأل زيز.

- في المدينة، لقد اشتريت بعض لوازم الرحلة ... لم تعرفني على الشاب؟

- إنه صديقي، لقد وصل اليوم إلى المخيم.

نظرت إلى صديقه وسألت متعجباً:

- بهذه الساق المكسورة قد عبرت الحدود!

- لقد عبرنا ركوباً على الأحصنة، حينما أردت أن أنزل سقطت على الأرض وقد شعرت بألم قوي، حال ذلك دون أن أمشي بشكل صحيح، لاحقاً عندما أخذت إلى المستشفى قد تبين بعد التصوير أني أعاني من كسر في شظية ساقي الأيمن.

وضعت أكياس الثياب جانباً وأخرجت إبرة قد اشتريتها ومن ثم جئت ببكرة خيط أبيض مخصصة لخياطة ثقوب الخيمة، وعلى الفور بدأت بخياطة ما أصاب السترة من ثقوب، حينما لاحظت مراقبتهما لعملية الخياطة قلت:

- لا بد من ذلك، قد أغادر في أي لحظة.

- إذن ستغادر وتتركني هنا وحيداً. قال زيز

- مادام لدي الإرادة والقوة والمال الكافي ... سأبقى أحاول ... ثانياً لست وحدك لقد أصبح لديك صديق جديد.

- غالباً سأعود للقرية، ماذا عساي أفعل هنا.

- أنت أعلم.

بعد يومين وفي الساعة السابعة مساءاً اتصل المهرب وطلب مني أن أتواجد على الطريق المعبد القريب من المخيم، حينما بدأت تجهيز نفسي للانطلاق، نهض زيز من مكانه وقال:

- سأذهب واستطلع الطريق المؤدي إلى سياج المخيم وما بعد السياج بقليل، حتى أتأكد من خلو المكان من حراس المخيم.

- سيكون ذلك أفضل، لكن كن حذراً.

- لا تخاف عليَّ.

خرج من الخيمة بلباس النوم وانطلق إلى تلك الثغرة المفتوحة في السياج التي سبق وهرب منها شابا خيمتنا، ارتديت الحقيبة على ظهري وكذلك حذائي " المرسينية " ووقفت أمام باب الخيمة منتظراً عودته، بعد عشرة دقائق عاد وقال أن المكان آمن تماماً، ودعته وانطلقت إلى الثغرة ومن هناك أخفضت نصفي الأعلى ومشيت بسرعة إلى الطريق لكني لم أجد أي سيارة، تمددت على بطني، اخرجت الهاتف من جيب سترتي وتأكدت من الساعة، وإذا هي بالسابعة والربع، اتصلت بالمهرب، وإذا بشخص أخر يتكلم معي.

- أين أنت يا رجل! ... لقد اتفقنا على الساعة السابعة.

- لقد اقتربت من المخيم ... عشرة دقائق.

- عندما تصل اعطيني إشارة عن طريق مصباح السيارة.

- اتفقنا ... كنت منتبهاً لأنها ستكون ومضة سريعة.

ومن ثم أغلق الهاتف، كنت أدرك معنى الدقائق العشر تلك، فهي لا تقل عن نصف ساعة أو أكثر، سأبقى خلالها مستلق على الطين المتجمد، نظرت إلى المخيم للمرة الأخيرة، مدينة من الخرق البالية وسط تلال جرداء، أضواء بيضاء قوية مثبتة على أعمدة إنارة طويلة تتوسط آلاف الخيم البيضاء وكأنها تراقب المكان ومن حولها سياج من الشبك المتين، بعد قليل سأنتهي من بؤس هذا القفص ولن أراه مجدداً، لن أقف على طابور الأرز والطحين ولن أشاهد تلك الكلمة الزرقاء المطبوعة في كل مكان وهي تقول " لاجئ " على بطانية النوم حيث أفتح عيني عليها صباحاً، ومساءاً حينما أتلحف بها وأنام، أينما أدرت وجهي ومشيت رأيتها، على أطراف الخيم وأبواب الحمامات المهجورة وخيمة الاستقبال وخيمتي، وعلى أكياس العدس والأرز والطحين، على عبوة الوقود وحصيرة الخيمة ... سأنتهي منها إلى الأبد.

أبقيت عيني على الطريق منتظراً، فجأة أضاءت السيارة، نهضت وانطلقت إليها مسرعاً، دخلتُ السيارة وجلست إلى جانبه وحينما اغلقت الباب عاد مسرعاً من الاتجاه الذي جاء منه، انتظرني حتى التقطت أنفاسي ومن ثم قال " دعني أرى وجهك " ثم قام بتشغيل ضوء صغير مثبت في سقف السيارة، تبادلنا النظرات، بعدها أطفأ ذلك الضوء وقاد صامتاً، كان في أواخر الثلاثينات من العمر يبدو من هيأته أنه تمساح من العيار الثقيل، كان يضع نظارة سوداء فوق رأسه الأصلع في ذلك الليل الشتوي، خلف عنقه تكدس اللحم على شكل طبقات، سألته:

- هل راسلت صاحب مكتب التأمين؟
- نعم، لقد تأكدت من وجود المبلغ.
- لقد دفعت ألف وخمسمئة، لكني سمعت أن البعض قد دفعوا أقل من ذلك!
- بإمكانك أن تذهب من نفس طريقهم إن أردت، ثانياً طريقي أقصر وأكثر أماناً.
- كم سيلزمني حتى أصل الأناضول؟
- يومين أو ثلاثة أيام، لقد دفعنا الكثير من الرشاوي لعناصر الشرطة والجيش، لذلك كن مطمئناً أنك ستصلك بسرعة وسلامة.
- آمل ذلك ... لكن صوتك لا يشبه صوت الرجل الذي اتفقت معه على الهاتف.
- ذلك الإستاد ... كبيرنا.

- وأنت السمسار.

- صحيح، نحن نعمل تحت قيادة الإستاد.

بعد ساعة توقف تحت إحدى الجسور في مدخل مدينة كبيرة، قال وهو يشير إلى سيارة تقف أمامنا بعشرة أمتار، " انزل بسرعة واصعد إلى تلك السيارة.

كانت سيارة صفراء، يظهر من داخلها رؤوس العديد من الأشخاص، اتجهت إلى تلك السيارة وأنا أحمل الحقيبة بيدي، قبل أن أصل إليها، نزل السائق وفتح الصندوق الخلفي للسيارة، وضعت الحقيبة بداخلها، ومن ثم طلب مني أن أجلس في الخلف، عندما فتحت الباب وإذا بثلاثة شبان، سرعان ما اقتربوا من بعضهم مفسحين مكاناً لأجلس فيه، ألقيت السلام ومن ثم جلست، استدار شاب في أواسط الثلاثينات من العمر يجلس إلى جانب السائق إلى الخلف مجيباً على سلامي وهو ينظر إلي متفحصاً بعدها ألقى نظرة سريعة على البقية ومن ثم بدأ بالغناء، قاد السائق خلال شوارع فرعية ضيقة وخالية من أي حركة ولم يدخل إلى قلب المدينة، لم يتكلم أحد، كنا فقط نستمع لغناء الشاب، رفع فجأة من صوته حينما بدأت كلمات الأغنية تأخذ منحاً حزيناً، أما الذي يجلس بجانبي قرَب فمه من أذني وقال:

- لقد شرب كأساً قبل ساعة، إنه صديقي.

حركت رأسي موافقاً وأجبته: سيعاني بعد قليل، عندما نبدأ المشي.

- لا أعتقد ذلك، إنه وحش. قالها بكل ثقة.

حينما ابتعدنا من المدينة ظهرت جبال مرتفعة بقمم بيضاء، تنتشر عليها بقع البيضاء، رفع الشاب من صوته لدرجة أن الأمر أصبح مزعجاً، ابتسم السائق الكهل وأشار بيده أن يخفض من صوته، لكن المطرب السكير لم يستجيب وأخذ يكمل أغنيته، قلت للسائق:

- افعل شيئاً واسكته.

- فلندعه وشأنه، ذلك أفضل.

لم يكن بمقدور السائق أن يفعل شيئاً، خشية أن يفتضح الشاب أمرنا، حينها لن تعاقب السلطات أحداً سوى السائق الذي يهرب بشراً، حرَك الشاب الذي يجلس إلى جانب الشباك الثاني نفسه بحركة غريبة ومن ثم فتح زجاج الشباك وأخرج رأسه وتقيأ مُصدراً صوتاً مخيفاً يخرج من أعماقه، توقف للحظة وهو يتنفس بعمق، عاد وأخرج رأسه قدر

الإمكان خارج الشباك وتقيأ دفعة ثانية أصغر من الأولى، لم يتحرك من مكانه منتظراً ان يستفرغ ما تبقى، لكن المرة الثالثة كانت عبارة عن صوت ارتفع معه صدره نحو الأعلى ومن ثم نزل دون أن يخرج شيء، و دون أن يتحرك مد يده إلى جيبه وأخرج كومة مناديل راح ينظف بها حول فمه، حينها توقف المطرب عن الغناء، رمى الشاب المناديل ومن ثم عاد واسند ظهره على الكرسي مبقياً الشباك مفتوح، امتزج الهواء البارد برائحة أنفاس المتقيء، التي سرعان ما ملأت الداخل، نظرت إلى المتقيء وإذا بشاب عشريني شاحب الوجه، فسألته:

- سمك؟

- لقد أكلت ثلاث علب من سمك السردين قبل السفر.

أشار الذي يجلس بجانبه وهو يضع منديلاً أمام فمه وأنفه أن أسكت، كلما تكلم المتقيء أكثر كلما زادت الرائحة الكريهة انتشاراً، عاد الشاب الثلاثيني للغناء بصوت منخفض وكان الموضوع هذا المرة عن " الخيانة " استدار للخلف وراح يغني لنا وكأننا جمهوره، قلت في نفسي " لا بد أن تكون هذه الرحلة مثيرة مع هكذا رفاق" سألت السائق:

- كم يلزمنا حتى نصل حدود فارس؟

- ساعتين، لكني سأسلمكم إلى شاحنة بعد ربع ساعة.

- الشاحنة ستنقلنا إلى الحدود لنعبرها أم ستأخذنا إلى إحدى القرى لننتظر حتى يحين الوقت المناسب للعبور؟

- ستنقلكم الشاحنة إلى نقطة المشي ومنها ستعبرون إلى فارس خلال ساعات الليل بإذن الله.

بعد قليل توقفت السيارة داخل إحدى المقالع الحجرية، أكوام من التراب الأبيض وبعض الشاحنات تقف بعيداً عنا، تكلم السائق عن طريق الهاتف بهدوء مع أحدهم:

- لقد وصلت المكان، معي خمسة، أين؟ نعم رأيته.

أقفل الهاتف وأعاد تشغيل السيارة واتجه إلى تلك الشاحنات ببطء، حتى لا يصدر صوتاً أو غباراً، بين تلك الشاحنات المغبرة بالبياض توقفت شاحنة بيضاء صغيرة على جانبها صور لدجاج وبيض، حينما توقفت السيارة إلى جانبها قال السائق:

- إياكم واصدار أي صوت.

فُتح الباب الخلفي للشاحنة بشكل آلي، أخذ ينزل نحو الأسفل مشكلاً جسراً يصل بالأرض، نزل أحدهم من مقصورة الشاحنة في نفس اللحظة، ناولنا سائقنا الحقائب على عجل وطلب منا الاستعجال في الصعود إلى الشاحنة، خلال تلك المسافة القصيرة تبادلنا الحقائب، فأخذ كل واحد منا حقيبته، أطل شاب برأسه من داخل الشاحنة، وتكلم مع ذلك الذي نزل من المقصورة بضع كلمات، صعدنا ذلك الجسر إلى الداخل، ومن ثم ارتفع مغلقاً من خلفنا، نهض شاب يبدو أنه الدليل، وأشار إلى أن نتدبر أمرنا ونجلس في أي مكان بدلاً من البقاء واقفين، كان الداخل مظلماً إلى حد كبير، جلس حوالي أربعين شخصاً، متكئين بظهورهم على الجدران، وبعضهم يتخذ من وسط المكان مجلساً، بحثت حولي لأجد فراغاً لكني لم أعثر على شيء، قررت أن أمشي إلى نهاية المكان لعلي أجد مكاناً، بدأت بوضع قدمي بكل هدوء واحتراز بين الجالسين في الوسط أتنقل بينهم، البعض قد وسع مكاناً صغيراً يتسع لقدمي، كانت كنوع من المساعدة واتقاء من قذارة الحذاء، قرب النهاية وأمام أحد المستندين إلى الجدار وجدت فراغاً يصلح مكاناً للجلوس، شريطة أن يبقى ظهري قائماً، لا مشكلة ذلك أفضل من الوقوف، جلست وحقيبتي أمامي، أكاد أن ألتصق بمن حولي، نقر أحدهم على كتفي، نظرت إلى الخلف، وجدت شاباً ممتلئ الجسم ملثماً بلفحة سوداء، قد قرب ساقيه من بعضهم وأشار أن أستند بظهري إليه، حييته شاركاً وأعدت ظهري للوراء، كانت له ساقان قويتان، لم تتحركا طيلة ما تبقى من الطريق، وضعت حقيبتي فوق قدمي، فتحت نصف سحاب السترة ووضعت يدي بداخلها اتقاء للبرد، كان الجميع قد اتخذ وضعيات تؤمن لهم الدفء قدر المستطاع، متلاصقين مرتدين سترات سميكة، بالإضافة إلى لفحات وكفوف وقبعات من الصوف، نظرت إلى سقف المكان ووجدت أربع فتحات دائرية مخصصة للتهوية، كان ينسل منها ضوء الطرقات لحظة مرورنا من الطرق المزودة بأعمدة إنارة، توقفت الشاحنة أمام إحدى الحواجز، جاء صوت الجندي وهو يطلب من السائق الهوية، وبعد التدقيق والسؤال عن الوجهة، أذن له بالمرور، استمر الهدوء في الداخل، شعر البعض براحة كبيرة بعد اجتياز الحاجز، قاموا بتدخين لفافات من التبغ، ظهرت جمرات حمر هنا وهناك رافقها أصوات أحاديث قصيرة، دخل ضوء خافت من دوائر التهوية لحظة مرور الشاحنة من تحت إحدى أعمدة الإنارة فظهر معها ملامح بعض الوجوه المكشوفة والملثمة، أخذت تختفي رويداً رويداً إلى أن نمر مجدداً أمام عمود إنارة أخر، فجأة أصبح الطريق وعراً بعدما كان سهلاً، أخذت الإطارات تنزلق على الطين تقدمت معها الشاحنة ببطء شديد، أصدر المحرك صوتاً مرتفعاً وهو يعاني في الخروج من ذلك المكان، ثم استدارت الشاحنة في

نصف دائرة ورجعت ببطء إلى الخلف، نادى أحدهم في الخارج " يكفي انزل الآن الباب " بدأ الباب في النزول، نهضنا مستعدين للنزول، أبقيت حقيبتي في يدي منتظراً، لكن الباب توقف في المنتصف بدلاً من أن يستند على الأرض، استندت نهايته على مؤخرة شاحنة ثانية مشكلة جسراً يربط بين الشاحنتين، أعطى الدليل إشارة الانطلاق بيده، سار الجميع مسرعين نحو الشاحنة الثانية، سرت فوق ذلك الجسر واتجهت بسرعة إلى الزاوية اليمنى القريبة من مقصورة قيادة الشاحنة، جلست القرفصاء، أغلقت سحاب السترة ورفعته إلى أخر حد له، توالى صعود البقية حتى ضاق المكان، رفعت الحقيبة من أمامي ووضعتها إلى جانبي حيث فصلتني عن حديد الشاحنة والتي كانت أشبه بقطعة من الجليد، كانت الشاحنة الثانية عتيقة وهي من مخلفات الجيش، مازالت المقصورة ملونة بالتمويه الصحراوي الأصفر، أما الحوض الخلفي فهو بطول أربعة أمتار تقريباً له جدار سميك يرتفع حوالي نصف متر بما فيه الباب الخلفي.

تكدسنا حتى بات المكان ضيقاً بشكل كبير، نظر إليَ ذلك الملثم الذي استندت إلى ساقيه وقال:

- محصور في الزاوية إلى جانب جدران باردة، إني أشعر بك.

- لن يطول الأمر، سننزل بعد قليل.

دوى صوت المحرك وارتفع معه دخان أبيض من الأسفل، رفعت الشاحنة الأولى بابها وغادرت بسرعة فيما رفع رجل قروي الباب الخلفي للشاحنة وقد ساعده شابين في إغلاق الأقفال التي تقع على أطراف الباب، ثم صعد نفس الرجل فوق إحدى الإطارات الخلفية وسلط ضوءاً أبيضاً نحونا وبدأ في العد، حينما انتهى صعد إلى المقصورة وانطلقت الشاحنة.

أخذت تشق طريقها وإطاراتها تحفر عميقاً في طين شوارع القرية، اختلط دخانها برائحة روث البقر المحترق فيما انتشرت أكوام الثلج على أطراف الشوارع، بيوت طينية إلى جانبها تلال صغيرة من الحطب، والقليل من العربات والجرارات، بدأت الشاحنة في الصعود في طريق جبلي نحو الأعلى، انزلقت قليلاً نحو الخلف، ضحك الكثير وقد وجدوا في ذلك شيئاً مسلياً، هدرت الشاحنة ومن ثم بدأت تتسلق مجدداً وبسرعة أعلى من ذي قبل، وكأنها تتحدى ذلك الطريق بعدما جعلتها سخرية للضيوف، زاد الضباب كلما ارتفعنا نحو الأعلى، إلى أن اختفت القرية بمداخنها عن الرؤية، اطلت علينا جبال من كافة الجوانب، لكن بعضها كان شاهقاً، قممها مكسوة تماماً بالثلج وعلى أطرافها بقع

متفرقة، يفصلها عنا واد واسع للغاية يغطيه الضباب فلا يظهر من أسفله شيئاً، لم أكن أثق كثيراً بهذه الشاحنة العتيقة، حينما أردت أن أعرف مقدار عرض الطريق الذي تسير عليه أخفضت رأسي إلى جانب الشاحنة لأرى ذلك، لقد صُدمت عندما رأيت إطارات الشاحنة تلامس طرف ذلك الطريق الضيق، كان أي خطأ مهما بدا صغيراً من السائق أو عطلاً ما، قد يكون له تأثير على توازن الشاحنة بالتالي انقلابها إلى ذلك الوادي، جلست استمع إلى صوت المحرك وهو يتلون بنغمات تصبح أكثر قساوة كلما صعدنا نحو الأعلى، وانظر إلى وادي الضباب ووجوه اللاجئين المتفائلة، توقفت الشاحنة عن الصعود وبدأت تسير في طريق ترابي مستوي إلى أن توقفت فجأة، اقترب شابان يرتديان لباس متشابهة وهي سترة سوداء وسروال فضي عريض، بالإضافة إلى عصا بطول متر يحملونها بأيديهم، قاموا بفتح الباب الخلفي وأشاروا عن طريق العصي أن ننزل، كنت أخر من نزل تقريبياً، وقد تقصدت التمهل حتى تتعود ساقاي على الوقوف بعدما كانت في وضعية واحدة ومحصورة بدءاً من الشاحنة الأولى إلى هذه اللحظة، حينما قفزت من الشاحنة، وجدت البقية ينتظرون وصولنا، وعلى مقربة منهم قطعة صغيرة من جذع شجرة مازال النار مشتعل فيها، ومن حولها وعلى الفور تحلق كل من وصل إليها أولاً طلباً للدفء، أغلق ذلك الشابان الباب الخلفي للشاحنة، وهما من سيتولّى قيادتنا خلال الطريق، أحدهم ركض نحو النار وهو يقول " امشوا ... تمشوا " ثم أبعدهم عنها وهو يرفع العصا مهدداً، عندها بدأنا في المرحلة الثانية من الطريق.

كان الدليلان يتشابهان بشكل كبير، حتى يكاد الشخص أن يخلط بينهما، سار الأول في المقدمة ليحدد الطريق أمام الجميع، أما الثاني راح ينظم السير ويدفع المتباطئ في المشي إلى الأمام، خاصة أولئك الذين في نهاية الرتل، أكملنا السير صعوداً على طريق طيني ضيق يقع على سفح الجبل صنعته الأقدام، كانت هناك بعض الأشجار الجرداء والكثير الثلج من حولنا، أخذ الرتل يصبح أكثر بطئاً كلما صعدنا أكثر، شعرت بالحرارة تجتاحني وخز كالإبر على ظهري، لقد صعدت سابقاً جبالاً لكنها لم تكن بهذا الارتفاع و الحدة، لم يكن يُسمع سوى أصوات وقع الخطأ على الطين وصوت الدليل وهو يقول بلغة ركيكة " سرع - ايسرع " بعد حوالي ساعة من الصعود الشاق وبالقرب من إحدى الأشجار قال الدليل : استراحة .... خمسة دقائق " فيما جلست التقط انفاسي مددت يدي إلى الثلج فوجدته متصلباً، كنت أود أن أكل القليل منها لأروي عطشي، لكني عدلت عن ذلك، بدأ الدليل يتكلم متوجهاً إلينا وإلى جانبه أحد الشبان الذي قد أخذ دور المترجم، كنت أفهم كلام الدليل، لكن معظم المجموعة كانت تجهل لغته، قال:

- اسمعوا أيها الأخوة، سنمشي بعد قليل على طريق مرصود من قبل الجيش، لا تخافوا حينما يطلقون النار، فنحن بعيدين عن مدى بنادقهم .... أكرر، لا تخافوا فقط أكملوا المشي.

بدأنا المسير أو التسلق إن صح التعبير، كان كل شيء يبدو طبيعياً باستثناء زيادة إلحاح الدليلين أن نسرع قدر المستطاع في هذا المكان وبعد عشرة دقائق وصل بداية الرتل قمة الجبل، سُلط ضوء أبيض على الذين وصلوا أولاً، ثم جاء صوت إطلاق عدة رصاصات من عيار متوسط تردد صداه في الوادي، حينها زاد الرعب زاد معه سرعة من هم في مرمى النيران، أثار ذلك خوف من هم في نهاية الرتل لدرجة وقوف البعض مترددين في اكمال الطريق، مما حدا بالدليل أن يدفعهم دفعاً عنيفاً ليسرعوا، حينما وصلتُ قمة الجبل أدرت رأسي إلى الجهة اليسرى، فإذا بالجبل المقابل لنا تقع عليه نقطة مراقبة تابعة للجيش، وهي من ثلاثة غرف وبرج مراقبة اسطواني الشكل قد ثبت فوقه ضوء كشاف دائري باستطاعة قوية، يرسل ضوءاً مركزاً من مكانه إلى حيث نسير، أخذ ذلك الضوء يتحرك مراقباً الطريق الذي نسير عليه، نادى جنديان بأعلى صوتهما من أمام البرج، قالوا كلاماً يتوجهون به إلينا، تلاه إطلاق نار، مرَت الرصاصات من فوقنا ،كان صوت صفيرها يُسمع بوضوح، لابد للإنسان من تلقاء نفسه أن يزيد من سرعته حينما يسمع ذلك الصفير , ركضت قدر الإمكان , تجاوزت عائلة حد أطفالها وأمهم من سرعتهم , أحد الأطفال وهو في السابعة تقريباً كان يبكي وأمه تحاول أن تهدئه بصوت مترجف وهي تحمل بيدها أخراً أصغر منه، نظرت إلى نهاية القمة وإذا بالأشخاص يختفون فجأة ! حينما وصلت إلى هناك نظرت لأرى طبيعة الطريق، وإذا بمنحدر حادٍ، لم يكن هناك مجال للتفكير، أريد أن أختفي عن أعين الجنود بأقصى سرعة.

كان المنحدر عبارة عن طريق حاد نحو أسفل الجبل مغطى تماماً بالثلج تنتشرعليه الكثير من الأشجار، لكن ذلك الثلج ولكثرة المرور من فوقه قد تجمَد وأصبح قاسياً، قررت أن أتمهل في النزول بدلاً من النزول السريع كما يفعل الكثير من الشبان، ابتعدت أمتاراً عديدة عن الطريق الذي يسلكه الجميع، وقد اخترت مكاناً مازال الثلج فيه سليماً، بدأت أغرز قدمي في الثلج، الذي كان على ارتفاع الساق، خطوة وراء خطوة , أمسك بأي شجرة أمر بها، ارتفعت أصوات المتزحلقين فالكثير منهم كان يفقد السيطرة على نفسه فيتدحرج أو البعض كان يتعمد الاصطدام بالأشجار حتى لا تزداد سرعته أكثر من اللازم، على مقربة مني وجدت عدداً من الشبان يتبعون الطريقة البطيئة التي أسير عليها، توقفت أصوات الرصاص، نظرت خلفي، لم أرى سوى الأشجار، لم يعد بالإمكان رؤية

إذا ما كان هناك أحد أم لا، كلما نزلت أكثر أصبح المنحدر أقل حدة، إلى أن أصبحت على مقربة من الوادي، والذي بدوره يمتد بين سلسلتين من الجبال الشاهقة تقع على طرفيه، اجتمع الجميع بالقرب من بعضهم أسفل المنحدر في بداية الوادي، جلس البعض على حجارة والأخر ظل واقفاً أو منشغلاً بشرب الماء من ساقية رفيعة تخترق الوادي، ومن حولها أرض مليئة بالأحجار المغطاة بالثلج، شربت قليلاً من ماء الساقية البارد، تبولت على بقعة صغيرة من الثلج إلى أن ذاب وظهر من تحته الحصباء وهي تلمع بأحجار بيضاء وسوداء وفضية، ثم جلست فوق حجرة بالقرب من المجموعة، لم يتكلم أحد، الكل ينتظر أمر النهوض من أحد الدليلين لمواصلة المسير، دامت الاستراحة قرابة النصف ساعة، وقد تعلمت أنه كلما زادت مدة الاستراحة كان هناك شيئاً صعباً بانتظارنا، تكلم الدليل مع المترجم، وهو شاب قصير بلحية وشارب أصفر، ومن ثم اقتربوا منا وقال المترجم ناقلاً عن الدليل:

- المنطقة التي سنمشي خلالها بعد قليل حساسة للغاية ومرصودة من قبل الجيش والشرطة هذه المرة، من يتأخر ويبقى في النهاية قد يخسر مكانه في العربات التي ستحملنا.

انطلق الدليل أمامنا وهو يهرول، بدأ المارثون، لم يأبه الدليلين لمن يتقدم ومن يتأخر، وكأنهم يريدون بدورهم أن يصلوا إلى المكان المنشود بأقصى سرعة، تخلف البعض، لكن الأغلب حافظ على سرعته رغم وعورة الأرض ذات الأحجار الكبيرة، ظهرت من بعيد أضواء صفراء متراصة، توقف أحد الدليلين والذي حفظ من المترجم نطق كلمة " اسرعوا " بالشكل الصحيح وراح يرددها وهو يعود للخلف وهو يطلب من المتأخرين الإسراع , حينما أصبحنا على مدخل القرية اقتربت عربتي دفع رباعية فضية مزودة بصندوق حديدي يبلغ ارتفاعه متر واحد أو أقل وهو محكم الإغلاق، نزل السائقان وفتحا الباب الخلفي لكلا العربيتين، أخذوا بحشونا داخلها متراصين قدر ما استطاعوا فعل ذلك، لابد للجميع أن يصبح داخل الصندوقين، بدؤوا باستخدام الأيدي والأرجل والعصي بضرب من في الداخل ليفسحوا المزيد من المجال، أصبحنا في الداخل تماماً كالسردين، لم يعد هناك مجال للحركة مهما كانت صغيرة، سمعت الدليل يطلب من السائق أن يدخل " هذا فقط " لكنه رفض وقال أن المكان قد امتلأ تماماً، أغلق الباب الخلفي بقوة فأصبح الداخل قبراً بكل معنى الكلمة لا رؤية ولا حركة، سوى شم رائحة سترة الذي يلتصق بوجهي، بلغ الضيق بالبعض أن يتندر، أحدهم يضحك ويقول للأخر: ما هذا العضو ؟

فيجيب الثاني - إنه جزء من ساقي.

انطلقت العربات بسرعة جنونية في شوارع متهالكة، جعلتنا نهتز بعنف مؤلم طيلة الطريق، لكن الأمر لم يستمر طويلاً، بعد حوالي نصف ساعة توقفت فجأة على الطريق، نزل السائق وفتح الباب وهو يصرخ طالباً منا النزول بسرعة نزل البعض والبعض الأخر تم جرهم نحو الخارج، عندما نزلت شاهدت خمس سيارات أجرة ما بين بيضاء وصفراء وفضية وإلى جانبها سائقيها , بدؤوا بدورهم في الصراخ فتداخلت أصواتهم حتى أصبحت تماماً كنباح الكلاب، وهم يطلبون منا أن نصعد بسرعة، اتجهت إلى السيارة الفضية، وجدت رجلاً كبيراً في السن يجلس في المقعد الأمامي، أما المقاعد الخلفية فقد كانت فارغة، على الفور فتحت الباب وجلست على إحداها، دخل شابان وفتاتان بعيون بيضوية وصغيرة، يبدو أنهم متزوجين، فكل ذكر يتأبط يد أنثى، افسحت لهم المجال فجلسوا إلى جانبي، حينما دخل السائق وجلس على مقعده وقبل أن ينطلق نظر إلى الخلف من خلال المرآة العاكسة، نادى مصدوماً: يا إلهي خمسة ! سيكشف ذلك أمري. نزل واتجه إلى الباب الأيمن حيث اجلس بالقرب منه، فتح الباب وأمسكني من ذراعي وشدني نحو الخارج بعنف ملقياً بي إلى الأرض، عندما نهضت سألته بلغته:

- ماذا تفعل؟

- ستعرف الآن.

نظرت حولي وإذا نحن نقف على طريق مغطى تماماً بالطين وإلى جانب الطريق قناة مائية أما الجانب الأخر أراض زراعية، بدأت بقية السيارات بمغادرة المكان، فتح الصندوق الخلفي للسيارة وطلب مني أن أدخل، دخلت إليه دون أن أتكلم، فلا مجال للنقاش الآن، اغلق الباب علي، امتلأ الداخل برائحة الوقود فيما أخذ الإطار الاحتياطي قسماً من المكان، تمددت قدر المستطاع في المكان، انطلقت السيارة مسرعة وهي تنزلق على الطين فأصبحت تتحرك نحو اليمين واليسار في سيرها، زاد السائق من السرعة، سمعته يتكلم بالهاتف:

- ماذا؟ هل امسكوه الشرطة؟ لا تعرف! طيب سأسرع قدر الإمكان.

زادت وتيرة اتصالاته مع بقية السيارات التي انطلقت قبلنا، يبدوان الشرطة قد عرفت مكان اجتماع السيارات، وبدأت بملاحقة عدد منها، لكن الجميع وبحركة متفق عليها، قد اتخذوا طرق متفرقة بين تلك القرى، بدأت أشعر بالقلق في ذلك المكان الضيق، زاد الأمر تعقيداً انزلاق السيارة على الطريق الطيني ومعه مخاوف السائق من الشرطة والذي كان يبدو جلياً من صوته المرتجف خلال المكالمات، أي خطأ منه نتيجة الخوف قد يؤدي

بالسيارة إلى القناة المائية، فمن يجلس على مقاعدها له فرصة فتح الباب والهروب، لكني في صندوق مغلق ولا أمل للنجاة.

- لم يقبضوا على أحد؟ هل أنت متأكد من ذلك؟ ... سأغير الطريق حالاً.

لقد اتجه نحو اليمين وبسرعة بطيئة أخذ يقود على أرض زراعية، ارتفع صوت المحرك والإطارات التي تشق طريقها بصعوبة، إلى أن بدأ السير على طريق معبد، بعدها سمعته يقول في اتصال مع أحدهم أنه أصبح بعيداً عن ذلك المكان وقد أصبح الوضع " خيلى خوب ".

مع ذلك لم أشعر بالراحة إلا حينما بدأت اسمع أصوات محركات المركبات وزماميرها، أي داخل إحدى المدن، وبعد ربع ساعة من ذلك توقفت السيارة في إحدى الشوارع، وبصوت منخفض تكلم السائق في اتصال هاتفي: " لقد أصبحت أمام الباب ".

بعد عدة دقائق فتح باب البيت بهدوء تلاه فتح باب السيارة ونزول من بداخلها، اتجه السائق نحو الصندوق، سمعت صوت المفتاح وهو يدار، ارتفع الباب نحو الأعلى، وضع السائق اصبعه على فمه ومن خلفه سماء غائمة، اشار أن انزل بسرعة، اخذ يراقب الشارع، وضعت قدمي خارج السيارة ومن ثم وقفت عليها اتجهت إلى باب مفتوح خلال ذلك راقبت المكان، فلم يكن في الشارع من أحد لحظتها، كان للبيت ساحة ترابية واسعة وفارغة تقريباً، هناك باب يرتفع عن الأرض بمتر واحد أمامه درج من الإسمنت وعلى بعد عدة أمتار منه مد من السطح إلى الأرض بساط أحمر كبير عليه نقوش وزخارف، يليه حائط مبني من قطع صغيرة من الطوب البني، داخل البيت وجدت رجلاً أربعينياً له لحية وشعر طويل ينتظرني، وما أن رآني حتى أشار بأصبعه إلى الحائط، لم أفهم ماذا يقصد! تكلمت معه وقلت: لم أفهم عليك. نظر إلي وقال:

- من الجيد أنك تعرف لغتنا، اذهب وازح ذلك البساط واجلس في الداخل.

حينما رفعت جانبه وجدت باباً أسوداً خلفه، كان مفتوحاً حينها، فدخلت إلى الغرفة التي كان بداخلها من كان في السيارة التي نقلتنا، يجلسون في إحدى زواياها، الأزواج والرجل، كانت الغرفة كبيرة ولا مجال للكلام عن نظافتها، تم طلائها بمادة كلسية بيضاء، على الأرض سجادة زرقاء كبيرة، وفي الوسط وضعت مدفأة وقود سوداء صغيرة، وفي الزاوية جهاز تدفئة كهربائي أبيض وقد لف شريطه إلى جانبه، خلعت حذائي وجلست خلف المدفأة المطفأة، رحت اعاين المكان، احتضن الأزواج الصغار بعضهم، كانت تبدو عليهم أثار الخوف والقلق سألت أحدهم:

- من أين أنتم؟

ظل يحدق فيَ دون أن يرد، قمت بإعادة السؤال بعدة لغات حتى وجدنا لغة مشتركة، حينها أجاب:

- من التيبت.
- بلاد بعيدة ... ما الذي جاء بكم إلى هنا؟
- نحو حياة أفضل.

صحيح أني لم أصل لهدفي بعد، لكني على الأقل وخلال كل الرحلة رأيت وجوه وسمعت لغات المنطقة الممتدة من جبال الأطلس إلى هضبة التيبت، عندما وقعت عيني بعين الرجل، أخذ يبتسم وقال:

- لقد وضعك في صندوق السيارة.
- صحيح، لو سبقتك في الجلوس على المقعد الأمامي، لكان الصندوق من نصيبك.
- لا مشكلة في ذلك، المهم أن نصل.
- لابد أن الطريق كان وعراً، لم تتوقف السيارة عن الترنح.
- لقد كانت يدي على مقبض الباب، حتى أهرب في أي لحظة.

فُتح باب البيت تلاه وقع اقتراب أشخاص مسرعين إلى الغرفة، رفع أحدهم السجادة ونظر إلى داخل الغرفة وكأنه اكتشف شيء جديد، بينما توقف ينظر إلى الداخل، دُفع إلى الداخل، تبعه مجموعة شبان، كانوا عشرة، جلسوا في انحاء الغرفة، من بينهم الشبان الذين كانوا معي في أول سيارة منهم المطرب، فيما كانوا يبحثون عن مكان مناسب ليجلسوا فيه، وقف صاحب البيت وهو أحد أعضاء شبكة التهريب، ينظر إليهم، إلى أن انتهوا حينها توجه بالكلام نحوي وقال:

- أيها المترجم، أخبرهم أن يبقوا صامتين، لا أريد أن اسمع صوتاً، خلفكم مباشرة يقع الشارع.

نقلت لهم ذلك، هز معظم الجالسين رؤوسهم موافقين، سألني أحدهم وهو شاب قصير ضعيف بوجه شاحب مائل للاصفرار، قد تساقط الكثير من شعره، حتى بات نصف أصلع:

- أخي أخبره أننا بحاجة إلى ماء للشرب.

طلب مني الرجل أن أرافقه لجلب الماء، حينما خرجت من الغرفة، وجدت باب البيت قد فتح جزء منه وظهر من خلاله سائقنا وهو يغسل السيارة في الشارع، أخذ يرش الماء من خرطوم أحمر قد أوصله من صنبور يقع بالقرب من باب البيت، في تلك اللحظة ركز رش الماء على الإطار الخلفي ليزيل ما علق به من طين.

- انتظر هنا حتى آتي بالماء. قال لي صاحب البيت.

خلال مدة الانتظار رحت أتابع عملية الغسل تلك، كانت علامات الرضا والسعادة تغمر السائق وهو يغسل سيارته، يغني وهو يجلس القرفصاء، امتزج الطين مع الماء وراح ينزل بكل سهولة، من أين له كل هذه السعادة! لابد أنه سيقبض خلال هذين اليومين مبلغاً لقاء نجاحه في ايصال دفعة من قرية حدودية حتى مدينة " أوميا " ربما يستلم المال اليوم أو غداً من يدري، خرج الرجل من باب تلك الغرفة المرتفعة وفيما ينزل الدرج وهو يحمل دلواً أزرقاً كبيراً قال:

- أخبرهم مجدداً ألا يرفعوا أصواتهم، ففي ذلك ضرر عليهم وعلينا.

ناولني الدلو وقد كان ممتلأ تقريباً، يطفو على الماء كأس أبيض من البلاستيك له مقبض، وعندما هممت بالعودة أضاف:

- أخبرهم أيضاً أن موعد الطعام قبل حلول المساء.

- هل سنغادر هذا المكان اليوم؟

- لا أدري ... ليس أنا من يقرر ذلك.

قبل الدخول إلى الغرفة شربت ثلاثة كؤوس من الماء، وبكم السترة مسحت حول فمي، حينما دخلت إلى الغرفة وضعت الدلو في وسطها، اجتمع عدد من الشبان حولها، نهض المطرب وأبعدهم عنها، أمسك الكأس وراح يوزع الماء بانتظام على الحضور، بدءاً بالنساء وإنتهاءاً بالشبان، كان نشيطاً للغاية، سمعت أحدهم يقول: " قلت لك أنه وحش "

اتجهت إلى القائل وإذا بصديقه الذي كان يجلس إلى جانبي وهو اسمر بشعر مجعد، يمسك ذقنه حينما يتكلم، فأجبته:

- لكني لم أشاهده أثناء صعود الجبل.

- صعد أسرع منا ... كأسٌ واحد لا يؤثر فيه ... إنه بوغا.

- وما هو اسمك؟

- زم.

أزاح صاحب البيت السجاد ونظر إلى الداخل، ابتعد لتدخل مجموعة ثالثة إلى الغرفة، تبعها الرجل وهو يحمل هاتفه، فيما بدأنا نفسح المجال لجلوس القادمين الجدد أشار الرجل بيده إلى الأزواج الأربعة ومعهم الرجل، أي كل من كان معي بالسيارة، طلب منهم أن ينهضوا ويتبعوه، قلت للرجل:

- لقد كنت معهم في السيارة ... ربما لا تعرف.

- بل أعرف، هؤلاء يتبعون لمهرب أخر، سيتم نقلهم إلى بيت أخر.

أصبحت مجموعتنا مكونة من تسعة عشرة شخصاً، عائلة من أب وأم وطفلين دون العاشرة، ثلاثة أخوة وهم شابتان وأخاهم الشاب، وهو الذي استند على ساقيه في الشاحنة، أما بقية المجموعة فهم شبان.

في الساعة الثالثة ظهراً جاء الرجل بطبق كبير بداخله البيض، بالإضافة إلى كيس من الخبز الجاف وهو خبز محلي بحاجة إلى أن يبلل بالماء حتى يصبح طرياً ثم يؤكل، نهضت وأخذت الطعام من يده، وفيما يناولني الطبق قال:

- لكل شخص منكم بيضتان، حينما تنتهوا من الأكل ضع الطبق والأوساخ فوق المدفأة، سأحملها لاحقاً.

تناولنا البيض بسرعة، ومن بعدها حاول البعض النوم، لكن صاحب البيت دخل إلى الغرفة مسرعاً وهو يحمل هاتفاً في يده وقال:

- هيا انهضوا، سترحلون الآن.

عاد وتكلم بالهاتف ثم اتجه إلينا مجدداً واشار إلى أقرب خمسة شبان ودعاهم أن ينهضوا ويرافقوه، بعد دقائق عاد وأخرج دفعة مماثلة، وقفت بالقرب من الباب حتى أخرج مع الدفعة الثالثة، لكن الرجل أبقى عليَ حتى النهاية، حينها اتجهت مع مجموعة مكونة من أربعة شبان والطفلين إلى باب البيت حيث كانت سيارة أجرة بانتظارنا، وهي إحدى تلك السيارات التي نقلتنا من القرية إلى هذا البيت، جلس أحدهم إلى جانب السائق فيما جلسنا نحن الأربعة في الخلف، حينما أراد السائق أن ينطلق، طلب منه الرجل أن ينتظر قليلاً، جاء بذلك الطفلين وطلب منا أن ننزل، حيث صعد الطفلين وتمددا في مكان وضع الأقدام، ثم أمرنا أن نصعد ونجلس على المقاعد، نظرت باستغراب إلى المشهد وسألته:

- كيف ذلك وهؤلاء في الأسفل!

أجاب بغضب: هيا ادخلوا وتدبروا أمركم، فالمسألة لا تتجاوز نصف ساعة.

- ضعهم في صندوق السيارة.

- لا مجال الآن، اصعد دون كلام فارغ.

طلبنا من الطفلين أن يتمددا ويسندا ظهريهما للباب، بحثنا عن أماكن الفراغ بين الجسدين ووضعنا أقدامنا فيها، لكن بعض الأقدام لم تجد فراغاً لهذا استقرت فوق الطفلين، لم يجد أياً منا على المقاعد أو أسفلها أدنى شعور بالراحة، سرعان ما تصلبت أجزاءنا جراء ذلك، أقل حركة من أقدامنا كانت تجعل الطفلين يتألمان، انطلقت السيارة بنا في شوارع المدينة، بدأ الطفلان يتذمران، ومن سوء حظهما أن السائق غير مبال لذلك بل مستفز أيضاً، نادى الطفل الأكبر وهو في العاشرة تقريباً:

- أخبره يا أخي أني أتألم.

- يقول أنه يتألم.

أجاب السائق:

- كلنا يتألم، عليه بالصبر.

حتى أهون قليلاً عن الطفل رحت استجيب لكل ما يسأل وانقله للسائق، لعله يجد في نقل الشكوى نوعاً من الراحة.

- متى سنصل؟
- لقد أخبركم الرجل، نصف ساعة، لا ترجع وتسأل عن ذلك مرة أخرى.
- أريد أن أقف قليلاً.
- جرب أن استطعت أن تخرج من بين الأقدام.
- لا أستطيع التنفس، أكاد أختنق.
- افتحوا الشباك قليلاً حتى يتنفس الاستاذ.

قام السائق بتشغيل المذياع واستقر على قناة تذيع أغان صاخبة، رفع الصوت عالياً وقد غطى على صوت الطفل، فلم أعد اسمع ما يقوله وهو ينظر إلي بين الفينة والأخرى وهو يحرك شفتيه بل حرك الشاب الذي بجانبي ساقه مغطياً وجهه.

لم يكن حال هذه المدينة أفضل من مدننا، كانت شوارعها تعج بعربات زراعية وسيارات من الأنواع القديمة، تسير على طرق محفَرة ومليئة بالطين، فيما انتشرت على مداخل الشوارع الرئيسية يافطات كبيرة معلقة عليها صور شبان ورجال قد قتلوا أثناء " الواجب المقدس " أغلب الصور التي كانت تحملها اليافطات ملونة لقتلى السنوات الماضية، بينما القليل منها كانت قديمة بالأبيض والأسود، حينما أصبحنا خارج المدينة بدأ رذاذ المطر يضرب الشباك، ومن خلفه ظهرت جبال مغطاة بالثلوج، هناك مصنع قديم للزجاج، مطاعم بسيطة على جانب الطريق، عربات زرقاء وسيارات وشاحنات ودوريات للشرطة منها التي تسير ببطء وأخرى تقف على جانب الطريق وبداخلها رجال الشرطة.

حرك الطفل رأسه مبعداً تلك الساق التي تحجبه عن رؤيتي ثم رفع صوته منادياً سمعت اغلب كلامه وقد كان غاضباً حد البكاء:

- صار لنا ساعة! اسأله كم تبقى.
- كم تبقى أخي السائق.

أخفض من صوت المذياع وأجاب: لقد وصلنا تقريباً ... عشرة دقائق.

اتجهت إلى الطفل وأجبت: تماسك، لقد بقي عشرة دقائق.

- العشرة لديهم ساعة.

يبدو أن مشهد المطر بحباته المتساقطة على زجاج الشباك ولمعان الأضواء من خلفها قد حرَك شيئاً ما بداخل الشاب الذي يجلس بجانبي، أطلق زفرة وقال:

- اسأل السائق هل بإمكاني تدخين لفافة تبغ؟

نظرت إلى السائق من المرآة العاكسة:

- هل يجوز التدخين؟

لم يجيب، بقي صامتاً وهو يقود، إلى أن جاء رده بعد قليل:

- لم يتبقى الكثير، لقد وصلنا تقريباً، لم تمضي دقيقة على كلامه حتى أضاف:

- بإمكانه التدخين.

اشعل الشاب لفافته على الفور بعد أن كانت جاهزة بين أصابعه، اخذ نفساً عميقاً وهو ينظر من الشباك، لم تزل لفافته في منتصفها حينما قلل السائق من سرعته مقترباً من السيارات الثلاثة التي تحمل بقية المجموعة، وعلى بعد مئة متر توقفت عربة زرقاء إلى جانب الطريق حينما اقتربنا منها كان بداخلها مجموعة من الأشخاص، توقفت جميع سيارات المجموعة بالقرب من العربة، وطلب منا السائق أن ننزل ونصعد إليها، لم تكن فرحة الطفل توصف، أما أخاه الثاني فقط كان صغير الحجم لهذا عانى بشكل أقل من الأول، نزل من مقصورة العربة الزرقاء شاب عصبي وشرس للغاية، أمرنا وهو يشتم أن نصعد إليها بسرعة فائقة، حتى لا تكشف أي دورية للشرطة من أمرنا، ففي العربة الزرقاء كان هناك حوالي خمسة عشرة شخصاً شديدي السمرة توقفوا على أقدامهم بعدما كانوا جالسين، لنتمكن كلنا من الصعود إلى ذلك المكان!

غطى الطين إطاراتها بل وأعلى من ذلك بقليل، كان ذلك الوحش الأزرق متوقفاً بكل اعتزاز بين تلك السيارات التي بدت وكأنها لا شيء أمامه، كان بدنه مليئاً بالثقوب والنتوء والانثناء، لم أكن أعلم حينها سبب هذه الأعطاب إلى أن شاهدت لاحقاً قتالاً عنيفاً له ضد عربة أخرى، وقف الشاب العصبي مبللاً أمام الباب الخلفي للعربة وقد زاد المطر من غضبه، اخذ يضرب بيده على الأكتاف حتى نسرع في الصعود، نادى فجأة:

- ارم اللفافة يا هذا.

نظر إليَ الشاب متعجباً مما يقوله هذا الغاضب! فأجبته:

- يقوم لك ارم اللفافة.

- لماذا؟

- قد تُشعل بها حريقاً سيأتي على العربة ومن فيها.

رماها أرضاً وأكملنا الصعود، كان الوحش الأزرق ينظر إلى الجهة المعاكسة لنا، كمن أدار ظهره لشيء لم يرى فيه أي أهمية، غادرت بقية السيارات المكان، عندما صعد الجميع، أغلق ذلك السائق العصبي الباب الخلفي وأنزل القفل، ثم مدَ رأسه من أعلى الباب ونادى: اجلسوا.

عندما جلسنا تداخلت أجسادنا فيما بينها، لم يكن جلوساً إنما استندنا على بعض، أقدامنا فقط على أرضية العربة أما ما تبقى فقد كانت متداخلة، نظر السائق إلى ذلك بسرعة لينطلق بعدها مسرعاً، يستحيل أن نبقى في ذلك الوضع، عدنا ونهضنا، لم يكن هناك مجال غير ذلك، انطلقت العربة بسرعة كبيرة حتى كادت معها أن تطير من تلك السرعة، لفحنا هواء بارد يلسع الوجه، ثبت قبعتي بشكل جيد على رأسي، بدأ معظمنا بالضحك ومشاهدة القرى وسكانها الذين كانوا ينظرون إلينا نظرات لا تدعو للتفاؤل، خرجت العربة من الطريق و دخلت بين القرى، رمى عدد من الأطفال الحجارة علينا، أصابت عدداً منا دون أن تسبب أي أذى حقيقي، دخلت العربة إلى إحدى القرى، وقد وضع على مدخلها لوحة زرقاء كبيرة مثبتة على الأرض وقد كتب عليها بخط أبيض " فردوسى " أخذت تدور بنا في شوارع القرية حينها خف الضحك والكلام الساخر لقد زاد التعب من جراء الوقوف على عربة غير مستقرة، وفي إحدى الشوارع استدار السائق ودخل إلى ساحة إحدى البيوت , كان باب البيت كبيراً ومفتوحاً لحظتها , يبدو أنه اتصل بهم واخبرهم بذلك , توقفت العربة بنا وسط الساحة إلى جانب خيمة بيضاء ! ثم أطفأها السائق، بدأنا بالنزول منها حتى دون أن يطلب منهم، أخذ السائق يدور بين من نزل منا وهو يسألهم شيء ما، أشار عدد منهم إلي، جاء السائق وقال: أنت المترجم؟

- نعم، ماذا تريد؟

- اطلب منهم ان يدخلوا إلى تلك الغرفة.

أشار إلى غرفة منفردة ملاصقة للحمام: على الجميع أن يذهب ويجلس هناك.

طلبت منهم ان يتوجهوا إلى المكان المحدد، كان المكان عبارة عن مكان لتخزين الأشياء القديمة، بالإضافة إلى مرجل مزود بمدفأة تعمل بالوقود، مدت الأرضية بسجادتين سوداء

رطبة، عندما جلسنا عليها تبلل البنطال والجوارب على الفور، هناك خزانة فضية من الحديد في الزاوية بداخلها ثيابٌ وكتب قديمة، نافذة تطل على طرف القرية حيث الطريق التي تسلكه عربات القرية، ومن حوله جبال مغطاة بالثلوج، تكدسنا في المكان او هذه الغرفة، فيما وقف السائق والذي قال لي أن اسمه " ميد " ينظر إلينا، في تلك اللحظة جاءت امرأة ثلاثينية ومدت رأسها إلى داخل الغرفة، قالت لميد " اطلب من المرأة وأطفالها وكذلك الفتاتان أن تأتيا معي " قمن ورافقن المرأة إلى غرفة أخرى في البيت، رغم ذلك بقي المكان ضيقاً، جلست بالقرب من الباب إلى جانب الشاب الذي طلب أن يدخن في السيارة وأخر تقيأ في بداية الرحلة، اتجهت إلى هذا الأخير وسألته:

- هل شعرت بالدوار في العربة الزرقاء؟

- لا أبداً

دخل إلى الغرفة شاب يشبه السائق إلى حد كبير، يحمل بيده قطعة طوب بنية اللون مربعة الشكل، وضعها إلى جانب المرجل وجلس عليها، خلال الدقائق الأولى راح يتفحص وجوهنا وكأنه يبحث عن شخص ما، بعدها سأل:

- من المترجم؟ " وهو يبحث عمن سينطق بالجواب.

- أنا، ماذا هناك؟

- كونوا مستعدين، ستنطلقون بعد قليل.

- إلى الأناضول أم إلى مكان أخر.

- الأناضول، أخبر رفاقك.

ومن ثم خرج ليعود بعد ربع ساعة مشيراً أن ننهض، على الفور اتجهت إلى الخارج ولبست حذائي على عجل، حينما اتجهت إلى العربة، وجدت السائق "ميد" يقف هناك، قال بغضب:

- لا تلمس العربة.

- كيف سنصل إلى نقطة بداية المسير!

- من هذا البيت، أنتم على الحدود تماماً، والأناضول على بعد عدة جبال.

اجتمع البقية في ساحة البيت، وصل شاب صغير دون العشرين يبدو أنه من أهل القرية، وعلى الفور طلب منا أن نرافقه، ارسلت رسالة إلى ميلا أخبرتها فيها أننا في الطريق لعبور الحدود، ومن ثم نظرت إلى الساعة وقد كانت في السابعة ليلاً تقريباً، سرنا خلف الدليل في رتل آحادي في شوارع القرية غير المعبدة مروراً ببيوتها المبنية من الحجارة حينها لم يكن أحد سوانا والكلاب في شوارعها، اخترق منتصف القرية نهر صغير قد شكله الثلج الذائب المنحدر من الجبال وفي إحدى المواضع من النهر تم وضع أربعة حجارة أمام بعضها للعبور من فوقها نحو الجهة الثانية وبعد تجاوزها بقليل أصبحنا خارج القرية كان هناك الكثير من الأشجار الجرداء ومن حولها الثلج، بعدها بدأ طريق جبلي مغطى تماماً بالثلج ومن حوله جبال بيضاء شاهقة كانت السماء صافية مرصعة بالنجوم، بدأ الرتل الرفيع بالصعود، ظهرت بصعوبة أثار أقدام ممن سبقونا في الأيام الماضية، وفي بعض الأحيان وإلى جانب الطريق هناك رسوم حدوات حصان، لم يمهلنا الجبل كثيراً فعلى الفور أصبح أكثر حدة وصعوبة، كان الدليل قليل الحماسة والنشاط وهذا أول دليل أراه بهذا الشكل، لم يكن يهمه من يتأخر أو يبقى في النهاية أو حتى يعود للقرية، أمسك بيده عصا طويلة يغرزها أمامه قبل أن يخطو، كانت تساعده كثيراً في الصعود، لم أكن أبعد كثيراً عن الدليل في البداية، نظرت خلفي وجدت أن الرتل بات متفرقاً، هناك من حافظ على نشاطه وسار بالشكل المطلوب، بينما البعض تأخر كثيراً، والبعض الأخر قد اختفى تماماً عن الرؤية، أصبح السفح أكثر انحداراً مما يتطلب المزيد من الحذر، شعرت بحرارة لا هبة تلفح وجهي ووخز على ظهري، تشنجت عضلات الساق ورافقها ألم حاد، سمعت عدة أصوات في الخلف، استدرت برأسي لأرى، وإذا عدد من الأشخاص قد سقطوا على الثلج، تشبثت بكلتا يدي في الثلج وأكملت الصعود نحو القمة، توقفت في استراحة استمرت عدة دقائق ومن ثم بدأت النزول، وعلى الرغم أن النزول يبدو سهلاً إلا أنه بحاجة إلى حذر شديد خشية السقوط، وفي الأسفل كان هناك وادي صغير يتوسطه طريق طيني عليه عدد من الأحجار للقفز عليها والوصول للجهة الثانية، بينما استعد للقفز على أول حجر منتظراً أن ينتهي الشخص الذي أمامي من ذلك، قامت المرأة أم الأطفال بدفعي إلى الأمام وهي تتلفظ بكلمات تنم عن استياءها لطول انتظاري! غرست كلتا قدماي في الطين البارد، شعرت وكأن سكيناً قد غرس في قلبي، لقد حاولت طيلة الطريق أن أحافظ على جفاف ثيابي وحرارتها قدر الإمكان، لقد ابتل الآن الحذاء والجوارب تماماً، أصبحت المرسينية تصدر صوتاً أقرب للأنين حينما أمشي، ناهيك عن عدم ثبات القدم داخلها نتيجة الطين اللزج، بعد اجتياز الطريق الطيني توقف الجميع بطلب من الدليل في استراحة، جلس هو على إحدى الحجارة مستريحاً، فيما

تبول البعض أو جلس طلباً للراحة، قصدت مكاناً مازال الثلج فيه يبدو نظيفاً، مسحت طبقة من الثلج ومن ثم اخرجت قطعة بحجم الكف من الأسفل، كانت صلبة , سحقتها وأبقيت قطعة منها في فمي، رحت أنقلها عن طريق اللسان إلى الأماكن الدافئة، أذبت بذلك الكثير منها ومن ثم ابتلعت ما تبقى منها، شعرت بالسائل البارد وهو يجتاز حلقي الجاف الدافئ، نهض الدليل وبدأ المشي بغير مبالاة، نهضت بتثاقل، سرنا خلفه لنصعد الجبل الثاني، وقد كان مشابهاً للأول، وفيما نصعد نحو القمة لاحظت وجود غرفة بالغة الصغر، هل يُعقل أن يعيش أحد هناك! أكملت الصعود وعندما مررت بالقرب من تلك الغرفة وإذا هي بمرصد قديم مهجور مربع الشكل له شباك صغير، يتسع هذا المكان لشخص أو شخصين، لقد كان مغطى تماماً بالثلج ومعتم من الداخل وهي واحدة من ثلاثة غرف مبنية على الأطراف العليا من ذلك السفح، حينما أصبحنا في الوادي الفاصل بين الجبل الثاني والثالث وقفنا في استراحة استمرت لنصف ساعة وصل خلالها من تأخر، وبعد وصولهم قال الدليل:

- الجبل التالي هو الجبل الأخير، سننزل منه مباشرة إلى أول قرية في الأناضول، بعدها ستأتي شاحنة صغيرة لحملنا إلى مكان آمن داخل البلاد، المطلوب الآن هو الإسراع قدر المستطاع نحو داخل القرية حيث الشاحنة ستقف لدقائق معدودة لتحمل خلالها أكبر كمية ممكنة ومن ثم ستغادر، ومن يتأخر يفقد مكانه.

عندما وصلنا قمة الجبل الأخير، اختار الدليل أول عشرة أشخاص، وقال:

- لا مجال للنزول مشياً ... تزحلقوا.

تزحلقت أول مجموعة نحو الأسفل، حينما بدأ دور مجموعتنا الثانية، بدأنا النزول، عندما خطوت أول خطوة غُرس جسدي في ثلجٍ يبلغ ارتفاعه نصف متر، اخرجت نفسي ومن ثم جلست، استخدمت يدي في الدفع وبدأت النزول بسرعة عالية، عاينت المكان أمامي قدر المستطاع، حتى اتحاشى الصخور، رفعت عيني عن الطريق فرأيت القرية أسفل الجبل، كانت صغيرة ومضاءة بمصابيح بيضاء وصفراء والثلج يحيط بها من كل الجهات عدا عن طريقين اثنين كانا اسودا اللون يخرجان منها، الأول يؤدي إلى إحدى نقاط الجيش على الجبل، والثاني إلى القرية التالية، كانت نقاط جيش الأناضول تنتشر على قمم الجبال، مزودة بأسوار بداخلها غرف وعربات عسكرية، وهي مضاءة جيداً وفيها العديد من الأبراج والهوائيات المخصصة للكشف، استغرق الأمر وقتاً حتى وصلت إلى أسفل الجبل حيث باتت القرية لا تبعد عنا سوى عدة أميال، تجمعنا في

الأسفل متلاصقين، إلى أن وصلت بقية المجموعات، حينها رمى الدليل العصا بعيداً وطلب منا أن نرافقه إلى داخل القرية، بدأ الركض نحو داخل القرية، أصوات خطوات وهمهمات، سرنا على طريق طيني عليه أثار العربات الجيش، إلى أن وصلنا إلى أول شارع في القرية، حيث أضاءت أعمدة الإنارة بمصابيحها الصفراء تلك الشوارع غير المنتظمة الغارقة في الثلج و الطين، طلب الدليل منا جميعاً الجلوس في ذلك الشارع مجتمعين ريثما تصل الشاحنة، انضم هو إلينا وأخرج هاتفه ليجري اتصالا، فجأة ظهر خمسة جنود في مدخل الشارع وثلاثة أخرين في مخرجه، يرتدون بذلات عسكرية كاملة، من جعب وخوذ وبنادق حديثة من بينها بندقية قنص طويلة، أخفى الدليل هاتفه على الفور، حتى يبدو كأنه واحد منَا ذلك حتى لا يتعرف عليه الجنود، اقترب جنديان إلى حيث نجلس، أخرج أحدهم مصباحاً وراح يسلطه على وجوهنا وهو يشتم ويتوعد أن شيئاً " جميلاً " بانتظارنا سأل:

- لماذا آتيتم إلى الأناضول؟ " وهو ينقل بصره بيننا منتظراً الإجابة.

لم يجبيه أحد، زاد ذلك من غضبه وشتمه، ركل من كان أمامه مما جعل البعض يتراجع قليلاً نحو الخلف خوفاً، عاد وكرر سؤاله السابق، عندما رأيت أنه سيفقد صوابه من سكوتنا الذي من شأنه أن يزيده استفزازاً، رفعت يدي وقلت:

- أنا أجيد لغتكم.

- قم وقف ... ولماذا تسكت إلى الآن.

- حاضر. حينما وقفت سلط الضوء على وجهي وطلب مني أن أجيب على سؤاله، فأجبت:

- لا أحد يريد أن يبقى في الأناضول، الكل سيغادر منها نحو دول الشمال.

- وإن كان، أليس هناك من طريق غير بلادنا. أصبح صوته أقل حدة.

سكتُ ولم أعطي جواباً، عاد ونظر إلى الجميع ملياً ومن ثم قال:

- ترجم ما يلي للجميع.

- حاضر.

بدأ يشتم بشكل يفوق الوصف، لقد ذهب في ذلك بعيداً مستحضراً كلمات وجمل ذات نغمات ترتفع وتنخفض حسب طبيعة الشتيمة، بأسلوب لا يجيده إلا الرعاع، قمت باستبدال الكلمات القذرة بأخرى مقبولة مثل أسماء الحيوانات، دون أن يدري هو ورفاقي بذلك، استغرب البعض من عدم توافق تلك الهيئة الغاضبة مع الكلمات المقبولة تلك، إلى أن أفرغ ما في جعبته من شتائم حينها قال:

- توقفوا في رتل رباعي.

طلبت من الجميع النهوض وقد قمت بتنظيمهم في رتل كما طلب الجندي في الشارع، ومن ثم وقفت في نهايته , أشار أن نتبعه، مشى أمامنا جنديين من بينهم كبيرهم صاحب الشتائم ومن خلفنا من تبقى من الجنود الملثمين المدججين ببنادق مزودة بمناظير وجعب مملوءة بمخازن الرصاص، سرنا إلى خارج القرية بهدوء على الطريق المخصص للدوريات العسكرية، حيث ظهرت أثار إطارات عريضة على الطين الممزوج ببقايا الثلج، ابتعدنا كثيراً عن القرية فقد أصبحت خلفنا، وصلنا إلى مخفر حدودي صغير يقع أسفل جبل ويطل على واد مغطى بالثلوج، وبين المخفر ومدخل الوادي هناك أسلاك شائكة من النوع الملتف ذي الشفرات، يرتفع عن الأرض حوالي نصف متر، كان المخفر يتكون من عدة غرف وإلى جانبهم مدرعة مدولبة مخصصة للدوريات الحدودية، نادى كبير الجنود:

- اجلسوا في أماكنكم. ومن ثم اشار إلى المرأة وأطفالها والفتاتان أن يخرجوا ويقفوا بعيداً عنا متجهين بوجوههم نحو الوادي، أما البقية فجلسنا القرفصاء وإلى جانبنا الأسلاك الشائكة، بعد أن نظم الكبير كل شيء، اجرى اتصالا هاتفياً عن طريق جهاز لا سلكي يطلب فيها " دعماً " سرعان ما وصل الدعم من المخفر، خرج جنديان من إحدى الغرف وهما يتقاسمان حمل الهراوات التي وزعوها على رفاقهم ومن ثم انتشر الجنود من حولنا وقد كانوا سبعة، افتتح الكبير عملية الضرب بجملة " لماذا أتيتم إلى هنا " و انهال بهراوته على ظهر أحدهم بما أوتي من قوة، بعد ذلك بدأ بقية الجنود بالضرب مستخدمين الهراوات والركل، أخفضت رأسي ووضعت ذراعيَ فوقها حتى تحميها، ارتفعت الأصوات المتألمة، تلقيت ضربة على ظهري، لقد آلمتني كثيراً لكني بقيت صامتاً ولم اتحرك أو أنادي، أردفها بضربتين على ذراعي من وسطها شعرت وكأنها ستقطع، حاول الجندي بذلك إبعادها عن رأسي لكنه لم يفلح، انتقل بعدها إلى الشاب الذي بجانبي ووجه

له عدة ضربات على ظهره، واصلوا عملهم إلى أن توقفوا فجأة، والذي يبدو أنه كان بأمر من الكبير الذي نادى بأعلى صوته وهو يرفع الهراوة:

- هيا عودوا. لم يفهم الجميع معنى ذلك، ونظروا إلى بعض مستغربين، عاد وأشار إلى الوادي واقترب ليضرب مجدداً، حينها نهضنا وبدأنا القفز من فوق الأسلاك، لكن البعض تدافع فوقها، فسقط أحدهم عليها، ساعده عدد من الشبان في النهوض واجتياز الأسلاك، اجتمعنا مجدداً في مجموعة واحدة، نظرت إلى الخلف وإذا بالجنود خلف الأسلاك متجهين نحونا، حينما استدرت وجدت المجموعة بدأت بالسير في طريق العودة إلى القرية.

سار الجميع في صمت خلف الدليل، اتكأ المصاب على كتف اخته وهو يسير بصعوبة وبطء, كان الوادي محاطاً بالجبال أما أرضه فكانت مليئة بالصخور الكبيرة، تقفى الدليل إحدى الطرق المطروقة سابقاً، انتشر حول هذا الطريق الكثير من قطع الثياب القديمة المتجمدة، توقفنا بالقرب من ساقية تنحدر من الجبال لنشرب الماء، أحاطت طبقة سميكة من الثلج بالساقية، اقتربت ببطء نحو الماء وأزلت الثلج الملاصق له حتى ظهرت الحجارة، وضعت ركبتي عليها وانحنيت ماداً يدي لأغرف القليل من الماء بكفيَ، والذي كان بطعم غريب، اكتفيت بشرب عدة دفعات لأنهض مجدداً، انشغل البقية بالكلام أو التدخين بانتظار أن ينتهي الجميع من الشرب، في نهاية الوادي وعلى مقربة من القرية التي خرجنا منها، كانت هناك غرفة حراسة مهجورة وأمامها بقايا أسلاك شائكة شبيهة بتلك التي أمام مخفر الأناضول، وما أن دخلنا القرية حتى تصدى لنا ثلاث رجال و مسن تقابلنا وأياهم بالصدفة في إحدى الشوارع، على الفور انحنوا وحملوا حجارة، في تلك اللحظة نادى الدليل بأن نعود إلى الوادي، لاحقتنا حجارتهم والشتائم وكلمات " الشرطة ... الشرطة " اجتزنا الأسلاك مبتعدين عن القرية قدر الإمكان خوفاً من وصول الشرطة، إلى أن توقفنا على بعد عدة أميال منها، كان الوادي أكثر الأماكن أمناً وهو يبدو أنه منطقة محايدة تفصل بين الدولتين، طلب منا الدليل الاجتماع في مجموعة ريثما يعود، جلسنا في بقعة صغيرة خالية من الثلج، قام عدد من الشبان باقتطاع أغصان الأشجار القريبة وجمعها لنشعل بها ناراً للتدفئة، لكن محاولات إشعالها باءت بالفشل، تطوع أحدهم و مزق لفحته المصنوعة من الصوف وبواسطتها اشتعلت الأغصان فأصبح لدينا نار للتدفئة، تحلقنا حولها طلباً للدفء، اقتربت أكثر من النار، أخذ أسفل بنطالي وحذائي المتجمدان بالذوبان بعدما أن كانوا عبارة عن قطعة من الجليد، لفح الهواء الساخن وجهي، سرت الحرارة بجسمي، بدأت يداي تؤلماني، أما رؤوس الأصابع فقد ظلت

باردة، عندما شارفت النار على الإنطفاء هرعنا لقطع المزيد من الأغصان ومن ثم العودة والوقوف أمام وهج فاكهة الشتاء، طال غياب الدليل إلى أن حل الصباح، اقترح بوغا أن نعود إلى البيت الذي انطلقنا منه بدلاً من الوقوف هنا، لكن أحداً لم يكن مستعداً للعودة ومواجهة القرويين أو الشرطة، عاد الدليل بعد عدة ساعات مع السائق ميد وبالقرب من غرفة الحراسة المهجورة صعدنا على العربة الزرقاء التي اعادتنا إلى البيت الذي انطلقنا منه أول مرة دون أن معرفة القرويين بذلك.

كان شعوراً لا يوصف حينما وصلنا إلى ذلك المخزن حيث الراحة والدفء، لقد أصبح المخزن عبارة عن جنة مقارنة بالبقاء في الخارج، تمددنا متلاصقين بالقرب من بعضنا والحقائب هي وسائدنا، فيما أفسحنا مكاناً لرفيقنا المصاب، جلس ومدد ساقه المصابة لقد كان ذلك الشاب الممتلئ الذي استندت إليه في الشاحنة، كانت هناك بقعة دم كبيرة فوق الركبة اليمنى وفي وسطها شق بطول الأصبع، جاء الشاب الذي يشبه السائق وجلس مجدداً على قطعة الطوب تلك وهو صامت، نظر إلي وقال:

- لقد تأخرت الشاحنة، هكذا أخبرنا الدليل.
- صحيح، يا لها من تجربة.
- لابد أن تقاسوا بعض التعب حتى تصلوا إلى الأناضول.
- إنني أشعر بالألم في كامل جسدي، لقد أنهكونا ضرباً.
- يا لهم من أوغاد.
- ما العمل الآن؟
- استريحوا الآن، لاحقاً سنتكلم في الخطوة التالية، لابد أنكم جائعين.
- بالطبع، لم نأكل منذ البارحة عصراً.
- سأطلب منهم أن يصنعوا طعاماً يكفيكم كلكم.
- طيب.

غادر الشاب الغرفة، نهض بوغا وفتح الخزانة وهو يبحث عن شيء ما، ثم اخرج قميصاً أسوداً قديماً، قام باقتطاع قطعة منه ليعيد الباقي إلى مكانه، اتجه إلى المصاب ونزع

بنطاله بمساعدة شابين أخرين، ظهر جرح كبير على فخذه، وقد نزف حتى تبلل لباسه الداخلي والبنطال بالدم، فيما يلف بوغا مكان الإصابة، قال الشاب الشاحب له:

- إذا بقي الأمر هكذا دون علاج، سيسبب له الجرح مشكلة كبيرة لاحقاً.

- هذا المتوفر الآن. أجاب بوغا وهو مشغول بعمله.

اتجه إليّ الشاب الشاحب وقال:

- أنا طبيب، بإمكاني مساعدته، لكن عليك أن تخبر أحدهم أن يأتي لنا ببعض المواد الطبية الأولية.

- سأخبر الشاب حينما يعود، آمل أن يستجيب.

خلال الظهر جاء الشاب بالطعام يعاونه شاب صغير في حمله، والطعام كان عبارة عن الأرز ومرق البيض، بالإضافة إلى عشرة ملاعق، في حين كنا حوالي الثلاثين، قام الشاب الصغير بخلط الأرز والمرق داخل خمسة أطباق، على أن يأكل كل ستة أشخاص من طبق واحد، تهافتت الملاعق ورؤوس الأصابع إلى الصحون، لم يستغرق الأمر سوى بضعة دقائق حتى تم القضاء على الطعام، كان الشابان يدركا جيداً أن الأمر لن يطول لهذا لم يخرجا من الغرفة إلا ومعهم الأواني.

فتح الطبيب الشباك، دخل هواء بارد إلى الداخل، أشعل المدخنون لفائفهم، وعلى عجل دخنوا خلال ذلك أخذ من يقف أمام الشباك بتأمل تلك الجبال والثلوج والطريق، عاد الشاب إلى الغرفة وعندما وجد الشباك مفتوحاً، ثار جنونه، اتجه إلى الشباك وأغلقه بقوة وهو غاضب وقد داس بحذائه الرطب على السجادة، تكلم معهم بغضب دون أن يفهموا عليه، استدار إليّ وقال:

- أخبر رفاقك ألا يقرب أحد من الشباك، فهذا ممنوع منعاً باتاً.

- ارادوا بذلك اخراج الدخان لا أكثر.

- ليس هناك مبرر للوقوف والتأمل أمام الشباك المطل على الطريق السريع حيث دوريات الشرطة والاطلاعات.

- اعذرهم، لم يكونوا يعرفون ذلك.

- عقوبة إيواء اللاجئ ثلاث سنوات من السجن، أما أنتم سيتم ترحيلكم وتسليمكم لبلادكم.

جلس من كان يقف أمام الشباك، ترجمت لهم ما قاله، وقد أثارت مسألة الترحيل الخوف لدى الجميع، وخاصة بوغا، الذي هز رأسه وهو يبتسم، أضاف الشاب قائلاً:

- أخبرهم أنه من يريد التدخين عليه الخروج أمام هذا الباب وبدون أي صوت وأن يدخن بسرعة.

- تمام.

خرج من الغرفة وقد أغلق الباب بقوة، ساد الصمت المكان، قال بوغا:

- اسمعوا يا أولاد، إياكم وأن تقعوا في قبضة السلطات، والله لن يرحموكم، لدي صديقين دخلا لهذه البلاد بطريقة غير شرعية لغرض التجارة، وقد ألقت الشرطة القبض عليهم، أتدرون ماذا فعلوا بهم؟ أفعال يشيب لها الشعر، في السجن أرغموهم على شرب كميات كبيرة من الماء ومن ثم قاموا بربط أعضاءهم الذكورية برباط متوسط الشدة، أخذوا يتبولون بالتنقيط ... مؤلم أليس كذلك**!**، حينما فرغت مثانتهم بهذا الشكل، فكوا الرباط عن العضو ليربطوا به أعلى خصيتهم وقد أبقوهم على ذلك مدة طويلة، لا أعلم إذا فقدوا رجولتهم أم لا بذلك، لهذا كونوا حذرين وإياكم القيام بأي خطأ قد يودي بنا كلنا لأيدي هؤلاء القساة ".

لم يعلق أحد على كلامه، وقد أضاف بوغا:

- ناهيك عن الترحيل، معظمكم إن لم يكن كلكم مطلوب لسلطات بلادكم، اضيفوا إلى ذلك تهمة دخول دولة أخرى بطريقة غير شرعية، حينها عليكم أن تجلسوا في السجن وتعدوا السنين.

لقد كان الكلام عن الترحيل مخيف بصدق، على أن نموت وسط هذه الثلوج بعيداً عن أهلنا، أهون علينا من إعادتنا إلى بلادنا.

بدأت الأفواه تتثاءب، بعد ذلك التعب والطعام لابد من النوم، تمددنا بانتظام متلاصقين، الظهر إلى الأرض والوجه نحو السقف، لا مجال للحركة سوى ثني الساق من وسطها نحو الأعلى، لكن هذه الحركة غير مرغوبة بها، كون أحدهم سيضع جزء من جسمه في ذلك الفراغ الناتج عن الثني، أما الحقائب فقد وضعت فوق بعضها بانتظام بالقرب من

الباب، قام أحدهم وضغط على زر المصباح فأطفأه، ومع بداية الليل، دخل الشاب إلى الغرفة مسرعاً ونادى علينا: " هيا انهضوا، لقد حان وقت المغادرة ".

اختلط ألم الضرب مع التعب والنوم غير المريح، جلست بصعوبة، فيما ظل عدد نائم دون أن يعطي أهمية لكلامه، الذي بدوره جلس في مكانه الدائم على قطعة الطوب تلك، أخرج الهاتف وهو يقول لنا:

- بانتظار إشارة الانطلاق لهذا انهضوا كونوا جاهزين. وأردف: " أريد لفافة تبغ .... من لديه واحدة؟

ألقي له أحدهم واحدة، راح يدقق في نوعيتها بقراءة اسمها المدون أسفل الفلتر، هز رأسه وقال:

- يا لكم من مترفين، لا تدخنون إلا الطراز الباهظ!

رن هاتفه، فأجاب: " أهلاً .... ماذا! ... متى إذن؟ ... طيب مع السلامة. بعد أن أنهى المكالمة قال أيها المترجم أخبرهم تم تأجيل الانطلاق إلى يوم الغد.

حينما أخبرت الجميع بذلك عم الفرح والضحك الغرفة، نهض الشاب من مكانه وهو يرفع يده التي تحمل لفافة التبغ وقال:

- اسكتوا ... اسكتوا حتى لا تسمعكم الاطلاعات.

عدنا وتمددنا لنكمل النوم، دخل الشاب الصغير ووقف بالقرب من الباب، سألت الجالس على الطوب:

- ما هو اسمك؟

- اسمي كيم والسائق ميد هو أخي، بينما هذا الذي يقف إلى جانبي هو ابن عمي واسمه زيفو ... قل لرفاقك أنه هناك متسع من الوقت للنوم. ومن ثم توجه إلى زيفو وقال له:

- اذهب واطلب منهم أن يعدوا الشاي.

على الفور استجاب لكلامه وغادر الغرفة فيما اتجه إلينا كيم بنظرات ملؤها الثقة أشعل اللفافة، لم يعد أحدٌ يريد النوم بعدما سمع بقدوم الشاي.

- من منكم يجيد الغناء؟ سأل كيم. قمتُ بترجمة ذلك.

حينما طرحت سؤاله ابتسم البعض لذلك، قال زم: هذا صديقي بوغا يجيد الغناء، صوته رقيق وحزين.

ابتسم كيم ابتسامة مصطنعة لم يكن يفهم ما قاله زم لكن يبدو أن كلامه اجابة على طلبه، اتجهت إلى بوغا وقلت له:

- اسمعنا شيئاً غير الذي قمت بغنائه عندما كنا في السيارة.

- وأنا أيضاً سأغني بعده، حتى يحكم الجميع من الأفضل بيننا " قال كيم متحدياً.

- لا أريد أن أغني الآن، لا أريد ذلك. قال بوغا، وعندما نقلت ذلك لكيم، نهض من مكانه وفتح الباب منادياً:

- زيفو، توقف عن إعداد الشاي، لقد غيرت رأيّ.

شعر الجميع باستياء كيم من اجابة بوغا، وعندما عرفوا أنه ألغى مشروع الشاي حتى نادوا: لا يا أخي، كل شيء إلا الشاي.

- هل ما يزال يرفض الغناء؟

- أنا سأغني أولاً ومن ثم بوغا. قال مار، وهو شاب ضعيف طويل لا يتكلم إلا قليلاً، وعندما يتكلم، له طريقة غريبة في نطق الكلمات.

- موافق. أجاب بوغا.

عاد كيم وجلس في مكانه بدأ مار الغناء، وقد كان صوته جميلاً فعلاً، بعدها حان دور كيم وما إن بدأ الغناء حتى ضحك أغلبنا بصوت مكبوت بصعوبة، أحس هو بذلك لكنه واصل الغناء بكل ثقة، إلى أن انتهى، صفق الجميع له بحرارة وهو يبتسم بكل رضا، دخل زيفو وبيده الأيمن إبريق كبير اسود وفي الثانية كيس بداخله أكواب ورقية صغيرة، وضعها على الأرض , أخرج الأكواب، وفي الكوب الأول قطع صغيرة من السكر، قضم قطعة سكر ومن ثم تولى عملية صب الشاي في الأكواب، لكل كوب قطعة سكر واحدة دون تحريك، عندما بدأنا الشرب أخرج البعض علب الدخان ليدخنوا لفافة مع الشاي، انتبه كيم إلى ذلك و مد يده إلى جيب سترته بحركة تمثيلية ثم صفق بيده وقال:

- أوف ... لقد نسيت علبة الدخان في الغرفة الأخرى.

اتجهت إلى رفاقي وقلت لهم: " انه يريد لفافة ". رموا له حوالي خمسة منها، جمعها بيده وهو يبتسم، أشعل واحدة ووضع البقية في جيب سترته، بعدها بدأ يحاول التواصل مع البقية عن طريق الإشارات ومحاولة البحث عن الكلمات المشتركة بين لغته ولغة أغلب الحضور، ففي التواصل المباشر يصبح الود أكثر وطلب اللفافات أسهل، قال لي:

- تعال واجلس بالقرب مني. وعندما جلست أضاف:

- على الشايب أن يغني، لقد حان دوره.

اتجهت إلى بوغا وقلت له: هيا يا مطرب ابدأ الغناء.

ارتشف القليل من الشاي ومن ثم تنحنح وبدأ يغني أغنية حزينة، استمع البعض باهتمام والأخر كان مشغولاً بأحاديث جانبية، وما أن انتهى حتى صفقنا له بحرارة، انهالت عليه المدائح، سمعت صوتاً يقول:

- ألم أخبرك أنه وحش ... في كل شيء.

لقد كان القائل زم، لم يكن يبعد عني كثيراً، فأجبته:

- فعلاً، هناك بحة حزينة في صوته.
- إنه الناجي الوحيد من عائلته التي قتلت بسقوط إحدى القنابل على بيتهم، زد على ذلك انه مقاتل وسجين سابق.
- كل هذا!
- بل أكثر من ذلك.

نهض مار من مكانه واتجه إلى حقيبته، لاحقته الأنظار مستغربة عما سيفعله، فجأة أخرج ناياً، عاد بها إلى مكانه وهو مقضب الحاجب، توجه بالكلام للجميع وقال:

- اسمعوا الآن. جلس متربعاً،

أخذ نفساً ومن ثم بدأ العزف وقد أجاد العزف، عندما انتهى صفق له الجميع بصدق، كذلك كيم الذي هز رأسه وقال:

- عزف جميل، لك مستقبل مشرق في الشمال، فأولئك قوم يحبون الموسيقا والرقص كثيراً. ثم قال لي:

- اطلب من رفاقك السمر أن يغني أحد منهم ... دعنا نسمع شيئاً من عندهم أيضاً.

حاولت أن أتواصل معهم لكن عبثاً، لم أجد لغة مشتركة بيننا، إلى أن سمعت أحدهم وبصوت ضعيف يقول:

- مازا تريد؟
- نريد من أحدكم أن يغني.
- نحن هنا أحد لا يعرف غناء.
- أنت حاول، ربما كان صوتك جميل.
- لا.

أخبرت كيم بذلك، هز رأسه وقال: كنت أدرك ذلك.

عدت إلى نفس الشخص وسألته:

- ليس هناك حرب في بلادكم، لماذا تغادرونها؟
- نحن بلد صغير نفرات كثير عمل قليل.
- مترجم. نادى الطبيب الشاحب عليً.
- ماذا؟
- أخبره أن رفيقنا مصاب، عليه أن يجلب بعض الأدوات لأضمد جرحه.

أخبرت كيم بذلك، فلم يعير أي انتباه للأمر بل راح يتواصل مع البقية عن طريق الإشارات.

- ربما سيأتي بها بعد قليل. قلت للطبيب.
- لا أعتقد ذلك.

اقتربت أكثر من الشاب الذي يجلس إلى جانبه " زيفو " فسألته:

- اسمعنا صوتك.

- صوتي قبيح.

- إذا ما كان لديك كلام تريد أن تقوله للبقية، أخبرني حتى اترجمه.

- ليس هناك شيء، لقد دفعني الفضول للمجيء إلى هنا.

- اريد أن اسألك سؤلاً.

- تفضل.

- هل سنغادر غداً أم لا؟

- لا أعلم شيئاً عن هذا الموضوع ... هناك شيء واحد أريد أن أخبرك إياه، لكن عدني أن يكون ذلك سراً بيننا.

- وعد.

- البارحة تقصدوا أخذكم من طريق مكشوف، بعد أن انشغلت نقاط مراقبة الجيش بكم، وصلت مجموعة إلى القرية ومنها اكملت طريقها نحو داخل الأناضول.

- إذن كنا طُعماً!

- هذا ما سمعته من الدليل البارحة صباحاً.

- لكن الدليل أيضاً كان معنا ونال نصيبه من الضرب!

- هذا عمله الدائم.

استمر التحدي والغناء إلى منتصف الليل، وقد دخن خلالها كيم ما يقرب من علبة كاملة، لم يكتفي بذلك بل قال:

- أخبرهم أني لا أملك أي لفافة، والدكان مقفل الآن. عندما نقلت كلامه للبقية، بدؤوا في اخراج اللفافات من العلب بينما كان يبتسم قال وهو يمثل دور القنوع:

- فقط ثلاثة لا أكثر. لكنه حصل على عشرين لفافة على الأقل، نظمها في كف يده ومن ثم نهض وقال وهو يتثاءب:

- يكفي غناءاً، لقد تأخر الوقت وأصبحنا في منتصف الليل. لقد سبقه زيفو في الخروج، وقبل أن يغلق كيم الباب أضاف:

- إياكم والكلام ... فدوريات " الاطلاعات " تكثر خلال الليل. ومن ثم غادر.

فبعد أن تأكد بوغا من عودة الجميع إلى الغرفة ولم يبقى أحد في الخارج حيث الحمام أو من أجل التدخين وقف في وسط المخزن ونادى بصوت منخفض وهو يحرك يده نحو الأعلى:

- قيام.

- ماذا هناك! نادى أحدهم.

- انهضوا ... علينا أن ننظم مكان النوم جيداً وبشكل عادل.

بدأت عملية رص الصفوف، كان مكاني في الوسط تقريباً، وفيما يتمدد البقية، فجأة اهتزت الأرض، حاول من يقف بالقرب من الباب الهروب نحو الخارج بينما نهض بعض من كان متمدداً، لكن سرعان ما توقف الزلزال، قال بوغا بغضب:

- من طلب منكم أن تنهضوا من أماكنكم؟ إلى أين تريدون أن تهربوا! إلى الثلج أم الاطلاعات؟

- هل تريد منا أن نموت في الداخل! " قال الطبيب.

- أي موت أيها الميت! انظر إلى هذا السقف، هل من الممكن أن يموت أحد تحته؟

بعد ربع ساعة اكتملت العملية، ضغط بوغا على الزر فأطفأ المصباح، كان لمقدمة الموقد نافذة دائرية من الزجاج الشفاف، أضاء اللهب المتراقص من خلفها المكان بضوء أصفر خافت، لم نكن وحدنا هنا، بل معنا ذكرى الكثير ممن قصدوا هذا المكان قبلنا، مازالت أثارهم باقية على الجدران، كتابات بأحجام ولغات عديدة وتواريخ بعضها يعود لأشهر مضت وأخرى لخمس سنوات، لم يكن يظهر منها إلا من أراد لذكراه أن تبقى لأطول مدة ممكنة، فكتب عن طريق حكَ الجدار الأبيض بأداة حادة وملئها بسخام المدفئة، تدلى شريط رفيع من السقف وفي أسفله مصباح صغير، أما السقف فقد كان مبنياً من الطين، أُستخدمت ست أعمدة طويلة تمتد بين جدارين في تثبيته والحلول دون سقوطه، انقطعت أصوات الأحاديث الجانبية، حل الشخير وصوت نار المدفئة مكانها، لا أدري لماذا كنت متفائلا وأننا سنصل خلال المحاولة الثانية، ومن بعدها سأكمل نحو مدينة الميناء لأودع ميلا وانطلق من هناك نحو البحر حيث سينقلني قارب مطاطي إلى إحدى جزر هيلاس

ومنها إلى العاصمة ولقاء ماد ومن هناك سنكمل الطريق سوية نحو الشمال لنستقر في النهاية بإحدى الدول، حيث الأرض تدر كرامة وحرية وعلماً وعملاً.

في اليوم التالي وبعد حلول الظلام دخل كيم وهو يحمل قدراً كبيراً وخبزاً جافاً والقليل من الملح الذي وضعه على قطعة من الورق، وفيما يضع القدر على الأرض قال:

- لكل واحد بيضتان.

كان البيض من النوع الصغير، تقشيره أخذ بعض الوقت، كنت حريصاً في تقشيره بدقة حتى لا يضيع أياً من البياض، خلال ذلك أكلت كسرات من الخبز ومن ثم وضعت القليل من الملح على البيض وتناولتهما بأقل من دقيقة، أكل الذي بجانبي بيضه مع القشر، وعندما سألته عن ذلك أجاب: ليس لدي صبر على تقشيره، أيضاً يحتوي القشر على الكالسيوم.

- الليلة موعد الانطلاق، والدليل الآن في طريقه إلى هنا. قال كيم.

- وماذا عن رفيقنا المصاب! لا يمكنه المشي بدون تضميد الجرح.

- الآن سأطلب من زيفو أن يبحث في القرية عن المواد اللازمة لذلك.

- ليست هناك صيدلية قريبة من هنا؟

- قريتنا كباقي قرى الأقليات ... مهمشة.

ثم نهض وجاء بزيفو، سألت الطبيب:

- ماذا عليه أن يجلب؟

- قطن، شاش، كحول، سائل يود. نقلت ذلك لزيفو الذي بدوره هز رأسه موافقاً، وقبل أن يهم بالمغادرة، نادى المصاب:

- صديقي المترجم، أخبره أن يذهب إلى الدكان ليشتري لنا شيئاً من الحلوى، فأني أشتهي الحلوى.

- حاضر، لكن أنا سأدفع.

- لدي المال.

وعندما حاول أن يخرج المال من جيبه، اخرجت المحفظة وناولت زيفو ورقة نقدية من فئة العشرة، نظر إليها وقال:

- هذه لن تكفي سوى لنصف الحضور! وعندما حاولت اخراج واحدة ثانية، كان الطبيب أسرع مني ودفع أخرى مثلها، ليغادر بعدها زيفو، بينما جلس كيم في مكانه المعتاد.

بعد نصف ساعة دخل زيفو وهو يحمل كيسين اثنين أسودين، ناول الطبيب إحداها وقال:

- إليك المواد الطبية، لقد جمعتها من عندنا ومن الجيران. وعلى الفور بدأ الطبيب عمله، وقف زيفو والكيس الأخر بيده، محتاراً أين يضعه، نهض كيم وأخذه من يده وعلى الفور فتح الكيس:

- إنها من أشهى الحلويات. ومن ثم وضع يده داخل الكيس وأخرج ملء يده من الحلوى ثم دسه في جيب سترته، نهضت وأخذت الكيس من يده:

- أنا سأقوم بتوزيعه. كانت الحلوى عبارة عن قطع صغيرة بيضاء مصنوعة من السكر وبداخل القطعة حبة من الحمص المحمص، ناولت المصاب ملء كف ومن ثم بدأت التوزيع، لكل شخص ثلاث حبات، أما الزيادة فأعطيتها للمصاب رغم رفضه، فيما كان كيم مشغولاً في أكل الحلوى سألته:

- سننطلق بعد قليل؟

- بانتظار الدليل ومكالمة من المهرب.

- سنعبر شوارع القرية عن طريق العربة؟

- أكيد.

- يا أخي كم هي جبارة هذه العربة ... فلا شيء قادر أن يقف أمامها!

كان يمضغ إحدى الحبات لحظة سؤاله، فلم يجيب مباشرة، إنما أخذ يهز رأسه موافقاً وكأنه يقول " أتدري مدى عظمة الشيء الذي تتحدث عنه! وبعد أن بلع بما داخل فمه، مرر بعض الهواء بين ثقوب أسنانه المنخورة منظفاً إياها بهذا الشكل، بدأ الكلام وكأن بعضاً من اللعاب عالق في حلقه من أكل السكر:

- عيشة الملوك ... يعيشها كل من يمتلك هذا الوحش الكاسح.

بهذه المقدمة بدأ كيم بالكلام في موضوع يبدو أنه محبب إليه، لقد كنت أدرك جيداً محبته لها، ففي إحدى المرات وأنا في طريقي إلى المرحاض وجدته يقوم بغسلها، انساب بفرشاته بكل رقة وحنان، وكأنه يمسح على حيوان أليف، سواء على الأجزاء السليمة أو الثقوب والإنحناءات، لا فرق فهذه السيدة الولود جميلة بكل تفاصيلها مهما كانت، أعاد تمثيلية بحثه عن علبة التبغ الضائعة في جيب ستراته، رمى أحدهم له بلفافة، أخذها وهو يبتسم، أشعلها وسحب نفساً عميقاً وهو مغمض العينين وبعد أن فتحها أجاب والدخان يرافق كلماته:

- عمرها يزيد عن العشرين سنة، في البداية استخدمناها لأعمال الزراعة، لكن هذا العمل لم يكن يطعم خبزاً، ثم اصبحت وسيلة لنقل المخدرات واللاجئين.

- أصبح الأمر أكثر ربحاً؟

- بأضعاف. أخذ نفساً أخراً وأضاف:

- استغرب كيف لكم أن تضيعوا أموالكم في البحث عن بلد آمن، لو كنت مكانكم لاشتريت عربات زرقاء.

- بكم الواحدة؟

- أربعة آلاف، نعم هي باهظة لكنها تستأهل ذلك ... حملت أوزاناً ثقيلة وشهدت مطاردات كثيرة وتعرضت لضربات قوية خلال معارك مع العصابات، مع ذلك بقيت صامدة.

- هناك شيء ظل يشغل بالي إلى أن وجدت البارحة جواباً له.

- ما هو؟

- تلك الخيمة القابعة وسط ساحة البيت ... فهي إذن من أجل الزلازل!

- إذن لقد شعرت بالهزة البارحة؟

- نعم الكل.

- هل رأيت! بدلاً من مساعدتنا لبناء بيوت قوية، اعطونا الخيم! ... نحن مهمشين في هذه البلاد.

نادى بوغا: أيها الأخوة أتدرون لماذا باءت محاولتنا بالفشل في المرة الماضية؟ ... لأننا بعيدين عن الله ... أيها المترجم.

- نعم.

- اسأل كيم أن يقرأ لنا شيئاً مقدساً.

اتجهت إلى كيم وسألته:

- يقول إن صوتك جميل.

- شكراً له، سأغني لكم أن أردتم.

- يريد منك أن تقرأ لنا شيئاً من الكتاب.

فجأة ذهبت عنه الابتسامة وقال:

- لم اقرأ أو أصلي في حياتي، ثانياً الكتاب مكتوب بلغة أخرى لا أجيد قراءتها، إذا اردتم قراءة شيء فالكتاب في الخزانة. ومن ثم نهض وخرج من الغرفة.

- ماذا به! سأل بوغا مستغرباً.

نهضت من مكاني وبخطوات رشيقة متوخياً قدم هذا ويد ذلك، عدة ركلات خفيفة لظهور البعض إلى أن وصلت الخزانة، فتحت الزجاج الذي في الأعلى، أبعدت الملابس القديمة فظهر عدد من الكتب القديمة التي كانت مدرسية في معظمها، ومن بينها ظهر كتاباً مقدساً قديماً، قلبت صفحاته الصفراء ذات الرائحة المميزة، ثم فتحت الفهرس وسألت بوغا:

- ماذا ستقرأ منه؟

- سأقرأ نص " النور " حتى يفرج الله أمرنا.

- هل أنت متأكد من ذلك؟

- ان الله لا يخيب طلب عبده.

اقتربت منه واعطيته إياها، قلب الصفحات إلى النص المطلوب وقال بصوت هادئ:

- أيها الأخوة نحن بحاجة ماسة إلى النور، ذلك النور الذي سيأتي لينهي هذا الطريق المظلم الذي نحن فيه.

سكت الجميع مصغياً وإن كان نصفهم لا يفهم ماذا يقول، وبدأ القراءة بصوت متوسط الارتفاع، سرعان ما بدأ في رفع المنصوب ونصب المجرور وكسر المرفوع، أصبح يقرأ أبطئ من ذي قبل محاولاً أن يجمع بين تفادي الأخطاء وجمال الصوت، لكن ذلك لم يدوم طويلاً، سرعان ما تخلى عن تحسين الصوت ومن ثم زادت الأخطاء في القراءة، وضع أصبعه وسط الصفحة وقال مبرراً أخطاءه:

- اسف يا إخوتي، فالنص صعب يعج بالكلمات الثقيلة، وقبل أن يستأنف القراءة سأله أحدهم:

- هل تطهرت وتوضأت؟

نظر إليه بوغا نظرة غاضبة وكأنه يقول: أهذا سؤال يسأل! أين نحن والطهارة في هذه الظروف" عاد وأكمل القراءة التي أصبحت سريعة وفيها الكثير من الأخطاء، فجأة توقف وأغلق الكتاب، قبله ولامس به جبينه ثلاث مرات ثم نهض وأعاده إلى الخزانة، وما أن جلس حتى توجه بالكلام إلى الشاب الذي سأله عن الطهارة:

- لماذا قاطعتني خلال القراءة.

- لأنه لا يجوز لك أن تقرأ وأنت لست طاهراً.

- ان الله يقبل ذلك، لأننا في ظرف صعب. دخل كيم إلى الغرفة وقال:

- بسرعة إلى العربة.

على الفور نهضت من مكاني وحملت حقيبتي، ارتديت المرسينية على عجل، وقد وضعتها سابقاً في مكان مميز حتى لا تختلط مع البقية وتكون سبباً في تأخيري للصعود على العربة، بعدها اتجهت مباشرة إلى العربة حيث السائق ميد داخل المقصورة يقوم بتشغيلها، بينما جلست المرأة والبنات إلى جانبه، قفزت من فوق الباب الخلفي وجلست في الزاوية الأخيرة، أخرجت الهاتف من جيبي وأرسلت رسالة إلى ميلا أخبرها فيها أننا في طريقنا نحو المحاولة الثانية، وصل البقية وبدؤوا في الصعود بعد أن فتح لها كيم الباب، بعد عشر دقائق توقفت العربة، نزل منها ميد وفتح الباب، بدأ الجميع في القفز بسرعة، لقد كنا في بداية الوادي، بالقرب من غرفة الحراسة المهجورة، عاد ميد بالعربة إلى داخل القرية فيما أشار الدليل الجديد إلى الأشجار وقال:

- فليقطع كل واحد منكم غصناً قوياً، لا أريد أن أرى أحداً بدون عصا.

بدأت عمليات تقطيع الأغصان، ملأ المكان أصوات الطقطقات، البعض تسلق أعلى الأشجار للبحث عن العصا المناسبة، بينما اكتفيت بقطعة يبلغ طولها متراً تقريباً، ثخينة من الأسفل وتصبح أرفع في الأعلى، وعندما أصبح لدى الجميع عصياً، سرنا خلف الدليل في مجموعة متقاربة، كنت في مؤخرتها هذه المرة، فالوادي مرصود من جنود الدوريات لكلا الدولتين وأي خطأ لدى الجندي في التمييز بين اللاجئ أو مهرب المخدرات، من الممكن أن تتسبب في مقتل من كان في المقدمة، ناهيك عن احتمال وجود الألغام، لهذا وجدت أنه من غير الضروري الاندفاع الزائد في أماكن خطرة مثل هذه، وفي منتصف الوادي أخذ الرتل يسير نحو الساقية، ظهر الدليل الشاب في المقدمة وهو يحمل عصا طويلة كان قد جاء مسبقاً، يغرزها أمامه في الثلج إلى أن عبر الساقية بالقفز على حجارة معدة مسبقاً لذلك، كانت خمسة أحجار ما بين سوداء وفضية، مفلطحة من الأعلى ومدببة من الأسفل مغروزة في قعر الساقية الترابي، كنت حذراً للغاية في المرور من فوقها، فأي خطأ خلال الثواني المعدودة تلك من الممكن أن تتسبب بالسقوط في الماء المتشكل من الثلج الذائب، أمسكت العصا من وسطها بيدي اليسرى وبالأخرى حزام الحقيبة، نظرت إلى الحجارة في خط مستقيم ومن ثم بدأت القفز بأقصى سرعة ممكنة، تحركت الحجارة من تحت قدمي، لكنها كانت أقل من ثانية مدة بقاء القدم على الحجرة الواحدة ومنها إلى الأخرى إلى أن أصبحت في الجهة الثانية حيث واصلت المجموعة سيرها إلى جبل قريب دون أن يتوقف أحد منها لانتظار البقية، وإذا بالدليل ومقدمة المجموعة تتسلق الجبل، كان جبلاً شديد الانحدار ولا مجال للمشي على سفحه صعوداً نحو الأعلى، غرزت العصا بقوة في الثلج وبدأت التسلق، تجنبت تقفي أثر البقية، لقد ضغطت أقدامهم الثلج وحولته إلى جليد صلب، كلما تسلقت أكثر كلما أصبح الأمر أكثر صعوبة، جثوت على ركبتي واستدرت إلى الخلف، لقد تناثرت المجموعة على بقعة واسعة، نقاط سوداء تتسلق ببطء، أما المصاب فقد كانت إحدى أخواته تساعده في التسلق، رفعت العصا وغرزتها أمام مكانها السابق، وبعد أن تأكدت أنها أصبحت ثابتة في مكانها، نهضت وسرت عدة خطوات نحو الأعلى، فكرت في أن أرمي حقيبتي وأتخلص منها كونها بدأت تتعبني أحزمتها، رغم أنها لا تحتوي سوى على الثياب والدفتر الفضي، لكني عدلت عن الفكرة.

اتجه الدليل نحو الجهة اليسرى بدلاً من الصعود نحو القمة ومعه قمنا بتغيير المسار، هنا أصبح الوضع حرجاً للغاية فالتسلق أصبح من الجهة اليمنى من الجسم، ففي السابق كانت العصا والأيدي والأرجل ترفع كتلة الجسم نحو الأعلى بصعوبة أما الآن فقد أصبحت الكتلة بثقلها نحو الجهة المطلة إلى الوادي، وببطء شديد استدرنا نحو الجهة الثانية من

الجبل، كان المكان مخيفاً بحق، لقد كنا على جبل من سلسلة جبال يفصلنا عن السلسلة المقابلة لنا واد ضيق موغل في العمق، لم يكن يظهر من قعره شيئاً سوى السواد والخطأ الأول هنا هو الخطأ الأخير، ومع وجود تيار من الهواء البارد أصبح الثبات في المكان بحاجة إلى جهد إضافي، وقفت في استراحة قصيرة عن طريق غرز الركب والعصا في الثلج وباليد الحرة أخذت بعض الثلج المتجمد وفتته ثم مضغته بعد ان استبد بي العطش، أغلقت سحاب السترة نحو أعلى نقطة و تنفست بعمق، نظرت إلى الأسفل فلم أرى المرسينية، لقد غارت عميقاً في الثلج، لكن ذلك لم يمنعها من سماعي، فقلت لها: كوني قوية يا صديقتي فلم تعد المسألة مسألة كرامة وحرية إنما موت أو حياة ". ثم أكملت التقدم وأنا مستند بأغلب جسمي على الثلج، أخرجت المرسينية من مكانها السابق لأغرسها مجدداً في الثلج البكر, أخذت الأقدام تتناوب في الخطوات، بينما امسكت العصا بيدي اليمنى من أسفلها وبدأت بالضغط عليها بقوة في الثلج، جعلت من أصابع اليد اليسرى بارزة نحو الأمام وغرستها في الخطوة التالية من العصا، سرت ببطء شديد لكنها خطوات ثابتة، كان الجبل الثاني متصلاً بالأول، لم يستغرق الأمر سوى القليل من النزول ومن ثم التسلق نحو منتصف الجبل الثاني وتكرار الخطوات السابقة، لكن الدليل أخذ في التسلق نحو قمة هذا الجبل، وفيما اتبعه متسلقاً، سمعت أصواتا متقطعة مصدرها الجبل الأول، توقفت واستدرت إلى الخلف، لم أرى سوى بعض أفراد المجموعة قد توقفوا بدورهم ليروا ماذا هناك، يبدو أنه حصل شيء ما مع نهاية المجموعة التي ماتزال على الجبل الأول، عدت وأكملت طريقي نحو القمة، وجدت الدليل وحيداً في الأعلى مستلق على بطنه، على الفور أشار بيده إلى أن أنزل تزحلقاً نحو الأسفل، وفي بداية المنحدر رميت العصا وجلست على الثلج وبدفعة من اليدين رحت أنزل بسرعة دون أن اتحكم بنفسي وأمامي وعلى مسافة بعيدة انتشر البقية وبالكاد بإمكاني رؤيتهم لصغر حجمهم، ظهرت القرية نفسها مجدداً، لكننا نتجه إليها هذه المرة من مكان مختلف، عندما اقتربت من الوصول اسفل الجبل، ظهرت فجأة عربة تابعة لجيش الأناضول على الطريق القريب من الجبل، وهو الذي يربط بين القرية وإحدى نقاط الجيش، توقفت العربة في مكانها واستدار رشاشها الثقيل نحو الجبل الذي كنا عليه، كان إلى جانب الرشاش مربع صغير بداخله كاميرا للكشف، أخذ الرشاش يتحرك ببطء وهو متوجه إلينا، وقفت في مكاني متردداً، بحثت في الأرجاء عن حجر كبير أو صخرة لعلي استطيع التوقف والاختباء خلفه، لكن لم يكن هناك شيء، ناهيك عن سرعة النزول الكبيرة، ثم أكملت العربة سيرها نحو نقطة الجيش دون أن تقوم بأي شيء، وبعد قليل وصلت إلى أسفل الجبل حيث اجتمع من وصل بالقرب من صخرة كبيرة تقع بداية الجبل، لقد شكلوا

كتلة بشرية متلاصقة ببعضها فوق بقعة خالية من الثلج، مشيت إليهم وقد أصبحت المرسينية وأسفل البنطال عبارة عن قطعة بيضاء متجمدة وقاسية، تمددت على أرض مبللة بالطين ملصقاً جانبي بالشخص الأخير، ومع توقف حركة الجسم سرعان ما بدأت أشعر بالبرد الذي تسرب أيضاً من الأرض المبللة أسفلي ومن الهواء البارد القادم من الجهة الأخرى، فتحت سحاب السترة لمنتصفها برؤوس أصابعي المتجمدة ووضعت يدي داخلها، هذه المرة تسرب الهواء البارد إلى صدري من خلال الفتحة وبدأ جسمي يرتجف وأسناني تصطك ببعضها بقوة، حاولت أن اسيطر عليها عن طريق ضغط الفكين أو وضع لساني بينهما، لكن دون فائدة، وصل شخص أخر وتمدد إلى جانبي، استدرت وأعطيت ظهري للذي كان على يميني فيما اتجهت بوجهي نحو القادم الجديد الذي اقترب مني قدر الإمكان، تكورت على نفسي مثل وضعية الجنين منتظراً وصول البقية لنذهب إلى القرية.

لقد تأخر وصولهم، فبعد ساعة تقريباً ومع وصول أخر دفعة، ارتفع صوت بكاء**!** رفعت رأسي وإذا بالأختين تبكيان وهما تسيران نحونا ببطء، لم تفلح كلمات الدليل في تهدأتهم، جلسنا في أماكننا والبعض نهض ينظر إليهما، وعندما وصلوا سأل أحدهم الدليل عما هناك، فأجاب الدليل:

- لقد سقط أخاهم المصاب إلى الوادي. هنا ازداد بكاءهما، وسَعنا لهم مكاناً في الوسط فجلسن وهن يبكين ويرتجفن بقوة، خاصة تلك التي ترتدي قبعة بنفسجية من الصوف والتي كانت تساعد أخاها خلال الطريق، نادى بوغا على الدليل:

- لماذا لم تحاول العودة إلى هناك والبحث عنه، ربما لا يزال عالق بين الثلوج على السفح**!**

- وأي شيطان يستطيع العودة إلى هناك أو يحاول نزول ذلك الجبل نحو الوادي ... هل جننت**!**

- أنا وصديقي زم سنحاول.

- لا فائدة من ذلك، لقد تدحرج وصولاً للوادي ... ثانياً لا وقت لذلك.

اقتربت المرأة وحاولت أن تهدأ من روعهن لكن دون فائدة، اتجه الدليل إلينا وقال:

- سأذهب الآن إلى القرية لأتأكد من وصول الحافلة أو الشاحنة التي ستنقلكم.

ومن ثم غادر المكان وحيداً، عدنا مجدداً والتصقنا ببعض ريثما يعود الدليل، مرت الدقائق ثقيلة علينا، لقد تذكرت كلام زيفو أن الحافلة قد لا تتسع للجميع وفكرت في انسب الطرق للوصول إليها بسرعة، فجأة نادى أحدهم بأعلى صوته: اجلسوا. ومن ثم أطلق رصاصة في السماء من بندقية صيد يحملها انتفضنا من أماكننا وإذا بملثم يرتدي لباساً مدنياً يقف أمامنا، وفيما ادقق فيه النظر لأرى ما هو هذا الشيء، ظهر خلفنا رجل ثاني مسلح وثالث اقترب من الأعلى يحمل عصا في يده، بدأ هذا الأخير بالضرب بالعصا والركل، لقد ركلني بكل قوة على ظهري فسقطت متدحرجاً عدة قلبات نحو الأسفل، نهضت على الفور من مكاني ورحت المس بكلتا يدي كامل جسمي لأرى إذا ما كانت سليمة أو هناك كسر ما، لم ألحظ أي عطب، لم أصدق ذلك، قلت في نفسي " ربما البرد حال دون أن أشعر بذلك " اتجهت على الفور إلى الطريق الذي يقع أسفل الصخرة التي كنا نختبئ خلفها حيث أراد الملثمون ذلك وعن طريق الضرب بالعصا وأخمص البنادق تم صفنا في رتل على الطريق، في الأمام مسلح وأخر يحمل العصا وفي المؤخرة مسلح يقف حارساً، نادى صاحب العصا:

- نحن من أبناء القرية، إذا ما أعطيتمونا المال الكافي سنجد لكم وسيلة نقل تنقلكم من القرية إلى العاصمة.

قام الشاب الأشقر وهو الذي عمل مترجماً في بداية الرحلة بترجمة كلامه للبقية، فلم يستجيب أحد لكلامه، وعلى الفور بدأ بالشخص الذي يقف أمامه، بدأ بتفتيشه عنوة، أخرج المحفظة وأخذ ما بداخلها، ومن ثم فتش جيوبه، وعندما انتهى منه أخرجه من الرتل وطلب منه أن يقف جانباً، بدأ بتفتيش الجميع إلى أن اقترب دوري، كان أمامي بوغا ومار، وقبل أن يصل إليهما، قام بوغا وبحركة سريعة بإخراج نقود محفظته ولفها ووضعها داخل سرواله الداخلي، حاول مار أن يقلده لكنه تحرك كثيراً أثناء ذلك مما لفت نتباه الحارس الذي يقف في المؤخرة فاقترب منه بسرعة ووجه إليه فوهة البندقية وسأله : ماذا فعلت؟ حدَق مار في عينيه ومن ثم التفت حوله وكأنه يبحث عن أحد يترجم ما قاله الحارس، فنقلت له ما قاله، أجاب مار بتحريك رأسه، أي لا شيء، لكن الحارس لم يصدق كلامه، مد يده إلى سرواله وقال: اخرجها. وعلى الفور مد مار يده وأخرج الهاتف من هناك، أطلق الحارس ضحكة خفيفة وقال: يحسب نفسه ذكياً. لم يغادر الحارس مكانه، بقي إلى جانبنا منتظراً انتهاء التفتيش. عندما حان دور بوغا، مدَ صاحب العصا يده إلى جيبه واستخرج المحفظة، بحث فيها وهو يسلط ضوء أبيض صغير إلى داخلها، وعندما لم يجد سوى الهوية وبعض البطاقات نظر إليه وقال مشيراً بيده: أين المال؟ فهم بوغا

طلبه، فأجاب بتحريك رأسه أنه لا يملك المال، استدار الملثم للخلف ونادى على المترجم الذي وصل على الفور، فقال له: أخبره أين وضع المال.

- يريد منك المال. قال المترجم لبوغا.

- لا احمل معي مالاً.

عندما سمع الملثم الإجابة فهم أنه لا يملك المال، قال للمترجم: انه يكذب، عليه ان يخرج المال حالاً، فالحافلة بانتظاركم.

- من أين سآتي له بالمال ... ألا يفهم! " أجاب بوغا.

قام المترجم بنقل كلامه حرفياً للملثم، فاستشاط هذا الأخير غضباً ولكم بوغا على فمه ليطلق صيحة ألم ومن ثم أخذ يبصق الدم، عاد وقال: لا أحمل شيئاً. هنا تدخل صاحب البندقية الذي كان يقف إلى جانبنا وأخرج سكيناً من جيبه، فتح طيها من الوسط فأصبحت في قسمين مقبض وسكين، اقترب من بوغا ورفع يده نحو الأعلى ومن ثم أنزلها بسرعة نحو عضوه الذكري، وحينما أصبح السكين على مقربة منه، توقف وقال:

- المال هنا ... اخرجه قبل أن أمزق لك عضوك.

ثم مد يده إلى هناك مفتشاً ونادى: هذه هي لفافة المال، هيا اخرجها بسرعة قبل أن اخرجها بطريقتي الخاصة ". وعندما رأى بوغا أنه لا مفر من دفع المال، مد يده وأخرج اللفافة، وبعد أن ناولها لصاحب العصا، وجه له ضربة بالعصا على ظهره وهو في طريقه للانضمام إلى المجموعة التي انتهى تفتيشها، وقفوا ثلاثتهم أمام مار، وقال الثالث: " لقد أخذت هاتفه، بقي المال ". كان مار يحمل حقيبة سوداء صغيرة مثبتة إلى جانبه بواسطة حزام طويل يمتد على الكتف والظهر والصدر، لم يفتش أحد منهم تلك الحقيبة إنما قام صاحب العصا بنزعها من مار وأخذها، فتش جيوبه دون أن يجد شيئاً فدفعه بعيداً حيث انضم مار للمجموعة، وقف أمامي صاحب العصا والبندقية وإلى جانبي الثالث وهو يحمل سكيناً وبندقية، حرك الأول يده، أي هات ما لديك، لم يكن هناك مجال للمقاومة أو الكلام، أخرجت الهاتف والمحفظة وناولته إيهما , وضع الهاتف في كيس حيث الأشياء المنهوبة، ثم فتح المحفظة وهو يفتش فيها، اخرج ورقة من فئة الخمسين وأربعة من فئة العشرة، نظر إلى المال باستخفاف وقال: هذا كل المال !

- نعم هذا كل ما أملك " أجبته، نظر إليّ وقال:

- وإذا كنت تكذب؟

- فتش إذا أردت.

وعلى الفور بدأ التفتيش في كل مكان وبدقة لكن دون أن يجد شيئاً، أعاد لي المحفظة فارغة من المال، قال صاحب السكين: " انتظر وانظر إليَ ". عندما اتجهت إليه رفع السكين ومررها على سترتي من أعلى الذراعين وصولاً إلى اليد، وحينما رأى خروج الحشوة البيضاء من داخل السترة وأنها مزقت بالشكل المطلوب، أضاف: " اذهب وانضم للبقية ".

عندما انتهوا من تفتيشنا، اتجه إلينا صاحب العصا وقال:

- الآن سنذهب إلى القرية حيث الحافلة، امشوا خلفنا ولا تصدروا أي صوت حتى لا يكتشف الجيش أمرنا.

سرنا بحراستهم إلى القرية، اثنان في الأمام وثالث في المؤخرة، يمشي على بعد عدة منا، لم تكن هناك أي دورية على الطريق ولا على الطرقات المؤدية إلى القرية، لم تخرج أي عربة من النقاط العسكرية المنتشرة على الجبال القريبة، وعندما ادخلونا إلى أول شارع في القرية، وإذا بعشرة جنود يقفون هناك بانتظارنا وأمامهم مجموعة مكونة من خمسين شخصاً تقريباً من أصحاب العيون البيضوية الصغيرة، يجلس الدليل معهم وهناك أثار للدماء حول فمه وعلى سترته، لم أفاجئ لذلك، حينما أطلق ذلك الملثم طلقة في السماء أدركت حينها أنها إشارة تعني " لقد ألقينا القبض عليهم " اقترب ثلاثة جنود منا وبدؤوا ينادون بأن نجلس إلى جانب تلك المجموعة، بعدها نظر أحد الجنود إلى الملثم وهو يحمل الكيس بيده فقال له:

- يبدو أن صيدكم كان ثميناً!

- دسماً إلى أقصى حد.

- هنيئاً لكم.

غادر الثلاثة نحو داخل القرية، قام أحد الجنود بإشعال مصباح يدوي وراح يسلط علينا، ضحك وقال:

- ألستم تلك المجموعة التي ألقينا القبض عليها منذ عدة أيام ... يا ويلكم. اقترب منه جنديان أخران وقال لهم الأول:

- أنى اتذكر هذه الوجوه جيداً، السمر وذلك الأشيب والمترجم صاحب النظارة وذلك القصير والمرأة وأولادها.

- لماذا عدتم مجدداً! " سأل أحدهم، فلم يجيبه أحد، وأضاف:

- انهضوا. وهو يشير بيده، نهض الجميع، انقسم الجنود إلى مجموعتين، الأولى أمامنا وأخرى أكبر خلفنا حيث بدأنا السير خلال شوارع القرية ومنها إلى نفس الطريق الذي سلكناه في المحاولة الأولى، سار الجنود بسرعة وبدورنا أسرعنا صامتين سوى من همهماتٌ وأنين الأختين وأصوات التدافع بحثاً عن مكان وسط المجموعة دون أن يكترث أحد لبرك المياه الباردة فلا أحد يريد أن يقف على أطراف المجموعة.

توقف الجميع بالقرب من المخفر، نادى أحد الجنود:

- النساء والأطفال، اخرجوا وقفوا هناك.

أشار إلى جانب الأسلاك الشائكة المطل على الوادي، وبعد أن خرجت الأختين وهن يبكين والأم مع أولادها وعدد من نساء المجموعة الثانية، توقفوا إلى جانب بعضهم متجهين نحو الوادي، ومن ثم نادى الجندي أحد أفراد المجموعة الأولى أصحاب العيون الصغيرة وقال له شيئاً ما، فنادى هذا الأخير على رفاقه وطلب منهم أن يبتعدوا عنا، لقد عادوا وانفصلوا في مجموعة واحدة بعيدة عن مجموعتنا، ومن ثم جاؤوا ورموا حقائبهم بالقرب من الجندي الذي يقود العملية، وما ان انتهوا من ذلك حتى نظمهم مترجمهم في رتل ثلاثي وطلب منهم أن يجلسوا، ثم جاء إلينا المترجم وقال بعدة لغات:

- أنتم أيضاً ارموا حقائبكم هناك.

عندما توجهت لأرمي حقيبتي كان هناك جنديان أمام كومة الحقائب، أحدهم القائد، سمعته يقول للثاني وهو يشير ببندقيته إلى إحدى حقائب الظهر السوداء:

- ما رأيك؟ إنها مناسبة. ضحك الجندي الثاني دون أن يعلق على كلامه، وبانتهاء رمي الحقائب حاول المترجم أن ينظم مجموعتنا أيضاً كما فعل مع الأولى، لكن القائد نادى عليه وقال:

- اريد لهذه المجموعة أن تكون في رتل ثنائي أمام مجموعتكم.

وفيما ينظمنا المترجم كما طلب الجندي، وصلت عربة عسكرية كبيرة قادمة من القرية، توقفت إلى جانبنا ونزل منها حوالي عشرة جنود أخرين، أي أصبح مجموعهم حوالي عشرين جندياً، جاء القائد وأدى التحية العسكرية لأحد الضباط وأخذ يتلوا عليه كلاماً أشبه ببيان عسكري يشرح فيها عن عملية القبض علينا، كان الضابط مكشوف الوجه يرتدي نظارة طبية بإطار مربع صغير، لقد رفع القناع عن وجهه وثبته فوق جبينه دون أن يرتدي الخوذة وبيده جهاز اتصال لاسلكي، وما أن فرغ الجندي من كلامه، نادى الضابط بأن يخرجوا " العدة " من العربة، والعدة كانت عصياً بطول نصف متر من الخشب بدلاً من الهراوات كما في المرة الماضية، منها خمسة عصي غليظة طولها مترين، اشعل الضابط لفافة تبغ ومن ثم وضع جهاز الاتصال داخل العربة وحمل إحدى تلك العصي الغليظة، حينها كنا قد جلسنا في الشكل الذي أراده الجندي، كان مكاني في الطرف الأيسر من نهاية المجموعة، نظر إلينا الضابط وهو ينفث الدخان وقال:

- اخفضوا رؤوسكم، وجوهكم إلى الأرض أيها الأوغاد. نظر إليه الجميع باستغراب حتى نادى المترجم وهو جالس بين مجموعته:

- لا تنظروا إليه بل انظروا إلى الأرض.

كان الجميع بانتظار أن تنتهي تلك اللفافة، الجالسين بانتظار الضرب، الجنود الغاضبين ليضربونا بعدما أفسدنا عليهم راحتهم في هذا الليل الشتوي، النساء والأطفال لينتهوا من ذلك الانتظار الثقيل، نادى زم بصوت مسموع دون أن يرفع رأسه: " متى ستبدؤون؟ لقد سئمنا " انتفض عدد من الجنود لسماع الصوت لكنهم لم يعثروا على صاحبه، وبانتظار البداية قمت بتهيئة نفسي جيداً لتلقي الضربات، يبدو أن الضرب سيكون أكثر عنفاً هذه المرة، قمت بتثبيت قدمي جيداً بالأرض ومن ثم وضعت ذراعي اليمنى فوق رأسي لتحميها وتحمي مؤخرة الرقبة من ضربات العصي، أما اليد الثانية فثنيتها ووضعتها إلى جانبي المكشوف، رفعت رأسي قليلاً ونظرت إلى الضابط، الذي رمى عقب لفافته في تلك اللحظة وداس عليها، حينها ارتفعت العصي نحو الأعلى وانهالت علينا، كانت كل ضربة منهم ترافقها شتيمة أو كلام بصوت مرتفع، اقترب مني الجندي ورفع العصا ومن ثم انزلها بكل ما أوتي من قوة وسط ظهري، انتفضت بعنف من وقعها، شعرت بالألم يمتد من النقطة المصابة إلى كامل جسدي، ثم انتقل إلى الشاب الذي خلفي، حينها قال زم والذي كان إلى جانبي :

- ارفع صوتك متألماً حتى تشبع ساديتهم.

حركت وجهي قليلاً نحوه وأجبت:

- لا أستطيع ... لا أستطيع أن أظهر ضعفي أمامهم.

سمع الجندي أن كلاماً ما دار بيننا، فعاد مجدداً إلي، حينها قمت باستجماع نفسي جيداً محاولاً أن أجعل منها كتلة صلبة، وجه الجندي بقبضة يده لكمة إلى الطرف الأيسر من وجهي، لم استفق بعد لهول تلك اللكمة حتى سدد بأسفل حذائه العسكري الصلب ضربة إلى ذراعي التي تحمي جانبي، كانت من القوة ما جعلتني اسقط جانباً على رفيقي زم والذي بدوره سقط على الأرض أيضاً، نهضت مستنداً على ظهر رفيقي الذي أمامي، حاولت أن أعود إلى وضعي السابق، لكن الألم حال دون ذلك، فأي محاولة للإستجماع كانت زيادة في الألم، رفعت رأسي قليلاً لأرى هل من أحدهم قريب منا، شعرت بشيء ما في فمي، أنزلت رأسي وحركت لساني بحثاً عن ذلك الشيء، وإذا بقطعة صلبة فبصقتها مع لعاب ممزوج بالدم إلى الأرض ومن ثم عدت وبحثت بلساني عن مكانها السابق وإذا بإحدى الأضراس قد كسر من اللكمة، ارتفعت أصوات المتألمين، لقد ملأت الوادي، البعض منهم يصيح من وقع الضربة والبعض الأخر يبكي كالأطفال، خاصة أفراد المجموعة الثانية، اقترب جندي منَا فاستعدت للضربة، جاء صوت العصا وهو ينزل من الأعلى، كتمت نفسي منتظراً ومفكراً أين ستقع هذه المرة، لكنها كانت من نصيب الشاب الذي أمامي، نادى بأعلى صوته، رفعت رأسي قليلاً وإذا بالجندي يرفع قدمه عالياً ومن ثم انزل كعب حذائه على ظهر الشاب الذي صاح بشكل هستيري مبعداً ذراعه من فوقه ونظر إلى الجندي وهو يتألم مما جعل الجندي يرفع العصا مجدداً مهدداً إياه بالضرب، ليعود الشاب وينزل رأسه، وما أن فعل ذلك حتى باغته الجندي بلكمة على جبينه مما جعل الشاب ينقلب من وقعها للخلف، أصابت مؤخرة رأسه النصف الأعلى لوجهي، ظهر " نورٌ " أبيض يشبه البرق أمام عيني تلاه سواد بداخله نقاط زرقاء وخضراء وصفراء، سقطت العدسة اليسرى مع قطعة من الإطار على الأرض فيما التصق الجزء المتبقي من النظارة بوجهي، أبعدت جسم الشاب بكلتا يدي من أمامي، لم يستطع العودة إلى مكانه السابق، سقط بيني وبين زم، خلعت النظارة ورميتها أرضاً لأعود لوضعي السابق وأنا أفرك بيدي مكان الضربة على الجبهة، ناديت على الشاب : انهض بسرعة قبل أن يعود إلينا مجدداً. غرز يديه في الطين ونهض بصعوبة، راقب زم حوله جيداً ومن ثم مد يديه وساعده في النهوض ومن ثم عاد وجلس في مكانه

السابق، لم يشبع الجنود قط أو يتعبوا واصلوا عملهم بكل نشاط، أصبح المكان جحيماً، كانت أصوات المعذبين من حولي تؤلمني أكثر من الضربات التي كنت أتلقاها، كانت مرعبة بحق، إلى اليوم ما زالت تلك الأصوات عالقة في ذاكرتي.

توقف الجنود عن ضرب مجموعتنا، لينتقلوا جميعاً نحو المجموعة الثانية، أصحاب العيون الصغيرة، ولعشر دقائق أخرى تواصل الضرب عليهم وبشكل مكثف، لم أكن أدري سبب ذلك التركيز عليهم، لكن يبدو أنهم قد اتعبوا الجنود قبل أن يتم إلقاء القبض عليهم، وبإشارة من الضابط توقف الجنود باستثناء أحدهم الذي أكمل الضرب وحيداً، مما جعل الضابط ينادي عليه: يكفي أيها الجندي ... يكفي.

انتشر الجنود من حولنا ومن ثم توقف أربعة منهم أمامنا، كل جنديان مقابل بعضهما، أشار أحدهم أن ننهض ومن أمامهم أن نتجه إلى الأسلاك، انهال الجنود الأربعة بعصيهم علينا أثناء مرورنا ركضاً من أمامهم، أصابتني عدد منها على كتفي، ومن ثم قفزت من فوق السلك نحو الوادي، ومع مرور الجميع من خلال بوابة العصي تلك ووصولهم للوادي، أطلق ثلاثة جنود النار من بنادقهم نحو السماء كنوع من الترهيب، تلاها أصواتهم وهم يقولون كلاماً لم اسمعه جيداً، كان ما بين الوعيد والشتائم، لم ارفع عيني عن الأرض، بحثاً عن أي قطعة قماش، كان هناك بعض الخرق المرمية، بناطيل وقمصان متجمدة وقطع قماش ممزقة وعبوات مياه فارغة قد سويت بالأرض، وبعد بحث وجدت خرقة صفراء تشبه الشال، لقد كانت ثخينة بعض الشيء، عملت على جمعها في كومة صغيرة قدر الإمكان ومن ثم فتحت سحاب السترة ووضعتها في الداخل ومن ثم أغلقت عليها، ليذوب الجليد عنها، اتجه البعض للخلف واخذوا يشتمون الجنود، نظرت لأرى ماذا هناك وإذا بالجنود قد أضرموا النار بحقائبنا، أخذت النار تعلو أكثر مطلقة دخاناً أسوداً كثيفاً، شعرت بحرقة تعتصر قلبي لقد ابتلعت النار معها حقيبتي حيث الدفتر الفضي وما كان معداً لرحلة هيلاس , خلال دقائق قليلة تبخرت تفاصيل الرحلة وتلك القطع القليلة من الثياب التي كان علي أن ارتديها مع الربيع.

لم ينجوا أحد من الضرب هذه المرة , كان الكل يشكو من شيء ما، فهناك الجرحى ومن عليه كدمات ظاهرة عليهم أو تحت ثيابهم، مشى الطبيب بقدم بها حذاء وأخرى بدونها، وعوضاً عنها قام بلفها بقميص قديم، وإلى جانبه بوغا وفي أسفل عينه اليمنى جرح كبير، وحول الجرح أصبح أزرق اللون، وأخر قد سال الدم من فمه أو انفه، وكثرٌ قد تلونت أجزاء من وجوههم ما بين الأزرق والأحمر، كنا ما بين ثمانين أو تسعين شخصاً سرنا خلال الوادي إلى غرفة الحراسة المهجورة بدأنا ننظر إلى بعض وكأننا ننتظر أن يقوم

الأخر بذلك العمل أولاً، لكن أحداً لم يتحرك بل بقينا واقفين هناك لا نجرؤ على دخول القرية، لقد كانت أجسادنا منهكة من التعب والضرب مما جعل الجميع يعزف عن فكرة قطع الأغصان لإشعال نارٍ للتدفئة كما المرة الماضية، تجمعنا في مكان واحد، أخرجت تلك الخرقة الصفراء وقمت بلفها حول ساقي ومن ثم عدت وتمددت دون أن استطيع أو يستطيع أي أحد منا أن ينام أو يغفو لو لوقت قليل، بكاء و أنين الأختين أحاديث الندم والألم واللوم إلى أن حلَ الصباح حيث وصلت عربتان زرقاء، نزل من إحداها رجل بلحية طويلة، وعلى الفور اتجه إليه أفراد المجموعة الثانية أصحاب العيون الصغيرة، ارتفعت أصواتهم وهم يشرحون للمترجم ما أصابهم، ارتمى مراهق قصير على قدمي ذلك الرجل وقبله ومن ثم أخذ يبكي وهو يمسك قدمه، دنا الرجل منه وابعده جانباً نادى عليه أن ينهض، وصلت في تلك اللحظة عربة ميد، انطلقنا إليها ركضاً حيث نقلنا مجدداً إلى البيت.

جلسنا في الغرفة منهكين، نزع العديد ثيابهم وقد كانت أجسادهم مليئة بأثار الجروح، بدوري خلعت ثيابي ووجدت بقع زرقاء وحمراء على كتفي وفخذي وألم ينتشر في كامل جسمي، تمددت على الأرض وحولت الخرقة الصفراء إلى وسادة.

دخل كيم وزيفو إلى الغرفة وحينما شاهدوا الجروح والإصابات بعد خلع معظمنا لقمصانهم أو سراويلهم ارتسمت على وجوههم علامات أسف حقيقية، قال الطبيب:

- يا مترجم، اطلب منه أن يأتي بمواد طبية كما في المرة السابقة من أجل معالجة الجرحى، على أن يأتي بكميات كافية، وأيضاً اريد حذاءاً قديماً كان أو جديداً.

عندما نقلت كلام الطبيب لكيم، لبَّ النداء مباشرة وجاء بما كان لديهم من مواد وأضاف:

- عليه أن يستخدم هذه المتوفرة الآن، سأذهب بعد قليل إلى المدينة وسأجلب كمية كبيرة من الأدوية وكذلك الحذاء ... كم كان مقاس قدمه؟

اتجهت إلى الطبيب وقد بدأ بمعالجة جرح بوغا أولاً وسألته عن ذلك، فأجاب: ثلاثة وأربعون.

- لكننا لا نملك مالاً، لقد خسرنا كل شيء.

قلت لكيم، ففكَر قليلاً وأجاب:

- لا مشكلة، سأتدبر الأمر من جيبي.

ثم غادر كيم الغرفة، بينما جلس زيفو على قطعة الطوب وأخذ ينظر إلى يد الطبيب، فجأة نهض وبنوع من التعاطف معنا، قال " سأعد لكم الشاي". خرجنا سوية من المخزن، هو اتجه إلى المطبخ وأنا إلى المرحاض، وعندما انتهيت من قضاء حاجتي وخرجت رأيت امرأة بالقرب من الخيمة وسط ساحة البيت، لا أدري ماذا تقرب لكيم، لكنها ما أن رأتني حتى توقفت وقالت:

- يا للمسكين ... كيف أصبحت هيئتهم!

- مسكين ... أليس كذلك.

- تفهم لغتنا؟

- نعم أفهم.

- انتظر دقيقة.

دخلت إلى إحدى غرف البيت ثم خرجت وبيدها بنطال أسود قديم، وأضافت:

- خذ ارتدي هذه، فهو أفضل من بناطلك، لو كان لدينا سترة زائدة لأتيت بها لك بدلاً من هذه الممزقة.

- شكراً لك، فأنا بأمس الحاجة إليها.

عندما عدت إلى المخزن وبدأت أرتديها، نظر الجميع إليَ وأضاف بعضهم: " من أين لك هذه! "وغيرها من الأسئلة عن مصدرها، لكني وفي نفس اليوم تبرعت بها لأحد رفاقي بعد أن وجدت أن بنطاله بحالة سيئة للغاية، جاء صوت العربة ومن ثم فتح لها الباب الكبير لتخرج من البيت.

وقف أحد السمر غاضباً وقال كلاماً ما لرفاقه الذين أيدوه بهز رؤوسهم، توجهت إلى شاب منهم يستطيع أن يتكلم بعضاً من لغتنا وسألته:

- ماذا قال صديقك؟

- عودة.

- العودة إلى أين؟

- نينوى.

حينما سمع رفاقي بذلك حتى هبَوا مؤيدين ذلك الطرح وأخذ البعض وعن طريق الإشارات باليد يظهرون للسمر تأييدهم، حينها كنت متردداً بين العودة والمحاولة من طريق غير هذا الذي سلكناه لمرتين، توجه الجميع إلي وطلبوا مني أن أخبر كيم بقرارهم، عادت العربة إلى البيت وبعد قليل جاء كيم إلى الغرفة ورمى كيساً أسوداً أمام وسط المخزن وقال:

- هاك ما طلبته ... لقد وضعت لك حذاء مستعملاً أمام الباب، تدبر به أمرك وإن كان أكبر بدرجة عن مقاسك.

أخبرت كيم بما قرره الجميع، لكنه رد وقال: " لا شأن لي بقراركم، عليكم أن تخبروا ميد بذلك، ليس لي أي مهمة سوى أني أجلس معكم، أما ميد فهو المسؤول عن كل شيء.

- أريد أن أتكلم معه.

- تعال معي.

وقفت وحيداً أمام الغرفة، فيما دخل كيم وقد أبقى الباب مفتوحاً، سمعته يتكلم مع ميد، الذي نادى متفاجئاً " ماذا تقول! "، خرج حافياً من الغرفة وسألني:

- هل صحيح ما سمعته؟

- عليك أن تأتي إلى المخزن وتسمع كلام الجميع.

- طبعاً سآتي، لكن انتظرني دقيقة.

دخل بسرعة إلى غرفته ومن ثم خرج وبيده بندقية صيد، أدخل قدمه في الحذاء ومن ثم داس على مؤخرته وقال: " تعال معي ". كان يمشي أمامي بسرعة كبيرة، خرج كيم من الغرفة واتجه إلينا، فتح ميد باب المخزن ودخل وهو يصوب البندقية إلى الجميع:

- من منكم طلب العودة ... ها؟

خرجت بعض الأصوات من هنا وهناك لكنها سرعان ما ازدادت وأصبحت أكثر شجاعة وارتفعت: " لا نريد البقاء هنا ... العودة ... لا أمل في العبور إلى الأناضول ... البارحة مات واحد منا وفي المرة القادمة سنموت نحن ...

حينما نفذ صبره دون أن يفهم ماذا يقولون، نادى بأعلى صوته " اسكتوا " وعندما لم يستجيب أحد لكلامه، وضع يده في جيبه وأخرج خرطوشين أحمر اللون وأدخلهما في البندقية وقال:

- والله بإمكاني الآن أن أقتل أي واحد منكم وأرمي جثته في الوادي ليصبح طعاماً للذئاب دون أقل شعور بالذنب ... ليس لكم من أحد يا أوغاد.

نهض شاب أسمر وقال كلاماً ما بنوع من التحدي، صوب ميد البندقية عليه وقال:

- اجلس في مكانك يا اسود، حتى الله عاجز عن فهم لغتك.

قال شاب أخر:

- يقول ونقول لا نريد البقاء هنا ... ألا تفهم!

اتجه ميد إلي وسأل بغضب: " ماذا عساه يقول هذا الوقح؟

- يقول لا نريد البقاء هنا.

صُدم ميد من ذلك وقال " تمرد! " واقترب من الشاب ثم ركله بقوة، رفع البندقية وألصق الفوهة على صدر الشاب وأضاف: " ما رأيك أن أفجر لك صدرك يا وغد!

- ماذا يقول؟ يريد أن يقتلني! ... فليفعلها " أجاب الشاب متحدياً.

تدخل كيم وأبعد ميد عن الشاب وقال:

- لماذا أنت عنيد يا أخي، دعهم وشأنهم.

- لا يجوز، فأنا المسؤول عنهم.

- دعهم يتكلمون مع " الأستاذ " ليتفقوا معه على حل ما.

- طيب. خرج ميد من الغرفة غاضباً بمرافقة كيم، ولم يعود أياً منهما ولا حتى زيفو حتى المساء، دخل كيم علينا وقال لي: " لقد علم " الأستاذ " بقراركم، وهو يريد أن يتكلم معك.

- إذن اتصل به الآن.

- لا تتوفر في القرية خدمة الاتصال بالشبكة، لهذا سنقوم بنقلك إلى أقرب مكان يتوفر فيه.

- لا مشكلة، أنا جاهز.

- حينما يعود ميد، سينقلنا عن طريق العربة.

- كما تريد.

خرج كيم من الغرفة، أخبرت رفاقي بذلك، وقد قرر بوغا والطبيب والشاب الذي تحدى ميد أن يرافقوني ليتكلموا مع " الأستاذ " بعد عشرة دقائق عاد كيم وقال:

- العربة جاهزة، عليكم أن تأكلوا شيئاً قبل الذهاب، فالمسافة طويلة.

- لسنا جائعين الآن، سنأكل لاحقاً، سيرافقني عدد من رفاقي.

- لا مشكلة، هيا تعالوا.

وجدنا العربة جاهزة وميد بداخلها ينتظر، جلسنا خلف العربة كون المقصورة لا تتسع للجميع، عاد كيم ومعه علبتي سردين وثلاث حبات من الطماطم، اخذتها ووضعتها في وسط العربة، على أن نأكلها لاحقاً نحن الأربعة، لأول مرة سنشعر بطعم الراحة داخل العربة الزرقاء، سنجلس فيها كما نشاء بعيداً الضغط، صعد كيم وأغلق الباب الخلفي ومن ثم جلس إلى جانبي، انطلقت العربة بهدوء وسط شوارع القرية وهي تهتز من تحتنا، حينما اصبحنا في مخرج القرية شاهدت اللوحة الزرقاء الكبيرة وعليها بخط أبيض كبير " فردوسى " ابتسمت لذلك وقلت في نفسي : " لم يخطأ من أسمى هذه القرية بهذا الاسم، هي فعلاً فردوساً للمجرمين وتجار البشر ومهربي المخدرات " انطلقت العربة مسرعة على طريق ترابي، أخذت حبات الطماطم وعلبتي السردين بالانتشار داخل العربة كيفما شاءت، تمسكنا بجدارها، سحقت حبات الطماطم تحتهم نتيجة العتمة والاهتزاز، أخذنا نضحك لذلك، وبعد أكثر من ساعة، توقفت العربة على مقربة من إحدى المدن الكبيرة، بالقرب من مكان يضم خردة لعربات القطار، نزل ميد أولاً وهو يراقب المكان، ثم طلب منا النزول والاستعجال في المكالمة وعدم إطالة الحديث، اتصل مكالمة فيديو بالتمساح الأول أو المهرب الرئيسي أو الأستاذ، ظهر خلال فترة الانتظار على الشاشة صورة لباقة ورود بيضاء وقد كتب فوقها " جمعة مباركة " فجأة ظهر وجه ممتلئ له شارب أسود كبير لرجل في الخمسينات من العمر، وقد قضب حاجبيه وابتدأ كلامه : ماذا تريدون ؟

- نريد العودة. أجابه الشاب.

- اسمع، لا مجال للعودة.

- لقد حاولنا مرتين، كلتاهما باءت بالفشل، ناهيك عن الضرب الذي نالنا في كل مرة.

بقي بوغا صامتاً ولم يتكلم، تدخل الطبيب وأخذ يشرح له الإصابات، فيما شرحت له عدم جدوى المحاولة من الطريق نفسه وأن نقاط الجيش ودورياته تكشف أي إنسان يحاول أن يقترب من أول قرية، بعد أن استمع قال:

- اتفهم مدى الصعوبات التي تواجهكم، لكني سأطلب منكم أن تحاولوا للمرة الأخيرة، وإذا فشلت المحاولة، سأتولى مسألة إعادتكم.

ثم أنهى الاتصال دون يسمع جواباً لكلامه.

- اصعدوا بسرعة إلى العربة قبل أن يكتشف أحد أمرنا. قال ميد.

لم يكن باليد حيلة ولا مجال سوى أن نحاول مرة ثالثة، في طريق العودة سألني كيم:

- أنتم مذنبين بحق صديقكم المصاب.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنه كان عليكم مساعدته.

- لم يكن هناك مجال لذلك ... لقد كان طريقاً وعراً بشكل لا يوصف.

- هل تريد أن تسمع الحقيقة؟

- أكيد.

- الوقت الآن ليس مناسباً للعبور إلى الأناضول، أفضل وقت لذلك هو فصل الصيف، حينما يذوب الثلج عن الجبال، حينها ستصبح الطرق كثيرة.

- إذا كان الأمر كذلك، لماذا جاء بنا " الأستاذ " إلى فارس؟

- لعل عدد منكم يصل إلى الأناضول ... لعل.

- وإلى متى سنبقى نحاول ولا طريق هناك؟
- الوصول أو الموت.
- والدليل؟
- ماذا به؟
- أنت تقولا لا طريق الآن، لماذا يتعب الدليل نفسه ويواجه الموت في سبيل محاولة عقيمة؟
- الفقر والحاجة الماسة يدفعانه لذلك، يحاول على أمل النجاح ... وإذا ما نجح في إيصال المجموعة إلى الشاحنة، سيحصل لقاء ذلك على ورقة من فئة المئة فقط.
- مستحيل.
- كما أقول لك.
- وماذا عن جثة رفقينا الذي مات؟
- ستبقى في مكانها إلى موعد ذوبان الثلوج، حيث ستأتي فرق طبية لانتشال الجثث ... في كل عام يأتون ويستخرجون الكثير منها.

فتحنا علب السردين وأكل كل واحد منا سمكتين، حينما عدنا وجدنا الجميع بانتظارنا وسألونا بلهفة عما اتفقنا عليه، شرح بوغا لهم كل شيء، وقد شعروا بالإحباط بل دعا بعضهم أن نتمرد، لكن بوغا أقنعهم أن نحاول للمرة الأخيرة، وقد ذيَّل كلامه المقنع ذلك بقصة صديقيه اللذين سلَّما نفسيهما للشرطة حيث عذبا بوحشية، ثم أضاف الضربة القاضية بقوله: لا تنسوا أنكم ستُرحلون لبلادكم.

وفي مساء اليوم التالي جاء كيم وزيفو بطعام العشاء والذي كان بيضاً وخبزاً كالعادة، وعندما كنت مشغولاً بتقشير إحدى البيضتين سمعت كيم يقول:

- أنت أيها المترجم.

رفعت رأسي وأجبته: ماذا هناك؟

- لقد نسيت اسمك ... ماذا كان؟

- دارو.

- يا دارو بعد قليل موعد المحاولة الجديدة.

- تمام، سأخبر رفاقي بذلك.

- لكني أريد أن أخبرك شيئاً مهماً للغاية.

توقفت مجدداً عن تقشير تلك البيضة التي كانت بقشر يتفتت إلى قطع صغيرة تبقى ملتصقة على لبها، ومن ثم نظرت إليه بقلق:

- ماذا هناك يا أخي؟

- طريق اليوم بحاجة إلى قلب قوي وجسد أقوى.

- هل تقصد أن ذلك الطريق المهلك الذي سلكناه كان مجرد نزهة أمام هذا الجديد؟

- لا أدري ماذا أقول لك ... لكن كن حذراً.

- على العموم لم أعد واثقاً أني سأعبر إلى الأناضول أم لا من خلال بلادكم.

- أكمل طعامك ... سأدعو الله وأصلي من أجلكم.

إذا ما كان كيم الملحد سيتجه إلى الله من أجلنا! يا ترى ماذا ينتظرنا! كنت متأكداً أن كارثة ما ستحدث لنا ... وما خاب ظني.

ارتفع صوت محرك العربة الزرقاء، نهضت ونهض كيم وزيفو، ناديت على الجميع:

- إلى العربة الزرقاء.

صُدم الجميع تقريباً من ذلك القرار المفاجئ! وبدؤوا بالنظر إلى بعضهم والكلام عن " مدى هذه السرعة " أو " نحن بحاجة لعدة أيام أخرى من الراحة "، لكن لا مجال للنقاش مادام ميد و " الأستاذ " قد قرروا ذلك، اكلت البيضة الثانية مع قشرها في ثلاث لقم وأنا اتجه إلى خارج الغرفة، حيث كانت " المرسينية " بعيداً عن جبل الأحذية أمام الباب، دست على تلك الأحذية ووصلت إليها ولبستها، ومن ثم ركضت بأقصى سرعة إلى العربة فهذه الدقائق الأولى تُعد حاسمة، كانت العائلة تصعد إلى مقصورة العربة، أما ميد فقد فتح الباب الخلفي لتوه، وفيما أصعد سألني:

- أين البقية؟

- إنهم يأتون. ثم اتجهت إلى مكاني الدائم.

كانت الزاوية اليمنى القريبة من مقصورة العربة عبارة عن " جنة " لمن يعرف كيف يستغلها، جلست هناك محاولاً قدر المستطاع تجميع نفسي لتقليص حجمي، فالمسألة بحاجة إلى تقدير دقيق نابع عن تفكير، فأهم العوامل التي يجب أخذها بالحسبان هي جغرافيا المكان والعوامل المؤثرة، كالضغط الناتج عن ثقل الأجسام التي ستأتي فوقي وأيضاً حساب ثبات الجسم خلال السرعات المختلفة للعربة، خاصة في المرتفعات والمنخفضات وسيرها على طرق معبدة أو حجرية أو ترابية، وضعت ساعدي الأيسر أمام وجهي لتحميه من الصدمات وكذلك ألصقت ساقاي ببعضهما ومن ثم بجدار العربة الأخير، بدأ الرفاق بالتدفق، اهتزت العربة لوقع ذلك، أخذت نفساً عميقاً وأنا مغمض العينين، اصطدم أول جسم بي ثم ازدادت الأجسام وزاد الضغط عليَ، وعندما انتهى الجميع من الصعود، رمى كيم شيئاً ما، ثم قال:

- افتحوها وغطوا بها المكان.

عقب ذلك ازدادت الحركة ورافقها كلمات مثل " امسكها، شدها، لا تتركها، ابق ثابتاً "حركت رأسي قليلاً محرراً إياها من بين مجموعة من الأعضاء البشرية المتحجرة واتجهت إلى الأعلى وإذا المكان مغطى بقطعة قماش أزرق، بأقل من عشر دقائق أصبحنا خارج القرية، حاولت أن ارسم خريطة لاتجاه العربة حتى اطمئن أنه لن يأخذنا إلى الوادي مجدداً، سارت العربة في طريق جديد هذه المرة، كان الطريق وعراً ومملوءاً بالحجارة الصغيرة، مما تسبب في اهتزاز العربة وبقوة، اخذ بعضهم يلوم الأخر في " إيذاءه بشكل كبير" والجواب كالعادة كان معروفاً ومكرراً:

" ماذا عساي أن أفعل؟ ... هل أنا أتقصد ذلك " ... لست أفضل منك حالاً " إلى أن أصبح الطريق معبداً، توقفت دعوات الشكوى والألم، لكنها ما لبثت أن عادت حينما بدأت العربة في صعود طريق جبلي، ارتفع هدير المحرك، على الفور اتجهت كتلة اللحم إلى الخلف، نادى بألم من كان يتخذ الباب الخلفي مجلساً له، لكن ما الفائدة، فالمسألة خارج إرادتنا، أمسكت بطرف العربة حتى لا اتجه إلى الأسفل ثم توجهت بوجهي نحو المسافة الفاصلة بين حوض العربة والمقصورة، حيث الهواء النظيف، ومن ذلك المكان رأيت ميد يقود دون أن يعطي اهتماماً للأم التي تتكلم وتتجه إليه كل نصف دقيقة، وإلى جانبها طفليها اللذان عانا من ضيق مكانهما في السيارة التي نقلتنا من المدينة إلى مكان قريب

من القرية، والآن ينعمان بالراحة والدفء فيما نعاني نحن مما عاناه سابقاً، أكملت العربة الصعود وكأنه لا نهاية لهذا الطريق ... هل يريد ميد أن يصعد بنا إلى السماء! المشكلة أننا لاحقاً سننزل كل هذه المسافة سيراً على الأقدام، توقفت فجأة العربة، فتح ميد باب المقصورة وهو يتكلم مع الأسرة، واتجه إلينا، هنا أبعد الجميع تلك القماشة، وإذا بالثلج يتساقط بحبات ناعمة، فُتح الباب الخلفي وصاح بنا ميد أن ننزل بسرعة، وفي خارج العربة كان دليل شاب يقف بانتظارنا، أما ميد فقد غادر مجرد أن سلَم البضاعة، نادى الدليل:

- المترجم.

هرعت إليه وقلت: ماذا تريد؟

- أريد أن تبقى معي وإياك أن تبتعد ... مفهوم؟

- مفهوم.

- تعالوا معي إذن. وما أن بدأ المشي، حتى سار الجميع خلفه.

أكملنا الصعود إلى طريق عليه سكة حديد يقع على سفح الجبل، كانت القرى المنتشرة أسفل هذه الجبال عبارة عن كومة أضواء بيضاء بالكاد ترى، قال الدليل:

- أخبر رفاقك أنه لا مجال للتأخير، فالبطيء والمصاب سيُترك دون رحمة.

عندما أخبرت رفاقي بذلك، لم يستجيب أحد منهم لذلك وقد قابلوه بنوع من التجاهل، عدت ونظرت خلفي لأتأكد من ذلك، فعلاً لم تكن الأختان معنا هذه المرة، إلى أين يأخذنا يا ترى!، توقف الدليل أمام مدخل نفق قطار محفور في الجبل ثم توجه إلى جدار المدخل وألصق كامل جسده عليه تماماً مثل السحالي، ثم استدار برأسه إلينا وقال:

- إذا ما تناهى إليكم صوت القطار، عليكم أن تلتصقوا بأقرب جدار إليكم. ثم وضع أصبعي السبابة في ثقب أذنيه وأضاف: أيضاً أغلقوا أذانكم جيداً ... فصوت القطار مزعج. ثم عاد إلى وضعه السابق ودخل النفق.

وفي بداية النفق اخرج هاتفه وعلى ضوءه بدأنا السير بسرعة، التفت إلي وقال:

- أخبر رفاقك ألا يمشوا فوق سكة القطار، فقط على جانبيها.

- توزعوا ... توزعوا على الأطراف حتى لا يدهسكم القطار على حين غرة.

كان المكان معتماً تماماً سوى من ضوء الهاتف الخافت، والذي لم يكن يضيء لأكثر من متر واحد أمام الدليل، فيما سارت الغالبية في العتمة، على الشخص ألا يتباطأ لأي سبب من الأسباب وإلا سقط وأسقط معه من خلفه، عليه فقط يقتفي أثر الذي أمامه اعتماداً على أصوات أقدامهم وهي تمشي على الحصباء، ذلك الصوت المميز الذي لا صوت سواه وصداه، كلما اتجهنا نحو الداخل أكثر أصبح المكان خانقاً وكأن شيئاً ما يضغط على الصدر، بقيت انظر في تلك الحجارة التي يضيئها الهاتف بضوءه الأبيض، سألت الدليل:

- هل تبقى الكثير؟

- خمسة دقائق؟

بعد نصف ساعة ظهرت نقطة بيضاء تعلن نهاية النفق، أطفأ الدليل ضوء هاتفه وأخذنا نتجه إلى تلك النقطة التي أخذت تكبر ببطء شديد، لفحنا هواء بارد حينما أصبحنا في الخارج، وعلى الفور انتقلنا إلى نفق ثان وثالث وفي نهاية الرابع كانت السكة تكمل طريقها على السفح، اتجه الدليل إلى المنحدر الذي يؤدي نحو إحدى القرى، جلس على الأرض وأزلق نفسه على الثلج نحو الأسفل، ومن ثم تبعته والبقية، كلما نزلنا أكثر أصبحت القرية أوضح، وصلت عربة أضاءت مصابيحها لأقل من دقيقة ومن ثم توقفت أمام مدخل القرية، وعلى الفور اتجهت إليها مع الدليل، الذي جلس في الخلف، وعندما صعدت معظم المجموعة، بقي هناك حوالي خمسة مازالوا في طريقهم إلينا، ضرب الدليل يده على مقصورة العربة لتنطلق بدورها مسرعة مبتعدة عن القرية، جاءت أصواتهم وهم ينادون لكن الدليل لم يستجيب لهم وقال:

- لقد أخبرتهم أنه لا مجال للتأخير ... عليهم أن يتدبروا أمرهم.

بدأنا تفتقد تلك القماشة التي كانت تغطينا، فعلى الرغم من صغر حبات الثلج إلا أنها أخذت تجتمع فوق رؤوسنا وعلى أكتافنا، سرعان ما كانت تذيبها الأنفاس المنهكة فتتحول إلى ماء يبلل الثياب ومنها عن طريق الثقوب والشقوق نحو الداخل، أو تكمل طريقها إلى قعر العربة المتجمد ليزداد الأمر سوءاً، لم نعد نسمع أصوات رفاقنا المتأخرين، كانت الوجوه المعطوبة من حولي متعبة منهكة، رفعت رأسي نحو الأعلى، لم يظهر من أعلى سور العربة إلا سطوح بيوت القرى المغطاة بمادة فضية تضيئها أعمدة إنارة بمصابيح

صفراء وتظهر أيضاً ندف الثلج المتساقط بغير انتظام من وقع الرياح، سمعت صوت أحدهم يجلس خلفي يسألني:

- اسأل الدليل هل سنتجه إلى العاصمة أم إلى مدينة أخرى؟

- عن أي عاصمة تتكلم؟

- نحن الآن في الأناضول، أليس كذلك؟

سكت قليلاً، وقد وجدت في سؤاله سبباً لتفاؤل بعض الوجوه، لم أشأ أن أجيبه وأخيب أمله، لكنه عاد وقال:

- لماذا سكتَ؟ لقد سألتك سؤالاً!

- ما نزال في فارس.

وبعد صمت قال: " لكننا قطعنا جبالاً!

- لو رفعت رأسك قليلاً ونظرت إلى أعمدة إنارة القرية، لوجدت بعضها قد زيَن بعلم فارس.

خيَبت تلك الإجابة أمله بعدما ظن أننا قد قطعنا المرحلة الأصعب من الرحلة، اجتزنا عدة قرى أخرى وصولاً إلى مكان، توقفت فيه فجأة العربة، وقف الدليل ونادى أن ننزل بسرعة، في تلك اللحظة وصل السائق ومع رجل أخر وبدؤوا بضرب من ينزل وهم ينادون " لماذا تأخرت ... انزل بسرعة " خلق ذلك حالة من الخوف جعلت البقية يقوم بالتدافع أثناء النزول، سقط اثنان من السمر على الأرض وقد أصبحوا سبباً في سقوط عدد أخر فوقهم، تداخلت أصواتهم بين متألم ومستاء، تسلقت سور العربة وأنزلت نفسي نحو الخارج بحذر، لكن الثلج حال دون ثبات أقدامي على الأرض، فسقطت أرضاً لكني سرعان ما نهضت وسحبت ساقي اليسرى القريبة من الإطارات الخلفية للعربة، لم يتجاوز الأمر سوى عدة دقائق أو أقل لتغادر العربة المكان، بدأت اسير مع الدليل المسرع الذي لم ينتظر أحداً من أولئك الذين سقطوا ومازالوا يعانون من وقع ألم السقوط وسقوط البعض عليهم، اتجه بنا صوب قرية قريبة كانت بيوتها مبنية بشكل متدرج أسفل سفح الجبل، حينما مررنا على الطريق الذي يقع أمامها، قال الدليل:

- كن سريعاً أيها المترجم.

- بالطبع.

- إذا استطعت ان تركض ... فافعل ذلك.

- لهذه الدرجة! ... ماذا هناك؟

- ستنضمون إلى مجموعة أخرى هي الآن بانتظاركم، لتنطلقوا سوية إلى أول قرية في الأناضول.

- تمام ... لكن لماذا الركض؟

- سيكون عددكم حوالي مئة شخص والحافلة التي ستأتي لن تحمل سوى الأربعين في أفضل الأحوال ... الأناضول من نصيب من يصل إلى الحافلة أولاً.

- الآن فهمت ... إلى أي نقطة سترافقنا؟

- إلى نهاية هذه القرية فقط.

- كيف سنكمل طريقنا بدون دليل؟

- الطريق مستو وواضح ... سأتصل بعد قليل بالحافلة لتكون في انتظاركم.

وفي نهاية القرية كان بانتظارنا أكثر من مئة شخص جلهم قد آتوا من مدن وقرى هندوكوش، اجتمعنا في مجموعة واحدة ومن ثم سار معنا الدليل لبضعة مئات من الأمتار حتى يوهم الجميع أنه يقودنا، اختفى فجأة من بيننا حتى أن معظمنا لم يشعر بذلك، أخذت المجموعة تسير من تلقاء نفسها.

كانت المجموعة كبيرة، يسير كل واحد فيها وهو يقول في نفسه " إذا ما حلَ مكروه، أصاب الجميع وأنا من بينهم ... فلا خوف إذاً " أما السبب الثاني لعدم انتباه أحد والسؤال عن الدليل هو أن الطريق الذي نسلكه كان سهلاً لا جبال فيه، سوى تلك التي تحيط بنا من الأطراف، وهي تبعد بضعة أميال من كل طرف، أما الأرض فهي ترابية مغطاة بالثلج، رغم ذلك بدأت مجموعة هندوكوش في التقدم علينا، لقد أصبحت مقدمة مجموعتنا تختلط مع مؤخرة مجموعتهم، لا شك أنهم يحاولون للمرة الأولى أو الثانية، فثيابهم نظيفة ووجوههم عليها أثار الصحة والراحة، وبعد عدة ساعات من السير بدأت أضواء القرية في الظهور، توقفت المجموعة الأولى بانتظار وصولنا إليهم، لم يجلس أياً منهم , فلم يكن هناك مكان للجلوس أو وقت لذلك، انتظرونا خمسة دقائق أخرى قبل أن يتكلم عدد من

رجالهم كلام ما ليكملوا بعدها السير، ما كان لهم ان يظهروا تلك الشهامة لو أنهم يعلمون أن الحافلة لن تحمل إلا عدداً محدداً منا جميعاً، عندما اصبحنا على مشارف القرية تقدمت إلى أن أصبحت ضمن المقدمة، سرنا إلى أن أصبحنا في الشوارع الأول من القرية، كان المكان هادئاً سوى من أصوات بعض الكلاب، بدا الجميع حائراً ولا يدري ماذا سيفعل! همس البعض فيما بينهم، أين الدليل؟ أين الحافلة؟ جلست في مكاني حائراً ومفكراً فيما سيحدث، وقف رجل من المجموعة الأولى يرتدي معطفاً أسوداً له ذقن أسود كثيف، وأشار إلى شابين أن يرافقاه، حينها جلس البقية، انطلق الثلاثة نحو داخل القرية بحثاً عن الحافلة والتي من الممكن أن تكون في مكان ما هناك، بعد عشرة دقائق سمعنا أصوات ركض، فجأة ظهر أحد الشابين، عندما ظهر لنا نادى بخوف كلمة جعل الجميع ينهض ويهرب، ظهر الرجل ومعه الشاب هذه المرة، كان الرجل قد رفع المعطف بيده وهو يركض وقد ظهر كامل البنطال الأزرق الذي يرتديه، كان يلحقهما ثلاثة جنود وهم يصوبون البنادق نحوهم، لكن حينما شاهدونا حتى دهشوا من ذلك، توقف اثنين منهم ومن بعدها الثالث، الذي قام بتلقيم البندقية ورفع مقدمتها نحو الأعلى وأطلق بضع رصاصات، للحظة وقفوا وهم لا يدرون ماذا سيفعلون مع هذا العدد الهائل! أصبحنا خارج القرية، عاد الجنود ولحقوا بنا، هذه المرة بدؤوا بإطلاق النار في الهواء وبشكل كثيف وكأنهم في معركة، لقد ابتعدنا عنهم كثيراً، عدنا للمشي بدلاً من الركض، خرجت عربة عسكرية من القرية وجاءت نحونا، ركضنا مجدداً، اقتربت العربة منا بسرعة متوسطة وهي تحافظ على مسافة معينة بيننا، إلى أن توقفت في مكانها بعد أن أطمئنت أننا أصبحنا بعيدين عن القرية.

عدنا أدراجنا نحو فارس مجدداً، ومع ساعات الصباح الأولى أصبحنا في القرية التي انطلقنا منها، وإذا بالدليل يقف هناك بانتظارنا، وما أن وصلنا إليه حتى لكمه الرجل صاحب المعطف على انفه مما جعل الدم يسيل منها، وضع يده أسفل فمه ومن ثم مد يده إلى جيبه واخرج خرقة بيضاء ووضعها على أنفه لتمتص الدم، تكلم بصعوبة مع الرجل بضع كلمات ثم اخرج الهاتف واتصل بأحدهم: لقد عادوا ... الآن ... لا تنسى. اقتربت منه وسألته:

- أين الحافلة التي وعدتنا بها؟
- وجود دورية للجيش لحظة وصولكم للقرية حال دون ذلك.
- وماذا سنفعل الآن؟

- ستبقون هنا إلى الليل لتحاولوا مجدداً ... لقد أوصيت بأن يأتوا لكم بالطعام.

- لقد اتفقنا مع الأستاذ أنها المحاولة الأخيرة.

رفعت صوتي وسألت رفاقي:

- يقول إننا سنحاول مع بداية الليل ... ما هو رأيكم؟

تذمر الجميع من ذلك ورفضوا كلامه، ارتفعت الأصوات التي تدعوا أن نسلم أنفسنا للجيش أو الشرطة حتى يعيدونا إلى نينوى، وصل شابان إلى المكان يحمل كل واحد منهم كيس كبير من الخبز الجاف فقط، نادى الدليل وقال:

- لقد وصل الطعام.

نادى شاب من مجموعتنا وقال:

- لا مجال لمحاولة ثانية، لا طريق الآن.

- إلى متى سنبقى في هذا العذاب المتكرر. أضاف أخر.

- علينا أن نخرج من هذه القرية إلى أن نعثر مخفر للشرطة أو نقطة للجيش. اقترح أحدهم، وقد وجدت هذه الفكرة قبولاً وعلى الفور تركنا المكان وعدنا أدراجنا، وقف الدليل والمجموعة الثانية ينظرون إلينا دون أن يتكلموا.

خلال المرور من القرية، كان القرويون بانتظارنا حيث وقفوا أمام بيوتهم وعلى مقربة من الطريق وفي لحظة المرور من أمامهم بدأت الشتائم تنهال علينا خاصة من الأطفال، أما الكبار فقد وقفوا ينظرون ويتكلمون فيما بينهم والبعض الأخر توجه بالكلام إلينا:

- ماذا تفعلون هنا؟ " سأل رجل عجوز وإلى جانبه امرأة عجوز قد شمَرت عن ساعدها.

- ابتعدوا من هنا بأقصى سرعة. أضاف رجل عصبي.

أغلق حوالي سبعة أطفال أنوفهم بالضغط عليها وقال أكبرهم: قذرين ... ستجلبون لنا الأمراض. رمت إحدى النساء عدة حجارة نحونا، ومن دون اتفاق سابق، انحنى معظمنا وحمل قدر ما يستطيع من الحجارة وبدأنا نرمي على أهالي القرية، خاصة من تكلم منهم، انطلقت الحجارة صوبهم وقد صدموا من ذلك، دخل معظمهم إلى بيوتهم والقليل بدأ

المقاومة بالرد بالمثل، لكن كثافة الحجارة التي أصبحت موجهة في معظمها نحو المقاومين جعلتهم يحتمون خلف الجدران أو تلال قطع الخشب الصغيرة، أثناء ذلك جاءت سيارة سوداء مسرعة صوبنا إلى أن توقفت أمامنا، نزل منها رجل في الخمسين من العمر وسأل بغضب:

- ماذا يحدث هنا؟

أجاب البعض بغضب لكنه لم يفهم شيئاً، عاد وكرر سؤاله، فأجبته على الفور:

- ألا يوجد في هذه القرية مركزاً للشرطة؟
- لا يوجد ... لكن لماذا الشرطة؟
- نريد أن نسلم أنفسنا لهم حتى يتم إعادتنا إلى نينوى.

استدر واشار بيده إلى مكان يبعد عدة أميال من القرية وقال: هناك نقطة عسكرية تابعة للجيش، اذهبوا إليهم.

عندما ترجمت ذلك للبقية، طاروا فرحاً، اقترب الطبيب من الرجل وقبله من رأسه، فأبعده الرجل ليعود إلى سيارته ويتجه بها إلى داخل القرية، بدا بوغا غير مرتاح لقرارنا النهائي، قال بارتباك:

- علينا أن نعيد المحاولة وللمرة الأخيرة خلال هذه الليلة ... ربما سنصل إلى الأناضول.

جاءه سيل من الإجابات الرافضة، لكنه عاد وأضاف: لا أحبذ أن نسلِّم أنفسنا لهؤلاء الظلَام.

أجابه أحدهم: أن نُسجن ونفقد خصيتنا أهون من الموت من الرصاص أو الثلج. ومن ثم بدأنا السير نحو النقطة العسكرية التي وصلناها بعد ساعة تقريباً، كان المكان عبارة عن تقاطع لسكك حديدية محاطة بأشجار كثيفة، إلى جانب التقاطع هناك غرفة صغيرة لها شباك صغير بزجاج مزخرف يحجب الرؤية نحو الداخل وعلى مقربة من الباب لوحة كبيرة تحمل صورة قائد عسكري يرتدي بذلة عسكرية كحلية وقد كتب اسفل الصورة " الشهيد القائد " ومن ثم اسمه، وبالقرب من الصورة لوحة زرقاء كبيرة قد كتب عليها أسماء أربعة دول منها الأناضول وثلاث دول أخرى مطلة على بحر قزوين. عند الاقتراب من الغرفة اتفقنا أن ننادي بصوت واحد " برادار " وعندما أصبحت المسافة

بيننا وبين الغرفة عدة أمتار نادينا الكلمة التي اتفقنا عليها، عدنا وكررنا النداء عدة مرات إلى أن فُتح باب الغرفة وخرج منها جندي مسلح ببندقية، ثم خرج واحد أخر عقبه، رفعنا أيدينا نحو الأعلى مستسلمين لهم، نظر الجنود بذهول إلينا ثم سأل الجندي الأول: " ماذا تفعلون هنا؟

لم أشأ أن يعرف الجنود أني المترجم، فحركت رأسي مع البقية، أي لا نفهم ما يقوله، أجاب البعض " بوليس ... بوليس " يبدو أن الجندي قد فهم المقصد، فهرع إلى الداخل، طلب الجندي الثاني وعن طريق الإشارة بالبندقية أن ننزل أيدينا، ففعلنا ذلك، بعد عدة دقائق خرج الجندي الأول من الغرفة ومثل بيده اليمين على شكل هاتف وأضاف: الشرطة على الطريق. ثم أبعدونا عن الغرفة مسافة مئة متر، أشاروا أن نجلس تحت الأشجار ريثما تأتي الشرطة ليعودا بعد ذلك إلى الغرفة، لم يطل الأمر سوى نصف ساعة حتى وصلت إلينا سيارة حمراء وهي تضيء أضواء حمراء وزرقاء من مصباحين مثبتين على مقدمتها بدلاً أعلى السيارة تماماً كبقية سيارات الشرطة!

نزل رجل خمسيني يرتدي بذلة سوداء ويحمل جهاز اتصال لاسلكي بيده اليمنى ومعه جندي يرتدي بذلة عسكرية بتمويه صحراوي مسلح ببندقية، اتجه الرجل إلينا وقال بصوت واثق:

- ما شاء الله ... ما شاء الله ... الحمدالله على سلامتكم.

فرح الجميع بوصولهم حيث الخلاص من عذاب المهربين، لكني لم ارتح لهيئة السيارة، فهي تشبه سيارة الشرطة لكنها لا تحمل أي كتابات أو لوحة تؤكد أنها تابعة لهم، نظرت إلى بوغا فوجدته يراقب المكان من حوله، أضاف الرجل:

- اريد مترجماً ... أين المترجم؟

ومن فرحه نهض المترجم صاحب اللحية الصفراء وقال: أنا هو.

- أنتم الآن في آمنا ... ستأتي بعد قليل العربات لتنقلكم لأقرب مركز شرطة ومنها إلى الحدود لإعادتكم من حيث جئتم.

عندما ترجم الشاب ذلك للبقية زادت الضحكات والكلام المتفائل، فجأة هرب بوغا من المكان واختفى بين الأشجار، حاول الجندي المسلح أن يلحق به، لكن الرجل أثناه عن ذلك بحركة من يده!، وصلت عربة زرقاء وهي من نفس نوع عربة ميد، قام الرجل بتقسيمنا إلى مجموعتين، صعد أول عشرين شخص إليها، كنت متردداً في الهرب أيضاً، لكني

سألت نفسي " إلى أين؟ " صعد الرجل والجندي إلى السيارة الحمراء التي رافقت العربة الزرقاء وهي تغادر المكان، بعد نصف ساعة وصلت عربة زرقاء ثانية فصعدنا نحن المتبقين إليها، عندما ابتعدت مسافة أقل من ميل من مكان جلوسنا ظهرت من خلال ثقوب الباب الخلفي عربة زرقاء ثالثة خلفنا، زادت عربتنا من سرعتها لكن العربة الجديدة كانت أسرع، فاقتربت وضربت مقدمتها بمؤخرة عربتنا، نهضت من مكاني ونظرت إلى هذه العربة التي اصطدمت بنا وإذا بميد سائقها وإلى جانبه أخاه كيم يحمل مسدساً فضياً بيده، ما أن رآني كيم حتى أشار بمسدسه أن أقفز من العربة، أعاد الحركة عدة مرات وهو غاضب، شدني أحدهم وأجلسني في مكاني وقال : اجلس يا رجل ... ماذا تفعل!

- إنه كيم يدعوني أن أقفز من العربة!
- لا تسمع كلامه ... يريد أن يعيدنا إلى سجنهم مجدداً.
- كيف يجرؤ على ضرب عربة تابعة للشرطة؟
- لا أعلم ... اجلس واسكت.

عادت عربة ميد وكيم الاصطدام بعربتنا ثم جاء صوت رصاصتين أطلقها كيم من مسدسه، استلقينا في مكاننا حتى لا تصيبنا الرصاصات، جاء الاصطدام الثالث فاهتزت له عربتنا بعنف، كان البعض يبكي من الخوف وهم يتضرعون إلى الله أن ينجيهم من هذا العذاب، بعد قليل اختفت عربة ميد من خلفنا، لم أجرؤ على النهوض ورؤية ماذا يجري خلف عربتنا، لقد تداخلت الأمور عليَ، نقطة للجيش وسيارة تشبه سيارة الشرطة، عربات زرقاء وعربة ميد! ماذا يجري هنا، لكن الشيء المؤكد أن أمراً ما ليس لصالحنا قد جرى، بعد ربع ساعة تشجعت ونهضت، راقبت المكان من حول العربة، وإذ بالسيارة الحمراء خلف عربتنا ترافقها وبداخلها الرجل والجندي، ومن حولنا أراض زراعية، أي أننا في منطقة ريفية، استمر الوضع كذلك عدة ساعات إلى أن توقفت العربة في مكان ما ضمن إحدى القرى، عندما فُتح الباب الخلفي ظهر شابان والرجل صاحب جهاز الاتصال اللاسلكي الذي ظل واقفاً خارج السيارة الحمراء يراقبنا، نادى أحد الشابين وهو يحمل عصاً بيده: " انزلوا يا حثالة ... ماذا تفعلون في بلادنا؟ "، بدأ الجميع بالقفز من العربة وهم مذعورين، انهالت ضربات العصي بشكل عشوائي، كان نصيبي ضربة عصا واحدة على كتفي الأيسر، ومن العربة دخلنا إحدى بيوت القرية، ومن باب البيت إلى أول غرفة مروراً بساحة ترابية كان ثلاث رجال بانتظارنا مع عصيهم التي انهالت علينا، حاولت أن اتوسط المجموعة أثناء الركض نحو الغرفة، لكن ذلك لم يمنع وصول إحدى العصا إلى

ظهري، كانت كل ضرباتهم تتركز على منطقة الظهر، وفي داخل الغرفة أو الحظيرة قبل بدأ التفتيش سأل الرجل:

- أعطونا ما لديكم من مال ... الويل لمن يخفيها.

وأضاف أحد الشبان: بانتظاركم الآن تفتيش دقيق ... لن يخفى علينا شيء.

لم يجدوا جواباً لسؤالهم عن المال، أشار الرجل أن يبدأ التفتيش الذي كان دقيقاً تماماً مثل تفتيش شرطة هيلاس، لم يبقى مكان في الجسم وإلا قاموا بالبحث فيه، داخل حذاء أحد الشبان السمر وجد المفتش شيئاً، اخذها وأكمل التفتيش، وحينما انتهى امسك الأسمر من كتفه وقال للرجل:

- لقد عثرت في حذاء على المال.

سأل الرجل ذلك الأسمر: " لماذا كنت تخفيها؟

لم يفهم ما قاله الرجل، فأشار له هذا الأخير أن يجلس في مكانه، فجلس، اقترب الرجل وعن طريق كعب حذاءه سدد ضربة إلى طرف وجهه، جعل الشاب الأسمر ينقلب أرضاً وهو يصيح من الألم، وفيما يصيح وهو ممد على الأرض بصق لعاباً ممزوج بالدم بصعوبة وهو يأن، أمر الرجل بحمله إلى " الغرفة الثانية " فتم سحله إليها، جاء صوته وهو يتعرض للضرب، خضم ذلك اتجه الرجل إلينا وقال:

- هذا مصير كل من يكذب علينا ... اخرجوا المال بسرعة. وهو يشير إلى المال عن طريق ضرب جيب سترته الخارجي ضربات خفيفة، لكن يبدو أن سياسة التخويف قد أتت أكلها، على الفور خرج أربعة وسلموا ما لديهم من مال للرجل، التي استلمها من أيديهم وهو يهز رأسه، توقف صوت ضرب رفيقنا، وأثناء اخراجنا من الحظيرة إلى غرفة أخرى بعد التفتيش، جاء صوته مجدداً وهو ينادي بشكل جنوني!

داخل الغرفة التي نقلنا إليها كان رفاقنا ممن نقلتهم العربة الزرقاء الأولى يجلسون بداخلها، لقد نهضوا وبدؤوا بمعانقتنا فرحاً باجتماعنا مجدداً، جاؤوا برفيقنا الأسمر ورموه أمامنا، حمله البعض حملاً بالأيدي ومددوه على الأرض بعد ان صنعوا له فراشاً وسادة من عدة سترت، وقف الرجل أمامنا وقال:

- لن تخرجوا من هنا قبل أن يدفع الواحد منكم مبلغ أربعة آلاف ... وإلا السجن ومصير هذا. أشار إلى رفيقنا الممدد، ثم غادر المكان، أقفل علينا الباب ومن ثم رحل الحارس.

قال الطبيب بعد أن فحصه: لقد كسروا أربعاً من أسنانه وصعق بالكهرباء بالإضافة إلى الكثير من الرضوض.

- لقد جعلوا من هذا المسكين عبرة للجميع. قلتُ.

- أين نحن ومن هؤلاء وماذا سنفعل؟ سأل أحدهم.

لقد علمت لاحقاً أن جنديي تقاطع السكك الحديدية قاموا ببيعنا لإحدى العصابات، التي قامت بخطفنا بهدف دفع المال مقابل اخراجنا، لقد قام الدليل بإبلاغ ميد وكيم أننا في طريقنا إلى تسليم أنفسنا للجيش، فجاؤوا حتى يمنعونا من ذلك، لكنهم عندما وصلوا وجدونا في قبضة العصابة، حاولوا تحريرنا في بداية الطريق عندما أشار لي كيم بمسدسه أن أقفز، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك.

وبعد انتظار عدة أسابيع داخل ذلك السجن أملاً أن يتم إطلاق سراحنا، شعرتُ باليأس ولم أجد طريقاً للخلاص سوى بدفع المال، وفي إحدى الأيام طلبت من الحارس الذي كان يأتي لنا بالبيض المسلوق أن استخدم الهاتف حتى أعد المال اللازم للخروج من هنا، اقتادني إلى أحد الرجال الذي كان ينتظرني داخل الحظيرة، هناك ناولني الهاتف، اخرجت الصفيحة التعريفية من حول عنقي وسجلت رقم ميلا في الهاتف وبدأت مراسلتها، لقد كانت شديدة الحزن لانقطاع أخباري طيلة تلك الفترة، وأيضاً فرحت حينما علمت أني بخير، لم يكن لدي الوقت لأجيب عن أسألتها , طلبت منها أن تضع أربعة آلاف في مكتب التأمين وأن ترسل لي رقم ماد، قمت بتسجيل رقمه لكنه لم يكن متصلاً لحظة مراسلته، تركت له رسالة قلت فيها

- سافر يا أخي ولا تنتظرني، لم يعد لدي من المال لأصل إليك، احزم حقيبتك وأكمل طريقك نحو الشمال، يبدو أنه ليس لي إلا التعب والأحلام.

أعدت الهاتف وعدت إلى الغرفة، انتظرت أسبوعاً أخراً حتى دفع المترجم صاحب اللحية الشقراء وشاب أخر المبلغ المطلوب، حينها قرروا إعادتنا نحن الثلاثة إلى نينوى، وفي إحدى الليالي تم نقلنا بواسطة سيارة إلى إحدى القرى الحدودية ومعنا دليلين صغيرين،

عدنا للجبال مجدداً حيث الصعود والنزول إلى أن ظهرت أضواء بعيدة حينها توقف الدليلين وقال أحدهم:

- تلك أضواء أول قرية تتبع لنينوى. ثم مد يده إلى جيب بنطاله وأخرج هاتفاً صغيراً وقال:
- سأتصل الآن بشرطة القرية لأخبرهم أنكم في طريقكم للقرية حتى يرسلوا دورية لتلقي القبض عليكم ... ذلك أفضل لكم.

شكرناهم على ذلك ومن ثم عادوا هم لفارس أما نحن الثلاثة اتجهنا إلى القرية سيراً على طريق طينية، كان المكان مظلماً وموحشاً، كنا نمشي بوهنٍ، حاولت أن اتبين معالم الطريق جيداً وأنا أمشي، لكن معظم تفاصيلها لم تكن واضحة أمامي، لقد كسروا النظارات التي كانت تساعدني على الرؤية، ناديت على رفيقي اللذان ابتعدا عني قليلاً نظراً لبطئي " انتظروني ولا تتركوني وحيداً خلفكم ... فأنا لا أرى جيداً " وقفا بانتظاري إلى أن وصلت إليهما، حينها توسطهما ووضعت كل يد على كتف أحدهم، إلى أن نزلنا من الجبل الكبير ووصلنا إلى بداية القرية، كانت عربة عسكرية بانتظارنا وهي تضيء بمصابيحها الأمامية والحمراء الخلفية، وقف ثلاث جنود ملثمين بانتظارنا، إلى أن أصبحنا أمامهم، أشاروا أن نصعد لخلف العربة، أما هم فقد صعدوا إلى المقدمة، خرج أحدهم و أعطانا بطانية لنلتحف بها، ثم عاد إلى مكانه وانطلقت بنا العربة خلال القرى، بقيت أراقب الجبل الكبير ونحن نبتعد عنه، كلما ابتعدنا أكثر، تلاشت أحلامنا أكثر، مررنا بالعديد من الحواجز، بعض الجنود كانوا يقومون بتصويرنا عن طريق هواتفهم وهم يتكلمون عن حالنا، سمعت أحدهم ينعتنا " رجال الكهوف " والبعض الأخر اكتفى بالمراقبة، وفي مركز للشرطة داخل إحدى البلدات القريبة، تم وضعنا في السجن دون أن يغلقوا الباب علينا، جاؤوا لنا بالطعام، والذي كان فاصولياء بيضاء مع لحم دجاج بالإضافة إلى الرز، لقد أكلنا كثيراً، بينما وقف أحد عناصر الشرطة أمام الباب وهو يراقبنا! إلى أن انتهينا، غاب الشرطي ليظهر بعدها ومعه الشاي وعلبة بسكويت كبيرة و عدة علب تبغ، كان عيداً فعلاً، وبعد الانتهاء من كل هذه الأطعمة والأشياء تم أخذنا إلى رئيس المخفر والذي كان برتبة نقيب يجلس خلف طاولة فضية وإلى جانبه طاولة ثانية عليها حاسوب وخلفها شرطي، طلب منا أن نجلس ليأخذ معلوماتنا إلى أن انتهى من ذلك، أعطى للشرطي الثاني بعض المعلومات الذي بدوره طبعها على ثلاث أوراق ثم طلب مني أولاً أن انهض وامسك احدى الأوراق التي تحمل معلوماتي واقف بالقرب من الحائط

, قام بتصويري صورة أمامية وأخرى من الجهة اليسرى، فعل كذلك مع رفيقي، كتب النقيب عدة أوراق بمعلومات دون أن نعلم ماهي، وعند الانتهاء نظر إلينا وقال بهدوء:

- لقد حررت محضراً موجهاً للقاضي قلت فيها أننا ألقينا القبض عليكم في إحدى القرى الحدودية وأنتم تحاولونا الدخول لفارس ... محاولة عبور وليس تجاوز حدود وهذه مساعدة منا لكم، كونكم لاجئين.

في اليوم التالي كانت المحكمة، والتي لم تتعدى سوى جلسة منفردة مع القاضي وكاتبه في إحدى غرف المحكمة، سألني القاضي:

- لماذا تفتعل المشاكل وتشغل حرس الحدود؟ ... لماذا لا تحاول الوصول إلى الأناضول من بلاد غير هذه؟
- لقد جربت ولم يكتب لي النجاح.
- لا شأن لي في ذلك ... هل تعرف عقوبة فعلتك هذه؟
- لا أعلم يا حضرة القاضي.
- ثلاث سنوات من السجن ودفع غرامة مالية. قالها وهو يحمل كتيباً بيده اليمنى يبدو أنه قانون العقوبات، بينما الكاتب العجوز مشغول بالكتابة دون أن ينظر إلينا.
- سجن أخر!
- نعم هناك السجن.
- والآن؟
- قل لي أنت الآن ... هل ستعيد خطأك هذا وتعيد المحاولة؟
- لا أدري.
- سأعفو عنكم هذه المرة لأنكم لاجئين، لكني لن أرحمكم في المرة المقبلة ... اخرج.

بعد انتهاء المحاكمة تم إعادتنا للمخفر حيث بصمنا بأصابعنا العشرة على تعهد ألا نعيد المحاولة، تم إعادتي للمخيم، لقد عدت إلى خيمتي مجدداً وحيداً وخاسراً، كانت الخيمة فارغة تماماً، عدت ولم أعد أملك سوى ذاكرة وخيمة وحلم حياة أفضل.